

أين تُصنع ملابسنا؟

رحلةٌ حول العالَم لمقابَلة صنّاع الملابس

كيلسي تيمرمان

أين تُصنع ملابسنا؟

رحلةٌ حول العالَم لمقابَلة صنَّاع الملابس

تأليف
كيلسي تيمرمان

ترجمة
رشا صلاح الدخاخني

مراجعة
هاني فتحي سليمان



أين تُصنع ملابسنا؟

Where am I Wearing?

كيلسي تيمرمان

Kelsey Timmerman

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٥٢٩ ٧

المحتويات

إلى جميع صنَّاع الملابس التي أرتديها.
وإلى آني،
التي تَحرص على تناسُق جميع الملابس التي أرتديها.

شكر وتقدير

ربما تبدو رحلة تتبُّع ملابسي في جميع أنحاء العالم رحلة بحث فردية، ولكن بداية من البريق الأول لفكرة الكتاب وحتى الانتهاء من تأليفه، لم أكن بمُفردي على الإطلاق.

تتضاءل رحلتي في تأليف هذا الكتاب أمام رحلتي التي امتدَّت ١٦ عامًا مع آني، التي أُهدي إليها هذا الكتاب. قبل أن أسافر إلى هندوراس، كانت آني صديقتي الحميمة لفترة طويلة. وما بين فترتَي سفري إلى هندوراس وبنجلاديش، صارت خطيبتي. وبعد السفر إلى الصين، صارت زوجتي وأم طفلَينا الجميلَين: هاربر وجريفين. تمتلك آني مقدرة خرافية على الصبر. ضحكتها هي كل شيء بالنسبة إليَّ. وما زلت مدينًا لها بشهر عسل بعيدًا عن زيارة مصانع الملابس.

غرَّرتُ بأخي كايل ليرافقني في السفر إلى هندوراس. لقد أنقَذني من أفعى سامة مميتة في الغابة، ولكنه لم يَستطع أن ينقذ نفسه من قرصة ناموسة حاملة للطفيليات. وفي النهاية، أُصيب بالملاريا. وبعد حقنة في العمود الفقري، وقضاء بضع فترات قصيرة في مستشفيات في الهند وفرنسا، وعام من التعافي، صار بخير. (آسف، يا كايل.) وعندما تتحسَّن حالته الصحية، لا يوجد أحد أفضل من كايل لأشاركه ركوب زورق خشبي.

لن تُقابل في حياتك مطلقًا رجلًا عمليًّا أكثر من والدي؛ ففي سن الثامنة والعشرين، كان يمتلك شركة أعمال بناء وكان لديه طفلان؛ ومن ثم أن يكون لديه ابن — في الثامنة والعشرين من عمره — يسافر إلى بنجلاديش لأن ملابسه الداخلية صُنعت هناك لا تُعدُّ الفكرة التي ظننت أنه قد يدعمها ويشجعها، ولكنه فعل. إذا كان لديَّ ذرة من عمله الجاد وتصميمه ونزاهته، فأنا لديَّ ما يكفي.

قبل أن أطأ بقدمي أرضًا خارج الولايات المتحدة، كانت أمي هي من علمني أنه يوجد عالم أكبر بكثير. وكل أمٍّ وطفل قابلتهما مصادفة أثناء أسفاري كنتُ أنظر إليهما

بعينيها. كما أن عائلة أمي كانت داعمةً جدًّا؛ فلطالما زودتني خالتي كاثي بالصُّحف، وخالي راندي هو قارئ مخلص لمدوَّنة «ترافلينج لايت» منذ صدروها الأول، وجدي وجدتي ويلت يُشجِّعانِني دومًا على الخروج واستكشاف العالم.

والدا آني، جيم وجلوريا، موجودان دومًا لدعمنا والقيام بدوري حين أسافر إلى وجهة مجهولة لأُنجز مهمة مجهولة لا يعلمها إلا الله. وصراحةً آني تتمتَّع بالصبر.

اشترى لي ابن عمي، برايس، التي-شيرت المرسوم عليه شخصية «تاتو» الذي جعَلني أبدأ هذه الرحلة. وإن كنت سألوم أحدًا، فهو برايس.

لن يَحظى كابتن رالف شيارو بفرصة قراءة هذا الكتاب مطلقًا، ولكن بدون صداقته كانت حياتي ستسير على الأرجح، وكذلك الحالة بالنسبة إلى رحلة تأليف هذا الكتاب، في اتجاهٍ مُختلف تمامًا. وأنا مدين له بالكثير جدًّا، وأشعر بالأسى يعتصر قلبي كلما تذكَّرتُ فكرة أنني لن أحظى أبدًا بالجلوس — أنا وهو فقط — ومن أسفلنا يتدفَّق المحيط الأطلنطي، كي أشكره.

لو حَظِيَ الجميع بمعلمة لغة إنجليزية مثل معلمتي، لكان العالم مكانًا أفضل وأكثر التزامًا بالقواعد. ذات مرة قابلتُ أنا وكايل مصادفةً معلمتي اللغة الإنجليزية، ديكسي مارشال، في عرضٍ مسرحي، وقدَّمتْنا لأختها قائلة: «هذا كايل تيمرمان، واحد من أفضل تلاميذي على الإطلاق ...» ثم استدارت لي وقالت: «... وهذا أخوه كيلسي.» وعلى الرغم من ذلك، لم تيأس مني وواصلَت شرحها بعض قواعد النحو لي بعد مرور عقد من الزمن على آخر مرة جلستُ في حصتها. وأمعنَتْ في مراجعة مسوَّدة هذا الكتاب مرات لا تُحصى بقلمها الأحمر.

دعم فريق موقع Bootsnall.com فكرتي في مرحلة مُبكِّرة واستضافوا مدونتي: www.whereamiwearing.com. بدون دعمهم لم يكن ليعثر عليها على الأرجح الكثير من الأشخاص الرائعين الذين تصفَّحوا مدونتي بالصدفة. كان قراء مدونتي رائعين، وأنا مدين لهم جميعًا بالكثير؛ فأينما كنتُ، لم أشعر بالوحدة أبدًا.

ولولا كارين جونسون إستينسن، وكيلة أعمالي، ما كان هذا الكتاب ليصل إلى صندوق بريد ريتشارد نارامور، محرِّري بدار نشر وايلي آند صَنز. إذا سافرتَ إلى بنجلاديش لأن ملابسك الداخلية صُنعت هناك وعدتَ وألفت كتابًا عن هذه الرحلة، فأنت مؤلِّف. وإذا عدت ولم تؤلف كتابًا عن الرحلة، فأنت شخص غريب الأطوار بعض الشيء. والفضل يعود لكارين وريتشارد أكثر من أي شخص آخر في أنني أصبحتُ مؤلِّفًا.

وما كنت لأتمنى ناشرًا أفضل؛ ففريق العمل بدار نشر وايلي، بمن فيهم ليديا ديمترياديس وكيم دايمان وإيمي سيل وكريستين مور، كانوا داعمين لي بشدة. ولطالما أذهلني هذا القدر الكبير من الحماس والشغف والموهبة الذي يتمتَّع به لاري أولسون.

لقد أنجز جيه آر جاميسون من مؤسسة إنديانا كامبوس كومباكت مهمة خرافية بمقالته عن تعلم الخدمة المجتمعية. إنني أتطلَّع إلى المزيد من الحوارات معه عن التحول إلى سمة العولمة المحلية في المستقبل.

كانت دكتور نانسي بوش، من جامعة وينجات، كريمة بالدرجة الكافية لتُشاركني بأسئلتها النقاشية الرائعة. لقد عثرَتْ مصادفة على الطبعة الأولى من هذا الكتاب ومنحتْه لقب الأكثر قراءة في جامعة وينجات، وهي الجامعة الأولى التي تبنَّت هذا الكتاب بهذه الصفة. وأنا مدين لنانسي وجميع الأساتذة والإداريين بالجامعة الذين شاركوا طلابهم هذه القصة.

آشلي فورد، كاتبة شابة رائعة ومواطنة مؤثرة، فعلت المعجزات مع دليل الأسئلة النقاشية.

ولم أكن لأستطيع أن أسد الفجوة بين المُنتج والمستهلك لولا العمل الجاد وصبر المُترجِمين الذين استعنت بهم: إدواردو وجابرييل في هندوراس، ودالتون وروما في بنجلاديش وتشون وفالين وسيما في كمبوديا، وآنجيل وبينك ولوثر وهوانج في الصين.

قبل كل شيء، أنا مدين لأميلكار وعريفة وناري وآي وديوان وتشو تشون الذين سمحوا لي بدخول حياتهم وتحمَّلوا أسئلتي؛ فهذا الكتاب ملك لهم مثلما هو ملك لي تمامًا.

إننا جميعًا تَجمعنا شبكة من العلاقات التبادلية لا نستطيع الفكاك منها، حيث يَضمُّنا جميعًا نسيج القدر. هكذا، ما يُؤثِّر في الفرد تأثيرًا مباشرًا يُؤثِّر في الجماعة على نحو غير مُباشر.

مارتن لوثر كينج، الابن

تمهيد

أسفل منِّي يمتد البحر الكاريبي، ومن ورائي مغامرة حول العالم غيَّرت حياتي وأسلوب معيشتي، وأمامي تمتدُّ دولة هندوراس حيث بدأ فيها كل شيء قبل ست سنوات.

لقد تغيَّر وجه العالم منذ آخر مرة زرتُ فيها هندوراس ووقفت أمام المصنع الذي صُنع فيه التي-شيرت المُفضَّل لي.

خرجت الطبعة الأولى من هذا الكتاب إلى النور في نوفمبر ٢٠٠٨. على الأرجح أنت تذكر هذا الوقت باعتباره الوقت الذي فقدتْ فيه استثماراتك نصف قيمتها فجأةً. كما فُقِدَت وظائف أيضًا، وواصلت قيمة العقارات هبوطها الحاد. بعبارة أخرى: كانت فترة «رائعة» لنَشر كتاب.

ولعلَّ التحذيرات جاءت من جانب صديق ذي تسريحة غريبة يقول: «العالم يُشرِف على نهايته. من الأفضل أن تشتري كميات كبيرة من الأسلحة النارية والذهب لتأمين المستقبل! أوه، بالمناسبة هل سمعتَ عن هذا الكتاب الذي ألفه رجل يُدعى كيلسي تيمرمان، سافر إلى بنجلاديش لأنَّ ملابسه الداخلية تُصنَع هناك! الكتاب ثمنه ٢٥ دولارًا فقط! ذلك المبلغ يَعدل تقريبًا نفس المبلغ الذي فقدتْه محفظتك الاستثمارية في الدقائق الخمس الأخيرة.»

ارتفعت مبيعات الذخائر النارية في الولايات المتحدة بنسبة ٤٩ بالمائة، في حين انخفضت مبيعات الكتب بنسبة ٩ بالمائة، إلا أنَّ تأثير انهيار الاقتصاد أوسع نطاقًا بكثير من تأثير صناعة النشر وحياة الكتَّاب الذين يُؤلِّفون كتبًا لأول مرة. لقد أثَّرت الأزمة المالية العالمية على كل شخص التقيتُه أثناء رحلتي حول العالم لمقابلة صنَّاع ملابسي. ارتفعت أسعار الأغذية ارتفاعًا مفاجئًا. وفي تلك الآونة، اضطُرَّت عريفة، الأم العزباء لثلاثة أبناء التي التقيتُ بها في بنجلاديش، لإنفاق أكثر من نصف دخلها لشراء الأرز من أجل أسرتها.

وقَع أربعة وستون مليون شخص في براثن الفقر المُدقع؛ إذ عاشوا على دخل يقلُّ عن ١,٢٥ دولار في اليوم. وعانى أكثر من اثنين وثمانين مليون شخص من ويلات المجاعات.

انخفضت طلبات الشراء على كل شيء تقريبًا، وزاد مُعدَّل البطالة العالمية ليَصل إلى ٣٤ مليون عاطل. وأُغلق مصنع بنطلونات الجينز الأزرق الذي كانت تعمل به ناري وآي؛ وهما اثنتان من العاملات التقيتُ بهما في كمبوديا. وثمَّة تقارير أفادت بأن العاملات، وبخاصة اللاتي في مرحلة عمرية تَتراوح بين أواخر سن المُراهقة وأوائل العشرينيات، اتَّجهنَ إلى ممارسة البغاء. هل كانت ناري وآي وأُخريات التقيتُ بهنَّ في رحلتي ضمن هؤلاء؟

تغيَّرت خزانة ملابسي، ولكن ليس بنفس قدر ما اعتراني شخصيًّا من تغيير.

كنتُ قد تزوجتُ وأنجبت طفلَين بعد آخر مرة جلست فيها في طائرة متجهة إلى مدينة سان بيدرو سولا في هندوراس. وها أنا الآن أرى العالم بعيون الأب؛ عيونٍ تنساب منها الدموع عندما أُشاهد فيلم «حكاية لعبة ٣» (توي ستوري ٣) مع ابنتي هاربر؛ عيونٍ تَتطلع إلى مستقبل يتخطى حدود مُستقبلي؛ عيونٍ ترى المشهد على نحو أفضل بخصوص وضعي كمواطن محلي يَعيش في مسقط رأسه بمدينة مونسي في ولاية إنديانا، وبخصوص وضعي كمواطن عالمي. هذه الطبعة الثانية من الكتاب تَتناول بالأساس التضحيات التي يُقدِّمها الآباء والأبناء بعضهم لبعض على أمل توفير حياة أفضل. قبل أن أضع طفليَّ في الحسبان، لم أكن أرى العالم إلا بعيون الابن العنيد. غيَّرني إنجاب الأولاد، وكذلك غَيَّرَ الأمهات والآباء والإخوة والأخوات الذين التقيتُ بهم في رحلتي لتعقُّب مَنْ يصنع ملابسي وأين تُصنَع.

تحدثتُ مؤخرًا على خشبة مسرح إحدى الجامعات التي اختارت هذا الكتاب ضمن برنامج القراءات المفتوحة لطلاب الفرقة الأولى. قرأ جميع الطلاب المُستجدين الكتاب وناقشوه، وهي تجربة مُدهشة بالنسبة لي كمؤلف. فرضَتْ هذه الجامعة عليَّ ارتداء عباءة التخرُّج؛ رداء أشبه بعباءة هاري بوتر مزوَّدة ببطانة للكتفين، ولكن يَنقصها العصا السحرية. حاولتُ أن أُقنع الجامعة أن يَمنحوا المؤلف درجة الدكتوراه الفخرية بما أنهم جعلوه يَرتدي عباءة التخرج، ولكنهم لم يقتنعوا (ولو فعلوا لكنتُ تشكَّكتُ في نزاهتهم على أيِّ حال). شعرت بالسخف. وما إن وقفتُ بالفأرة على أول شريحة من شرائح العرض التقديمي، وكانت عبارة عن صورة طولية لفتاة تُدعى عريفة في بنجلاديش، حتى نسيت تمامًا المناسبة والظروف التي جمعتني بها.

عندما التقيتُ بعريفة في بنجلاديش، لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنه سيكون بإمكاني عرض قصَّتها على النحو الذي قدمتُه في الكتاب. لم يكن هناك شيء يَعِد بتأليف كتابٍ وخروجه إلى النور. ولكن ها أنا ذا أقف أمام ١٥٠٠ طالب وعضو من أعضاء هيئة التدريس، وجميعُهم يَعرفون اسمها كما يَعرفون قصتها. لقد وقفتُ على خشبة مسرح جامعات ومدارس ثانوية أخرى في مختلف أنحاء البلاد، ولم يملَّ الجمهور من قصتها مُطلقًا. وكان لي الشرف أن أَعرض قصتها وقصص جميع العُمال الآخَرين على جمهور القراء.

عندما اتصل بي ريتشارد، المُحرِّر الذي أعمل معه، يَطلب مني تحديث هذا الكتاب كنت بصدد تنظيف أسنان ابنتي بالفرشاة. سألني عما إذا كان لديَّ أيُّ أفكار جديدة بخصوص مادة جديدة مُناسبة للكتاب. ويحك، بالتأكيد لديَّ جديد!

لطالَما ساوَرني شعور بأن هذا الكتاب يَنقصه شيء. لقد بَدأتُ التجربة برمَّتها في هندوراس حين تتبعتُ المُلصق الموجود على التي-شيرت المفضَّل لي. في البداية، كانت هذه حُجة للسفر والترحال. قمتُ برحلات في الأدغال سيرًا على الأقدام، ومارستُ رياضة الغوص، وعلَّمتُ أهالي قرية بأكملها لعبة البيسبول. ولكني حين وقفت أمام المصنع والتقيت بأحد العاملين فيه ويُدعى أميلكار، كنتُ مُتخوِّفًا ومتردِّدًا تمامًا. لم أطرح الأسئلة التي رغبت في معرفة إجابتها: هل هذه الوظيفة تُوفِّر حياة أفضل لك ولأسرتك؟ كم الراتب الذي تَتقاضاه؟ وكيف تبدو ظروف العمل؟ وهلمَّ جرًّا. أظن في قرارة نفسي أنني لم أكن أرغب حقًّا في معرفة الحقائق الخاصة بحياة أميلكار، ولذا لم أسأل عن شيء.

لم أكن أدري أن ما بدتْ عليه حياة أميلكار أو حياة أي عامل آخر من عُمال تصنيع الملابس في مختلف أنحاء العالم أخَذ يشغل تفكيري فعلًا؛ ومن ثمَّ سحبتُ كومة من الملابس وشددتُ الرحال إلى بنجلاديش وكمبوديا والصين، ولكن في هذه المرة بهدف طرح الأسئلة التي رغبتُ في معرفة إجاباتها.

ولكن ماذا عن أميلكار؟ لقد بدأَت القصةُ كلها من عنده. وعلى الرغم من أن لديَّ فكرة أفضل نوعًا ما بخصوص ما قد تبدو عليه حياته، فإنني ما زلت لا أعرف حقًّا.

ولكنني الآن بصدد الاكتشاف.

كان بجَعبتي صورتان (٥ × ٧) لأميلكار غير واضحتَين؛ كان فيهما يرتدي التي-شيرت المصنوع في مصنعه ويَعلو وجهه ابتسامة تقول: «ها هو شخص أجنبي يَقطع كل هذه المسافة آتيًا إلى هنا كي يُعطيني هذا التي-شيرت، وها هو يقف إلى جواري

عاري الجذع بلا تي-شيرت!» الصورتان في حوزتي، كما أنَّني أعرف اسمه وأعرف المكان الذي كان يعمل فيه قبل ست سنوات. هذا كل ما في الأمر!

بالإضافة إلى تفاصيل رحلتي الاستقصائية عن أميلكار، أضفتُ في هذه النسخة تحديثات في نهاية كل قسم بخصوص ما تبدو عليه الحياة بالنسبة إلى العاملِين الذين استطعتُ الحفاظ على التواصُل معهم، وكذلك ما «قد» تبدو عليه الحياة بالنسبة إلى مَنْ لم أَستَطِع التواصُل معهم. ولقد أضفت أيضًا المزيد عن مغامراتي نحو التحول إلى مُستهلِك مُؤثِّر؛ تلك المغامرات التي أخذتني بعيدًا للسفر إلى إثيوبيا لزيارة مصنع أحذية هناك، وأخذتني قريبًا على بُعْد بضع بنايات من منزلي لزيارة متجر جودويل. ولقد ألقيتُ الضوء على عددٍ آخر من الشركات التي تُغيِّر وجه العالم تدريجيًّا، وأدرجتُ بضع نصائح جديدة لمساعدتك في رحلتك نحو التحول إلى مُستهلِك مُؤثِّر، وجمعت خطوطًا إرشادية لمناقشة فصلٍ بفصل لمساعدتك في توجيه مناقشات نادي القراء الخاص بك أو المناقشات الدراسية.

بصورة ما تُعد هذه المغامرة توضيحًا لما تعلمتُه من دراستي الجامعية. إن شهادة تخرجي مُعلقة على الحائط بمكتبي — فأنا حاصلٌ على درجة ليسانس آداب في علم الأنثروبولوجيا من جامعة ميامي — وقيمة الشهادة أقل من قيمة البرواز الذي يُحيط بها؛ وذلك لأنني لم أعمل بشهادتي مطلقًا. ورغم ذلك، فإن للفضول، الذي ألهمتْني إياه دراستي لاستكشاف العالم من حولي، والشعور بالتعاطف مع الآخرين الذي تعلمتُه من دراسة علم الأنثروبولوجيا، قيمة لا تُقدر بثمن؛ فقد ساعَداني على أن أهتدي إلى طريقي. ومع ذلك، أسترجع تجربة دراستي الجامعية وأنا أَشعُر ببعض الندم؛ ومِن ثم كتبتُ في نهاية هذا الكتاب جزءًا بعنوان «رسالة لي»، وهي بمنزلة رسالة تشجيعية قوية كنتُ أتمنَّى أن أتلقاها وقت أن كنت طالبًا مُستجدًّا. ونظرًا لوجود عدد كبير من الطلاب المُستجدين في جميع أنحاء البلاد يبدءون مشوارهم الدراسي في الجامعة بقراءة هذا الكتاب، فإنني أتمنَّى أن يستفيدوا منه.

لقد غيرتِ المغامرة التي خضتُها لتأليف هذا الكتاب من نظرتي للعالم ومن الطريقة التي أتبرَّع وأتطوَّع بها والطريقة التي أتسوق بها. ألهمني الأشخاص الذين التقيتُ بهم التغيير لكي أكون أفضل حالًا كجارٍ ومُستهلِك ومُتبرع ومُتطوع، وأفضل حالًا كذلك كمواطن (على المستويَين العالمي والمحلي). كما تعلمت أننا لا يمكننا دومًا السيطرة على تأثير القوى الخفية — مثل العولمة — على حياتنا، إلا أن بإمكاننا أن نُسيطر على تأثير حياتنا على العالم. وكل هذا بدأ بأميلكار في هندوراس.

جزء منِّي يَتمنى العثور على أميلكار، ولكنَّ جزءًا آخر لا يتمنى ذلك؛ إذ يُساورني القلق حيال ما فعلتْه السنوات الستُّ الأخيرة فيه. وأينما يكن الآن، فلقد بلَغ من العمر ٣١ عامًا، ولعله يعول الآن أسرة، ولعلَّه لا يزال يعمل في مصنع الملابس. لعله ولعله! شبح «لعله» يحوم حولي منذ ذلك اليوم الموعود عام ٢٠٠٥ حين التقيتُ بأميلكار أول مرة.

تَفحَّصت الملاحظات التي دوَّنتها سريعًا حين كنت في السادسة والعشرين من عمري، وحدَّقت في البحر الأزرق الممتد أمامي. ثم عدت لأُحدِّق في صورة أميلكار الفوتوغرافية ٥ × ٧ مرة أخرى.

ربما حان وقت الاستكشاف!

كيلسي تيمرمان

مقدمة

نرتديها جاهزة!

أنا صناعة أمريكية، أما ملابسي الداخلية — ماركة «جينجل ذيس» المطبوع عليها «أجراس الكريسماس» — فصُنِعَت في بنجلاديش.

قضيتُ طفولة أمريكية خالصة في ريف ولاية أوهايو، إلا أن جميع سراويلي الجينز الزرقاء — والمُميِّزة للثقافة الأمريكية الخالصة — صُنعت في كمبوديا.

كنت أرتدي بصفة يومية شبشبًا مطاطيًّا خفيفًا على مدار عام حين كنتُ أعمل مُدرِّبًا لرياضة الغوص بمدينة كي ويست، وكان هذا الشبشب المطاطي مصنوعًا في الصين.

وذات يوم وأنا أُحدِّق بكومة ملابس ملقاة على الأرض، لاحظت المكتوب على الملصق الخاص بالتي-شيرت المفضل لي، وجدت أنه مكتوب عليه: «صُنع في هندوراس.»

قرأت الملصق، وشردتُ بأفكاري، وتَمخَّضت هذه الأفكار عن ولادة رحلة للبحث.

أين تُصنع ملابسي؟ بدا هذا السؤال كما لو أنه سؤال بسيط ذو إجابة بسيطة، ولكنَّه في الواقع ليس كذلك.

ألهَمني هذا السؤال رحلة البحث التي قمتُ بها حول العالم. لقد كلَّفتني هذه الرحلة الكثير من الأشياء؛ كان أهمها براءتي كمُستهلِك؛ فقبل هذه الرحلة، كنتُ أرتدي الملابس دون قراءة المُلصقات الموجودة عليها ودون التفكير في عريفة في بنجلاديش أو ديوان في الصين أو التفكير في أبنائهما وآمالهما وأحلامهما والتحديات التي يُواجهانها.

أين تُصنع ملابسي؟ ليس سؤالًا مرتبطًا بالجغرافيا والملابس بقدر ما هو مُرتبط بصُنَّاع ملابسنا ونسيج حياتهم. هذه الرحلة تدور عن الطريقة التي «نعيش» بها والطريقة التي «يعيش» بها هؤلاء؛ لأنه فيما يتعلَّق بالملابس، يصنعها آخرون، ونرتديها نحن جاهزة. وثمة فارق كبير جدًّا بين الأمرين.

الجزء الأول

الغاية

الفصل الأول

رحلة مُستهلك إلى العالمية

أَجْرَتْ دفعة ١٩٩٧ بمدرسة ميسيسناوا فالي الثانوية تصويتًا وقع الاختيار عليَّ من خلاله للفوز بلقب «الفتى الأنيق». هذه المعلومة لا أُخبر بها الآخرين عادةً؛ لذا يجب أن تشعر بالفخر لأنني أخبرتُك بذلك. لكن لا تبالغ في إعجابك بي؛ لأن دفعة ١٩٩٧ كانت تتألَّف من ٥١ طالبًا، منهم ٢٩ فتًى فقط، كما أن ريف ولاية أوهايو ليس عاصمة الموضة على أيِّ حال.

كنت أتمنى الفوز بالجائزة تقديرًا لمجموعة التي-شيرتات الرائعة المطبوع عليها شخصيات مسلسل سكوبي دو ومغني الروك إريك كلابتون، ولكنَّني أعرف ما الذي جعلني أفوز باللقب؛ يَرجع الفضل في ذلك إلى ذوق والدتي التي كانت تختار ملابسي وأنا في المرحلة الإعدادية؛ حيث إنني كنتُ أرتدي بالأساس ملابس ماركة باجل بوي. لعلك لا تتذكر ماركة الملابس المعروفة باسم باجل بوي ولكنَّك تتذكر، على الأرجح، إعلانها؛ إذ تقود فتاة مُثيرة سيارة رياضية عبر الصحراء ثم تتوقَّف على الطريق لتسأل شابًّا قائلة: «معذرة، هل سروالك الجينز هذا من باجل بوي؟» كانت جميع ملابسي الجاهزة من باجل بوي آنذاك.

تتوقف معرفة مُعظم المُستهلِكين عند حقيقة شراء الملابس من المتاجر؛ فهم لا يرون سلسلة عمليات النقل والتصنيع التي تحدث قبل أن تصل السراويل إلى أَرفُف المتاجر. بل

كانت تأتيني الملابس في مرحلة مُتأخِّرة عن ذلك؛ حيث كنت أتلقى الملابس في صناديق الهدايا للتهنئة بالإجازات أو أعياد الميلاد، أو كانت تظهر بطريقة سحرية على فراشي وعليها ملاحظات لاصقة مكتوب عليها:

«كيلسي، جرِّب هذه الملابس وأخبرني إن كانت تُناسبك أم لا. ماما.»

لم أكن أهتم كثيرًا بالملابس إلى أن تُصبح مريحة تمامًا في ارتدائها من وجهة نظري — عندما تظهر الثقوب في السروال الجينز ويتحوَّل التي-شيرت الأسود إلى الرمادي — ثم يحين الوقت للتوقف عن ارتداء هذه الملابس على أيِّ حال. وإذا وصلت الملابس إلى هذه المرحلة البالغة من الراحة، فعادةً ما يَنشأ بيني وبينها نوع من الارتباط العاطفي وأَحتفظ بها في مكان سري.

كانت خزاناتي وأدراجي بمنزلة متحف لي.

في المرحلة الثانوية، أتذكَّر كاثي لي جيفورد، المذيعة المحبوبة للبرامج الحوارية النهارية، وهي تَصيح على شاشة التليفزيون أثناء مواجهتها للمزاعم التي ادَّعت أن مصنعها لإنتاج الملابس يَستغلُّ عمالة الأطفال في هندوراس. وأتذكر أيضًا أن مصنع ديزني لإنتاج الملابس تعرَّض لانتقادات مُماثلة، إلا أنني لم أكن أرتدي ملابس من أيٍّ من المصنعَين. في تلك الأيام، كنت أواجه مشكلات أكبر مثل إيجاد وقت لغسيل سيارتي المتَّسخة أو كيف سأطلب مُراقَصة آني، الطالبة النشيطة بالصف الثاني ولاعبة خط الدفاع وهدافة فريق كرة السلة ذات العينين البُنِّيتَين الواسعتين، في حفل الخريجِين السابقِين للمدرسة الثانوية.

كانت العولمة مشكلة دخيلة وكنتُ أجهلها لحسن الحظ. كنت أعرف أنها مشكلة قائمة وكنت أدرك أنني مُعارض لها. كان الجميع معارضين لها؛ فلقدْ فَقَدَ أصحاب والدي وظائفهم ومعاشات تَقاعُدهم حين أُغلقت المصانع أو اسْتُحْوِذَ عليها بالشراء. درَّاجات هافي التي كانت تُصنع في «مقاطعة» أمريكية بالشمال صارت في تلك الفترة تُصنع في «دولة» بالجنوب. انصبَّ اهتمامنا على شراء المنتجات الأمريكية، ومن أجل ذلك اشترينا من متاجر وول مارت؛ المتجر الأمريكي الخالص — الأمريكي حتى النخاع — بمنتجات أمريكية خالصة.

لم أكن أعرف شيئًا عن الجوانب الأخرى المرتبطة بالعولمة حتى التحقتُ بالجامعة. لم يكن الأمريكيون يَفقدون الوظائف وحسب بسبب الشركات غير الوطنية التي نقَلت نشاطها خارج البلاد، وإنما تعرَّض الفقراء — الذين احتفظوا بالوظائف — للاستغلال

أيضًا. كنا نجلس في تراخٍ على مقاعدنا بمُحاضرة مادة «مقدمة إلى علم الاجتماع»، نتحدث عن المصانع المُستغِلة؛ المؤسسات الصناعية الخبيثة والمُرهِقة والفاسدة والمهينة واللعينة. كانت منتجات نايكي سيئة الجودة، وفي فترة ما صارت شركة وول مارت غير أمريكية. شعرتُ حينها بأنني ذو أفضلية أخلاقية لأنني كنت أرتدي منتجات أسيكس. لحُسن الحظ، حقيقة أن شقتي بها مكتبة تليفزيون مصفَّحة ورخيصة الثمن اشتريتها من وول مارت لم تكن شيئًا يتعين عليَّ إخبار باقي الفرقة الدراسية به.

إن الحصول على درجة علمية في علم الأنثروبولوجيا واختيار التخصص الفرعي في الجيولوجيا أشعلا حماسي لمقابلة أناس، من مختلف الخلفيات الثقافية، يَعيشون في مناطق بعيدة تمامًا عن حقول ولاية أوهايو المنبسطة والمترامية الأطراف. وبينما كان زملائي يَستعدُّون لخوض مقابلات العمل كنت أحجز تذاكر الطيران. لقد رأيتُ العالم على صفحات الكتب الدراسية، وتلقَّيتُ محاضرات مطوَّلة عن هذا الأمر، ولقد حان الوقت أن أرى العالم بنفسي على أرض الواقع. استمرت الرحلة الأولى لمدة ستة أشهر، واستمرَّت كلٌّ من الرحلة الثانية والثالثة لمدة شهرين. عملت مُدرِّسًا لرياضة الغوص في مدينة كي ويست بولاية فلوريدا في الفترات التي كانت تفصل بين الرحلات.

تولَّد لديَّ حبٌّ للسفر ولم يَنطفئ وهج هذا الحب مطلقًا. لم يكن الأمر أشبه برغبة طائشة، بل أقرب لكونه ركيزةً ثابتة. لم أكن بحاجة إلى مُبرِّر للذهاب إلى أي مكان.

ثم ذات يوم، بينما كنت أُحدِّق في كومة ملابس ملقاة على الأرض، قلت في نفسي: «ماذا لو سافرتُ إلى كل الأماكن التي صُنعت بها ملابسي وقابلت الأشخاص الذين صنعوا هذه الملابس؟» لم يكن السؤال بمنزلة إلهام رائع هبط عليَّ من السماء أثناء التفكير في وضعي المحظوظ في السوق العالمية، وإنما كان سببًا آخر لأرحل وأُؤجل الالتزام بعلاقتي بآني، طالبة السنة الثانية ولاعبة فريق كرة السلة التي صارت صديقتي الحميمة لمدة ١٠ سنوات والتي أخذ صبرها يَنفد. سافرتُ لأنني بكل بساطة لم أرغب في أن أكبر فأتحمل المسئولية.

كنت أُخزِّن مؤن السفر والترحال — مثل الأشرطة اللاصقة ولفائف أوراق التواليت الصغيرة وأقراص تنقية مياه الشرب والأحذية والسراويل المُقاوِمة للماء للوقاية من لدغات الثعابين في الغابات والأحراش — حين التقيت صدفةً بزميل من المدرسة الثانوية يعمل في قسم مُستلزمات التخييم بمتجر وول مارت.

قال لي وعلى وجهه ابتسامة مُرحِّبة تشي بقضاء سنوات طويلة في العمل بمتجر وول مارت: «حسنًا، سمعتُ أنك تتسكَّع على الشواطئ الآن.»

ما الذي يمكنك أن تقوله لترد على هذا؟

سألني قائلًا: «ما وجهتك التالية؟»

قلت له: «هندوراس.»

فسألني: «وماذا في هندوراس؟ المزيد من الشواطئ؟» لقد تغيَّر لقبي من «الفتى الأنيق» إلى «مُتسكِّع الشواطئ».

قلت له: «كلا، إنها الدولة التي صُنع بها تي-شيرتي. سأزور المصنع الذي صنع التي-شيرت وألتقي بالأشخاص الذين صنعوه.» ثم أخبرته بالقائمة الكاملة لملابسي والأماكن الأخرى التي كنتُ أنوي زيارتها.

فرد قائلًا: «يا إلهي، ستزور المصانع المُستغِلة.»

كان هذا الرد الذي سمعته مرارًا وتكرارًا. فعندما تخبر شخصًا عاديًّا لديه وظيفة عادية أو لديه إيجار أو قرض عقاري وقسط سيارة بأنك تُنفق آلاف الدولارات لتُسافر إلى إحدى الدول لأنك تريد أن تذهب حيثما صُنع تي-شيرتك، في البداية يظن أنك مجنون، ثم بعد ذلك يقول لك على الأرجح شيئًا بخصوص المصانع المُستغِلة.

كنتُ أتفهم أن الأشخاص الذين صنعوا ملابسي لم يَعيشوا على الأرجح حياة مُترَفة، ولكنني لم أفترض تلقائيًّا أنهم يعملون في مؤسسات صناعية مُستغِلة. في الواقع، وجدت هذا الافتراض التلقائي مزعجًا جدًّا. وأغلب الأشخاص الذين تحدثت إليهم، وحتى أعضاء البرامج النقابية الأهلية الذين يُعدون تقريرًا عن فقراء العالم، افترضوا أن جميع ملابسي صُنعت في المصانع المستغلة. وبدا وكأنَّ الأمر مُسلَّم به: القائمون على صناعة ملابسنا يَتلقون أجورًا متدنية ومعاملة سيئة. ونظرًا لأن عددًا قليلًا مِنا يصنعون ملابسهم أو يشترون المُستعمَل أو يُنادون بالتعري، يبدو أنه ليس في مقدورنا القيام بشيء حيال ذلك، بل إننا لا نهتمُّ بالأمر حقيقةً. بالإضافة إلى ذلك وفَّرنا بضعة دولارات.

فيما يخصُّ التسكع على الشواطئ، كانت رحلتي إلى هندوراس ناجحة للغاية، ولكن فيما يخص السبب الذي سافرتُ من أجله إلى هندوراس، لم تكن ناجحة. ذهبتُ إلى المصنع وقابلت أحد العاملين، ولكنني لم أسترح بمعرفة المزيد عن حياته واخترتُ التخلِّي

عن رحلة البحث والاستكشاف. عدت إلى وطني، وإلى التسكُّع على الشواطئ كما كنت أفعل تمامًا قبل السفر. وحاولت أن أنسى كل شيء عن هندوراس والعامل الذي قابلتُه وكومة الملابس وملصقاتها المكتوب عليها «صُنع في»، ولكنني لم أستطع؛ لأن ثمة بذرة قد غُرست بداخلي.

غيَّرتني الأحداث. وخطبتُ آني، وتحوَّلت الصديقة الحميمة النافدة الصبر بمرور الوقت، التي دامت صداقتها لعشر سنوات، إلى خطيبتي. اشتريت منزلًا، وشرعت في أن أصير شخصًا أمريكيًّا تقليديًّا؛ أي مُستهلكًا مدينًا برهنٍ عقاري ولديه ثلاجة وتليفزيون بشاشة مُسطَّحة. وبدأت أتكيَّف مع حلمي الأمريكي، وتكيَّفتُ بارتياح مع هذا الوضع. غير أن كومة الملابس ظهرت من جديد، واستحوذ عليَّ هاجس أين تُصنع ملابسي مرة أخرى.

بدأتُ أقرأ كتبًا عن العولمة وتاريخ صناعة الثياب، ولكنني شعرت بأن ثمة شيئًا مفقودًا بشأنهما. لم أكن أرغب في التعرُّف على قوى العولمة وعملياتها والاقتصاديات والسياسات المرتبطة بها وحسب، بل تعين عليَّ التعرُّف على المُصنِّعين الذين مثَّلوا نقطة الارتكاز عند الطرف المقابل من سلسلة الإنتاج. ووسط الإحصائيات، ضاعت حياة صُنَّاع ملابسنا وشخصياتهم وآمالهم وأحلامهم.

قررتُ أن أستأنف رحلتي لمقابلة هؤلاء الأشخاص. ولكي أُموِّل هذه الرحلة، فعلت أكثر شيء ذي طابع أمريكي فعلته على الأرجح في حياتي كلها: أخذت قرضًا عقاريًّا ثانيًا!

الآن، اتضح لك على الأرجح أنني لست توماس فريدمان، كاتب العمود الصحفي بصحيفة «نيويورك تايمز» ومؤلِّف أفضل الكتب مبيعًا عن العولمة مثل كتاب «العالم مسطح»؛ فلست أتحلى بفهم مُتعمِّق لاقتصاد العالم. لم يَستقبلني أحد في المطار حين وصلت إلى البلدان التي تُصنع فيها ملابسي. لم يكن في انتظاري رئيس تنفيذي لإحدى الشركات، ولم يكن لديَّ حساب نفقات، ولم يكن لديَّ جهات اتصال ولا حاشية ولا حجوزات لغرف بفنادق. غير أنه كان لديَّ الكثير منها في الخيال.

لم أكن إلا مُستهلِكًا في رحلة بحث. ولو سألتَني عما أفعله، لقلتُ لك شيئًا بخصوص سد الفجوة بين المُنتِج والمستهلك. الأرجح أنك تظن أنني مجنون يُهدر الوقت والمال في طيش وتهوُّر بينما كان حريًّا بي أن أمكث في الوطن لسداد أقساط الرهن العقاري والعمل بشهادتي الجامعية. وأنا لا ألومك على ظنِّك هذا.

ولكنني عشت تجارب ثمينة لا تُقدر بثمنٍ غيَّرتني وغيَّرت رؤيتي للعالم من حولي. سافرتُ إلى بنجلاديش مُتخفيًا كمشترٍ للملابس الداخلية، وحاولَتْ شركة ليفايس في كمبوديا التودُّد إليَّ، وشُوِّهت صورتي على يد نائب مدير شركة بالصين تورد منتجات إحدى العلامات التجارية الأمريكية الشهيرة.

لقد بذلتُ قصارى جهدي للعثور على المصانع التي تصنع ملابسي. وإذا لم يكن مسموحًا لي بزيارة المصنع من الداخل، كنت أنتظر العمَّال بالخارج. خلعتُ حذائي ودخلت شققهم الصغيرة. وأكلت أطباق الأرز المطهوِّ على موقد الكيروسين أثناء انقطاع التيار الكهربائي. وعلَّمت أولادهم اللعب بأطباق الفريسبي، وركبتُ مع بعضهم لعبة الأفعوانية في بنجلاديش. ودخلت في تحدٍّ على لعبة شرب البيرة مع عم ثمل في الصين. واصطحبت مجموعة من عاملات الملابس للعب البولينج في كمبوديا. لم تَرُق لهنَّ اللعبة؛ كان ذلك واحدًا من أشياء كثيرة اكتشفت أنها مشتركة بيننا.

وأدركت، على طول الطريق، أن صناعة الملابس تتضمن أعدادًا ضخمة من العِمالة أكثر مما كنتُ أتخيل. وفي صدارة اهتمامات العولمة يأتي البحث المستمر عن العمالة الرخيصة التي تتمتَّع بالثقة للوفاء بالمعايير الصارمة للصناعة. ويَميل النشطاء في مجال حقوق العمَّال نحو صبِّ اللعنات على الصناعة، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة. يُشير بعض الاقتصاديين إلى الأمر باعتباره سلَّمًا يساعد على انتشال الناس من براثن الفقر ويُمكِّن المرأة، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة كذلك.

فواقع حياة العمَّال قاسٍ.

صحيح أن العمَّال يسعدون بالوظائف، حتى وإن كانوا لا يَتقاضون سوى ٥٠ دولارًا كراتب شهري. إنهم لا «يريدونك» أن تقاطع منتجاتهم احتجاجًا على ظروف عملهم، ولكن (حين سألتُهم عن مطالبهم) قالوا إنهم يودُّون أن يعملوا عدد ساعات أقل ويَتقاضَوا راتبًا أعلى.

الأسرة هي كل شيء، إلا أنَّ إعالة هذه الأسرة أهم، في الواقع، من الوجود معها. ولقد رأيت أمورًا جعلتْني أُفكر في المستحيل: ربما لا تكون عمالة الأطفال سيئة دومًا؛ وذلك بالوضع في الاعتبار ظروف معيَّنة وقلة الخيارات المتاحة.

ثمة سلسلة طويلة من اللاعبين تمتدُّ بين المُنتِج والمستهلك. وتتألف هذه السلسلة من العمال وموردي العمال والمصانع والمُقاولين من الباطن والنقابات والحكومات ووكلاء البيع والشراء والوسطاء ووسطاء الوسطاء والمُنظَّمات غير الحكومية والمُستورِدين

والمُصدِّرين والعلامات التجارية والمتاجر مُتعدِّدة الأقسام وأنا وأنت. وكلٌّ منهم يحصل على حصة. والبعض منهم يَلعب وفقًا للقواعد والبعض الآخر يَخترق هذه القواعد. ويُمكن أن يحدث الاستغلال على أي مستوًى، باستثناء مستوًى واحد: ألا وهو أن العمَّال ليسوا في موضع يُمكِّنهم من استغلال أحد.

مثلما كان جيمس بوند يُكافح الشيوعية، كافحها جدِّي بالملابس الداخلية!

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، قرَّرت وزارتا الحرب الأمريكية والخارجية الأمريكية إعادة بناء صناعة النسيج في اليابان؛ لأنك حين تُسقِط قنبلتين ذريتين على دولةٍ ما يكون من الجيد تجنُّب مساعدة تلك الدولة في إعادة بناء الصناعات التي يُمكن أن تتحول بسهولة لإنتاج الأسلحة؛ نظرًا لأن شعب هذه الدولة لا يزال يشعر بالغضب والحنق على الأرجح.

فكان من المُهمِّ أن تقيم الولايات المتحدة علاقات متينة مع اليابان؛ لأننا لو لم نفعل ذلك لفعَل الشيوعيون ذلك على الأرجح، ومن ثم أرسلنا لهم السفن مُحمَّلة بقُطننا، وأرسلوا هم لنا ملابسنا الداخلية. وهذا كان يَعني أن جدِّي كان قادرًا على شراء ملابس داخلية رخيصة الثمن.

كان يُنظر إلى تحرير التجارة في أوروبا وآسيا باعتباره طريقة لاستمالة الناس نحو الديمقراطية ومنع انتشار الشيوعية من الصين وكوريا والاتحاد السوفييتي. لم يكن هذا قرارًا اقتصاديًّا وإنما كان قرارًا سياسيًّا.

في كتاب «العالم مسطح» (نيويورك: فارار وشتراوس وجيرو، ٢٠٠٥)، الذي جاء ذكره آنفًا، يصف توماس فريدمان هذه الفكرة بمُصطلحات اليوم مستخدمًا «نظرية الأقواس الذهبية لمنع النزاعات» التي وضعها:

> لاحظتُ أنه لا توجد دولتان بهما مطعم ماكدونالدز خاضت كلٌّ منهما حربًا ضدَّ الأخرى منذ افتتاح مطعم ماكدونالدز على أرض كلٍّ منهما … فعندما تَبلغ إحدى الدول مستوًى معيَّنًا من النمو الاقتصادي بحيث يوجد فيها شريحة كبيرة من الطبقة الوسطى بما يكفي لدعم شبكة مطاعم ماكدونالدز، تصير هذه الدولة دولة ماكدونالدزية. لم تعد شعوب الدول الماكدونالدزية تُحبِّذ الدخول في حروب، بل يُفضِّلون الانتظار في طابور مشترين شطائر البرجر … ونظرًا لأنَّ هذه الدول انخرطت في نسيج التجارة العالمية ومُستويات المعيشة

المرتفعة، وهو ما تُمثِّله شبكة سلسلة مطاعم ماكدونالدز، صارت تكلفة الحرب باهظة جدًّا بالنسبة إلى الفائز والخاسر على حدٍّ سواء.

بعبارة أخرى، نشرت الرأسمالية وصناعة الملابس السلام وشطائر البرجر بالجبنة في ربوع العالم.

ولكن سيطر الاقتصاد على كل شيء في نهاية المطاف. وظهَرت لدى الدول النامية رغبة في الاستحواذ على مشروعاتنا التجارية، ونمت لدينا رغبة في شراء منتجاتهم الرخيصة؛ ومن ثمَّ اتجهت صناعة الملابس داخل بلادنا إلى حيثما وُجدت أرخص عمالة وأقل عدد من القوانين واللوائح، مثلما أظهر التيار المُتدفِّق من الشمال إلى الجنوب الذي عانى من الكساد الاقتصادي في فترة الستينيات من القرن العشرين. ومن ثمَّ ليس من المُستغرَب أن تتحرَّر التجارة العالمية أكثر، وتُصبح مستوياتنا المعيشية أفضل، وتتخطى الصناعة حدودنا وتسعى وراء ظروف أقل تكلفة في الخارج.

وعلى الرغم من الجهود التي يَبذلها أنصار مذهب الحمائية لإبقاء الصناعة داخل حدود الولايات المتحدة، ثمَّة سباق نحو القاع قد بدأ. وصار مصطلح المصانع المُستغِلة مصطلحًا دارجًا يُلهب حماس الناشطين في مجال حقوق العمال، ويَجعل المُستهلِكين يتردَّدون في الشراء، ويُسبِّب حرجًا للعلامات التجارية.

العولمة تؤثر علينا جميعًا؛ فهي تفرض التغيير على حياتنا سواء أكنا على استعداد له أم لا. وللعولمة وجهان: وجه جيد ووجه سيِّئ. إنها أشبه بجدال دائر في الكتب والسياسات وغرف الاجتماعات والجامعات وأذهان المتسوقين. وهو جدال لا نهاية له.

في عام ٢٠٠٧، طُرح قانون ظروف العمل اللائقة والمنافَسة العادلة داخل الكونجرس ولاقى دعمًا من جانبِ قطبَي المشهد السياسي بأمريكا، بمن فيهم السيناتور شيرود براون (من الحزب الديمقراطي بولاية أوهايو) الذي يُمثِّل ولايتي. عُرف مشروع القانون أيضًا باسم مشروع قانون «مناهَضة المصانع المُستغِلة» الذي اقتَرح حظر استيراد بضائع تلك المصانع والمؤسَّسات وتصديرها وبيعها. ومثلما حدث عند طرح مشروع القانون السابق في دورة الكونجرس السابقة، لم يمر مشروع القانون الحالي بسلام من لجنة التشريعات بالكونجرس.

واحتدم النقاش داخل أروقة الكونجرس.

لقد طوَّرت معظم الشركات قواعد السلوك المهني من أجل تعهيد تصنيع منتجاتهم في الخارج. وعدلت بعض الشركات أوضاعها لتتماشى مع الهيئات الرقابية والجماعات المُدافعة عن حقوق العمال. وجاهدت من أجل الموازنة بين ما هو صائب وما هو مُربِح. ولكن نادرًا ما تجد شركة ترغب في أن يُفكر عملاؤها في مكان تصنيع منتجاتها؛ ذلك لأن الصور الذهنية عن العلامات التجارية تبين الأوقات الرائعة والشواطئ المشمسة والحركات الراقصة وكئوس البيرة الباردة والشعور بالحرية والانطلاق، ولا تُبين المصانع والفقر والأسر المشتَّتة. وثمة شركات أخرى لا تتجنَّب ذكر الحقائق الخاصة بمنتجاتها. لقد رحبت بي شركة ليفايس باعتباري مُستهلِكًا مُهتمًّا بمنتجها. وعلى الموقع الإلكتروني لشركة باتاجونيا للملابس فيديوهات تُصوِّر المصانع التي يتعهدون لها بتصنيع المنتجات وفيديوهات لمقابلات أُجريت مع العاملين بالمصانع.

يحتدم النقاش داخل غرف الاجتماعات.

فالنشطاء في مجال حقوق العمالة يُحمِّلون الشركات المسئولية تجاه قواعد السلوك المهني. وإذا لم تفِ علامة تجارية بالحقوق الأساسية للعمال، فإنهم يمارسون الضغط على الشركة لكي تَتغيَّر. وإذا ما بالغوا في ممارسة الضغوط، فلربما تتجنَّب الشركة هذا الموقف بتصفية أعمالها سريعًا، وبذلك تُصفِّي وظائف العمال التي ناضل النشطاء من أجلها. إذن، ما حدود ما يطلبونه؟ وإلى أيِّ مدًى يُمارسون الضغوط؟

ماذا ينبغي علينا فعله كمُستهلِكين؟ فإذا اشترينا ملابس مصنَّعة في إحدى الدول النامية، فإننا نقدم إسهامًا لصناعة تعتمد على عُمال ربما يتقاضون أجورًا ويعيشون نوعية حياة قد لا تكون مقبولة بالنسبة لنا. ولكن إن لم نشترِ الملابس، فربما يخسر العمَّال وظائفهم.

الاستنتاج، الذي خرجتُ به بعد زيارتي لصنَّاع ملابسي المفضلة، هو أننا ينبغي أن نُحاول أن نكون مستهلكين «مؤثِّرين»، لا مَحافظ نقود مُتحرِّكة — لا عقل لها — تبعثر الدولارات على أرخص الملابس المُسايرة للموضة التي يُمكننا العثور عليها. وينبغي أن تثني علينا الشركات لكوننا نحافظ على إنسانيتنا في القرن الحادي والعشرين. فنحن بإمكاننا أن نتعامل مع الحقائق الخاصة بالأماكن التي تصنع ملابسنا. وسنشتري من الشركات التي تبذل جهدًا حقيقيًّا للاهتمام بحياة العاملين الذين يصنعون منتجاتهم. إننا بحاجة إلى نشطاء في مجال حقوق العمَّال ومنظمات عمل لتتعامل مع الشركات وتُخبرنا أيٌّ منها لا يبذل هذا الجهد.

اذهب إلى متاجر تارجت أو كوهلز أو جي سي بيني أو مايسيز، وستجد أن بعض الملابس مصنوعة بأيدي أفرادٍ مُجتهدين يتقاضون أجورًا عادلة ويتلقون معاملة مُنصفة، وفقًا لسياق واقع الحياة ببلدانهم. وهؤلاء الأشخاص يَعولون أسرهم، محاولين ادِّخار الأموال للالتحاق بمدرسة خبراء التجميل أو لسداد الديون. وثمَّة مُنتَجات أخرى يصنعها عاملون لا يتقاضون أجورًا عادلة ولا يتلقون معاملة منصفة. وبعد رحلتي الاستقصائية، أردت أن أُفرِّق بين هؤلاء وهؤلاء (لكن دون أن أُضطر للبحث على المواقع الإلكترونية وقراءة التقارير المطوَّلة). فالأموال تتحرك بوتيرةٍ أسرع من الأخلاقيات داخل السوق العالمية الراهنة، ومن المرجَّح أن تظل على هذا الوضع إلى أن تُحْرِز الشركات والنشطاء والمستهلكون تقدمًا في النقاش؛ وذلك من خلال مطالبة إبطاء حركة الأموال وتفسير أماكن وجودها.

صنَّاع ملابسنا هم أشخاص فقراء، ونحن أغنياء. ومن الطبيعي أن نشعر بالذنب، ولكنَّ الشعور بالذنب أو باللامبالاة أو الرفض للنظام لا يحقق نفعًا للعمال.

إنهم ليسوا بحاجة إلى الشفقة، بل إنهم بحاجة إلى حقوقهم، وبحاجة إلى تعريفهم بهذه الحقوق. إنهم بحاجة إلى مراقبين مُستقِلين يراقبون المصانع ليتأكَّدوا من أن بيئة العمل آمنة وأنهم يتلقون معاملة حسنة. إنهم بحاجة إلى فُرص واختيارات، وبحاجة إلى مُستهلِكين يهتمون بكل ما سبق ذكره. هم بحاجة إلى التقدير.

لقد تبعتْني فكرة هذا الكتاب من دولة إلى أخرى، ومن مصنع إلى آخر، ومن العيش كمُشترٍ جاهل إلى العيش كمُستهلِك مؤثِّر. وعلى الرغم من أنه من المربك عقد مقارنة بين الحياة المترفة التي نعيشها والحقائق التي يُواجهها صنَّاع ملابسنا كل يوم، فإنني في بعض الأحيان أفكر مليًّا في حياتي الخاصة؛ حتى لا أغفل — أنا وأنت — عن مدى جودة الحياة التي نعيشها.

في الماضي، لم أكن مُهتمًّا بأماكن تصنيع ملابسي أو بصنَّاعها. ثم التقيتُ بأميلكار وعريفة وناري وآي وديوان وتشو تشون. أما الآن، فلا يسعني إلا أن أهتم. إنني على يقينٍ أنه كلما ازدادت معرفتك بهم أكثر، زاد اهتمامك أيضًا.

اسمحوا لي (شكل ١-١) أن أُقدمهم لكم.



شكل ١-١: المؤلف أمام مصنع مهجور بمدينة بنوم بنه، كمبوديا حيث صُنع سرواله الجينز.

الفصل الثاني

تي-شيرت جزيرة الخيال

يوليو ٢٠٠٥

يَعكس التي-شيرت الذي ترتديه أمورًا كثيرة عن ذاتك؛ فهو يُعبر عن هويتك وما تؤمن به ومَن تدعمه ومن تكرهه. والتي-شيرتات الجيدة تجعلنا نضحك أو تجعلنا نفكر قليلًا، والسيئ منها يُثير لدينا حسَّ الفكاهة والسخرية. والتي-شيرتات التي نَرتديها تُوصِّل رسالتنا إلى العالم أكثر من أي قطعة ملابس أخرى.

كانت الصورة المطبوعة على التي-شيرت المفضَّل لي هي صورة شخصية «تاتو» من مسلسل تليفزيوني بعنوان «جزيرة الخيال» (فانتازي أيلاند) الذي أُذيع لأول مرة في سبعينيات القرن العشرين. يظهر «تاتو» على التي-شيرت والشرر يتطاير من عينيه المُتلألئتَين، وتَرتسم على شفتيه ابتسامة عريضة جدًّا، وشعره مصفف جيدًا عند مفرقه. ومكتوب فوق الصورة عبارة «تَعالَ معي إلى جزيرتي» وأسفل غمازة ذقنه تظهر جنة استوائية.

اشترى لي ابن عمي برايس ذلك التي-شيرت حين كنت أعيش في الغابة الاستوائية بمدينة كي ويست. والأشخاص الذين يتذكَّرون مسلسل جزيرة الخيال، «فانتازي أيلاند»، والعبارة الشهيرة لشخصية «تاتو»: «الطائرة ... الطائرة!» يَضحكون عند رؤيتهم تي-شيرتي. وأنا أَعتبره تي-شيرتًا رائعًا من مُنطلق الحنين إلى الماضي والمزاح العفوي. وعلى ملصق التي-شيرت، كُتبت العبارة التالية: «صُنع في هندوراس.»

تدفَّق العاملون عبر الزقاق الضيق المتاخم لمصنع دلتا أباريل بمدينة سان بيدرو سولا، هندوراس، واندفعوا للحاق بإحدى الحافلات التي تنتظر على الطريق السريع، بينما

جاهد الباعة الجائلون، الآملون في اقتطاع جزء من الأجور اليومية للعمال — التي تراوحت بين ٤ و٥ دولارات — للاستحواذ على انتباههم. وشقت السيارات طريقها عبر الزحام. اصطدمت شاحنة صغيرة بفتاة في منتصف العشرينيات من عمرها ودهسَت قدمها. وإثر ذلك، أخذت الفتاة تسبُّ السيارة. وساعدها مَن حولها في الوقوف على قدميها ومشت وهي تَعرج إلى أن استقلت إحدى الحافلات المُنتظِرة.

طُليت المباني الموجودة خلف السور بألوان فاتحة وبقيَت في حالة جيدة جدًّا. كانت الشجيرات قد قُلمت والحشائش قد هُذبت مؤخرًا. وتحت أشعة شمس هندوراس الساطعة، بدت تلك المباني التي هي مقرٌّ للمصانع في أفضل صورة.

ضحكت السيدة المسئولة في المقر الرئيسي لشركة دلتا أباريل، بولاية جورجيا، على الهاتف حين أخبرتُها بما أخطط له. وكان من دواعي سرورها أن أخبرتني بأن المصنع في هندوراس موجود بمدينة فيلانويفا، جنوبي سان بيدرو سولا مباشرة، بل تمنَّت لي حظًّا سعيدًا أيضًا.

لم يَرُق للشركة وجودي في هندوراس كثيرًا.

وقفت وسط هذه الفوضى في حالة من الذهول؛ آلاف العيون تحدق بي، لعلهم تعرَّفوا على التي-شيرت الذي أرتديه. والمفارقة أن هذا المكان هو الجنة الاستوائية الخاصة بـ «تاتو» التي اختفت منذ فترة طويلة؛ مكانٌ ما بين المُواجَهة مع حراس ضخام الجثة يَعترضون باب المصنع ويتدلى من سراويلهم مسدسات وبين الحديث مع مُمثِّل الشركة الكتوم الذي رفض كشف الكثير عن أي شيء يخص التي-شيرت الذي أرتديه أو الأشخاص الذين صنعوه. أدركت على الفور أنه لا سبيل أمامي لدخول المصنع. فكلُّ ما عرفته هو أن ثمانية أشخاص مُتباينين في العمر والجنس عملوا على حياكة التي-شيرت الذي أرتديه في أقل من خمس دقائق، وهي ليست معلومة تتطلَّب السفر كل هذه المسافة إلى هندوراس للحصول عليها.

منذ وصولي إلى هندوراس، قضيتُ الوقت في ممارسة رياضة الغطس واستكشاف الغابات، وحصلت على مادة تكفي، لمدة بضعة أشهر، لكتابة أعمدة صحفية ومقالات عن السفر لعدد من الصحف والمجلات التي أساهم بالكتابة فيها، الأمر الذي قد يُوفِّر لي مبلغًا زهيدًا من النفقات التي تكبَّدتُها. عادةً ما أكتب في عمودي الصحفي، الذي يُغطي سنوات من السفر والترحال بنفقة زهيدة، عما يُعرف باسم «السائح الصبياني»؛ ويُقصد به السائح الذي يجمع بين التحمُّس والصبيانية الحسنة النية. المرة الأولى التي سمعت فيها

هذا المصطلح كانت عندما كنت أعمل مُدربَ رياضة الغطس في مدينة كي ويست. وكان أهل المدينة يَستخدمون هذا المصطلح ليُشيروا إلى السائحين الذين يَستقلون الدرَّاجات البخارية ضاغطين على أبواق الدرَّاجات البخارية الصغيرة وطارحين أسئلة على المرشدين السياحيين المُنهَكين مثل: «هل المياه تحيط بالجزيرة من جميع الجهات؟» في هندوراس، لم أكن أختلف كثيرًا عن ذلك، إذا ما تجاهلنا السبب الرئيسي لوجودي هنا. لقد جئت إلى هنا لألتقي بالأشخاص الذين صنعوا التي-شيرت الذي أرتديه، وها أنا الآن محاط بهم من كلِّ جانب، وأشعر بأنني بعيد عن «السائح» وأقرب إلى «الصبيانية».

انتشر العاملون من حولي مثلما تَسبح أسماك السلمون حول صخرة يجلس عليها دبٌّ. كانوا يَجتنبونني حين أقترب منهم. بدا الأمر وكأنهم تلقوا تحذيرًا بالابتعاد عمن هم على شاكلتي.

في النهاية، تنحَّى أحدهم بي جانبًا في تردد.

اكتشفت أن اسمه أميلكار ويعيش مع والدَيه في قرية مجاورة. تعلم بالمدرسة حتى الصف السابع وهو يهوى لعب كرة القدم. كانت وجنتاه تَلمعان، وجبهته بارزة. ولم يكن قد أكمل عامًا بعدُ في عمله بالمصنع.

أخبرتُ المترجم المرافق لي قائلًا: «سله عن عمره.»

كنت أعرف قدرًا كافيًا من اللغة الإسبانية لأفهم أنه يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا قبل أن يُخبرني المترجم بذلك.

خمسة وعشرون عامًا. حين كنتُ أبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، كنت أعمل بدوام جزئي كموظف بمحل بيع بالتجزئة في الهواء الطلق، ومُدرب غطس بدوام جزئي أيضًا. أما الآن، فأبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، وليس لديَّ عمل، إلا لو كنت تضع في الحسبان المبالغ الزهيدة التي أكسبها من كتابة المقالات. ولقد تلقَّت والدتي مؤخرًا استطلاع رأي من جامعة ميامي (ولاية أوهايو) التي تخرَّجتُ فيها، يسأل عن وضعي المهني. ونظرًا لأنني كنت أمارس رياضة الغطس حينها في ولاية باخا في المكسيك، أجرت والدتي الاستطلاع بالنيابة عني. وعندما استلمت النتائج بعد مرور عدة أشهر، وجدت أنني الشخص الوحيد في فرقتي الدراسية، التي بلَغ عدد الخرِّيجين بها الآلاف، «العاطل باختياره».

ونظرًا لأنني خرِّيج جامعي ورجل أبيض يعيش في الولايات المتحدة، فأمامي عدد كبير جدًّا من الاختيارات، وبإمكاني أن أختار من بينها. وأظنُّ أن هذه هي الطريقة التي

بدأت بها رحلة البحث؛ البحث عن أي شيء يُبعدني عن اختيار طريق يَستغرق وقتًا أطول قليلًا.

الفارق بيني وبين أميلكار هو أنني «أملك» الاختيار. يُمكنني أن أعمل لمدة ثمانية أشهر وأحصل على إجازة لمدة أربعة أشهر. ويُمكنني أن أستقرَّ بالعمل في وظيفة حقيقية، ولكنني اخترت ألا أفعل. وعندما أختار العمل حقًّا، فإنني أفعل شيئًا مُمتعًا. فأنا كثير التجول والترحال وليس لديَّ نية لغرس الجذور.

في هندوراس، ثمة شخص واحد من أربعة أشخاص عاطل عن العمل. وليس من السهل الحصول على وظيفة. وعلى الأرجح كان أميلكار يتقاضى أجرًا — باليومية — أقل بأربع إلى خمس مرات من المبلغ الذي دفعه ابن عمي لشراء التي-شيرت المرسوم عليه شخصية تاتو.

سألني المترجم المرافق لي عما إذا كان لديَّ أيُّ أسئلة أخرى لأميلكار. أردت أن أسأله عن المبلغ الذي يَكسبه فعلًا. أردت أن أرى المكان الذي يعيش فيه والطعام الذي يأكُله وأسمع ما يأمل أن يكونه وأكتشف كيف يرى حياتي.

جزء مني أراد التعرُّف على أميلكار، أما الجزء الآخر فكان راضيًا بـ «عدم» المعرفة، وربما كنت أخشى ولو قليلًا مما سوف أكتشفه. هل أردتُ اكتشاف ما إذا كان المصنع عبارة عن مؤسسة استغلالية حقيرة؟

هذه فرصتي لإثبات نفسي، لأُبيِّن أن رحلة البحث ليست سخيفة.

ومن ثم، ارتكبتُ شيئًا أحمق؛ خلعت التي-شيرت الذي أرتديه وأعطيته لأميلكار. ووقَف كلانا لالتقاط بعض الصور قبل أن ينضم أميلكار ثانيةً إلى سيل العمال المُتدفِّق عبر بوابات المصنع.

أنا أمريكي مجنون مدلَّل يقف عاري الجذع. أنا مُستهلِكٌ، وظيفتُه هي شراء الأشياء. وأميلكار مُنتِج، ووظيفته هي تصنيع الأشياء. ولعله من الأفضل لكلينا ألا يَستغرق أحدُنا في التفكير في حياة الآخر.

الفصل الثالث

دماء زائفة وعرق ودموع

الاحتجاجات المُناهضة للمصانع المستغلة، أبريل ٢٠٠٦

«بنَكهة الكرز أو نكهة الفانيليا أو من السكر خالية، كوكاكولا قاتلة!» «بنَكهة الكرز أو نكهة الفانيليا أو من السكر خالية، كوكاكولا قاتلة!»

تصنَّعتُ المشاركة في الهتاف، ولكنني وجدت الأمر مضحكًا. فضلًا عن ذلك، فإن كوكاكولا هي مشروبي الغازي المفضل.

حضرتُ أول مؤتمر لحركة «مجتمعات دولية خالية من المصانع المستغلة» في مدينة منيابولس، بولاية مينيسوتا، مع عدد كبير من الشباب الغاضب الذين أدانوا شركة كوكاكولا بمقتل قادة النقابات العمالية في كولومبيا. ووفقًا لما قاله أحد المتحدثين: «إذا كانت الشركة كبيرة بالقدر الكافي الذي يجعل اسمها يَنتشر بيننا، فهي على الأرجح تُمارس انتهاكات ضد حقوق الإنسان.»

لم يكن المؤتمر من نوعية المناسبات التي قد تدخلها وأنت تَمضغ شطيرة هامبورجر كبيرة من ماكدونالدز، وتُمسك بكيس بلاستيك مطبوع عليه اسم وول مارت. انصبَّ أغلب تركيز المؤتمر، الذي استمر على مدار عطلة نهاية الأسبوع، على جرائم صناعة الملابس. ولم تسلم مؤسسة كبرى من تشويه سمعتها.

وفي منتصف جلسةٍ عُقدت بهايتي عن تعرُّض العمالة للإساءات، انفجر المشاركون في نوبة من التصفيق الحاد، وبالتدريج زادت حدة التصفيق أكثر وارتفع صوته، وصرخت مُواطنة من هايتي قائلة: «نحن بحاجة إلى شبكة تربط العُمال من جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض!»

لم يدوِّن المشاركون في جلسات ورش العمل أيَّ ملاحظات، ولكنهم دوَّنوا بيانات رسمية في دفاتر جلدية أنيقة ذات شرائط أو أقفال لإحكام غلقها. وكانت أغلبية الحضور من الشباب الواعد الجيد التنظيم الذين كرسوا حياتهم لتغيير وجه العالم من حولهم، إلا أنه حضر أيضًا أشخاص من ذوي الشعر الأخضر وتسريحات الموهوك الذين امتلأت أجسادهم بالأقراط الكثيرة. وظهر أحدهم وهو يرتدي تي-شيرتًا ملطَّخًا بالدماء.

سألته: «ما الذي يلطخ قميصك؟»

رد قائلًا: «دماء مزيَّفة. لقد عدت توًّا من مظاهرة صامتة يُحاكي فيها المتظاهرون الموتى.»

قلت له: «وماذا تعني هذه المظاهرة؟»

أجاب قائلًا: «إنها مظاهرة تُلطِّخ فيها نفسك بالدماء المزيَّفة وتستلقي على الأرض مُتظاهرًا بالموت.»

قلت له: «أليس الجو شديد البرودة؟» بالنسبة إليَّ، لم يكن شهر أبريل في مدينة مينيسوتا وقتًا مناسبًا لتلطيخ نفسك بالدماء والاستلقاء على الأرض.

وجاء ردُّه: «الأمر ليس سيئًا للغاية. كان معنا شواهد قبور تصدُّ عنَّا الرياح.»

لم أتساءل حتى عما كانوا يتظاهرون ضده.

من السهل تجاهُل الرسالة الخاصة بالحركة المناهضة للمصانع المُستغِلة باعتبارها حركة مقاومة للأعراف الاجتماعية المألوفة، وعلى أيِّ حال فإنهم على الأرجح يَستنكرون الشاحنة التي أسوقها والملابس التي أرتديها والطعام الذي أتناوله. علاوةً على ذلك، لست مهتمًّا بالتصفيق والهتاف على الملأ؛ يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء. ولكن خلال العقد الماضي، صارت هذه المجموعة بمنزلة الضمير الحي للمُستهلِك. ومع توافُر موارد مالية محدودة وكثير من الشغف، طاردَت هذه المجموعة الشركات من مختلف أنحاء العالم وكشفت النقاب عن ظروف العمل البغيضة. لولاهم ما كنت لأعرف شيئًا أبدًا عن حقوق العمال في الدول النامية أثناء دراستي مادة مقدمة إلى علم الاجتماع، وما كنتُ لأهتمَّ بالمكان الذي تُصنع فيه قمصاني أو الأشخاص القائمين على تصنيعها.

وبصرف النظر عن المظاهرات الصامتة المحاكية للموتى التي نُظمت في شهر أبريل في ولاية مينيسوتا، فإن الاستراتيجيات الخاصة بالحركة المناهضة للمصانع المستغلة منطقية جدًّا على ما يبدو. أولًا: استهدفت هذه الحركة الشركات الكبرى مثل نايكي وجاب، وهو ما زاد من وعي الجمهور. والآن تُركِّز هذه الحركة على المجالس المحلية والمدارس الحكومية

والولايات من خلال الادِّعاء بأن أموال دافعي الضرائب تُنفَق على شراء زي رسمي يُصنع تحت ظروف غير مقبولة. والسوق التي تُمثِّل محور اهتمامهم كبيرة — تساوي مليارات الدولارات — وعلى عكس سوق البيع بالتجزئة، التي يُصوِّت فيها المستهلكون بمحافظ جيبهم، يمتلك المواطنون أصواتًا حقيقيةً. فإذا اشتكى مجموعة من المصوتين من أن العمَّال المكسيكيِّين — الذين يعانون من سوء المعاملة — يصنعون زيك الرسمي، فإنك ستُضطر للاستجابة لشكواهم وإلا فستخاطر بعدم إعادة انتخابك ثانيةً.

عند هذه المرحلة، تبنَّت ٩ ولايات و٤٠ مدينة و١٥ مقاطعة و١١٨ مدرسة حكومية سياسات الشراء الخاصة بالحركة المناهضة للمصانع المستغلة، وأكثر من ١٨٠ كلية وجامعة تبنت قواعد مشابهة أيضًا. قد لا يهتمُّ الطلاب بحجم الفوضى التي يُخلِّفونها وراءهم للحارس في أروقة السكن الجامعي، ولكنهم يهتمون بالمكان والظروف التي صُنع في ظلِّها الزي الرسمي الذي يرتديه الحارس. ولدافعي الضرائب ومصروفات الدراسة المعنيِّين صوت مسموع أيضًا.

منذ أن غادرتُ هندوراس، ووجه أميلكار يُطاردني في كل مرة أرتدي تي-شيرتًا. لقد صرت مهووسًا بملصقات الملابس. فإذا كانت قطعة الملابس مصنوعة في مكان لا أعرفه، أُخرج أطلس الخرائط وأبحث عنه. أدرك أن كلَّ ملصق لا بد من أن وراءه قصة؛ قصة وجوه وأماكن وأيادٍ وأسر وصراعات وأحلام. أردت أن أتعرف على المزيد من العُمال على شاكلة أميلكار من مختلف أنحاء العالم، ولهذا السبب حضرت هذا المؤتمر.

أغلب الحضور لم يَلتقوا قطُّ بالعمال الذين كرَّسوا من أجلهم الكثير من الدماء الزائفة والعرق والدموع. بالتأكيد، كانوا مُتلهِّفين لأن يطرحوا عليَّ أسئلة حين أخبرتهم بزيارتي إلى أحد المصانع بهندوراس.

والمشكلة أنني ليس لدي أيُّ إجابات؛ حيث باءت رحلتي إلى هندوراس بالفشل.

ترك المؤتمر لديَّ المزيد من الأسئلة التي أدركت أنني لن أحصل على إجابة لها ما لم أبحث عنها بنفسي.

لو أنني عرفتُ ما عرفه هؤلاء الناس، هل كنت سأغضب مثلهم؟ هل «يريد» العمال في هندوراس أو هاييتي أن يشارك طالب فلسفة يبلغ من العمر عشرين عامًا يعيش بولاية مينيسوتا في مظاهرة صامتة باسمهم؟ لعلهم سعداء بحصولهم على وظيفة — على الرغم من أنها وظيفة ذات أجر متدنٍّ للغاية وفقًا للمعايير الأمريكية — لأنها تَكفيهم وتكفي أسرهم للعيش على حد الكفاف.

أضفى المؤتمر ومشاركتي به طابعًا جديدًا وملحًّا على رحلتي الاستقصائية. فلديَّ أسئلة يجب الإجابة عنها قبل أن أرضى بحياة أمريكية خالصة. وبينما كانت آني تُخطِّط لزفافنا وتُرتِّب الانتقال إلى المنزل الذي اشتريناه في مدينة مونسي بولاية إنديانا حزمتُ أنا حقائبي. وبينما كانت آني تبدأ رحلة البحث عن فستان الزفاف المثالي، انطلقتُ أنا للبحث عن صنَّاع ملابسي الداخلية.

الجزء الثاني

ملابسي الداخلية: صُنعت في بنجلاديش

الفصل الرابع

ماركة «جينجل ذيس»

أبريل ٢٠٠٧

«إذن، لقد سمعتُ أنك مهتم بالملابس الداخلية النسائية.» قالها رجل يُدعى صالحين — أحد وسطاء صناعة الملابس في بنجلاديش — وهو يُخرج بخفة يد قطعتين من الملابس الداخلية ذات الأخضر الفاتح غير المُثيرة بأيٍّ حال باسطًا إياهما على المنضدة التي بيننا. كانت الملابس الداخلية ذات خامة شفافة.

كنتُ قد ارتشفت توًّا جرعة كبيرة من عبوة كوكاكولا صغيرة، وحاولت جاهدًا ألا أبصق منها على صالحين والملابس الداخلية النسائية غير المثيرة التي عرضها عليَّ. في هذا المقام، الوقار مطلوب وبخاصة حين تتخفى في ثوب شخص يَنوي شراء ملابس داخلية بكميات كبيرة.

قلت له، وأنا أُخرج من حقيبتي ماركة «دومك» — المخصَّصة لحفظ الكاميرا — سروالي الداخلي القصير: «كلا ... أنا مهتم بالملابس الداخلية الرجالي، كهذا مثلًا.»

جاريته في حوارٍ — لا أفقه فيه شيئًا — عن ملابسي الداخلية: كيف تمَّت الطباعة عليها ونوعية خيط النسيج المستخدم فيها وكثافته. والمُحزن أنني لا أعرف شيئًا حقًّا بخصوص هذه الأمور، لكن ما لبث أن سال لعاب صالحين لفكرة الدخول في صفقة مع مشترٍ أمريكي.

انتابتني مشاعر مختلطة؛ التوتُّر (لأنني بصدد التورط بسبب كذبتي الصغيرة) والبهجة (لأنه اقتنع حقًّا بالكذبة الصغيرة) والذنب (أكرر مرة أخرى، لأنه اقتنع فعلًا بالكذبة الصغيرة).

وصفتُ لصالحين كيف أرغب في تصميم سروالي الداخلي القصير.

قال صالحين: «إننا نستطيع أن نُصمِّم هذا؛ إننا نستطيع أن نصمم أي شيء.»

ابتسم لي، وكأنني أبدو في عينيه جِوالًا لامعًا من الدولارات الأمريكية.

فأردَف صالحين قائلًا: «الآن، أخبرني بالمزيد عن عملك.»

لم أكن أنوي قطُّ أن أتظاهر بأنني مشترٍ للملابس. لقد حدَث الموقف وحسب. في واقع الأمر، اللوم من نصيب دالتون. ولكن، دعني أولًا أُقدم لك كل ما تحتاج إلى معرفته عن ملابسي الداخلية المفضَّلة.

ملابسي الداخلية ليست مثيرة، بل هي أضحوكة بيني وبين نفسي.

لم أحصل على أول قطعة ملابس داخلية جديدة إلى أن أتممتُ الخامسة من عمري. كنت الأخ الأصغر؛ والإخوة الأصغر سنًّا يرتدون الملابس المستعملة لإخوانهم الأكبر سنًّا، بما في ذلك الملابس الداخلية أيضًا. ولم أحصل قطُّ على قطعة ملابس داخلية خاصة بي وحدي إلى أن قرَّرت أمي أنني أستحق طاقمًا جديدًا من ماركة آندرووز يتكون من قطعتين مطبوع عليهما شخصيات مسلسل سكوبي دو الشهير؛ نظرًا لأنني التزمتُ الأدب أثناء تسوُّقها في متجر بوسطن، وهو متجر عائلي صغير لبيع الملابس حيث يَعرف موظفو المتجر كيف يأخذون المقاسات ويُجرون التعديلات على الملابس. أجرى متجر بوسطن تصفيةً لأعماله منذ ذلك الحين بالإضافة إلى متاجر أخرى مُتعدِّدة الأقسام في مدينة يونيون سيتي، بولاية أوهايو؛ من بينها فئة المتاجر التي تبيع سلعًا متنوعة بخمسة دولارات فقط على غرار متجر كيرشبوم وكاوفمان وماكليرج. كانت هذه المتاجر قد تعثَّرت ماليًّا في منتصف ثمانينيات القرن العشرين حين بدأت جميع المصانع المحلية في إغلاق أبوابها أو تصفية أعمالها داخل البلاد. فانتقلت شركة وستنجهاوس إلى المكسيك، وخفَّضت شركة شيلر جلوب — تحت ضغط المنافسة الأجنبية — من حصتها لإنتاج القوالب البلاستيكية للمركبات، وتمَّ شراء شركة بودي كومباني، التي كانت تصنع هياكل الشاحنات المزوَّدة بسلالم، وفقدت معظم أعمالها واستسلمت أمام العمالة الأرخص ثمنًا في الجنوب.

وصلت العولمة إلى مدينة يونيون سيتي، وهي مدينة صغيرة تربط بين حدود ولايتَي أوهايو وإنديانا. هكذا، تأثَّرت الوظائف، وتأثَّرت المتاجر. ولست مُتيقِّنًا، في الوقت الحالي، أنه من الممكن شراء ملابس داخلية من أي مكان في المدينة. وربما يكون في إمكانك شراؤها

من سلسلة متاجر رايت إيد للمُستلزمات الطبية، إلا أنها على الأرجح لن تكون مريحة أو لطيفة.

للأسف، لا يُمكنني أن أستعرض سروالي الداخلي المفضَّل على الملأ. ليس لأن القيام بهذا الأمر ينم عن عدم اللياقة الاجتماعية، وإنما قد يَندرج تحت بند مخالفة القانون أيضًا، وهكذا أرتدي هذه الملابس الداخلية في الاجتماعات والمُحاضرات والجنائز وحفلات الزفاف؛ أماكن لا يتأتَّى لأحد فيها أن يَنظر إليها. وأنا على يقينٍ تامٍّ بأنها ستروق لمعظم الناس؛ حيث إنها مطبوع عليها زينة الكريسماس، وعبارة «جينجل ذيس» مطبوعة حول الشريط المطاطي الذي يطوق محيط الخصر.

لقد حصلت عليها كهدية قبل عام مضى، ومنذ ذلك الحين، اعتدت ارتداء تلك الملابس كثيرًا وبانتظام بصرف النظر عن فصول السنة أو مواسم الإجازات.

وإذا ألقيتَ نظرة عن قرب، فإنك تستطيع أن تقرأ الملصق الباهت حيث كُتب عليه عبارة: «صُنع في بنجلاديش.» وعلى الرغم من أنها دولة — يُشكِّل فيها المسلمون نسبة ٨٣ بالمائة من السكان — لا تَكترث بتاتًا بمظاهر احتفالات الكريسماس؛ فلقد اكتشفتُ أنهم مُتحمِّسون جدًّا حيال ملابسي الداخلية.

تحيط الهند ببنجلاديش من جهة الغرب والشمال والشرق، أما من جهة الجنوب فيطوقها خليج البنغال. وتكتظُّ بنجلاديش — ومساحتها أقل قليلًا من مساحة ولاية آيوا — بأعداد مهولة من البشر. وفي حين أن عدد سكان ولاية آيوا يبلغ ثلاثة ملايين نسمة، فإن عدد سكان بنجلاديش يبلغ ١٣٥ مليون نسمة، مما يَجعلها أكبر دولة في العالم من حيث الكثافة السكانية؛ ومن ثم التجول في العاصمة دكا ليس أمرًا يسيرًا.

فشوارع دكا عبارة عن طرق ترابية كئيبة المنظر، إلا أن وجود عربات الريكشا واللوحات الملوَّنة في الشوارع يَبعث الارتياح في نفوس الناظرين. ورنين أجراس عربات الريكشا — الذي يَخترق هدير محركات السيارات — يُريح الأذن، وإذا كنت تطلُّ على دكا من أحد مبانيها العالية، فإن رنين هذه الأجراس يُعدُّ أبرز صوت ينفذ إلى أسطح المباني. ويُقدِّر جهاز الشرطة في دكا عدد عربات الريكشا التي تسير في المدينة بنحو ٦٠٠ ألف عربة (شكل ٤-١).

تُمَثِّل عربات الريكشا التكنولوجيا القديمة، وعلى الجانب الآخر تُمَثِّل الهواتف المحمولة التكنولوجيا الحديثة؛ فاليوم يمتلك ٢٩ مليون مواطن بنجلاديشي هواتف محمولة. ويوجد

الكثير من المتاجر ومراكز خدمة العملاء في دكا، إلا أنه يوجد متجر واحد فقط لشركة موتورولا، وقد قضيتُ وقتًا طويلًا جدًّا للبحث عنه.

كنت أحاول العثور على شخص من شأنه أن يعرف كيف يفكُّ رموز تشفير هاتفي المحمول داخل البلاد، وكنتُ قد زرت عدة متاجر — دون أن يحالفني الحظ — وأثناء عبوري تقاطعات شوارع متعددة ومواجهتي لسيل من سيارات الأجرة، تلقَّيت نصيحة شكَّلت نقطةً فارقة في إقامتي في بنجلاديش؛ حيث قال لي أحدهم: «اذهب وابحث عن السيد دالتون من متجر موتورولا في حي باناني.»

ومن ثم ركبتُ عربة الريكشا للذهاب إلى السيد دالتون. كانت المرة الأولى لي، وكنت قلقًا حيال احتمالية لفت الانتباه إليَّ؛ لأنه اتضح أنني كنت أَشبَه بنجم من نجوم الروك يسير في شوارع بنجلاديش.



شكل ٤-١: اختناق مروري لعربات الريكشا في دكا.

ورغم أنني لم أمارس أيًّا من ممارسات نجوم الروك الشهيرة؛ فأنا لم أرتدِ قطُّ سَراويل جلدية كما لم تُسجِّل الفنادق عني سلوكيات غريبة تنمُّ عن كوني نجمًا من نجوم الروك، فإن نجومية نجوم الروك جاءتني نتيجة ندرة وجود شخص أجنبي ذي شعر أشقر وعينين زرقاوين في مثل هذه البلاد. فكلما سرت في الشارع اتجهتْ إليَّ الأنظار، وكلما

وقفت تجمهر الناس عليَّ. وكادت أن تندلع أعمال شغب حين حضرت حفلًا بنجلاديشيًّا لموسيقى الروك (كان من أبرز فقرات الحفل مقطوعات لعازف الجيتار الشهير أيوب باستشيو) وشاركتُ في موجة حماسية راقصة مع الجمهور البنجلاديشي. إن لم تكن قد رأيت شيئًا كهذا من قبل؛ فالأمر يتضمن الكثير من تشابك الأيدي وتحريك الأجساد في دوائر والعناق، باختصار، كل ما تفعله في حفل لموسيقى الروك بالولايات المتحدة؛ إذا كنتَ ترغب في أن تُطرَد من الحفل سريعًا. ثمة أشخاص ينخرطون في مثل هذه الحفلات، ثم لا تراهم ثانيةً أبدًا.

ولحسن الحظ، كانت رحلة الذهاب إلى متجر موتورولا خالية من أماكن الرقص الحماسي على موسيقى الروك.

كانت في عينَي دالتون — المدير العام لمتجر موتورولا — نظرة تنمُّ عن أنه كان يتطلَّع لشيء ما، أو كما لو أنه كان يعرف شيئًا لا تعرفه أنت؛ نظرة توحي بأن ثمة انحرافًا في العينين إلى الخارج. كان يُصفِّف شعره الأسود المائل إلى الزرقة على جانب واحد ناحية اليمين، ويَميل برأسه إلى الوراء باستمرار ويُعيد رأسه إلى وضعها بحركة سَلِسة.

سألني دالتون قائلًا: «أين يقع بلدك على الخريطة؟ لماذا جئت إلى بنجلاديش؟»

أخبرته، فلمعت عيناه في حماسة.

وعقَّب قائلًا: «أنا صحفي أيضًا.»

وبعد الانتهاء من سرد التفاصيل المهمة، أعاد دالتون برمجة هاتفي وأعطاني بطاقة تشغيل الخط كي أستخدمه مجانًا. لم نتطرَّق في حديثنا إلى الهواتف في أول لقاء جمعنا في ظهيرة ذلك اليوم، وبدلًا من ذلك، عرض عليَّ دالتون حافظة للقصص المنشورة وديوانه الشعري وصورًا.

«هذه هي الحياة في بنجلاديش.» أمسَكَ دالتون بصورة لصبيَّيْن من أولاد الشوارع ينامان على الرصيف ويسندان رأسيهما على كلب نحيف. أدهشتني الصورة. لم تكن رؤية الصبيَّين في الشارع أمرًا غير متوقَّع. فبمجرد السير لمسافة قصيرة في أي مكان في دكا يُمكنك رؤية هذا المشهد، ولكن ما أدهشني بخصوص صورة دكا أن دالتون يرى هذا بالفعل. فمُعظم الناس في بنجلاديش لا يرفُّ لهم جفن عند رؤية أولاد الشوارع يَنامون تحت أشعة شمس الظهيرة. لقد رأى دالتون مثل هذه المشاهد والتقَط صورًا لها.

كان دالتون شخصًا مختلفًا، وهذا ما جعلنا صديقَيْن على الفور.

وبعد أن عرض عليَّ جميع الصور التي التقطها في حياته تقريبًا، عدنا إلى موضوع رحلتي الاستقصائية في بنجلاديش وكيف ينبغي لي أن أبدأ مسعاي من أجل مقابلة صنَّاع ملابسي الداخلية وتحديد مكان المصنع الذي أنتجها.

قال دالتون: «لست بحاجة إلى التفكير. سأعتني بكل شيء.»

جئت إلى بنجلاديش وحدي في رحلتي الاستقصائية، وها أنا الآن عثرتُ على شريك لي.

كان لدى دالتون مَيْل لتقديمي على أنني شخصية مهمَّة أكثر مما أنا عليه في الحقيقة. وفي لودويا، القرية التي قضى فيها صباه، قدَّمني بصفتي «الصحفي المُوقَّر».

تجمع شيوخ القرية عند كشك للشاي على ناصية الطريق الرئيسي، وهو طريق لا يزيد عرضه عن عرض الطريق الذي تسير فيه عربة الجولف. أرادوا أن يتحدثوا مع «الصحفي الموقر» عن السياسة؛ حيث إنهم سألوني: ما رأيك في جورج دبليو بوش؟ لم يكن يَروق لهم.

أخبروني أن بوش تلاعَبَ بالحكومة البنجلاديشية من أجل الإذعان لأوامره لأنه تمَّ اكتشاف النفط في المنطقة مؤخرًا. هكذا كان بوش — في نظرهم — مسئولًا عن وقوع شيء سيِّئ في بلادهم. ولم أعرف كنْه هذا الشيء قط. أكان هذا الشيء يتمثل في الفيضانات المُعتادة، التي تزداد سوءًا عامًا تلو الآخر؛ وذلك بفضل ارتفاع منسوب البحار، الأمر الذي تسبب في اجتثاث المحاصيل وخلَّف مجاعة على أثره؟ أكان هذا الشيء يتمثَّل في حقيقة أن بنجلاديش لم يكن لديها حكومة في تلك الفترة تحديدًا؟ لقد عدَّل الحزب الحاكم الانتخابات الأخيرة، إلا أن الجيش سيطر على الحكومة في محاولة منه لوضع حدٍّ للفساد قبل إجراء الانتخابات. كان يوجد عدد كبير جدًّا من المشكلات لدرجةٍ استحال معها تحديد أيٍّ منها تورط بوش فيها.

أشك أن بوش أو أي شخص من إدارته كان ينهض من فراشه في الصباح وفكره مشغول كثيرًا ببنجلاديش. لعلَّ هذا يُعد جزءًا من المشكلة. إلا أن شيوخ القرية ألقوا باللوم على رئيس الولايات المتحدة لما آل إليه حالهم، وهؤلاء رجال لم يَسبق لهم على الأرجح رؤية جهاز كمبيوتر من قبل، رجال ممَّن عاشوا في فترة كانت الانتقالات داخل دكا تَستغرق يومًا بطوله، وتتمُّ بواسطة زورق، وقبل أن تصعد على متنه تُسأل مرارًا وتكرارًا عما إذا كنت تستطيع السباحة، أو تتم بواسطة حافلات قد تبدو أسوأ حالًا من الزوارق.

التقى عمدة القرية في مكتبه بـ «الصحفي الموقَّر»، وأرسل أحد صبيانه ليُحضر مشروبًا مرطبًا وكعكًا محلًّى. اعتذر لي عن عدم توافُر المزيد من الوقت للحديث؛ كان مشغولًا كثيرًا. تكدَّست جوالات الأرز عند الزاوية؛ كانت هذه الجوالات عبارة عن تبرُّعات من منظمة أجنبية، وكان أمام عمدة القرية مهمة صعبة لتحديد مَنْ في قريته في أمسِّ الحاجة لها.

التقيتُ بعمدة القرية لأتعرف على دور قريته في صناعة المنسوجات؛ حيث إن الكثير من العاملين بمجال الملابس في دكا يأتون من قرًى على شاكلة قريته. أراد دالتون أن يُعرِّفني على الحياة القروية، ورأى أنه لا توجد طريقة للقيام بذلك أفضل من دفعي للعب مباراة كابادي. وضحك العمدة عندما أخبره دالتون بخططه. كانت لعبة الكابادي طريقة مُثلى لكسر الجليد بيني وبين أهل القرية. ولكني تمنَّيتُ ألا أكسر شيئًا آخر!

تجمهر عدد كبير من أهالي القرية ليشاهدوا «الصحفي الموقر» وهو يلعب الكابادي. كان من النادر أن ترى رجلًا أجنبيًّا في قرية كهذه، ولكن أن ترى رجلًا أجنبيًّا ويلعب الكابادي أيضًا … فهو أمر غير مسبوق!

الكابادي ضرب من ألعاب المطاردة الجماعية أشبه بلعبة ريد روفر العنيفة جدًّا؛ حيث ينقسم اللاعبون إلى فريقين والفريق الذي يأتي دوره في اللعب يجب أن يُردد عبارة: «كابادي … كابادي … كابادي» بنغمة موسيقية في نفس واحد أثناء محاولة مطاردة لاعب من الفريق الآخر واستمالته للجانب الآخر من منتصف الملعب. وبمجرد جذب هذا اللاعب، يحاول الفريق المنافس أن يَطرحه أرضًا.

وقفت على خط قاعدي واحد مع خمسة من أفراد فريقي. وكان منتصف الملعب على بُعد عشرين قدمًا مِنَّا وعلى بُعد عشرين قدمًا أخرى من الخط القاعدي الآخر للفريق المنافس لنا. كانت حدود الملعب مُقسَّمة بالطين، وكان الملعب مهترئًا من كثرة اللعب والاستخدام. كان هذا الملعب أكبر مكان مفتوح في القرية غير مخصص لحقول الأرز.

أعطى دالتون تعليمات فهمتُ أنه قال من ضمنها: لا تؤذوا «الصحفي الموقر». كنتُ الأضخم جسدًا والأكبر سنًّا في مجموعة اللاعبين. كان اللاعبون الآخرون مفتولي العضلات ذوي ضلوعِ صدر بارزة. ولقد تعرَّفت على أحدهم حيث إنه كان سائق عربة الريكشا الذي تجوَّل بنا حول القرية في وقت سابق من اليوم.

في الجولة الأولى، التفَّ أفراد فريقي حول الخصم وأسقطوه أرضًا وأمسكت به من أعلى. وقف أهل القرية يُشاهدون المباراة مشجِّعين بصوت عالٍ. ثم أتى دوري لمواجهة

الفريق المنافس. وعلى الفور، أعاقني اللاعبون الخمسة المنافسون عن التقدُّم، ونسيت أن أكرر كلمة «كابادي» لأنني كنتُ أضحك بشدة.

كانت النتيجة ست نقاط مقابل خمس؛ كان فريقي هو الفريق الخاسر. وفي ذلك اليوم كانت الشمس حارقة على نحو لا يُطاق، شعرت كما لو أن الدماء على وشك أن تتفجَّر من وجهي من شدة الحر. أعلن دالتون الجولة الأخيرة من المباراة، وأخبرتُه بأنني أرغب في استكمال اللعب حتى يصل عدد النقاط إلى ١٠. راق الأمر لأهل القرية، وجاء دوري. تحدَّث دالتون إلى اللاعبين. عبرت منتصف الملعب وشرعت في ترديد الكلمة بنغمة موسيقية. حاولت أن أتحرَّك على نحو أسرع مما فعلت في محاولتي الأولى وحافظتُ على خفة حركتي بقدر الإمكان. أعرف أن بإمكاني السيطرة على أحد اللاعبين الأصغر حجمًا والأخف حركة، ولكن لن أستطيع فعل ذلك مع جميع اللاعبين الخمسة. أمسكتُ بفتًى مراهق نحيف واندفعت به نحو الخط. أمسكوا بي جميعًا، وبدأتُ أحرِّك ساقيَّ بقوة لأعلى ولأسفل وأتملَّص من الأيادي الممسكة بي. دفعت الحشد، وبات الخط على مقربة منِّي. ونظرًا لأن جميع اللاعبين قد لَمسوني، كنتُ بصدد تسجيل خمس نقاط وسيَفوز فريقي إذا ما عبرتُ الملعب، وسيُكتَب عني في كتب تاريخ لعبة الكابادي في قرية لودويا.

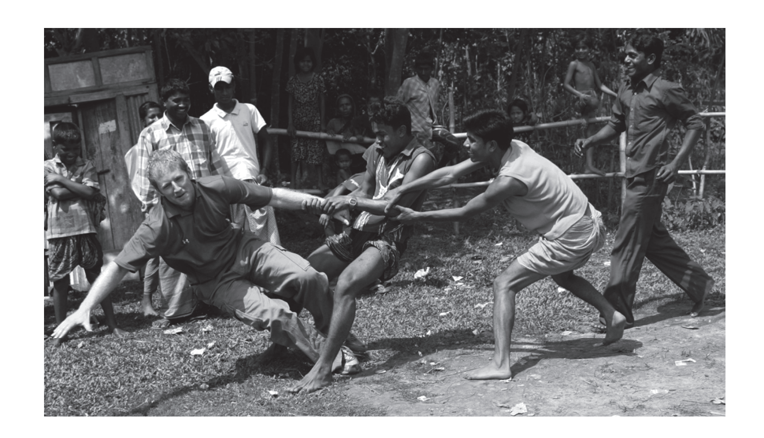
نجحت في الإفلات من أياديهم وسقطت على الجانب الآخر (شكل ٤-٢). التفَّ حولي أفراد فريقي وباقي أهل القرية. لعلَّها كانت أكثر لحظة في حياتي الرياضية شعرت فيها بالفخر.

ولكن فيما بعد فكرت في الأمر. ما الذي قاله لهم دالتون؟ هل تعمَّدوا خسارة المباراة أمامي؟ لقد شعرت أنهم حاوَلوا بكل جهد أن يُسقطوني أرضًا، ولكن ربما الحقيقة غير ذلك.

أوضح هذا الموقف إلى أي مدًى يتعامل الشعب البنجلاديشي بطريقة مهذبة؛ سيتركونك تفوز، ولكنهم سيلعبون أمامك بما يَكفي من جهد يجعلك تشك في الأمر، ومن ثم ستشعر بأنك رائع.

كانت أرضية البيت الذي قضى فيه دالتون طفولته ترابية، ولكنها أنظف أرضية ترابية يمكن للمرء أن يتخيلها. وبينما أخذَتْ خالة دالتون تكنس الأرضية الترابية بمكنسة، جلست أنا ودالتون نتحدث عن نشأته في قرية لودويا وعن حياته في دكا بعدما كبُر.

كانت القرية آمنةً ومسالمة، جحافل من الجراد تُصدر صريرًا، وموجات من الحرارة اللافحة تزداد، وصائد يَسحب شبكة الصيد من البِركة. كانت البِرَك تصطف على طول



شكل ٤-٢: الصحفي الموقر يسجل نقطة الفوز بالمباراة.

الطريق الرئيسي يتخللها ممرات ضيقة مرتفعة تُفضي إلى المنازل. كان بعض المنازل مبنيًّا بالقرميد، وبعضٌ منها مبنيًّا بالصفيح، وحتى أفخمها كان بسيطًا. كانت حقول الأرز تمتد من وراء المنازل وبساتين أشجار الفاكهة وشجيراتها، كان اللون الأخضر الزهري يمتدُّ ليُطوِّق الآفاق. وإذا أمعنت النظر، يمكنك أن تُشاهد العمال وقد انتصبوا واقفين مثل سناجب المروج الواقفة على ساقيها الخلفيتَين من أجل تمديد ظهورهم، ثم تراهم وهم يَحنون أجسادهم ليستأنفوا عملهم من جديد.

وعلى الرغم من أن دالتون يعمل في شركة مُتعدِّدة الجنسيات، فإنه ينتمي إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، ويكاد لا يَملك من حطام الدنيا شيئًا، بالإضافة إلى أنه يَعول أسرته بالكامل؛ فهو مسئول عن شقيقيه وأمه، حيث ترك أبوه أمه قبل بضع سنوات. هو يتمنَّى أن يهدم يومًا ما الجدران الصفيحية لمنزل والدته ويَبني مكانها حوائط قرميد.

يحظى دالتون باحترام كبير في قريته؛ حيث إنه واحد من القلائل الذين حققوا قدرًا من النجاح؛ فهو مُتعلِّم ويعمل في وظيفة جيدة وقادر على إعالة أسرته. ولكن لا تزال الحياة بالنسبة إلى دالتون تُمثِّل صراعًا. إنه يتوق ليحظى بكل ذرة احترام.

قال لي: «أنا أحظى بمكانة اجتماعية ولكني لا أمتلك أرضًا. طريقة تفكيري تَنتمي للطبقة الوسطى، ولكن حسابي في البنك لا ينتمي إليها.»

قبل أن يبدأ دالتون العمل في شركة موتورولا في التاسعة عشرة من عمره، كان مسئولًا عن إنشاء واحد من أفخم الفنادق في دكا، ألا وهو فندق ليك شور. لعلَّك لا تصدق أن صبيًّا في التاسعة عشرة من عمره يُكلَّف بمشروع تبلغ تكلفته ملايين الدولارات، لكنك لم تَلتقِ بدالتون من قبل. لم تدخل الفندق بصحبته؛ حيث لا يزال يعامله الجميع باحترام شديد بعد مرور سنوات. ولم تقف إلى جواره وهو يَتحدث مع الموظفين التنفيذيين بالفنادق والشركات المُتعددة الجنسيات أو تسمع الناس يقولون له وهم يقتربون منه: «أنت دالتون من فندق ليك شور، أليس كذلك؟»

ولم تكن موجودًا حين قدمني دالتون بصفتي «الصحفي الموقَّر» أو حين دعا رجل أعمال لتناول الشاي وقدمني إليه باعتباري مديرًا تنفيذيًّا بشركة موتورولا أو حين قدَّمني إلى صاحب مصنع، بلا سابق إنذار، باعتباري أحد المشترين الأمريكيِّين المهمين الراغبين في شراء شحنات كبيرة من الملابس الداخلية.

الفصل الخامس

جاسوس في عالم صناعة الملابس الداخلية

قبل أن أغادر أراضي الوطن، كنتُ أعرف القليل جدًّا عن ملابسي الداخلية؛ حيث عرفت أنها تُصنع في بنجلاديش تحت اسم العلامة التجارية بريفلي ستيتيد. وعرفت من خلال البحث لبضع دقائق على شبكة الإنترنت أن بريفلي ستيتيد قد بيعت عام ٢٠٠٥ إلى مؤسسة لي آند فانج، وهي شركة توريدات تدَّعي على موقعها الإلكتروني أنها تدير سلسلة توريدات خاصة بعلامات تجارية ومتاجر متعددة الأقسام في أكثر من «٤٠ اقتصادًا». لست متأكدًا مما إذا كانت كلمة اقتصاد يُقصد بها دولة، لكن مؤسسة لي آند فانج مؤسسة كبيرة؛ أنت على الأرجح تَرتدي شيئًا من العلامات التجارية التي تتعامل معها. فقائمة عملائها تضمُّ أكبر وأشهر المتاجر الأمريكية المتخصصة في البيع بالتجزئة مثل وول مارت وتارجت وكوهلز وليفايس. اتصلتُ بمكتب لي آند فانج بنيويورك لكي أسأل عن مكان المصنع الذي يصنع ملابسي الداخلية في بنجلاديش ولأحاول الترتيب لزيارة له.

لكن الأمور لم تَسِر على ما يرام.

حوَّلتني موظفة الاستقبال إلى قسم الملابس الداخلية، الذي حولني بدوره إلى البريد الصوتي. وعندما عاودت الاتصال، حولتني موظفة الاستقبال ثانيةً إلى قسم الملابس الداخلية الذي حولني هذه المرة إلى مساعد المدير الذي حوَّلني بدوره إلى مدير قسم الإنتاج، السيد كوهين؛ حيث قال لي: «صف لي ملابسك الداخلية.» وقد وجد الجانب الصبياني داخلي هذا الأمر مضحكًا. صرَّح بأنهم ما عادوا يوردون ملابسي الداخلية في بنجلاديش، وأنه لا يستطيع إعطائي عنوان المصنع الذي كان يَصنعها أو معلومات اتصال خاصة بأي شخص قد يُساعدني في بنجلاديش. وأخيرًا، وبدون مساعَدة أحد في مؤسسة لي آند فانج، عثرت على عنوانهم في بنجلاديش عبر شبكة الإنترنت.

لحسن حظي أن دالتون كان يَعرف عنوان المصنع الذي يصنع ملابسي الداخلية ماركة «جينجل ذيس». قادني دالتون إلى مبنًى إداري مرتفع في ميدان جولشان ٢، دكا، وهو أشبه بنموذج مصغر لميدان التايمز.

قلت لدالتون ونحن نستقلُّ المصعد متجهين إلى الطابق الثاني عشر: «حسنًا، يا دالتون، أخبرهم عن سبب مجيئي إلى هنا تحديدًا. قل لهم إنني كاتب من الولايات المتحدة الأمريكية، وإنني تتبَّعت ملابسي الداخلية كل هذه المسافة وصولًا إلى هنا للبحث في أمرها واكتشاف كيفية تصنيعها. هل فهمت؟»

فغر دالتون فاه وكان على وشك أن يقول شيئًا حين رنَّ جرس أحد هواتفه المحمولة؛ أجل «أحد» هواتفه المحمولة. كان لديه أربعة هواتف محمولة؛ اثنان للعمل وواحد للأصدقاء وواحد سري لا يُعطي لأي شخص رقمه. كان مضطرًّا إلى مناقشة بعض الأمور المعنية بمتجر موتورولا، الأمر الذي فعله في دقائق قبل أن يُعيرني انتباهه مرة أخرى.

«لست مضطرًّا إلى التفكير. سأعتني بكل شيء.»

كان المكتب حديث الطراز ذا إضاءة ساطعة وطابع مريح. وهناك جلس رجل على أريكة جلدية مبطنة إلى جوار كومة من عينات الملابس. هذا بالتأكيد ليس المصنع. اقترب دالتون من موظف الاستقبال، وهو رجل في أوائل الثلاثينيات من عمره ذو رأس كبير ووجه أكثر امتلاءً من وجوه معظم مواطني بنجلاديش.

دردش دالتون معه في فتور، وهو يومئ ناحيتي من آنٍ لآخر. في أول مرة، تتبَّع موظف الاستقبال إيماءته ولوح لي بيده في عجالة. حاولت في توتُّر أن أقرأ تعبيرات وجهه، مقارنًا إياها بتجربتي في هندوراس وقَلِقًا من أن أكون قد خدعتُ نفسي بالسفر في إجازة غريبة وغالية الثمن تحت وَهْم أنها رحلة بحث تستحق العناء.

رنَّ جرس هاتف دالتون، وابتعد عن مكتب الاستقبال ليَرد. وقفتُ وأخرجت ملابسي الداخلية واقتربت من المكتب.

ثمَّة شيء يجب عليك أن تعرفه.

أنا لا أحب الكذب؛ ليس هذا لأسباب أخلاقية وإنما يرجع السبب أكثر إلى أنني شخص كسول. فأنا لا أريد قضاء الوقت وبذل الجهد في نسج قصة من الخيال ثم أُحاول بعد ذلك تذكُّر ما قلته لهذا الشخص أو ما فعلته في ذلك الموقف. أعرف أنني سأقع فريسة في شباكي، ولستُ ماهرًا بالقدر الكافي.

قلت للموظف وأنا أشير ناحية دالتون: «لست متأكدًا مما قاله لك، ولكني كاتب من الولايات المتحدة الأمريكية.» ثم وضعت ملابسي الداخلية ماركة «جينجل ذيس» على المكتب وتابعت قائلًا: «وأود أن أتحدَّث مع أحد عن ملابسي الداخلية.»

ولم أُدرك إلى أي مدًى بدت العبارة سخيفة حتى خرجت من بين شفتي. كانت رحلة تتبُّع التي-شيرت في هندوراس مختلفة؛ فهم معتادون على زيارة جيرانهم الأجانب القادمين من أمريكا الشمالية بهدف وَعظِهم بالخطب الدينية وإنقاذهم والتنزُّه في الغابات ودفع مقابل القذف بأنفسهم في طوافات وسط أنهار ثائرة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الأنشطة الغريبة؛ فوجود شخص أجنبي في مهمة بهندوراس ليس شيئًا جديدًا. أما المهمة في بنجلاديش فكانت شيئًا آخر تمامًا؛ فعدد قليل من مواطني الغرب يَزورون بنجلاديش، وجميع الزيارات هي زيارات عمل بالأساس. والملابس الداخلية بمنزلة سلعة وليست مُهمَّة مستحيلة تسعى لإنجازها.

رد الرجل عليَّ بلغة إنجليزية ركيكة.

وقال: «أنا أعد قائمة بالمصانع. غدًا تذهب.»

شرعت في شرح التفاصيل الدقيقة أكثر لرحلة بحثي، وأخبرته بأنني بحاجة إلى معرفة أي مصنع بالضبط يَصنع هذه الملابس الداخلية عينها. لحُسن الحظ أن دالتون أنهى مكالمته الهاتفية وأخذ البطاقة من موظف الاستقبال وقادني نحو الباب.

لقد أخبر دالتون موظف الاستقبال بأنني أعمل في تجارة الملابس الداخلية.

«كيلسي، إذا قلت إنك تعمل في التجارة، فسيَسعد الناس أكثر بك وسيَعرضون عليك المزيد. غدًا سيتصل بي ليُرتِّب زيارة. تذكر، لست بحاجة إلى التفكير في الأمر!»

كان بإمكاني الكف عن التفكير فقط حين يكون دالتون برفقتي. ولكنني سأُضطرُّ عاجلًا أو آجلًا، إلى التفكير بنفسي.

شركات التوريدات تقوم مقام الوسطاء بين مصانع الملابس والمشترين؛ فالمصانع لا تمتلك أقسام مبيعات وتسويق. وبعضُها لا يَملك حتى أجهزة كمبيوتر، ولذا يعتمدون على شركات التوريدات لتتواصل مع المشترين المُحتمَلين والحاليِّين وتتعامل معهم. مؤسسة لي آند فانج غير مهتمة بالعمل مع الشركات التي يُديرها شخص واحد مثل الشركة الوهمية التي قال دالتون إنه يَمتلكها. فَهِمَ موظف الاستقبال هذا الأمر واعتبرني فرصة لمشروع التوريدات الصغير الذي يعمل به إلى جانب عمله الأساسي. وبدلًا من تنظيم زيارة إلى

أحد المصانع عبر مؤسسة لي آند فانج، حدَّد لي دالتون وموظف الاستقبال موعدًا لمقابلة صالحين، شريكه في المشروع، الذي ظنَّ أنني مُهتم بشراء الملابس الداخلية النسائية.

قال صالحين: «حسنًا، أخبرني بالمزيد عن عملك.»

ولسوء الحظ، لم يَستَطِع دالتون حضور الاجتماع ذلك اليوم. ثمة كذبة كنتُ مُضطرًّا لها، وها أنا قد أصبحتُ بمفردي.

قلت وأنا أحاول الالتزام بالحقيقة بقدر الإمكان: «الأمر يحدث بالصدفة نوعًا ما. أنا كاتب في مجال أدب الرحلات تحت مصطلح «السائح الصبياني»؛ ومعناه سائح محب للسفر له تصرفات صبيانية. أحبَّ قرائي المصطلح. وفي النهاية، بدأت العمل مع رسام كاريكاتير. ابتكرنا معًا مجلة مصورة باسم «السائح الصبياني». وفتحت متجرًا على شبكة الإنترنت، ظنًّا مني أن بعضًا من أشد المُعجبين بي سيروق لهم امتلاك التي-شيرت أو الأكواب أو الملابس الداخلية الخاصة بالسائح الصبياني. وأطلقت على المتجر اسم «ثياب السائح الصبياني».»

الحقيقة أنني لم أنحت مصطلح «السائح الصبياني»، ولكنني أكتب عمودًا صحفيًّا في أدب الرحلات بعنوان «أرض السياح الصبيانيِّين» لحساب إحدى الصحف في مدينة كي ويست. وعملت فعلًا مع رسام كاريكاتير، ولديَّ فعلًا متجر على شبكة الإنترنت. ولكن ليس لدي أي عملاء، ولم أَنوِ ذلك قط. فأنا مالك المتجر وأنا العميل الوحيد؛ حيث أُصمِّم الهدايا وأشتريها لعائلتي وأصدقائي. إنني أُصمم التي-شيرتات والأكواب وقواعد الأكواب حسب الطلب كهدايا لأعياد الميلاد والإجازات.

أخرجت بضع نُسَخ مطبوعة من كتالوج متجر «ثياب السائح الصبياني» عبر شبكة الإنترنت ووضعتُها فوق ملابسي الداخلية، قلَّب صالحين صفحات الكتالوج. كان له أنف مُستدير كبير الحجم بما لا يتناسب مع ملامح وجهه الأخرى، وكان له بطن كبير جدًّا لا يتناسب مع بنيته الضئيلة. كان يَرتدي أسوأ شعر مُستعار رأيتُه في حياتي. كان الشعر المستعار يتأرجَح فوق فروة رأسه تاركًا حيزًا على هيئة فجوة سوداء غير متناهية بين شعره المستعار وفروة رأسه. كما كان الشعر المُستعار قصيرًا للغاية ولذا كان يَجذبه لأسفل باستمرار لكيلا يَنحسر إلى أعلى ويكشف عن الفجوة الموجودة على جانبَي رأسه بين شعره الحقيقي وشعره المستعار.

لم يكن من السهل عليَّ أن أكذب على صالحين لأنني أحببته.

قلت له: «لم يكن في نيتي قط أن أدخل مجال العمل التجاري، ولكن العام الماضي بعت ٣٠٠٠ تي-شيرت، ودفعت ٩ دولارات عن كل تي-شيرت وبعتُه بسعر ١٦ دولارًا، مُحققًا ربحًا يقدر بـ ٢١ ألف دولار. وهذا المبلغ كان ربحًا خالصًا لي؛ فليس لديَّ أي التزامات لأدفعها. وآمل أن أُضاعف أرباحي من خلال توريدها من بنجلاديش.»

قال صالحين وهو يُعيد إليَّ الورق قائلًا: «حسنًا ... حسنًا، ليس لدينا بَعدُ هذا النوع من التجارة الإلكترونية في بنجلاديش. شريكك، السيد دالتون، قال إنك ترغب في زيارة بضعة مصانع، أليس كذلك؟»

أجبته قائلًا: «بلى، كل هذه الأمور جديدة بالنسبة إليَّ، وأريد أن أتعرَّف على العملية من بدايتها إلى نهايتها. لا يَعنيني المتجر الإلكتروني في شيء؛ كل ما أريده أن أُنفِّذ التصميم وأحصل على المال.»

قال صالحين وهو يُمسك هاتفه المحمول ويُغادر الغرفة: «انتظر من فضلك!» كانت الحوائط الخرسانية عارية وكذلك المكاتب. لم أرَ جهاز كمبيوتر. كانت الأرضية عبارة عن بلاط مُغطًّى بالقاذورات التي كانت تَترك أثرًا في حذاء من يسير عليها. كان التيار الكهربائي مقطوعًا، كان الضوء داخل الغرفة آتيًا من نافذة واحدة بلا زجاج. لم يكن المكان أشبه بشركة توريدات، وإنما شقة توريدات. تناثَرت أكوامٌ من عينات الثياب في كل مكان. اعتذر صالحين عن الفوضى في وقت سابق، كما أنه اعتذر عن عدم المرور لاصطحابي بسيارته الخاصة التي كانت موجودة في «الورشة»، وهو ما أدى إلى استقلالنا لعربة الريكشا إلى مكتبه.

قال صالحين وهو يُخرج رأسه من عند الزاوية: «حسنًا، سنذهب لزيارة المصنع.»

ركبنا حافلة لنُغادر دكا.

قال صالحين وهو يُفرجني على خلفية شاشة هاتفه المحمول التي كانت عبارة عن صورة طفل صغير على شفتَيه نصف ابتسامة ولا يرتدي شيئًا سوى تي-شيرت: «لديَّ ابن واحد. عمره ١٠ شهور. زوجتي تزور الأسرة في الهند. ولمدة شهر ونصف، أعيش أنا وهو بمفردنا.» ابتسم تفاخرًا بقيامه بمهام الأبوَّة وحده.

لم يكن العمل كوسيط في مجال تصنيع الثياب هو النشاط التجاري الوحيد لصالحين؛ فهو يُدير إحدى المُنظَّمات غير الحكومية التي قال عنها إنها «مخصصة للأم والطفل» وإنها تموِّل ٣١ عيادة طبية في مختلف أنحاء بنجلاديش ومشاريع أخرى لإلحاق الطلاب البنجلاديشيِّين بالجامعات الأجنبية خارج البلاد.

علمت أنه يُحاول شق طريقه في الحياة مثل أي شخص آخر في هذا العالم، واضعًا نصب عينيه أولوية أساسية واحدة؛ ألا وهي توفير مستوًى معيشيٍّ جيد لأسرته. كنت أهدر وقته تمامًا.

فكَّرت في هذا الأمر وإلى أي مدًى تبدو رائحة أنفاسه كما لو كان قد أخطأ وتناول كُرات النفتالين بدلًا من أقراص النعناع. فكَّرتُ في الكذبة: ما الذي سأقوله في المصنع وكيف سأعمل على عدم افتضاح أمري. أشعر بالذنب حيال الأمر برمَّته.

مررنا على حقول الأرز المغمورة بالماء. انحنى ستة أشخاص من فوق جانب زورق خشبي صغير مُنهمكين في شيء ما. لم أكن أعرف ما إذا كان للأرز سنابل يجب التخلُّص منها، ولكن هذا ما خُيِّل إليَّ أنهم يفعلونه. وغاصت مجموعة أخرى من الأشخاص في الوحل والماء. كانت الشمس تنفث لهيبًا من الدخان بسبب ارتفاع درجة الحرارة، ولولا نسيم الهواء القادم عبر نافذة الحافلة بفضل انطلاقنا بسرعة كبيرة، لكنتُ قد تحوَّلت إلى كتلة عرق. يمكنك أن تَستشعِر هبوب النسيم في بنجلاديش، ليس فقط بتحريكه لشَعرك، وإنما تشعر به وهو يلتصق ببشرتك وعينيك. رأيت مُزارعًا آخر في حقل الأرز يوجه قطيعًا من الثيران من أعلى عربة مستخدمًا سوطًا. فعندما كان يريد توجيهها ناحية اليمين، يَضرب الثور ناحية اليسار. كانت العربة مُكدَّسة بالقش، والثيران تغوص بأرجلها في الوحل ثم تُخرجها منه في حركة سريعة.

أخذت أفكر في مدى بشاعة أن تكون في موضع دوابِّ السُّخرة.

سألت دالتون: «إلى أين سنذهب بالضبط؟»

رد قائلًا: «إلى مدينة سافير. ليست بعيدة. هل سبَق لك زيارتها من قبل؟»

الفصل السادس

مدينة الملاهي في بنجلاديش

لقد زرتُ مدينة سافير من قبل، ولعله المكان الذي تركتُ فيه الانطباع الأقوى لدى السكان المحليِّين في بنجلاديش. ولو كان هناك مكان في بنجلاديش سيَعرفني أحد فيه، لكان هذا المكان هو مدينة سافير.

حدَّقتُ في حقول الأرز خارج نافذة الحافلة وتذكَّرتُ أول زيارة لي لهذا المكان واليوم الذي قضيته في مدينة الملاهي الفريدة مع رجل عجوز و١٩ طفلًا لن ينسوني أبدًا. وتمنَّيتُ فقط ألا يكتشفوا أمري.

تكفي سبعة وستون دولارًا لدفع ثمن تذكرة دخول طفل واحد لقضاء يوم في عالم والت ديزني بمدينة أورلاندو في ولاية فلوريدا.

وعلى الجانب الآخر، تكفي سبعة وستون دولارًا لدفع ثمن تذكرة دخول ٢٠ شخصًا لقضاء يوم في مدينة ملاهي فانتازي كينجدوم بمدينة سافير.

كان كل ما يتعيَّن علينا فعله هو العثور على هذا العدد.

«سيكون من الأفضل اصطحاب فتاة واحدة وفتًى واحد»، قالتها روما، وهي صحفية رياضية في العشرينات من عمرها أخذت إجازة مدتها يوم من عملها لتُساعدني في تنفيذ فكرتي المجنونة وهي: اصطحاب أكبر عدد مُمكن من الأطفال البنجلاديشيين إلى مدينة الملاهي. فركوب الأفعوانية بمنزلة رفاهية لم يَعرفها هؤلاء الأطفال على الأرجح، وباعتباري مُشجِّعًا مُتحمِّسًا أبديًّا للعبة الأفعوانية، كان هذا واقعًا تمنيت أن يتغير. ففي تلك الفترة، لم أكن أعرف أن هذه الخطة كانت وثيقة الصلة بالرحلة التي قطعتها بحثًا عن العُمال الذين صنعوا سراويلي الداخلية ماركة «جينجل ذيس». ولكن هذا حدَث قبل فترة طويلة

من معرفتي بأن مدينة الملاهي تُحيط بها مصانع الملابس التي تُوظِّف عددًا كبيرًا من سكان المدينة المحليِّين وأطفالهم.

قلت لها: «أريد ٢٠ طفلًا. سلي هؤلاء الأطفال.»

اقتربت روما من ثلاثة صِبية. وبينما كانت تتحدث إليهم، حدَّقوا بي.

قلت لها: «اطلبي منهم أن يذهبوا ويَعودوا بالمزيد من الأطفال.»

انتظرناهم أثناء قيامهم بهذا.

من خلفنا برزت أبواب ملاهي فانتازي كينجدوم، المشهد الأكثر تألقًا ونظافة وغرابة في بنجلاديش كلها. كانت الحوائط مصنوعةً من البلاستيك ولكن لها مظهر الأحجار الرملية. كان يعلوها طفلان من الشخصيات الكرتونية في غاية السعادة يتطلَّعان إلى الشوارع المزدحمة ومصانع الملابس المُجاورة. كان الفتى يُمسك في يده بصولجان، أما الفتاة فكانت تُمسك مرآةً ذات مقبض طويل بيد واحدة، وبأيديهما الطليقتَيْن كانا يرفعان إصبع الإبهام إلى أعلى إشارة إلى روعة المكان.

جاء الأطفال والكبار من كل حدب وصوب، وسرعان ما اجتمع الحشد.

وبمجرَّد أن اشترينا التذاكر، بدأت المهمة الصعبة: من معه تذكرة؟

نظَّمنا الأطفال في صفٍّ بدءًا بالأَقصَر ثم الأطول وبدأنا نُوزع التذاكر. لاحظت مجموعة من الرجال في منتصف العمر في الخلفية يُشيرون إلى مُزارع عجوز. شققت طريقي عبر الزحام وأعطيتُه تذكرة.

لم تكن توجد أيُّ طوابير داخل مدينة الملاهي. في الحقيقة، كنا — «نحن» — الطابور الوحيد، وأينما ذهبنا كان يتبعنا العامل المسئول عن تشغيل اللعبة. اخترنا لعبة شبيهة بلعبة العنكبوت الموجودة في المهرجانات التي كانت تُعقد في الريف أيام طفولتي. هَلَّلَ الأطفال وصاحوا في حماس مع دوَران اللعبة.

كانت مجموعتنا مُتحفِّظة ومُترددة بخصوص ما كان يحدث قبل أن يأتي دورنا لركوب اللعبة. ثمة فورة حماسية عجزتُ عن اكتشاف سببها. كانوا أطفالًا (باستثناء المُزارع العجوز) تَكتنفهم حالة من الهدوء رغم كونهم في مدينة للملاهي. ظلوا معًا وأنصَتوا لأي شيء تقوله روما. بل التزموا الصمت أغلب الوقت.

ولكن لعبة العنكبوت غيَّرت كل شيء؛ حيث إنهم شرَعوا في التصرف كأطفال، جميعهم بمن فيهم المُزارع العجوز. كانوا يتحدثون بعضهم مع بعض وقد اتسعت عيونهم في دهشة وفغرت أفواههم ولوَّحوا بأذرعهم. علمت ما قالوا: «هل رأيتموني؟ لم أكن مُمسكًا بشيء.» أو «كنت مغمض العينَين.» أو «هل حاولت أن تبصق؟ لقد فعلتها و…»

أنت لا تركب الألعاب في طفولتك وإنما تَغزوها غزوًا، والذين يُشاركونك في اللعب بمنزلة جنود في مهمة حربية برفقتك. عندما كنت في مرحلة الطفولة، أتذكر أنني كنتُ أصافح رفاقي بالأيدي لأعلى أثناء ترجُّلنا بعيدًا عن لعبة دوامة قيصر ولعبة البندول الطائر ولعبة الإعصار. ولعلَّنا نُلقي نظرة على الأطفال المُتحمِّسين المنتظرين في الصف وراءنا ونزهو في سعادة بتجربتنا المشتركة الرائعة.

تحدَّثنا أثناء تناول الغداء المكون من شطائر البيتزا والمشروبات الغازية. أخبرتهم بأنني أعمل صحفيًّا وأحاول الوصول إلى المصنع الذي يَصنع ملابسي الداخلية. وجدوا هذا شيئًا طريفًا. ثم حكوا لي عن أنفسهم.

كان راسيل يَتحدث القليل من الإنجليزية لأنه كان قد التحق بالمدرسة لمدة ست سنوات. وكان يعمل في مجال تصنيع الملابس مثله مثل هابير وزومون. لم يكن عُمْر هابير يتعدَّى الثامنة عشرة، إلا أنه كان مخضرمًا في العمل بالمصانع؛ إذ كانت لديه خبرة امتدَّت خمس سنوات مكَّنته من إعالة أسرته نظير تقاضيه مبلغ ١١٥ دولارًا كل شهر.

كان خمسة من الأطفال يعملون في جمع القمامة من الشوارع. كانوا يَنتقون من القمامة الزجاجات البلاستيكية وقِطَع الورق والورق المُقوَّى وأي شيء يُمكنهم بيعه. ولم يلتحق أحد منهم بالمدرسة ولو ليوم واحد.

لم تكن الفتاة الأصغر سنًّا في المجموعة — البالغة من العمر تسعة أعوام — ترتدي حذاءً أو قميصًا، ولكنها كانت تَرتدي قرطًا. كان شعرها مفروقًا على جانب رأسها ومُثبَّتًا بمشبك للشعر. وكانت ابنة عمها — في العاشرة من عمرها — تُعاني من آثار حروق تمتد من أصابعها حتى مرفقها. لقد وضعت يدها في الفرن حين كانت في سن صغيرة جدًّا ولم تكن على دراية بشيء حينها.

الحياة في بنجلاديش عبارة عن عمل بالنسبة إلى الكبار والصغار على حدٍّ سواء. وهؤلاء الأطفال كانوا أصحاب حِرَف.

كان هناك اثنان من الصبيان يَبيعان في الشوارع أرز الجالموني، وهو نوع من الأرز الحار. وكان في مجموعتنا أيضًا اثنان من أصحاب المتاجر، وخبير في الطب الشعبي في الرابعة عشرة من عمره، واثنان من بائعي الخضار، واثنان من الحلاقين، بالإضافة إلى المُزارع العجوز، السيد أزهر؛ وهو والدٌ لسبعة أطفال، ذو لحية بيضاء وأسنان أكثر بياضًا، كان وجهه المميَّز تعلوه خطوط تركتها سنوات العمر ما بين ابتسامة وألم وعمل شاق.

سألتهم قائلًا: «مَنْ منكم سبق له المجيء إلى هنا؟»

أعادت روما السؤال وكان راسيل هو الوحيد الذي رفع يده.

ثم طرحت سؤالًا آخر: «مَنْ منكم سبَق له أن أكل البيتزا؟»

مرة أخرى، لم يرفع أحد يده سوى راسيل. ولم أكن بحاجة إلى سؤالهم عما إذا كانت البيتزا قد أعجبتهم أم لا. كان من الواضح أنها لم تُعجبهم؛ حيث ظلَّت شرائح البيتزا التي لم تؤكل بالكامل في الأطباق الورقية على حالها. لقد افترضت أنهم جائعون وتوقَّعت أن يلتهموا بشراهة أي شيء يوضع أمامهم.

وبعد تناول الغداء، مررنا أمام زوجين ثريَّين أشارت إليهما روما بأنهما عاشقان. كانا يجلسان على لعبة وحدهما، كلاهما فقط. كانا ثريَّين؛ فأي شخص في بنجلاديش قادر على دفع ثلاثة دولارات ثمن تذكرة دخول مدينة الملاهي هو شخص ثري. فبعض مواطني بنجلاديش لا يُمكنهم تحمُّل ثمن شراء قمصان لبناتهم. اشتريت قميصًا أزرق-سماويًّا مطبوعًا عليه فانتازي كينجدوم للفتاة ذات القرط التي لم تكن ترتدي قميصًا. كان ثمنه دولارًا واحدًا. فحصتُه وعرفت أنه صُنع في بنجلاديش.

في ساحة اللعب، كانت توجد أُرجوحات معدنية غريبة الشكل. ركبتُ واحدةً أمام أحد الصبية الأكبر سنًّا. شعرت بألم في ركبتي من جراء النزول على الأرض والدفع لأعلى مرة أخرى. فركتهما، فضحك المزارع العجوز. بينما كانت الفتيات يلعبن على الزحلوقة. وأشار إليَّ أحد الصِّبيان لألتقط صورة له وهو جالس على لعبة كنغر هزازة، ووقَف الفلاح العجوز أيضًا استعدادًا لالتقاط صورة على لعبة الكنغر.

حدَّق الناس فينا في محاولة لاستنباط ما يحدث بالضبط. لم يكن بإمكانهم فهم اللغز وراء مجموعتنا: فتاة بنجلاديشية تَنتمي إلى الطبقة العليا ورجل غربي ومجموعة من الأطفال الفقراء ومزارع عجوز.

كانت هناك لعبتان للأفعوانية في مدينة ملاهي فانتازي كينجدوم؛ واحدة كبيرة، وهي قد تُعتبر صغيرة في أيِّ مدينة ملاهٍ أخرى، وواحدة صغيرة، قد تُعتبر مناسبة لركوب الأطفال في أيِّ مدينة ملاهٍ أخرى. وعندما أشارت إلى الأفعوانية الكبيرة، هَلَّلَ الأطفال في بهجة.

وفي طريقنا، مررنا على مجموعة من الكبار الذين جلسوا في لعبة الأفعوانية الصغيرة. أشرنا إليهم وضحكنا قائلين: «ما زالوا صغارًا!»

وبينما كنا نسير، أخذ بعض الأطفال يَقفزون. كانت الحجارة التي جعلتْها حرارة الشمس كالجمر بمنزلة مصدر تعذيب للأقدام الحافية، ولكن لم يَشتك منهم أحد. كانوا يَثِبون في مرح وحسب.

امتلأت لعبة الأفعوانية الأولى بالأطفال ولم يكن يوجد مكان لي أو للمزارع العجوز. ثبت الأطفال أحزمة الأمان وانطلقوا. صعدوا التلَّة وهبطوا. أجَّل الخوف الصرخات لكنها انطلقت على أيِّ حال. استغرقت اللعبة أقل من ٣٠ ثانية. وبينما كانت الأفعوانية في طريقها إلى التوقُّف، خرَج أحد الصبية بائعي الأرز الحار، وهو في حالة من الفزع، من أسفل قضيب التثبيت الخاص بمقعد اللعبة ووثَب على الرصيف قبل أن تتوقف اللعبة تمامًا.

استقللتُ القطار الثاني وأخذت مكاني في المقعد الأمامي بجوار المُزارع العجوز. تطلَّع إلى حزام أمان المقعد في ارتباك. ثبَّتُّ له حزام الأمان ثم أنزلت قضيب التثبيت الخاص بمقعد اللعبة. مررنا من أمام أول مجموعة للأطفال الواقفين على الأرض وهلَّلوا في بهجة أثناء صعودنا التلة. أشرت للجميع لكي يَرفعوا أيديهم إلى أعلى. وقد رفعهما المزارع العجوز ولكنه أنزلهما عند الوصول إلى قمة التلَّة، انتفخت عروقه وهو يَتشبَّث بقضيب التثبيت وكأنها مسألة حياة أو موت. أسند العجوز رأسه إلى كتفي أثناء استدارتنا مع منحنًى حادٍّ. وبنهاية اللعبة، كان كلانا يضحك بشدة حتى دمعت عيوننا.

سرنا عبر مدينة الملاهي في زَهو.

أخبَر المزارع العجوز روما أنه يمرُّ كل يوم بهذا المكان ولكنه لم يسبق له زيارته قط؛ حيث قال: «كنت أحلم بزيارة هذا المكان. ولم أتخيَّل أبدًا أنني سأستطيع الدخول إلى هنا. أنا مزارع، ولم يكن هذا مُمكنًا. الآن، أنا سعيد للغاية.»

بالنسبة إلى بعض مواطني بنجلاديش، يفوق مبلغ الـ ٦٧ دولارًا راتب شهر كامل. ربما كان يتعين عليَّ استغلال أموالي في شيء عملي أكثر بالنسبة إلى الأطفال. فعلى أيِّ حال، كل طفل يستحق حذاءً وقميصًا. ولكن إذا تَطلع الأطفال إلى البوابة المُقوَّسة العالية لمدينة الملاهي، أثناء مرورهم عليها في طريقهم إلى العمل أو أثناء جمعهم القمامة من الشوارع وتذكروا لعبة الأفعوانية والشعور بتقلُّصات في المعدة والنسيم يمر بين خصلات شعرهم والهروب من واقع الحياة لبعض الوقت، فإن هذه الأموال تكون قد صُرفت في موضعها المناسب.



شكل ٦-١: الملوك والملكات يقضون يومًا في ملاهي فانتازي كينجدوم.

إننا نعيش في عالم مُضطرب وغير متوازن، وربما كان من المُحبط أن نفكر في هذا الأمر، ولكننا جميعًا لدينا الحق في الاستمتاع قليلًا. فلقد قضينا بضع ساعات كملوك وملكات في ملاهي فانتازي كينجدوم. قضينا وقتًا ممتعًا حقًّا (شكل ٦-١).

الفصل السابع

أولى جولاتي داخل المصانع المستغلة

بالعودة إلى مدينة سافير للمرة الثانية، وقفَت الحافلة أمام مدينة الملاهي فانتازي كينجدوم مباشرةً وترجَّلتُ منها أنا وصالحين. قادني صالحين من موقف انتظار الحافلات في اتجاه المصنع. كنت أتوقع، في أي وقت، أن يُقابلني صدفةً أي طفل من الأطفال الذين ذهبوا معي إلى فانتازي كينجدوم ليَكشف هويتي الحقيقية.

أدركت أننا نَقترب من الهدف لأنني استطعت سماع هدير الماكينات التي تعمل بفعل مُولِّد كهربائي. لا بد أنه حدث انقطاع للتيار الكهربائي. ومع ظهور المصنع على مرأى البصر، شعرت بالارتياح لأنه لم يتعرف عليَّ أحد.

وعبر نوافذ المصنع، رأيتُ صفوفًا وصفوفًا من ماكينات الخياطة ورءوس البشر المُنكبَّة عليها. كان كل طابق من المبنى مؤجرًا لشركة ملابس مستقلة. وفي طريقنا إلى الطابق العلوي، مررت أنا وصالحين على حراس واقفين على كل جانب من الدرج إلى جوار كراسيهم المعدنية القابلة للطي وأدوا إلينا التحية أثناء مرورنا عليهم. كان الموقف غريبًا، كما لو أنهم تلقوا تعليمات: «احرصوا على أداء التحية إذا رأيتم أي شخص أجنبي، هل فهمتم؟» لسنا لواءَين بالجيش، وهم ليسوا جنودًا بالتأكيد، فأجسادهم مُترهِّلة ويرتدون زيًّا غير مناسب. كانت تحيتهم فاترة. قادنا الحارس الموجود في الطابق السادس إلى أحد المكاتب، وبعد دردشة موجزة، بدأنا نتباحث في أمور العمل.

أخذ ثلاثة رجال، يرتدي كلٌّ منهم رداءً زهري اللون، يتفحصون ملابسي الداخلية ماركة «جينجل ذيس». وأقصد يتفحَّصونها بالمعنى الحرفي للكلمة إذ أخذوا يشدُّونها ويَبسطونها ويتحسَّسون نسيجها بأيديهم ويُعرِّضونها للضوء. فعلوا كل شيء تقريبًا باستثناء شمِّ رائحتها.

كنت قد أعددت لهذه الرحلة حقيبة خفيفة، وظللتُ أستخدم السراويل الداخلية القصيرة على نحو مُتكرِّر. وبينما كنت أشاهد عملية الفحص وهي تتمُّ أمامي، حاولت أن أتذكر آخر مرة ارتديتُ فيها هذا السروال الداخلي، وهل كنت قد غسلته حينذاك. لم أتوقع قط أن يخضع لهذا الفحص الدقيق.

أخذ الرجال — أصحاب الزي الزهري اللون — ملابسي الداخلية وغادَروا الغرفة. من الواضح أن ثمة نوعية معينة من الأدوات تُستخدم لفحص الملابس الداخلية ومُخزَّنة في مكانٍ ما داخل المصنع.

جلس السيد أسد، صاحب المصنع، قبالتي خلف مكتب فسيح. كان يَحمل في حجره ابنه ذا السنوات الثلاث الذي كان يلهو في هدوء بخيطٍ قصير. تحدثنا عن انقطاع التيار الكهربائي وأخبَرني أن هذا كان يُكلفه ٧٠٠ دولار شهريًّا ثمن الوقود اللازم لتشغيل المُولِّدات الكهربائية.

لم يكن بإمكاني فهم أغلب ما كان يقوله أسد؛ حيث كان يتحدَّث بسرعة، وباءت محاولتي قراءة حركة شفتيه بالفشل بسبب كسل عينه الذي جعلها تَنحرف جهة اليمين. ولم أستطع منع نفسي من التحديق فيها.

أظن أنه سألني عن رغبتي في تفقُّد المصنع؛ ومن ثم تبعتُه حين وقف وتوجه ناحية الباب. أمسك صالحين بالباب ليَفتحه على مصراعيه، وخطوت أنا إلى داخل أرضية المصنع.

تُشكِّل صناعة الملابس والمنسوجات في بنجلاديش ٧٦ بالمائة من صادرات البلاد السنوية، أو ما يعادل نحو ثمانية مليارات دولار. ورغم ذلك، في عام ٢٠٠٥، كان رجالات الصناعة في بنجلاديش يظنون أنه كُتب عليهم مواجهة مصير محتوم، وذلك بعد وقف العمل باتفاقية الألياف المُتعدِّدة؛ وهي عبارة عن سياسة تفرض القيود على كمية الملابس التي تستطيع الدول النامية تصديرها. وباعتبار بنجلاديش واحدة من أفقر الدول في العالم، سُمح لها أن تُصدِّر بقدر محدود من الرسوم والقيود في ظل اتفاقية الألياف المتعددة. وكان هذا يعني أنه بإمكانهم المُنافَسة على المستوى العالمي مع دول مثل الصين التي خضعت صادراتها لقيود مُشدَّدة بموجب هذه الاتفاقية. ولكن مع وقف العمل باتفاقية الألياف المُتعدِّدة، تمتعت الصين بمطلق الحرية في تصدير الكمية التي ترغبها للدول المتقدمة، ما أدى إلى احتباس أنفاس الصناعة ببنجلاديش. كيف يتسنى لهم الدخول في منافسة أمام الصين؟ فالصين تَمتلك بنية تحتية؛ حيث إنها ليست مُضطرة إلى استيراد

المواد الخام، فهذا البلد القديم الضخم لديه كل شيء تقريبًا، بما في ذلك العدد الكافي من الفقراء للعمل بأجور متدنية.

إلا أن بنجلاديش استهانت بما لديها من قدرة على تحقيق قيمةٍ وتوفير في التكاليف. فبنجلاديش تَمتلك أرخص عمالة في العالم؛ أرخص حتى من الصين. ليس بإمكان صناعة الملابس والمنسوجات في بنجلاديش أن تظلَّ باقية وحسب، بل يُتوقع أن يتضاعف حجمها خلال السنوات الثماني القادمة.

ويمثل قانون ظروف العمل اللائقة والمنافسة العادلة (٢٠٠٧) أكثر المخاوف المُستجدة على مجال الصناعة، وهو معروف أيضًا باسم مشروع قانون مناهضة المصانع المُستغِلة الذي طرحه مجلس الشيوخ الأمريكي. وعلى الرغم من أن مشروع القانون ربما يُمثِّل المرة الأولى التي يقترح فيها الكونجرس الأمريكي مثل هذا التشريع، فإنها ليست المرة الأولى التي يتَّخذ فيها المواطنون الأمريكيون إجراءً ضد ظروف العمل في بنجلاديش.

في عام ١٩٩٢، أذاع برنامج «ديتلاين» المُذاع على شبكة إن بي سي مقطع فيديو جرى تصويره من داخل أحد مصانع الملابس في بنجلاديش؛ حيث ظهَر فيه أطفالٌ صغار في سن السابعة يقومون بتشغيل ماكينات ويَحيكون الملابس لصالح خطٍّ إنتاج أحد المنتجات المعروضة بوول مارت. وزعمت إدارة وول مارت أن العُمال الذين ظهروا في مقطع الفيديو يبدون كأنهم أطفال في سنِّ السابعة من العمر ولكنهم في الحقيقة كانوا أشخاصًا راشدين عانوا سوء التغذية وتأخُّرًا في النمو.

لم يَقتنع المستهلكون الأمريكيون بهذا التبرير. وصارت عبارة «صُنع في بنجلاديش» مرادفَ «صُنع بأيدي الأطفال». وبدافع الشعور بالقلق حيال عمالة الأطفال في بنجلاديش، اتخذنا الإجراء الوحيد الذي كنا نَعرفه؛ ألا وهو مقاطعة الملابس المصنوعة في بنجلاديش، إلا أنَّ الأطفال لم تَرُق لهم مساعدتنا. في الواقع، «احتجُّوا» على المقاطعة الأمريكية، بالإضافة إلى المنظمات غير الحكومية المُدافعة عن حقوق الأطفال في بنجلاديش وعُمال آخرين في مجال صناعة الملابس. لم يَرغب الأطفال في فقدان وظائفهم؛ حيث إنهم مُضطرون إلى إعالة أسرهم.

وفي عام ١٩٩٤، طلبت جمعية مُصنِّعي ومُصَدِّري الملابس والمنسوجات في بنجلاديش — تحت ضغط المقاطعة الأمريكية والصورة المُشوَّهة للمُلصق الخاص ب «صُنع في بنجلاديش» — من المصانع العاملة تحت إمرتها طرد جميع الأطفال دون سن الرابعة عشرة بلا تعويض. ولقد احتجَّت المنظمات المحلية غير الحكومية والنقابات العُمالية على هذا القرار بعدما امتلأت شوارع دكا بالأطفال العاطلين عن العمل.

واستجابةً لهذه الأزمة، موَّلت الحكومتان الأمريكية والبنجلاديشية، بالإضافة إلى المنظمات الدولية مثل منظمة العمل الدولية وصندوق الأمم المتحدة للطفولة (يونيسيف)، المدارس لاستقبال الأطفال المُتسرِّبين من التعليم بسبب العمل إلى أن يصلوا إلى السن القانونية للعمل.

هذه هي الطريقة التي انتهت بها عمالة الأطفال المُنتشِرة على نطاق واسع في مجال صناعة الملابس والمنسوجات ببنجلاديش. الآن يُمكنك أن تشتري ملابس مصنوعة في بنجلاديش وأنت تعرف أنها ربما تكون قد حيكت بأيدي أطفال أُميِّين في سن الخامسة عشرة، لا (على الأرجح) بأيدي أطفال أُميين في سن الرابعة عشرة من العمر على أقل تقدير. لكن هذا لم يُغير من الأمر شيئًا؛ فمُستويات عمالة الأطفال واصلت ارتفاعها على نحو مُحزن للغاية. ووفقًا لاستطلاع الآراء الوطني عن عمالة الأطفال الذي أجراه مكتب الإحصاءات البنجلاديشي عن عامَي ٢٠٠٢–٢٠٠٣، يعمل ٩٣ بالمائة من الأطفال العاملين في القطاع غير الرسمي. وفي حين أن ثمة عددًا محدودًا من الأطفال الذين يُصنِّعون ملابسنا في بنجلاديش، يوجد ٤٫٩ ملايين طفل تتراوح أعمارهم ما بين خمسةِ وأربعة عشرة عامًا يعملون في وظائف أخرى (شكل ٧-١).

قادنا أسد من أمام طاولة عالية تتكدَّس عليها أكوام من الملابس. كان عدد قليل من العاملين يُمسكون بما بدا وكأنه قطَّاعات خبز كهربائية عملاقة ذات أنصال يبلغ طول الواحد منها قدمَين. كانت إحدى السيدات تضع علامات على القماش باستخدام عيِّنة تصميم، ثم تُحضرها للقص. كانت تقص العينة الخاصة بالتي-شيرت. امتلأ الهواء بغبار القطن المستخدم. رأيت سيدة أخرى تُمسك بمقص كبير يتراوح حجمه بين حجم المقصات العادية والمقصات المستخدمة في مراسم قص الشرائط. كانت تقطع قطعة من القماش وتُضاف القصاصات إلى كومة كبيرة بجوارها.

كان المصنع نظيفًا، وتوجد علامات مميِّزة للمخارج، وتبعث المراوح نسيمًا لطيفًا في المكان. بدت الظروف جيدة جدًّا. في الواقع، شعرت بالراحة من جراء رؤية الأمور في حالة أفضل كثيرًا مما كنتُ أتوقع.

في ذلك اليوم، كانوا يَصنعون التي-شيرتات، ولكن كان باستطاعتهم تصنيع أي شيء آخر، بما في ذلك الملابس الداخلية، كما أكدوا لي.

كانت توجد ثمانية خطوط إنتاج، على كل خطٍّ منها يعمل ٤٠ شخصًا — ليس من بينهم، على ما يبدو، أطفال أو «أشخاص راشدون يُعانون من سوء التغذية وتأخُّر في



شكل ٧-١: صبي يبيع الزهور في شوارع دكا.

النمو» — وبها ١٥ ماكينة خياطة. سرنا بموازاة أحد الخطوط، ولاحظت خيوط القطن العنكبوتية تُغطي رءوس العمال. لم يكن هناك أحاديث جانبية، بل مجرَّد صوت ماكينات الحياكة وحركة سريعة للأيادي. وتساءلتُ في نفسي ما إذا كانت أيديهم تتحرَّك بهذه السرعة عندما لا يُراقبهم المدير ومعه بعض الأجانب.

ومثلما تجاهلتُ العين الكسولة لدى السيد أسد، حاولتُ أن أتظاهر بعدم وجود العمال. أنا في مهمة لشراء الملابس، ولست مُهتمًّا بالعمال، بل مهتم بالمنتجات التي يُنتجونها.

قال أسد، وهو يلتقط تي-شيرتًا قد استُكمل صنعه من عند نهاية خط الإنتاج: «يُمكننا إنتاج ١٢٠٠٠ قطعة في اليوم الواحد.»

أومأتُ برأسي تصديقًا على كلامه وأخذت التي-شيرت منه. استحضرت صورة الرجال أصحاب الرداء الزهري اللون وأنا أتظاهر بفحص طبقات النسيج عند الرقبة والكُمَّين وأي شيء آخر أظن أنه ينبغي أن أفحصه في التي-شيرت. قمت ببسطه وتعريضه للضوء ثم أضفتُه إلى كومة التي-شيرتات.

عُدنا إلى مكتب أسد. وحدثته عن شركتي وبدأنا نجري الحسابات.

قلت له: «أظن أنني سأطلب حوالي ٥٠٠٠ تي-شيرت و٣٠٠٠ سروال داخلي قصير رجالي. ما حجم الطلبيات المعتادة؟»

قال أسد: «عادةً تكون الطلبية ٢٠٠٠٠ قطعة، ولكننا على استعداد لتقديم استثناءات لعملاء المرة الأولى.»

عاد أصحاب الرداء الزهري بسروالي الداخلي. أعطوني إياه وأعطوا السيد أسد ورقة. ضرَب أرقامًا على الآلة الحاسبة.

وعلق قائلًا: «ثلاثة آلاف قطعة؛ إذن ستتكلَّف القطعة الواحدة ٢٫٦٠ دولار»، ثم ضرب بعض الأرقام الإضافية وأردف قائلًا: «أضف ٠٫٥٠ دولار قيمة مصاريف الشحن على كل قطعة، يكون الإجمالي ٣٫١٠ دولارات للقطعة الواحدة.»

بصفقة قيمتها ٩٣٠٠ دولار، يُمكنني أن أدخل مجال تجارة الملابس الداخلية. فإذا قمتُ ببيع القطعتين بسعر ١٥ دولارًا، فسيكون مكسبي ٣٥٧٠٠ دولار مطروحًا منه مصاريف الشحن لنقلها من الميناء في الولايات المتحدة إلى مخزني الذي أعتقد أنه سيكون مرأب والدي، هكذا ستفوق أرباحي ٧٠ ألف دولار في العام. كل ما يجب عليَّ فعله هو استخراج رخصة تصدير وإرسال الأموال إلى المُورِّدين.

شكرت أسد على وقته، وتحدَّث إليه صالحين باللغة البنغالية. خمَّنت أن الأمر له علاقة بملصق السعر٣٫١٠ دولار كسعر لطقم الملابس الداخلية، وهو سعر مرتفع قليلًا على الأرجح. أنا الأحمق، وكلاهما يتعاون مع الآخر للإيقاع بي في شباكهما.

استنتجتُ أنه من المستحيل أن أحدد موقع مصنع الملابس الفعلي الذي صنَع ملابسي الداخلية؛ إذ يوجد أكثر من ٣٠٠٠ مصنع في بنجلاديش، ويوجد بها وسطاء ضعف هذا العدد. وهذه المصانع ذات ملكية خاصة وتتعامل مع عدة علامات تجارية. ربما تصنع اليوم ملابس داخلية، ولكن لعلَّها تتحول إلى تصنيع الجينز غدًا، وتصنيع التي-شيرتات

بعد غد. أسوأ الافتراضات أن ملابسي الداخلية قديمة وأنا واثق من أن الرجال أصحاب الزي الزهري سيَشهدون بذلك. فالأرجح أن المصنع الذي صنَعها جرى بيعه أو إغلاقه أو إحراقه أو ربما أصبح إنتاجه مُقتصرًا على الملابس الداخلية النسائية العادية ذات اللون الأخضر الفاتح.

دخلنا المصنع من جديد. لم أنظر إلى العمال، ولكنَّني كنتُ أشعر بنظراتهم إليَّ.

كنت أتساءل في نفسي عما يأكلون وأين يَنامون وما الذي يُضحكهم. كنتُ أتساءل في نفسي عن رأيهم فيَّ.

الفصل الثامن

عمالة الأطفال على أرض الواقع

كنتُ طفلًا عاملًا في سن الحادية عشرة من عمري.

كان الجو حارًّا بالمصنع الذي عملت فيه. كانت نشارة الخشب تتطاير في الهواء من أنصال المناشير التي تُصدر أزيزًا أثناء العمل وتَستقرُّ على جلدي. لقد عانيت من دخول شظايا الخشب في جلدي وعانيت من الجروح والندوب أيضًا. فذات مرة اضْطُررت إلى تخييط جرح. كنت أقطع الخشب وأمسح الأرضيات وأعمل على ماكينة تَسحق الأخشاب وتُقطعها. كنت أتقاضى أربعة دولارات في الساعة.

كان عقدي مع المصنع مكتوبًا بالدم.

ففي الولايات المتحدة، لا يوجد حدٌّ أدنى للسن إذا كان والداك هما أصحاب المصنع أو الشركة التي تعمل بها. يا له من حظٍّ! بينما كان أصدقائي يقضون إجازات الصيف في النوم أو على حمام السباحة، كنتُ أعمل في شركة والديَّ المُتخصصة في تصنيع الهياكل الخشبية؛ حيث أُقَطِّع الألواح الخشبية لتصنيع هياكل حظائر الدجاج والخنازير والديوك الرومي. كان لي بعض الأصدقاء الذين عانوا مِحَنًا مشابهة، ولعل آدم عانى أسوأها. أشعر بالشفقة على ابن صاحب مزرعة الألبان.

كنتُ أستيقظ الساعة ٥:٤٢ صباحًا وأقطع الطريق — وأنا شبه نائم — المفروش بالحصى والمؤدِّي إلى حظيرة طويلة مطلية باللون الأبيض. كانت بعض الألواح الخشبية ثقيلة جدًّا بحيث يتعذر عليَّ حملها. كان بإمكاني التعامل مع جميع أطوال الألواح ذات الأبعاد ٢ × ٤ بوصات، ومعظم الأطوال ذات الأبعاد ٢ × ٦ بوصات، ولكن عندما تكون الألواح الخشبية أكبر من ذلك، كنتُ أقضي الوقت في كنس الأرضية. وعندما كنتُ أحمل الخشب أو أكنس الأرضية، كنت أستغرق في أحلام اليقظة أو أفتعل المشكلات. كنت أحشو بعض الأنابيب الموجودة على منشار كهربائي بنشارة خشب وأنتظر اللحظة المناسبة لنفخ

هذه النشارة باستخدام خرطوم الهواء لأضع أحدهم في مأزق. وكنتُ أستمتع باللعب بالشحم. فإذا ترك أحدهم مطرقةً أو شريطًا في مكانٍ ما حولي لمدة طويلة، كنت أضع عليه طبقةً من الشحم؛ ومن ثم حين يُمسك بها تصبح يده متسخة تمامًا وشديدة الالتصاق.

وللأسف، حصلت على نصيبي من المزاح الثقيل؛ فالجميع يروق له أن يمزح مزاحًا ثقيلًا مع ابن المدير. وإذا لم يسبق لك تجربة دخول نشارة الخشب في سروالك، فلن أنصحك بها على أيِّ حال.

لم أكن أفضل بنَّاء هياكل خشبية، ولكن كان الوضع سيُصبح أسوأ حالًا لو عملت في مجال تصنيع الملابس. فعامل الملابس الجيد هو إنسان مُطيع محروم من الاختيارات. وكما هي الحال مع الكثير من الأطفال ممَّن هم في نفس سني، كان لديَّ طموحات كبيرة ونشأتُ على شعارٍ يتردد في ذهني دومًا وهو: «يُمكنك فعل أي شيء تُقرِّر فعله.» كنت أقضي نصف وقتي في حساب عدد الساعات التي يجب أن أعملها حتى يَتسنى لي شراء سيارة «ترانز آم» التي رغبت في اقتنائها؛ حيث كان يَفصلني عن سن السادسة عشرة — السن القانونية لاستخراج رخصة القيادة — خمس سنوات فقط. أما فيما تبقى من وقت، كنتُ أحاول تحديد فريق كرة السلة المُدرج في الرابطة الوطنية لكرة السلة الذي أُفضِّله لكي أسجل نفسي ضمن قائمة لاعبي ٢٠٠١، وذلك عقب ما حقَّقتُه من نجاح ساحق في مسيرتي الجامعية الناجحة في مؤتمر «بيج تن» للنشاط الرياضي داخل الجامعات.

كان لديَّ ثقة (كبيرة جدًّا) وأحلام (كبيرة)، كنت منطلقًا. وكان أمامي أيضًا ست سنوات دراسية. وكل هذه المُقوِّمات لا تؤهلني لأن أصبح عاملًا جيدًا في صناعة الملابس. فمنذ قيام الثورة الصناعية، لطالما كانت ملابسنا تُصنع بأيدي الأشخاص الأقل حظًّا؛ بالأساس الشابات الأميات اللاتي كنَّ بحاجة ماسة للعمل.

ففي إنجلترا خلال القرن التاسع عشر، كانت الصناعة تُحابي النساء والأطفال بسبب وفرة عددهم والأجور المتدنية التي يتقاضونها وشخصياتهم المطيعة. ونظرًا لما تتلقاه عمالة الأطفال من اعتراضات وانتقادات، وحين عبَرتِ الصناعة المحيط الأطلسي وانتقلت من إنجلترا إلى إقليم نيو إنجلاند في أمريكا، اعتمدَتْ بالأساس على الشابات غير المُتزوِّجات القادمات من المناطق الريفية. هل يُمكنك أن تُخمِّن من عمل في مصانع الملابس حين انتقَلت الصناعة إلى الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية؟ إنهنَّ الشابات المطيعات القادمات من المناطق الريفية، كما هي الحال حين انتقلت الصناعة إلى اليابان وهندوراس والصين وبنجلاديش.

في الواقع، كلما كان الشخص مطيعًا، كان ذلك أفضل.

اصطحبني دالتون إلى عدد من المصانع المُستغِلة في مدينة نارسينجدي، شمال شرق دكا. ولا يَقتصر المعنى الذي أقصده بمصطلح المصانع المُستغلة على تلك المصانع التي يتقاضى فيها العمال أجورًا أقل من الحد الأدنى المقرر فيدراليًّا للأجور أو الذين يتلقون معاملة سيئة، وإنما أقصد أيضًا المصانع ذات الحرارة المرتفعة جدًّا.

بالطبع، لا تُعدُّ مصانع الملابس الخطوة الأولى في سلسلة إنتاج ملابسي الداخلية؛ حيث إن القطن يُزرع ويُجنى ويُحوَّل إلى بَكَرات عملاقة من الخيوط التي تتحول إلى لفافات كبيرة من القماش يجري صبغها بعد ذلك ثم شحنها إلى مصانع الملابس التي تُعد الخطوة الأخيرة في العملية، بينما تأتي مصانع الغزل والنسيج في الخطوة قبل الأخيرة.

يَمتلك عم دالتون مصنعًا صغيرًا للغزل والنسيج في ضَيعتِه. وقفَت شاحنة صغيرة متعطلة خارج كوخ من الصفيح وسط مكان نمَت به الحشائش. داخل المبنى شاهدتُ رجلين عاريي الجذع يرتديان تنورتَيْن فضفاضَتَيْن مُحكمتَي اللفِّ حول خَصْرَيْهما وكأنهما سروالان قصيران. كانا يعملان بكدٍّ. كانت العملية يدوية بالكامل. أحدهما كان يلفُّ عجلة خشبية كبيرة مزوَّدة بنحو مائة بكرة خيط، أما الآخر فكان يجلس أسفل قوس الخيوط الملوَّنة موجهًا تلك الخيوط نحو أداة خشبية غريبة الشكل. كان الرجلان يَعملان في صمت رتيب، مُتجاهلَيْن وجودنا. تخيَّلت أن تلك كانت الطريقة التي أُنتجت بها الملابس لقرون.

المصنع التالي كان أحدث. منَحنا المدير المُهندَم الثياب حرية التجول في أرجاء المصنع. كان بإمكاننا السير في أي مكان نرغبه والحديث مع أي شخص نُريده والتقاط صورٍ لما نُشاهده. وقد أخبره دالتون بالحقيقة في هذه المرة: قال له إنني كاتب من الولايات المتحدة. ولكن لم يُمثِّل هذا مشكلة بالنسبة إلى صاحب المصنع. كان سعيدًا باصطحاب رجل أجنبي في جولة بالمصنع.

دلفْنا من الباب لنُشاهد صبيَّين مراهقَين يعملان على ماكينة صغيرة. على حدِّ علمي، كانت مهمتهما هي إعداد لفائف الخيوط للماكينات الأكبر حجمًا من خلال فك الخيوط ولفِّها مرة أخرى.

كان أحد الفتيَين يُمسك بالخيط من خلال أداة بدت أشبه بنُسخة مصغرة من الطبق الكارتوني الذي تُوضع فيه النقانق (شكل ٨-١). بدت شفتُه العليا وكأن دودة قز مثيرة للشفقة زحفت عليها واستقرَّت فوقها ثم ماتت. لم يكن عمره يتعدى الخمسة عشرة عامًا بأيِّ حالٍ من الأحوال. طلب منه دالتون أن يُبطئ إيقاع عمله قليلًا حتى يَتسنَّى لي مشاهدة ما كان يفعله، إلا أن يده واصلت الحركة بسرعة بالغة.

كانت الأَنْوَال الكهربائية تصدر إيقاعًا يُمكن سماعه من أي مكان بالمدينة. رأينا مرة أخرى رجالًا عراة الجذع يَعملون على ماكينات أيضًا، لكن تلك الماكينات كانت مختلفة عن العجلة اليدوية الأولى التي رأيناها. كانت الحدافات (وهي عبارة عن عجلات دوارة مُتصلة بمحرك الماكينة للحفاظ على سرعتها ثابتة) تَجعل السيور تدور بسرعة بالغة. تحرَّكتِ الأنوال لأسفل وأعلى. أشار إليَّ أحد الرجال لأقترب أكثر، ولكني آثرتُ البقاء بعيدًا عن جميع الأجزاء المتحركة. الوضع الآمن هو عدم ارتداء زيٍّ، وكنتُ أرتدي قميصًا فضفاضًا. كانت القاعة تحتوي على صفوف متوالية من وحدات العمل المتشابهة التي يعمل فيها رجال مُتشابهون نصف عراة شديدو النحافة. لم أكن متيقنًا من قدرتي على تحمُّل الموقف؛ فالجو حارٌّ جدًّا، والضوضاء صاخبة للغاية. ففي الولايات المتحدة، سيمتلئ المكان بالحراس والملصقات ووسائل حماية السمع، أما هنا فلا يوجد شيء من هذا.



شكل ٨-١: صبيان يعملان في مصنع للغزل والنسيج.

قادَنا أحدهم إلى مكتب مدير المصنع الذي قدم إلينا عِنَبًا وبرتقالًا ومشروبات غازية. وحدَّثَنا عن كيف بدأ والده هذا المشروع التجاري عام ١٩٦٥، وحدَّثنا عن شعوره بالفخر لتطويره هذا المصنع الجديد. كان يبيع القماش لمصانع الملابس في بنجلاديش وحول العالم، بالأخصِّ في اليابان وبعضها في كارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية.

حمَل الموظفون لافتات عليها صور للمدير وهو يتَّسلم جوائز تقديرًا لإسهاماته في المجتمع. ظلوا هم ودالتون يتحدثون عنه باعتباره «ناشطًا اجتماعيًّا»؛ حيث إنه تبرَّع بمبالغ كبيرة لأحد المستشفيات القريبة. كان رجلًا لطيفًا، عريض المنكبَين، انحسر شعره قليلًا عند جبهتِه وله ملامح صارمة. قوبلتُ بترحيب بالغ في مصنعه، حتى وإن كان هدفي هو التقاط صور للعمال القُصَّر لديه. كان يَمتلك خمسة مصانع أخرى.

قال أحد الأهالي الذي صحبَنا في جولتنا: «إنهم يعملون على مدار الساعة. فالمرء يعمل لمدة ١٢ ساعة في كل مرة. والماكينات لا تتوقف أبدًا عن العمل.»

سألته عما إذا كانت تَحدث الكثير من الإصابات.

أجاب: «ليست سيئة جدًّا، ولكن ...» مُشيرًا إلى قطع طولي يمتد من أحد أصابعه وصولًا إلى ساعده ليُريني ما يتعرض له العمال من فقدان لأصابع وأذرع.

كان مصنع الصباغة هو الأكثر سوءًا واستغلالًا من بين جميع المصانع المُستغِلة. أفران ضخمة، كلٌّ منها على شكل دودة ذات أفواهٍ حمراء لامعة تبتلع قطع القماش الطويلة. فالحرارة تساعد في تثبيت الألوان على القماش. كان الجو خانقًا. شاهَدنا الأولاد المُراهِقين يعملون وسط ضباب من الأبخرة المتصاعدة مُستخدِمين عِصيًّا خشبية لدفع القماش داخل الأفران.

قلت لدالتون: «سلهم عن أعمارهم.»

رد دالتون، رافضًا في حزم طلبي لترجمة السؤال الذي قد يتسبَّب لنا في المتاعب، قائلًا: «لا داعي للسؤال!»

كانت المتاجر المصطفَّة على جانبي شوارع مدينة نارسينجدي تغلق أبوابها عند حلول الظلام، ولكن كانت لفائف وأكوام القماش ما زالت تُنقل عن طريق وسائل النقل المُمكنة. أتت شاحنة محمَّلة عن آخرها من زقاق باتجاه الطريق الرئيسي وتوقفت أمام أعمدة الكهرباء. كانت مُكدَّسةً بحقائب الأقمشة، وكان ارتفاعها مبالغًا فيه ويَعوقها عن المرور من تحت الأسلاك. وفوق الشاحنة وقف رجلان يُمسكان بعصًا من الخَيْزُرَان ويَرفعان الأسلاك؛ لم يكن يفصلهما عن الموت سوى العصا. ترنَّحت الشاحنة ذهابًا وإيابًا بينما كان السائق يحاول اجتياز المُنحدر الوعر. كان العاملان الموجودان فوق الشاحنة تمكَّنا من تثبيت السلك على العصا. قرَعت عربة ريكشا تسحب حمولة من لفائف النسيج الطويلة والهزيلة أجراسها، معطية لي إشارة لأتنحى جانبًا في أثناء مرورها. ولم يَبدُ أن أحدًا يُفكر في العاملَين اللذَين يواجهان الموت فوق الشاحنة؛ فصناعة الغزل والنسيج لا تتوقف لأجل شيء هنا في مدينة نارسينجدي.

انتابني شعور مُزرٍ للغاية في الوقت الذي غادرنا فيه إلى دكا. لقد قطعت كل هذه المسافة إلى بنجلاديش لأُشاهد العمال وهم يعملون، ولكن لم يَرُق لي ما شاهدته؛ فالأطفال، الذين كان ينبغي لهم الالتحاق بالمدارس كانوا يعملون. وأكَّد لي دالتون أن هؤلاء الأطفال إن لم يعملوا، فإنهم سيتسوَّلون في الشوارع أو سيعملون في ورش اللحام الموجودة بدكا القديمة أو في مصنع الطوب حيث يَشتغلون بتكسير الأحجار، أو ربما يفعلون مئات الأشياء الأسوأ والأصعب والأخطر في الشوارع، وبمُقابل أقل مما يحصلون عليه نظير عملهم في مصانع الغزل والنسيج أو مصانع الملابس.

من السهولة حقًّا أن تُصبح معارضًا لعمالة الأطفال؛ ففي الولايات المتحدة لا يوجد شيء نقدره أكثر من الحفاظ على براءة الأطفال؛ فالأطفال ينبغي أن يَثِبوا فوق رشاش المياه بالحديقة، ويُطاردوا الفراشات، ويشربوا منتجات كول إيد أو تانج، ويُؤمِنوا ببابا نويل وأرنب الفصح، ويَصنعوا الحصون باستخدام الأغطية والأثاث، ويُشاهدوا أفلام الرسوم المتحركة، وبوجهٍ عامٍّ لا ينبغي أن ينشغلوا بأي شيء سوى الذهاب إلى المدرسة والاستمتاع بأوقاتهم. وإذا التحقوا بالعمل، فلا يكون ذلك من أجل الحصول على دخل لدفع نفقات المأكل والمسكن، وإنما من أجل تعلُّم تحمُّل المسئولية، أو بناء الشخصية أو الادخار من أجل مستقبل باهر. فالأطفال الأمريكيون يتمتَّعون بالحماية من واقع الحياة الصعب.

أما الأطفال في بنجلاديش فلا يَتمتعون بذلك. لم أعرف أحدًا في الولايات المتحدة مطلقًا مات من الإسهال أو الملاريا. ولم ألتقِ مطلقًا بشخص مُصاب بالجذام. سيكون من الرائع إذا ما تمكن الأطفال الذين يقضون يومهم في كسب المال لسدِّ رمق أُسَرهم أن يلتحقوا بالمدرسة بدلًا من الذهاب إلى العمل. ولكن ليس هذا واقعهم، أو لم يُصبح واقعهم بعد.

ربما يجادل المرء بقوله إن المصانع التي تُوظِّف الأطفال تَفعل الخير، بينما أبناء الغرب الذين ينادون بوقف عمالة الأطفال يَتسبَّبون في الأذى لهم في حقيقة الأمر. قرأتُ عن صاحب مصنع يُوفِّر وظائف للأطفال القُصَّر المُعدمين ومن هم بحاجة ماسة إلى المال؛ فهو بذلك يَعتقد أنه يقدم يد المساعدة للأطفال، وربما هو يفعل ذلك فعلًا.

إن منع الأطفال من تصنيع ملابسنا لا يَنفي ضرورة عمل الكثير من الأطفال في بنجلاديش، وإنما يَنفي شعورنا بالذنب تجاه هذه الحقيقة. فهذا المنع يُريح ضمائرنا ويساعدنا على نسيان حقيقة أننا نعيش في مثل هذا العالم القاسي.

هل الأم التي تُرسل ابنتها ذات الأعوام الثمانية إلى الشارع لتَجمع الزجاجات البلاستيكية أو لتتسوَّل أو لتعمل في مصنع؛ أقلُّ حبًّا لابنتها من الأم الأمريكية التي تُرسل ابنتها إلى المدرسة؟ وهل هي أم تَفتقر إلى الأخلاقيات؟ استنتاجي، بعد زيارتي لبنجلاديش، هو أنه لا يَنبغي لنا أن نَخجل من ملابسنا التي يصنعها الأطفال بقدر ما نخجل من العيش في عالم يَفرض عمالة الأطفال كضرورة للبقاء على قيد الحياة.

وسواء أكان الأمر يَتضمَّن عمالة الأطفال أم لا، فإن ظروف العمل في صناعة الملابس والغزل والنسيج في بنجلاديش هي الظروف المعيشية السائدة في الدولة بأكملها.

هذه هي ثقافة الفقر.

الفصل التاسع

عريفة، عاملة الملابس

يَكسب نحو مليوني شخص عيشهم من العمل في مجال صناعة الملابس ببنجلاديش. لقد رأيتُهم يسيرون في الشوارع في الصباح الباكر ومعهم غداؤهم؛ رأيتهم يعملون أسفل مصابيح فلورسنت على ماكيناتهم، وقرأت عن معاناتهم والانتصارات التي كانت تُحققها تلك الصناعة في الصحف المحلية صباح كل يوم. تَتصدَّر العناوينَ الرئيسية بصحيفة دكا «ذا نيو إيدج» الصادرة باللغة الإنجليزية في صباح يوم واحد أخبارٌ على غرار: «إصابة ٢٥ في اشتباكات عمال الملابس»، «مظاهرة عمال مصنع التريكو بسبب تأخُّر الرواتب»، «انتحار عامل ملابس»، «زيادات الصادرات بنسبة ٢١ بالمائة لتصل إلى ٨ مليارات دولار في ثمانية أشهر».

يعتقد عالم الاقتصاد جيفري ساكس، مدير معهد ذا إيرث إنستتيوت الذي يعمل أيضًا مستشارًا خاصًّا للأمين العام للأمم المتحدة بانكي مون، أن صناعة الملابس في بنجلاديش وغيرها من الدول النامية هي فرصة لإيجاد مَوطئ قدم على أولى درجات سلم الاقتصاد العالمي؛ ففي كتابه الذي بعنوان: «نهاية الفقر» (نيويورك: بنجوين، ٢٠٠٥)، كتب يقول:

> لا يغذي قطاع الملابس نمو الاقتصاد في بنجلاديش بنسبة تفوق خمسة بالمائة كل عام في السنوات الأخيرة وحسب، وإنما يَزيد وَعْيَ النساء في المجتمع وسلطتهنَّ أيضًا ... وهذا التغير وغيره يُتيح الفرصة أمام بنجلاديش في السنوات القليلة القادمة لتضع نفسها على طريق آمن للنمو الاقتصادي طويل الأمد.

فالنساء العاملات من المرجح أن يُنجبن عددًا أقلَّ من الأطفال؛ فخسارة الوظيفة أثناء فترة الحمل أو الإنجاب أو رعاية الطفل أمر تَكلفته باهظة نوعًا ما؛ ومن ثم فالنساء

العاملات يُنجبن عددًا أقل من الأطفال يتحمَّلن مسئولية مأكلهم وملبسهم ورعايتهم الصحية، ولديهن المزيد من المال لأداء هذه المسئولية. وذكر ساكس أن المعدل الإجمالي للخصوبة — متوسط عدد الأطفال الذين تُنجبهم المرأة في حياتها — في بنجلاديش عام ١٩٧٥ بلغ ٦٫٦. أما اليوم فيبلغ المعدل الإجمالي للخصوبة ٣٫١. هكذا، يُعدُّ تعليم النساء وتوظيفهن إحدى أفضل الطرق لانتشال المجتمع من براثن الفقر.

كان السيد مون، مدير الاتحاد القومي لعمال الملابس في بنجلاديش، رجلًا قصير القامة ذا مظهر يُوحي بالجدية. كان مكتبه الخالي — المزوَّد بطاولة واحدة وكرسيَّين شاغرَين — مظلمًا؛ مظلمًا جدًّا لدرجة أنني استغرقت دقيقة كاملة لكي أُلاحظ أن الحوائط مغطاة بورق جرائد عليه صور لعمال صناعة الملابس ما بين قتلى وجرحى. كان لديه الكثير من الأسباب التي تجعل منه شخصية جادة.

وافق على تقديمي لعدد من عمال صناعة الملابس، واصطحبني إلى مبنًى سكني مليء بالعاملين. تحدثنا إلى عُمال، كبار وصغار في السن، عن حياتهم وأسرهم ومستقبلهم. التقيت بعامل، يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، ويعمل في مصانع الملابس منذ ٢٠ عامًا، ويَتقاضى ٤٥ دولارًا في الشهر. وتحدثت مع فتاة جميلة، تبلغ من العمر ١٨ عامًا، ذات ابتسامة جميلة واسمٍ يُتَرجَم إلى «المُغنية»، تتقاضى ٢٤ دولارًا في الشهر. قالت لي إنها تُريد أن تصبح طبيبة، وهو ما ذكَّرني بنفسي وأنا أقول أريد أن أسافر إلى الفضاء.

إلا أن سيدةً تُدعى عريفة كان لها بالغ الأثر في نفسي؛ شعرت أنها ربما تكون من نوعية النساء التي تحدَّث عنهن ساكس في كتابه. تلك النوعية من النساء التي عندما تَتحدث، يَستمع إليها الجميع. أعددتُ لقضاء يوم معها من شروق الشمس وحتى مغيبها لأعرف ما إذا كانت تَتمتَّع بتمكين اجتماعي أم أنها تُجرَّد من إنسانيتها بسبب عملها في مجال صنع الملابس لأشخاص مثلي.

لقد جئتُ إلى بنجلاديش لأقابل الأشخاص القائمين على تصنيع ملابسي مثلما كان هدفي عندما سافرت إلى هندوراس، إلا أنني لم أُساعد نفسي على تحقيق النجاح في هندوراس؛ فلم أطرح الأسئلة التي كنتُ أرغب في طرحها خلال الدقائق القليلة التي قضيتُها مع أميلكار؛ أسئلة لم أكن على استعداد لتلقِّي إجاباتها. كان الأمر أشبه بالصعود إلى حافة الهاوية، وإلقاء نظرة عن كثب ثم التراجع والسير مُبتعدًا وأنا أقول: «لا، شكرًا!» أما الآن فإنني عازمُ النية على اتخاذ القرار لخوض التجربة؛ أقصد التعرف على وظيفة

عريفة باعتبارها عاملة في مجال تصنيع الملابس، والتعرُّف على معاناتها للعيش بأقل من ١ دولار في اليوم، وآمالها لأطفالها باعتبارها أمًّا عزباء.

كانت الساعة الخامسة صباحًا وشوارع دكا خالية من المارة. هكذا، كان من المخيف أن تكون أنت الوحيد الذي يَسير في شارع بإحدى المدن الأكثر ازدحامًا في الدولة الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم.

وقد حذَّرني موظف الفندق من الخروج في ذلك الوقت.

حيث قال الموظف: «هذه [الفكرة] في غاية الخطورة. ربما يُمكنك الخروج بعد الساعة العاشرة صباحًا، ولكن في «ذلك» الوقت من اليوم احتمالات تعرُّضك للخطف مُرتفعة.»

فقلت له: «ماذا لو خرجتُ بدون أي شيء؟ بدون أموال. بدون كاميرا. بدون جواز سفر.»

وجاء رده: «على الأقل ستَتلقَّى طعنةً جراء إثارة غضبهم لأنك لا تَحمل معك أي شيء.»

يا للهول!

فسألته قائلًا: «هل يستطيع سائقكم أن يَصحبني إلى هناك ويأخذني إلى الشقة؟ أقصد أن يتصرَّف وكأنه حارس شخصي لي؟»

وبالفعل، اصطحبني السائق إلى وجهتي. كان السائق أقصر مني بنحو خمس بوصات، ولكنه كان يختال في مشيته مُستعرضًا كتفَيه في شموخ. كان بطنه بارزًا بحيث تدلَّى من فوق حزامه. وبوجه عام، كان يبدو أشبه قليلًا بحارس حانة يَتجرع كل مساء مزيجًا من البيرة الرخيصة. بالطبع، لم يكن واردًا أن يكون حارس حانة في بنجلاديش؛ حيث إنه بلد يَحظر بيع الخمور عمومًا.

كان النوم لا يزال يداعب عينَي السائق أثناء قيادة سيارة الفندق وسط الشارع. كدتُ أحتضنُه حين وافق في الليلة السابقة على اصطحابي، إلا أننا كنا نتعامل برجولة مُفرطة تَحُول دون الانخراط في مثل هذه الأفعال الصبيانية. فعلى أيِّ حالٍ، كنا في طريقنا إلى مواجهة جريئة مع شوارع دكا الخالية من المارة.

كنتُ في كامل يقظتي وحذري تحسبًا لأن يعترض طريقنا عصابات الخطف وقُطاع الطرق والسارقون والمحتالون والبلطجية والعصابات المسلحة واللصوص وكل مَن يخطر ببالك من هذه الفئات الخطيرة. ثم رأيتُ عددًا من الأشخاص يتحدثون عند الزاوية، وما

أثار الرعب في نفسي أن السائق توقَّف على جانب الطريق ليسألهم عن الاتجاهات. أنزل زجاج نافذتي ومال ناحية مسند الذراع ليتحدَّث إليهم. تراجع اثنان من أفراد العصابة المحتملة، ووضع زعيمهم إحدى يديه على سقف سيارتنا والأخرى على بابها. كانت أصابعه تتدلى داخل السيارة حيث ظهرت أظافره الطويلة صفراء لا سيما ظفر خنصره الحاد بالقدر الذي يَكفي لقطع رقاب الأجانب ذوي البشرة الرقيقة الذين يَتجرَّءون على الخروج في الساعات الأولى المُظلمة من النهار. تشاور مع عصابته ثم أشار إلى الزاوية.

فعلنا هذا الأمر مرارًا وتكرارًا؛ إذ توقَّفنا وسألنا تقريبًا كل شخص رأيناه في الشارع عن الاتجاهات. فلو وُجد مُجرمون بالجوار، لكانت تلك فرصة كبيرة أتحناها لهم لارتكاب جرائمهم على أيِّ حال.

قلت وأنا أشير إلى السائق كي يتوقف: «ها قد وصلنا.»

وجد السائق مكانًا ليوقف السيارة فيه بعيدًا عن الطريق المُفضي إلى الزقاق الضيق، وسِرنا في زقاق أضيق منه. تعرَّفتُ على الرائحة — مزيج من الكرنب الفاسد والبراز — وعرفتُ سبب الشعور بالحرقان الذي انتاب أنفي وصدري. قدت السائق إلى البناية الخرسانية ناحية اليسار حيث اصطحبني السيد مون لأول مرة.

لم تُجرَ أيُّ محاولة على الإطلاق لجعل هذه البناية ذات مظهر جمالي يَسرُّ الناظرين. بدا المبنى من الخارج والداخل على الأخص كما لو أن حريقًا قد ترك آثاره على الخرسانة وأسقط أيَّ دهانات على الحوائط.

تقوَّست درجات السلم نتيجة لتآكلها وتحطمها، وبدا من المحتمل انهيارها في أي وقت. وكان يوجد من قبل درابزين، والدليل على ذلك بروز دعامات للدرابزين خضراء من الحائط على مسافات متفرقة. وصلنا إلى الطابق السادس والدور الأخير للبناية. كان السائق يلهث بشدة، وتسارعت أنفاسي أنا أيضًا نوعًا ما.

همست قائلًا: «عريفة؟» كان الرواق مضاءً بلهب مُنبعث من موقد غاز يحمل فوقه وعاء أرز.

ابتسمتْ لي الطاهية، الواقفة عند الموقد، ابتسامةً خفيفة واختفت داخل غرفة في نهاية الردهة. أعطيت السائق حفنة من عملة التاكا البنجلاديشية وشكرته على مساعدتي. نظر إليَّ في ارتباك؛ لم يكن متقنًا للغة الإنجليزية بالقدر الذي يَجعلني أشرح له ما أفعله. لا بد أن الأمر، بالنسبة إليه، بدا وكأنني أتصرف بطريقة مريبة: إما أنني بصدد مقابلة إحدى العاهرات، وإما أنني سأَشتري المخدرات.

حتى وسط هذا الضوء الخافت، تعرَّفت على وجهها؛ كان لها فكٌّ حادُّ القسمات وعينان كبيرتان وجبهة بارزة. كانت ترتدي قميصًا فضفاضًا قرمزي اللون وسروالًا أزرق، ووشاحًا بألوان قوس قزح مربوطًا حول رقبتها. كان على وجهها آثار النوم وكانت ملابسها لا تزال مجعَّدة.

أومأت لي مشيرة إلى داخل الغرفة وأجلستني على فراش ينام عليه طفلاها. كانت سعدية الصغيرة، أربع سنوات، نائمة في الزاوية بجوار الحائط تتقلَّب في هدوء ذات اليمين وذات اليسار. في كل مرة نظرت إليها، رأيتها في وضع مختلف. أما عابر، ١١ عامًا، فكان ينام على نحو أكثر هدوءًا.

أشارت إليَّ عريفة كي أرفع ساقيَّ، وقد فعلتُ ما طلبتْ، فسحبَتْ دلوًا به أرز من أسفل الفراش وبدأت تغرف أكوابًا منه. أحصيت الأكواب في سري ... أربعة ... خمسة ... ستة. كان بإمكاني أن أسمع صوت كل حبة أرز تصطدم بالوعاء.

بُنيت الغرفة من أي شيء وكل شيء. كان الورق المقوَّى يعزل السقف والحوائط، أما القوائم فمصنوعة من الخَيْزُرَان والأرضية من الخرسانة، والسقف والحوائط الداخلية مصنوعة من ألواحٍ خشبية. في حين أن الحوائط الخارجية كانت عبارة عن صفائح معدنية يتخلَّلها ثقوب يتسلل من خلالها خيوط الفجر الأولى. كانت توجد خزانتان، واحدة في الوجهة مباشرة ذات أبواب زجاجية متحركة ومقصورتان علوية وسفلية: المقصورة العلوية تحتوي على الملابس وملاءات الفراش والمناشف، أما المقصورة السُّفلية فتحتوي على الأطباق والأواني الفضية ولعبتَين محشوَّتَين على شكل حيوانات.

أغلب المساحة الموجودة بالغرفة يَشغلها فِراشان كبيران نام عليهما أربعة أشخاص في الليلة السابقة. الشخص الرابع هو ديدر خان، زوج أخت عريفة؛ وهو يعمل لدى شركة جيليت ويتحدَّث القليل من الإنجليزية. أخذ يغسل أسنانه لمدة نصف ساعة. في المرة الأولى بصق على حائط السلالم مضيفًا بقعًا بيضاء بدت وكأنها براز سائل لطائر. في المرة التالية، بصق عبر ثقب في الحائط الموجود إلى جوار فراشه.

عادت عريفة. كان الأرز جاهزًا، وقد حان وقت إعداد باقي وجبة الإفطار. أخرجت وعاء الخضراوات من أسفل الفراش الآخر وجلست على الأرضية. وضعت نصلًا مقوَّسًا على الأرضية موجهة إياه لأعلى وبدأت تقطع بحِرفيةٍ البصلَ والبطاطس وخضراوات أخرى من خلال تمريرها على حافة النصل. كانت سريعة ولم تكن بحاجة إلى النظر إلى ما تقطعه. أحيانًا كانت تنظر إليَّ أثناء محاولتنا التواصل، وأحيانًا أخرى كانت تنظر إلى

طفلَيها وتبتسم. وبعد أن تراكمت قطع الخضراوات على الأرضية، جمعتها وأخذتها إلى المطبخ.

سِرْتُ في الردهة، كان الغاز المُنبعث من الموقد يُلهب عيني، ولذا صعدت إلى سطح البناية. من أعلى رأيت دكا تستيقظ من النوم لتوِّها؛ حيث قطَع رنين أول أجراس عربة الريكشا صمت الصباح. بالأسفل، كان الشحاذون يَبدءون يومهم مُبكِّرًا وكان أول تعاملات السوق لهذا اليوم في طريقه للبدء. رأيتُ التجار ينقلون بضائعهم إلى متاجرهم في سلال كبيرة من الخوص يحاولون تثبيتها فوق رءوسهم. وعلى سطح بناية قريبة وقَف رجل يؤدي تمارين الإطالة، وفوق سطح بناية أخرى وقف صبي صغير يؤدي مهامَّه الصباحية الروتينية، ولكنه توقف طويلًا بما يَكفي ليُلوِّح لي.

عدت إلى الداخل وجلست على الفراش. قدَّمت لي عريفة الإفطار، لم أرغب في تناول الطعام؛ فما لديهم قليل للغاية. وبعد أن رفضتُ ثلاث مرات، تناولت في النهاية شطائر التورتيللا والحساء الأخضر ثخين القوام المصنوع من الخضراوات التي خلطتها وهرستها. كان مذاقه حارًّا قليلًا بالنسبة إليَّ، ولكني تناولته على أيِّ حال.

عبر الردهة ومن غرفة صغيرة في آخرها، راقبني ثلاثة رجال من فوق فراشهم الذي كان عبارة عن هيكل خَيْزُرَاني تعلوه رقائق من الألواح. كان الثلاثة يَعملون في صناعة الملابس.

كانت عريفة تؤجِّر الغرفة من الباطن للعمال، فيَدفعون لها ١٤٫٦٠ دولارًا في الشهر مقابل تأجير الغرفة والوجبات المقدَّمة لهم. كانت عريفة تطبخ لما لا يقل عن سبعة أشخاص في كل مرة. غَرَفَ الرجال الأرز بأيديهم من أوعية كبيرة وخلطوه بالحساء الأخضر كثيف القوام والتهموا الطعام. انعكس الضوء الآتي من النافذة الموجودة خلفي على حافة فراشهم. كان بإمكاني أن أُميِّز الوعاء، ولكني لم أتبين وجوههم؛ كل ما رأيته أيديهم التي تَغرف من كومة الأرز.

استيقظَت سعدية وكنتُ أول شخص أبصرته عندما فتحت عينيها؛ فطفقت تبكي. وبعد أن دغدغتُ قدميها بقلمي، بدأت تُقهقه. لم يكن من الصعب كسب صداقة طفلة في الرابعة من عمرها. كانت تُقهقه فقط عند دغدغة قدميها، ثم تُعاود البكاء دون أن يظهر عليها أيُّ علامة للتوقف.

سألت ديدر: «ما خطب سعدية؟»

تلعثَم في الكلام قبل أن يجد الكلمات التي يبحث عنها قائلًا: «سعدية جائعة للغاية.»

جلست عريفة على الفراش ومدَّت يدها أسفل حَشِيَّة الفراش وسحبت رزمة من عملة التاكا البنجلاديشية الحمراء فئة العشرة وأعطتها إلى عابر. عاد عابر ببعض شطائر التورتيلا وأعطاها إلى سعدية. وبعد أن تناولت سعدية عدة قضمات منها، بدتْ مُهتمَّةً باللعب بطعامها أكثر من اهتمامها بتناوله.

في البداية، كان من الصعب أن تُحدد ما إذا كانت سعدية ولدًا أم بنتًا؛ فقد كان شعرها قصيرًا وملابسها لا تُعطي أي علامة تدلُّ على جنسها. كانت ابتسامتها بها قدر من المشاكسة وتَكشف عن كامل أسنان فكها العلوي. أما بشرتها فكانت كثيرة النتوء. أظن أنها تُعاني حتمًا بعض المشكلات الصحية ذات الصلة بالكساح أو داء السعفة أو شيء آخر لم يَشغل تفكيري من قبل قطُّ. سألت عريفة عن الأمر.

قالت لي: «المياه ليست جيدة. إنها تأتي من السقف.»

جلس عابر على الفراش وأخرَج حافظة أوراق بلاستيكية.

قالت: «لقد اشتريتها له حين كنت في تايلاند مع اتحاد مُصنِّعي الملابس.»

عكف عابر على حلِّ مسائل رياضية للقسمة المطولة تحتوي على أقواس كثيرة مستعينًا بالآلة الحاسبة الموجودة على هاتف عريفة المحمول. كان عابر طويل القامة هزيل البِنية يرتدي قبعة بيسبول مسحوبة لأسفل بحيث غطَّت حاجبيه. وعندما كان يحمل سعدية، كان يبسط ساقه لتجلس على فخذه مثلما تفعل والدته. وأحيانًا كان يجلس القرفصاء لكي يتسنى لسعدية الركوب على ظهره وحملها؛ وهي لعبة كانت تُحبها كثيرًا.

كان لعريفة ابنٌ آخر، يُدعى أرمان. كان في الثامنة عشرة من عمره ويعمل في المملكة العربية السعودية، وهو عُرف سائد بين الشباب في بنجلاديش. كان أرمان يتقاضى ١٤٦ دولارًا في الشهر ويرسل نصف المبلغ إلى والدته في وطنه.

قالت عريفة: «لقد سافر قبل خمسة أشهر وسيَمكث هناك خمس سنوات أخرى على الأقل.» رأيت الحزن في عينيها وهما تتَّجهان صوب عابر؛ فإذا سنحت له الفرصة، فسوف يُسافر أيضًا مثل أخيه. وعقَّبت عريفة قائلة: «كان أبوهم محتالًا، والحكومة لا تعتني بأولادي. الوضع هنا يختلف عما هو عليه في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة. ليس أمامهم خيار. كنت أتمنى أن يلتحقوا بالمدرسة لمدة أطول، لكن هذا ليس ممكنًا.»

وبعد تناول الإفطار، ذهب عابر إلى المدرسة وذهب ديدر إلى مصنع جيليت. أما أنا وعريفة وسعدية فذهبنا إلى السوق.

كانت عريفة تعمل لدى مصنع ستاندرد جارمنت، ولكن ساقها جُرحت بطريقة ما وأخذت إجازة لمدة شهر حتى تتعافى. عندما كانت تَعمل كانت تتقاضى ١٠ سنتات في الساعة وتعمل لمدة ٦٠ ساعة في الأسبوع، لتكسب بذلك إجمالي ٦ دولارات أسبوعيًّا.

كان التجار يعرضون أطعمتهم على قِطَع من المشمع البلاستيك. أخذ الذباب يحوم حول السمك مُصدرًا طنينًا. وفي ثلاجة لعرض اللحوم — أشبه بعربة بيع الليمون الخاصة بالأطفال من حيث الحجم والشكل — تدلَّت من الخطاطيف شرائح من اللحم. كان الباعة يَغمسون أيديهم في المياه ويرشون الخضراوات التي يبيعونها.

وبغضِّ النظر عن الزحام، كانت عريفة تشق طريقها وتتولى شأن العمل. بإمكاني أن أجزم بأنها تحصل دومًا على السعر الذي تُريده. كان الباعة يعرفون تمام المعرفة أنه من الأفضل عدم محاولة التفاوض معها على السعر. كان الناس يُحدقون بي، وعريفة تبتسم وتضحك وهي تومئ ناحيتي أثناء مُواصَلة حديثها. كان أمرًا طبيعيًّا أن يُحدقوا بي، غير أنه كان يوجد عدد من الأطفال الصغار أكثر من المعتاد يُمسكون بذراعيَّ ويديَّ. وبكلمة من عريفة، تفرَّقوا. كنت دائمًا أبحث عن سعدية وسط الزحام، وكانت عريفة تنظر إليَّ وتقول: «لا داعي للقلق.»

لو أن قرية بأكملها تُشارك في تربية طفل، فإن هذا يَنطبق تمامًا هنا؛ فقد كانت سعدية دومًا برفقة شخص تناديه بخالتي أو خالي.

بدأت عريفة تُعد وجبة الغداء للعمال. جلستُ عند زاوية الفراش وكتبت على عجالة بعض الملاحظات. بدأت الأمطار تتساقط، وغفوت على الصوت المتناغم لتساقط الأمطار على السطح المصنوع من الصفيح. استيقظت من النوم لأجد وسادة تحت رأسي ومروحة موجَّهة ناحيتي.

عادت سعدية مع واحدة من خالاتها. رسمتُ على راحة يدي وجهًا وعرضته عليها. ضحكت. فأضفتُ لسانًا، وضممت راحة يدي ثم بسطتها. فضحكت ثانيةً. ثم أضفتُ أذنين ... وجسدًا ... وسهمًا عبر الرأس ... واصلنا اللعبة حتى وقت الغداء.

قُدم لي الأرز. لم يكن أي نوع من الأرز، وإنما كان نوعية من الأرز المستورد ذي حبة أصغر حجمًا يُقدَّم لضيوف الشرف. ولم أستوعب هذا الشرف حتى أشار إليه أحدهم. فبالنسبة إليَّ، لا يَختلف نوعُ أرز عن آخر.

كانت سخونة طقس النهار تلفح السطح المصنوع من الصفيح. لم يكن هناك مفر. ومما زاد الأمر سوءًا انقطاع التيار الكهربائي، وتوقَّفت المروحة عن الدوران وزر التشغيل مضغوط عليه إلى الداخل. جلسنا على الفراش وتبادلنا أطراف الحديث.

غمرت سعدية شعرها بكمية صغيرة من كريم بريلكريم؛ فركته بيديها الصغيرتين وقهقهت. كانت طفلة صغيرة تُحب أن تتباهى بمظهرها. دلكت عريفة شعر طفلتها واحتضنتْها بحنان.

أشارت إليَّ خالة سعدية كي أجلس إلى جوار النافذة لأحظى بميزة تَنَفُّس القدر اليسير من النسيم القادم من الخارج. تحرَّكت الستائر الخفيفة الممزقة حركة طفيفة. كانت الستائر مصنوعة من قماش شفاف وفي حالة يُرثى لها. كانت بمنزلة محاولة بائسة لتجميل المكان.

نظرت إلى أسفل نحو المزيد من الأسطح المصنوعة من الصفيح الصدئ والمملوءة بالثقوب مثل الحائط الذي أَستنِد إليه. كان من الصعب والمؤلم تخيُّل فكرة أنني كنتُ شاهدًا على الوضع الاقتصادي المُتدني الذي تعيشه بنجلاديش والمستقبل الذي يَنتظر هذا البلد، وأنا بالطابق السادس من بناية آيلة للسقوط تفوح منها رائحة كريهة حيث يتشارك ١٦ شخصًا حمامًا واحدًا.

كنت أحمل في جيبي ٢٠ دولارًا، وسواء كان ذلك يصبُّ في مصلحة التقدم الاقتصادي أم لا، كان بإمكان عريفة الاستفادة بها أكثر مني.

قادتني عريفة إلى مصنعها، ستاندرد جارمنت، لمقابلة بعض العمال الذين سُمح لهم بالخروج أثناء النهار. كانت الشمس في كبد السماء تُحوِّل أشعتُها ذرات الغبار المُنبعثة من السيارات ساعة الذروة إلى وردية. كان يَسير معنا رجل التقيتُه في شقة عريفة؛ ربما كان صديقًا حميمًا لها. كان مريبًا على نحوٍ مُشابه لشخصية الخادم لارتش في مسلسل «عائلة آدامز». في غرفتها حاولتُ أن أتواصل معه مستخدمًا مجموعة من إشارات اليد وتعبيرات الوجه، ولكنه كان يُقابل كل شيء بنظرة سفَّاح جامدة. كنتُ سأعطيها المبلغ لو لم يكن موجودًا. فلو فعلتُ حينها، لربما تملَّكه الشك إزاء ما فعلتْه لتَكسب هذا المال، ولسنا بحاجة إلى ذلك على أيِّ حال.

مررنا على سيل مُتدفِّق من الأشخاص الذين وصفتْهم عريفة بأنهم عمَّال مصانع الملابس. توقفتْ وتحدثت معهم لتُبين لهم من أكون. اشترت بعض الفول السوداني من بائع مُتجوِّل ودفعت له المقابل دون أن تُعره كثير اهتمام. سعد الناس برؤيتها. كانت واثقةً ومحبوبة.

كانت الشوارع تزداد ازدحامًا كلما اقتربنا من المصنع. كانت الشاحنات تَتحرَّك للأمام وللخلف مرارًا وتكرارًا مُحاولة الدخول إلى زوايا ضيقة أو الخروج منها. كانت المصابيح الأمامية للشاحنات تعكس ظلال العمال على أرض الشارع الموحلة.

توقفت عريفة على بعد ٣٠٠ قدم من بوابة المصنع. ولو مضينا قدمًا لأبعد من ذلك، لتسبَّب وجودي في وقوع مشكلة؛ فليس من الطبيعي أن يَلتقي المُصنِّع والمُستهلِك. لا بأس من أن أراقب سير العمل في المصنع بصفتي عميلًا محتملًا. لكن المشكلة هي أن أقف بجوارهم في شارع موحل بأي صفة أخرى غير تلك الصفة.

كان المشهد مشابهًا للمشهد الذي رأيته بعيني في المصنع الموجود بهندوراس؛ أقصد السيل الذي لا ينقطع من عمال المصانع والباعة المُساوِمين على الأسعار والمارة والسيارات، وجميعهم كان يتسابق على مكان للوقوف. بالنسبة إليَّ الأمر أشبه بالفوضى المنضبطة، وبالنسبة إليهم هي الساعة السادسة من يومٍ عادي. في هندوراس لم أكن أعرف شيئًا عن حياة العاملين. أما هنا فأنا أعرف بعض الأشياء عن حياة عريفة، ويَكفي أن أعرف أن عددًا كبيرًا من مئات العمال الذين يمرُّون بجواري يعيشون في ظروف معيشية أصعب بكثير مما كنت أتخيل.

غربت شمس اليوم الذي قضيته مع عريفة. ثم أوقفَت عريفة سيارة أجرة لي. الأولى كانت أجرتها مرتفعة على نحوٍ مُبالَغ فيه، فأشارت لسائقها بالانصراف. والتالية تفاوَضت مع سائقها على الأجرة. اعتنت عريفة بي طوال اليوم سواء كان ذلك باديًا من خلال وضع وسادة تحت رأسي أو توجيه المروحة ناحيتي أو تقديم أرز مستورد على شرف ضيافتي أو مساعدتي في توفير بضعة سنتات في رحلة عودتي إلى الفندق بسيارة أجرة. تمنَّيتُ لو كان بإمكاني فعل المزيد من أجلها.

تحسَّست العشرين دولارًا في جيبي. كان هذا المبلغ بمنزلة أجر شهر كامل من العمل بالنسبة إلى عريفة، أما بالنسبة إليَّ فكان ثمن سروال داخلي واحد ماركة «جينجل ذيس» ليس إلا. كان صديقها الحميم يقف بجوارها. أخرجتُ يدي خالية الوفاض ولوَّحتُ مودعًا.

كانت عريفة تَعرف ثمن ملابسي الداخلية. فالعمَّال في مصنعها يُضيفون ملصقات السعر على الملابس قبل شحنها إلى خارج البلاد. أدركت عريفة أن العالم الذي أنتمي إليه هو عالم مُترف، وأدركت أنا أن عالمها هو عالم محفوف بالمشقة والصعوبات. نحن نعرف ذلك ولكن لا يمكننا تخيُّله.

لوَّحتْ لي ثم غابت عن ناظري؛ كانت هذه قصة عاملة أخرى من عاملات الملابس.

الفصل العاشر

بصيص أمل

قالت بيبي: «الآن هو الوقت المناسب؛ فالتيار الكهربائي مقطوع.» لم يسبق لي أن أجريت مقابلة شخصية مع عارضة أزياء شهيرة أو حتى تحدَّثتُ مع إحداهن من قبل في هذا الشأن. ولم أتوقع مُطلقًا وجودها في هذا المكان؛ جالسة في الظلام في شقَّة في الطابق الثالث وسط شوارع دكا الفوضوية.

حين هبَّت واقفة كدتُ أقول لها: «يا إلهي، أنتِ طويلة ونحيفة جدًّا.» ولكني لم أفعل. كنت بصدد قول شيء أسخف من ذلك لاحقًا.

«هل تُدخن؟» سألتني بصوتها الرخيم الذي ينمُّ عن كونها مدخنة مُحنَّكة.

أجبتها: «كلا ...»

قالت: «حسنًا!»

فقلت لها: «ولكن تفضَّلي.» كما لو أنها تحتاج إلى إذنٍ مني لتُدخِّن في مكتبها الخاص.

تخرَّجت بيبي راسل في كلية لندن للأزياء عام ١٩٧٥. وبناءً على اقتراح معلمتها، قدمت بنفسها بعض أعمالها في عرض الأزياء الخاص بها. وتمَّ اكتشافها وسرعان ما صارت عارضة أزياء عالمية تظهر صورُها على أغلفة مجلات الموضة الشهيرة مثل فوج وكوزمو وهاربر بازار. ثم فعلت شيئًا غريبًا؛ ففي عام ١٩٩٤ عادت إلى أرض وطنها بنجلاديش (شكل ١٠-١).

قالت بيبي: «كيف لي أن أنسى كل هذا؟ هذا هو المكان الذي نشأتُ فيه.»

إنها تحب شعب بنجلاديش، أو كما قالت: «كل شيء أفعله من أجلهم. لقد جعَلوا مني «بيبي» عارضة الأزياء الشهيرة؛ ومِن ثم فأنا مَدينة لهم بكل ما أمتلكه.»

وبيبي تردُّ لهم الجميل ببذل الكثير والكثير؛ فمن خلال شركتها، بيبي برودكشنز، تدير عمل النساجين المحليِّين في قرًى مختلفة في أنحاء بنجلاديش والهند؛ فالنساجون

لا يعرفون ما يُحقق مبيعات وما يُساير الموضة، أما بيبي فتعرف ذلك جيدًا، فهم ليس لديهم وسيلة لدخول السوق العالمية، وبيبي تمنحهم إياها.



شكل ١٠-١: بيبي راسل عارضة الأزياء وخبيرة الموضة.

«كل شيء ينبع من أبناء الشعب البسطاء؛ كل شيء.»

وبطريقةٍ ما، ثمة تشابه بين بيبي والعلامات التجارية الكبرى للملابس؛ من حيث توجيه المصانع من خلال شركات التوريدات فيما يَتعلَّق بما يُريدون تصنيعه وكيف يصنعونه، وفي النهاية شراء المنتج النهائي.

وعلى الرغم من ذلك، ثمة اختلاف واحد كبير بينها وبين العلامات التجارية يتَّضح في قولها: «إننا نساعد الناس على النجاة من الفقر عبر الشعور بالكرامة.»

يمكنك القول بأن التجارة الرائجة للملابس الجاهزة توفر لبنجلاديش ٢٫٥ مليون فرصة عمل لم تكن لتتوافر عبر قنوات أخرى؛ ومن ثم فهي بمنزلة نعمة في بلد فقير. ولكن الأجور متدنية للغاية لدرجة أن معظم عمال الملابس، في أحسن الأحوال، يناضلون من أجل القيام بشيء أشبه بالسير على الماء. فإذا مرض فرد من الأسرة، أو صار العمال أنفسهم غير قادرين على العمل، غرق الجميع. هكذا تُعدُّ بنجلاديش بلد الحقائق العارية.

رأيت أنا ودالتون ذات مرة سائق عربة ريكشا ذا ساق واحدة. لم يُلحَّ علينا بالركوب. جلس وحسب في مكانه يُشاهدنا نمر أمامه. لقد فقد ساقه بسبب عدوى، إلا أنه لا يزال مُضطرًّا لإعالة أسرته. إن مهمة جرِّ عربة الريكشا خاصته تحتاج إلى شخص في كامل لياقته البدنية ليُؤدي المجهود اللازم لذلك، ومع ذلك لا تكاد تُميِّز حتى أنه فقد ساقه. ولكنك لن تنسى قط ما رأيته.

وقد اختارت بيبي العودة إلى أرض الوطن للتعامل مع مثل هذه الأمور، ولتُحدث فارقًا، ولتترك وراءها عالم الأزياء بأضوائه البرَّاقة والمثيرة من أجل هذا.

ذات مساء ذهبت لتناول الشاي معها في شقتها التي تدفع والدتها إيجارها. كرَّست بيبي نفسها وكل ما كانت تُمثله من قيمة مالية للعمل الخيري. ويُساعدها إخوتها وأخواتها والأولاد على سداد نفقاتها اليومية. والدتها تظنُّ أنها تُؤثِر الآخرين على نفسها على نحو مُبالَغ فيه. وقبل بضع سنوات كُسر رسغها أثناء تقديمها المساعدة في إندونيسيا لضحايا تسونامي عام ٢٠٠٤. أعطتها والدتها المال لإجراء العملية الجراحية اللازمة، ولكن بيبي تبرَّعت بالمال. كان يوجد رجل في إحدى القرى، التي عملت بها، أُصيب بنوبة قلبية واستلزمَت حالته إجراء جراحة تغيير شريانين بالقلب. وتقديرًا لنزعتها الإيثارية، عُيِّنت في منصب مبعوث خاص لليونسكو: مُصمِّمة من أجل التنمية.

جلست في غرفة معيشتها وشربت عصير بطيخ وتناولت كعكات رقيقة محلاة. كانت شقَّتها مُزيَّنة بأدوات محلية مصنوعة من الخشب والمعدن. وقفت عربة الريكشا المزينة في إحدى الزوايا. أشارت إلى صورة لغاندي، وسألتُها إذا كانت قد التقت به.

أخبرتني بكل أدب قائلة: «لقد تُوفي في أربعينيات القرن العشرين.»

فاستدركت قائلًا: «حسنًا، لو كان على قيد الحياة، لكنتِ التقَيتِ به على الأرجح.» كنت أحمق، ولا يُمكنني فعل أو قول شيء لأغير هذه الحقيقة. (رغم أن ما يُبرر موقفي من وجهة نظري أن بِن كينجسلي — الذي أدى دور غاندي في الفيلم — لا يَزال على قيد الحياة.)

قالت بأدب: «كنتُ سأفعل على الأرجح.»

كانت أقرب شخصية التقيتُ بها في حياتي إلى القدِّيسين. كانت تُحبُّ بلدها، وتؤمن به.

محمد يونس، الحائز على جائزة نوبل للسلام، يؤمن ببنجلاديش أيضًا؛ حيث أسَّس بنك جرامين الذي يُقدم قروضًا متناهية الصغر لمن لا يستطيع الحصول على قروض من البنوك التقليدية. ذهبت مع أحد مُمثِّلي البنك لأرى البرنامج يُنفَّذ على أرض الواقع.

جلستْ ثلاثون سيدة مُتجاورات كتفًا بكتف على مقاعد خشبية في بناية جرداء ذات إطار خَيْزُراني ومغطاة بصفائح معدنية مُتموِّجة. نادى المدير الإقليمي للبنك الأسماء من سجله. اقتربت السيدات، واحدةً تلو الأخرى، من طاولته في مقدمة القاعة ودفعْنَ قسط القرض الجماعي الخاص بهنَّ.

لكي تَحصل المرأة على قرض من البنك، يجب أن تبحث عن امرأة أخرى لتكوين مجموعة صغيرة؛ حيث إن التعثر في السداد يضرُّ بفُرص النساء الأخريات في الحصول على قروض مستقبلية. والمقترضة التي لا تتمكَّن من السداد تُؤثِّر بالسلب على مجموعتها. ورغم ذلك، تكون هذه هي العقوبة الوحيدة؛ فالبنك لا يَحجز على بيوتهنَّ أو ماشيتهن؛ فلا توجد ضمانات.

من المدهش أن ٩٨ بالمائة من القروض يتمُّ سدادها، ويُقرض البنك أكثر من ٧ ملايين مقترض.

تبلغ لوفلي من العمر ٥٥ عامًا فقط، إلا أنها تبدو وكأنها في الخامسة والسبعين من عمرها. وهذا ما ستفعله بك حياة التسول. استخدمت أموال القرض لشراء أكياس حلوى جيلاتينية وبيعها لتُحقِّق ضِعف المبلغ الذي كانت تكسبه من التسول.

اشترت شوكينان بقرةً بأول قرض لها. وبعد أن سدَّدت القرض، اشترت منزلًا. وبعد أن سددته، بَنَتْ غُرَفًا بالقرب من منزلها بغرَضِ تأجيرها. الآن هي تمتلك أكثر من ٦٠ غرفة. كان أول قرض لها بمبلغ ٥٧ دولارًا، وآخر قرض لها بمبلغ ٤٢٠٠ دولار. لقد أنجزت الكثير من وراء امتلاكها بقرة واحدة.

تعمل شيلبي في مصنع ملابس وتَتقاضى ٢٥ دولارًا في الشهر، إلا أنها بدأت مشروعها الخاص بالإضافة إلى عملها الأساسي حيث تُفصِّل السراويل والقمصان. واستغلَّت القروض التي أخذتها من بنك جرامين لشراء ماكينة حياكة ولوازم التفصيل. تبلغ شيلبي من العمر

٢٦ عامًا، ولديها ابنان (٩ أعوام و١١ عامًا)، وقد التحقت بالمدرسة لمدة ثلاث سنوات فقط. وعندما سألتها أين ترى نفسها بعد ١٠ سنوات، بدت مُتحمِّسة فعلًا. ابتسمت مُلوِّحة في هذا الاتجاه وذاك. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما كانت تقوله، ولكن كان بإمكاني أن أقول إن لديها خططًا كبيرة.

ربما يكون أول قرض بمبلغ ٥ دولارات فقط، إلا أن هذ المبلغ هو كل ما نحتاجه لتمكين هؤلاء السيدات من التطلع إلى ما هو أبعد من الاحتياجات اليومية وتخيُّل حياة أفضل لأولادهنَّ، أو بعبارة أخرى منحهنَّ الأمل (شكل ١٠-٢).



شكل ١٠-٢: مُقترضة من بنك جرامين تحمل طفلها.

كما هي الحال مع الأموال، الأمل شحيح في الدول الفقيرة. سَلِ الأطفال عما يُريدون فعله عندما يَكبرون، وسيرمقونك بنظرات استغراب. إنهم يعرفون ما الذي سيفعلونه: سيفعلون ما ألفَوا عليه آباءهم وأمهاتهم، سيُحاولون العيش على حدِّ الكفاف.

ولكن ما دامت بنجلاديش تَحظى بأناسٍ يؤمنون بها، مثل بيبي، وعاملين متفانين في بنك جرامين، فمن المُرتَقَب أن ينمو الأمل ويزداد.

الفصل الحادي عشر

خير أم شر، أم مزيج من هذا وذاك؟

«نتوقع نمو قطاع الملابس والمنسوجات بمعدل يُقدَّر بـ ٨ مليارات دولار خلال السنوات الثلاث القادمة.» قالها حبيب، أحد العاملين بجمعية مُصنِّعي ومُصَدِّري الملابس والمنسوجات في بنجلاديش. هو في مثل عمري تقريبًا ومُتحمِّس للحديث والدردشة. ويبدو أن احتمالات زيارة مُشتري الملابس لمقارِّهم هو احتمال ضعيف جدًّا.

قال إقبال، أحد زملاء حبيب في العمل، وهو يُجفِّف العرق عن جبينه بمنديل: «لا يُمكنك أن تتفوق على بنجلاديش فيما يتعلق بالجودة والسعر. كما أن خدمتنا هي الأفضل أيضًا؛ إنها جزء من ثقافتنا. أحيانًا يَقبل أصحاب المصانع طلبية ويتعادل المكسب والخسارة بالنسبة إليهم، بل ربما يخسرون أموالًا ليُقيموا علاقات طيبة مع أحد العملاء الجدد.»

كنت قد حدَّثتهم بالفعل عن أكذوبتي الخاصة بمتجر «ثياب السائح الصبياني»، وأخبرتُهم حينئذٍ بأنني سأزور كمبوديا والصين لأختار المكان الذي أرغب التوريد منه.

قال إقبال: «ستَذهب إلى الصين، إنهم لا يتحدثون الإنجليزية، كما أن مستوى جودتهم ليس مرتفعًا. جميع قمصاني مصنوعة في بنجلاديش. يُمكنني شراء قمصان مصنوعة في الصين مقابل ٦ دولارات، لكنني أُفضِّل شراء قمصان مصنوعة في بنجلاديش مقابل ٢٠ دولارًا.» جذب قميصه المُبلَّل بالعرق.

انقطع التيار الكهربائي مرةً أخرى، تجمَّع موظفو المكتب — الذين كانوا يَغفون أمام الشاشات المعتمة لأجهزة الكمبيوتر خاصتهم — حولنا ليَستمعوا إلى حديثنا. لم

أكن متأكدًا مما إذا كانوا يَتحدَّثون اللغة الإنجليزية أم لا، ولكنهم كانوا يضحكون حين نضحك، ويَصيرون جادين حين نتحدث بجدية.

قلت وأنا يَتملكني الفضول لمعرفة ما إذا كانوا قد سمعوا عن مشروع القانون الذي يَتباحثه الكونجرس آنذاك: «ما رأيك في مشروع القانون الأمريكي المُقترَح لمناهضة المصانع المُستغِلة بصرف النظر عن توصيف المصنع المستغل؟» حوَّلت بصري عنه.

كان إقبال، بالإضافة إلى من هم داخل قطاع صناعة الملابس جميعًا، قَلِقًا من أن يؤدي مشروع القانون إلى زيادة مقاطعة ملصق «صُنع في بنجلاديش»، مثلما حدث في تسعينيات القرن العشرين.

«عمالة الأطفال لا تُمثِّل مشكلة هنا. وإذا وجدنا أن أحد أعضائنا يخرق هذا القانون، نفرض عليه غرامةً قدرها ١٠ آلاف دولار فورًا. وإذا حدَث هذا الأمر ثلاث مرات، نسحب منه رخصة التصدير.»

قبل أن آتي إلى بنجلاديش وألتقي بعريفة وأزور المصانع، كنتُ سأؤيد أي مشروعِ قانونٍ مُناهض للمصانع المستغلة وعمالة الأطفال. ولكنني أدركت أن الدنيا ليست أبيض أو أسود، خيرًا خالصًا أو شرًّا خالصًا. تبدو نوايا مشروع القانون طيبة إذا ما نُفِّذ القانون، وربما تؤدي إلى تحسين ظروف العمل في جميع أنحاء العالم. ومع ذلك، قد يؤدِّي هذا الأمر إلى فقدان الوظائف في بنجلاديش. إذا تمَّت الموافقة عليه، أتمنى أن يُفكِّر المشرعون في النتائج التي قد تؤثر على العمال البنجلاديشيين وأن يُخطِّطوا لمساعدة من يفقدون وظائفهم.

رويت قصتي لرفيقٍ جديد جلس في ركن من أركان المكتب: كيف أنني أرغب في التوريد من بنجلاديش، وأنتقل بمشروعي الصغير الذي سميته «ثياب السائح الصبياني» من تحقيق مكسب ٢١ ألف دولار إلى ٧٠ ألف دولار.

قاطعني إقبال قائلًا: «طريقة تفكيرك خاطئة، يا سيد كيلسي. لا تُفكِّر في الآلاف، بل فكر في الملايين.»

ضحك الجميع وأومئوا برءوسهم تصديقًا على كلامه. «أبهذا» القدر من السهولة يستطيع الأجانب أن يَكسبوا أموالًا طائلة في بنجلاديش؟

عاد التيار الكهربائي مرة أخرى. تصبَّبتُ عرقًا نتيجة السير إلى مقارهم، والشاي الذي قدموه إليَّ، وربما بسبب ذلك القدر — القليل — من الكذب. وجَّهوا المروحة نحوي وناولوني بعض المناديل.

أحضر لي أحدهم تي-شيرتًا قائلًا: «هذا هدية لك. نأمل أن يكون هذا التي-شيرت الأول من طلبية كبيرة ستأخذها من بنجلاديش.»

شكرتهم وأخبرتهم بأنني ما زلت أفكر فيما إذا كنتُ سآخُذ الخطوة التالية أم لا. عدد منهم أعطوني بطاقات عملهم وسألوني عما إذا كنت مُهتمًّا بالتعامل مع شركات الملابس الصغيرة التي يمتلكونها إلى جانب وظائفهم الأساسية. كانوا جميعًا يُشجِّعونني على المضي قدمًا.

قال إقبال: «مَن الذي لا يرغب الدخول في هذا المشروع؟» استلقى إلى الخلف في مقعده وحدَّق بي من فوق نظارته.

شخص واحد كان يعرف الإجابة بكل تأكيد ألا وهو ابن عم دالتون، سابون. كنت أقف مع سابون واثنين من شركائه داخل شركة تاتينج فاشون، ذات المسئولية المحدودة؛ وهي شركة لم تزد عن كونها اسمًا، على الأقل حينذاك. كان صدى أصواتنا يَتردَّد بين جنبات الجدران الخرسانية لأرضية المصنع الخالي.

قال سابون: «صناعة الملابس في بنجلاديش تنمو سريعًا، ونأمل أن نستفيد منها؛ فالمصانع الكبرى تحصل على طلبيات كبيرة وستكلفنا بالعمل.»

سألته قائلًا: «شركتك ستكون مُتعاقدة من الباطن؟»

فأجابني: «أجل.»

إذا كنت تبحث عن انتهاكات لحقوق العمال أو حقوق الإنسان بوجه عام في مجال صناعة الملابس، فإن أفضل مكان تبحث فيه هو شركات التعاقُد من الباطن؛ هذا إذا ما تمكَّنتَ من العثور على واحدة بالأساس. فالمشترون والعلامات التجارية يُرسلون طلبياتهم إلى مصانع كبرى، بل لعلهم يزورون هذه المصانع للتأكُّد من أن ظروف العمل تفي بالمواصفات التي يحددونها، أيًّا كانت هذه المواصفات. ولكن شركات التعاقد من الباطن بمنزلة أماكن خفية عادةً لا تخضع لأي نوعٍ من أنواع الرقابة؛ فهي شركات صغيرة وكثيرة للغاية. ولقد أرغمت حملة الانتقادات، التي شنَّتها الصحافة في تسعينيات القرن العشرين، العلامات التجارية الكبرى بمجال الملابس الجاهزة على تحمُّل مسئولية ظروف العمل في المصانع التي يُورِّدون منها، أما شركات التعاقد من الباطن فتتعاقد مع المصنع لا مع العلامة التجارية؛ ومن ثم تُضاف طبقة أخرى فاصلة. تبدو المصانع المُستغِلة التي تخيَّلتها أثناء دراسة مادة «مقدمة إلى علم الاجتماع» بَشِعة للغاية مثل مصانع التعاقد

من الباطن. ولكن صورة السادة الأشرار القائمين على إدارة المصانع المستغلة التي كنتُ أتخيَّلها بعيدة تمامًا عن سابون.

سابون أشبه بالسيد فريد روجرز — مذيع شهير لبرنامج تعليمي للأطفال — حيث إنه رقيق الكلام دمث الخلق مُتحمِّس ليُعلمني كل شيء عن بنجلاديش. أول مرة التقيتُ به كان في قرية دالتون؛ لودويا. كان يصحبنا أثناء التنزُّه سيرًا على الأقدام، مُطوِّقًا كتفي بيده عادة أثناء شرحه لشيء عن القرية. وفي حين كان دالتون به شيء من المُراوَغة، اتسم سابون بالانفتاح والصدق.

عمل والد سابون بكدٍّ لإعالة الأسرة ودفع مصروفات بضع سنوات دراسية، إلا أنه بمجرد أن صار عاجزًا عن العمل، ألقى بالمسئولية على كاهل سابون. ترك سابون المدرسة، وساعده عمه في الحصول على وظيفة إدارة أحد الفنادق. كانت مسئولية سابون الوحيدة هي إعالة والدته ووالده وأخته وأخويه؛ حيث سدَّد المصروفات الدراسية لأخَوَيه وأعانهما في النهاية على ترك بنجلاديش والسفر إلى خارج البلاد — أحدهما سافر إلى سنغافورة والآخر إلى دبي. والآن هما يرسلان الأموال إلى سابون ليَستثمِرها في مشروعه التجاري.

قال سابون وهو يستعرض صفوف الماكينات بيديه: «طلبنا ٦٠ ماكينة من الصين للحياكة و٢٤ ماكينة لسرفلة القماش.» كان حجم القاعة في نفس حجم مطعم عائلي مُريح.

صعدنا مجموعة من السلالم وتركنا شريكَيه خلفنا. قال: «هذا مكان الوضوء وهذه غرفة الصلاة.»

تكاد عينا سابون تَخرجان من محجريهما عندما يركز حقًّا، وكان هذا ما حدث في الوقت الذي يتفحص فيه الغرفة. استطرد قائلًا: «يُمكننا أن نضع هنا المزيد من الماكينات وربما مكتبًا.» كانت الغرفة تَحتوي في ذلك الوقت على طاولة وكرسيين جلسنا عليهما.

سألته قائلًا: «كيف ترى مستقبل مشروعك التجاري؟»

أجابني: «خلال شهرين، يجب أن تكون الماكينات هنا، ثم سنبدأ العمل لحساب المصانع.»

طرحتُ السؤال التالي: «في رأيك كيف سيبدو المشروع التجاري إذا عدت بعد خمس سنوات؟»

أخذ نفَسًا عميقًا. فبعد كل هذا التخطيط وكل هذه الآمال والحوالات المالية من أخويه بالخارج، بات افتتاح المصنع وشيكًا للغاية، وأستطيع أن أجزم أنه من الصعب عليه أن يرى ما هو أبعد من تلك الخطوة. فجاءت إجابته: «إذا واصل مشروعنا التجاري التوسُّع، فسنحصل على رخصة للتصدير بعد خمس سنوات.»

سألته: «وكيف ستتغيَّر حياتك إذا نجح مشروعك؟»

مرة أخرى، أخذ يجمع أفكاره قبل أن يجيب: «عندما أكسب المزيد من المال ويتوسع المشروع التجاري، ربما أمكنني التوقُّف عن العمل في الفندق وأعمل هنا مع والدي. ولعلِّي أشتري أرضًا وأبني منزلًا وأُحضر والدي للعيش معي.»

سألتُه: «وماذا عن اختيار زوجة؟»

أجاب قائلًا: «في الوقع، لقد بلغتُ سن الزواج قبل عشر سنوات، ولكن بسبب أزمتي الاقتصادية الأسرية لم أستطع الزواج. بيد أنني في اللحظة الراهنة، لست على علاقة طيبة بفتاة يُمكنني اتخاذها زوجة لي.» ابتسم ابتسامة تنمُّ عن الخجل؛ ففي سن الخامسة والثلاثين، صارت الزوجة رفاهية لا يُمكنه تحملها. «أحاول البحث عن فتاة لطيفة لأتزوجها.»

سألته: «كم عدد الموظفين الذين ستُعيِّنهم؟»

ردَّ قائلًا: «نحو ٢٠٠ موظف.»

قلت له: «لقد قضيتَ الكثير من الوقت مع عمال صناعة الملابس هنا في بنجلاديش. كيف تبدو حياتهم؟»

قال: «العمالة البنجلاديشية رخيصة جدًّا، ولهذا السبب وَضْع قطاع صناعة الملابس في بنجلاديش جيد؛ فثمانون بالمائة من الناس يَعيش في القرى ومعظمهم لا يلتحق بالمدرسة. هم ينتمون إلى أُسَر أمية. ولهذا السبب ربما يُنجب الزوجان ستة وسبعة وثمانية أطفال. وعندما يصل أولادهم إلى مرحلة المراهقة يُسافرون إلى مدينة دكا ويعملون في مجال صناعة الملابس. قبل عشر سنوات، كانت أسرتي فقيرة للغاية، ثم جئتُ إلى دكا وحصلت على وظيفة وساعدتُ أسرتي في القرية. وأظن أن عمال صناعة الملابس يُمكنهم القيام بالشيء نفسه.»

سابون رجل لديه حلم؛ حلم مرتبط بنجاح صناعة الملابس. كان بعيدًا تمامًا عن الصورة الشريرة لأصحاب المصانع المُستغِلة؛ لم يكن كذلك على الإطلاق (شكل ١١-١).



شكل ١١-١: سابون أمام مصنعه.

قال دالتون: «هنا تَلتقي عوالمنا.»

كنا نَجلس في بهو فندق نورث شور. عمل دالتون في منصب مدير المشروع على مدار العامَين اللذَين استغرقهما بناء الفندق. لم يَقتصر دوره على عمله محاسبًا ومعماريًّا وحارس أمن. كان يَشتري المؤن ويُعيِّن الموظَّفين ويَفصلهم من العمل. كان يعيش في الفندق ليلًا ونهارًا. وتمَّ تسريحه بمجرد أن اكتمل بناء الفندق. أخبره مالك الفندق أنه ليس لديه الخبرة الكافية للعمل في خدمة العملاء أو الإدارة أو في أي موقع آخر بالفندق. وعلى الرغم من أن دالتون شعر بالمرارة إزاء هذا الأمر، فإنه أحضَرني إلى هنا لأشهد إحدى الطقوس الليلية.

شاهدنا رجلًا أمريكيًّا ينزل إلى البهو في المصعد الزجاجي. كان يرتدي شبشبًا مطاطيًّا خفيفًا وسروالًا قصيرًا وتي-شيرتًا. تخيلت أنه من كاليفورنيا الجنوبية، ولكن للأمانة، من يُمكنه أن يجزم بذلك؟ الكثير من الناس يَعتقدون أن شعري الأشقر المُجعَّد

يعني أنني من كاليفورنيا؛ ومن ثم خمَّنت أنه ربما قادم من أوهايو. وقفت سيدة ترتدي زي الساري ذا الألوان الزاهية لمقابلته. وفي بلد لا تنظر فيه بعض النساء إلى الأجانب أو يَمسَسنهم صافحتْه. جلَسا على كرسيَّين مستديرَين ومرتفعَي الظهر. أعطاها الرجل تي-شيرتًا، فحصتْه وأومأتْ برأسها.

كنت أعرف ماذا تقول: «أجل، يمكننا تصنيع هذا. يُمكننا تصنيع أي شيء بسعر أرخص من أيِّ مكان آخر.»

انعكست الأضواء الساطعة على الأرضية الرخامية اللامعة. وكما هي الحال دومًا؛ كان الفندق مزودًا بمُولِّد كهرباء. تساقطت قطرات المياه من النافورة. كانت تماثيل سمكة ذهبية تحمل طاولات زجاجية. بدا كل شيء مفرطًا من حيث الكُلفة والحداثة.

كانت تُعقَد عدة اجتماعات من هذا النوع مع المشترين من أوروبا والهند. وكان البنجلاديشيون الموجودون بالمكان يَحملون حقائب قماشية للأعمال اليدوية الخاصة بمصانعهم.

أخبرني دالتون قائلًا: «كل ليلة أشبه بهذه الليلة. التجارة تربط العالم بعضه ببعض.»

بمجرد ما انتهى الاجتماع، استقلَّ الأمريكي المصعد ليصعد إلى غرفته، وها قد تلقَّت السيدة البنجلاديشية طلبياتها التي سيُنفذها عمالها، ربما تكون عريفة من بينهم. فتح البواب الباب أمامها وهي تخرج حاملةً حقيبتها القماشية. اجتازت عتبة الباب لتغادر الفندق، الواحة الغربية، وتدلف إلى عالم بنجلاديش الواقعي أكثر من اللازم.

الحياة في الفندق أشبه بالحياة التي أعيشها مقارنة بواقع الحياة خارج الفندق. وبينما كنت أجلس على المقعد المزود بالوسائد وأستمع إلى الموسيقى الهادئة المنبعثة من السماعات المتوارية عن الأنظار، كنت أفكر فيما قالته بيبي راسل لي: «الجمال يَكمن في الفقر.»

يبدو العالم الذي نَنتمي إليه أقل واقعية مقارنةً بعالم بنجلاديش (شكل ١١-٢). الطفل الذي يضحك وهو محاط برفاهيات التكنولوجيا الحديثة خاصتنا ليس في مثل جمال ابنة عريفة وهي تستيقظ من الجوع في يوم قائظ قبل أن تشتدَّ حرارة الجو. وابتسامة أمٍّ أثناء تقطيع الخضراوات على الأرضية تبدو أكثر صدقًا من ابتسامة أمٍّ

أمريكية أثناء غرفها المعكرونة بالجبن على طبق مُزخرَف فاخر. لا يوجد شيء يَندرج تحت المُسَلَّمَات: لا ابتسامة ولا ضحكة ولا حتى قطعة واحدة من الملابس الداخلية.

إذا كان الجمال يَكمُن في الفقر، فإن بنجلاديش جميلة جدًّا.



شكل ١١-٢: عريفة وهي تحمل ابنتها سعدية، الخلفية مدينة دكا.

تحديث النسخة المنقحة

التعطُّش للاختيارات

ساعد الرجل شابة لتقف على حافة النافذة، ثم دفعها بعيدًا عن المبنى، ربما مثلما يفعل راقص ... تركها.

كانت [السيدة] الرابعة على ما يَبدو حبيبته. شعر شهود العيان بالدهشة لما رأوهما يَتعانقان ويُقبِّل كلٌّ منهما الآخر. ثم دفعها نحو الخارج وأسقطها.

مشاهد من حريق مصنع ترواينجل شيرتويست عام ١٩١١،
من كتاب بعنوان «ترواينجل: الحريق الذي غيَّر وجه أمريكا»،
تأليف ديفيد فون درهل (نيويورك: مطبعة جروف، ٢٠٠٣)

وقفوا على نوافذ البناية، على ارتفاع نحو ١٠٠ قدم من الأرض، الجلود تغلي، والنيران من ورائهم ولا شيء أمامهم.

لم يكن هناك خيار.

هل كان من الأشجع أن تَبقى داخل البناية أم تقفز منها؟ فوقوع شخص على الأرض من ارتفاع نحو ١٠٠ قدم يَستغرق ثانيتين ونصف الثانية. هذه الفترة الوجيزة تُبرِّد الجلد الملتهب بفعل الهواء. ثانيتان ونصف الثانية يستريح خلالها مَنْ يسقط قبل أن يلقى حتفه.

إحدى مزايا القفز — وهي قليلة جدًّا — أن بإمكان أسرتك أن تتعرَّف على جثتك. قفز ثمانية عمال. ظنَّ العمال الذين يقفون على الأرض أن هؤلاء لفافات من القماش أُلقيَ بها من النوافذ؛ كما لو أن هذا منطقي، كما لو أن الملابس بحاجة إلى إنقاذ.

لم يكن هذا عام ١٩١١، وإنما كان شبيهًا له. لم يكن هذا مصنع ترايانجل شيرتويست الذي قتل ١٤٦ عاملة احتُجزَت بداخله في مدينة نيويورك، مما أثار غضب الرأي العام وعزَّز حقوق العمال فيما بعد. لم يكن هذا من زمن سابق، وإنما يحدث الآن. هذا بعد ١٠٠ عام من الحريق الشهير؛ عام لكلِّ قدم قفزتها العاملات أثناء حريق مصنع ترايانجل شيرتويست. هذه المرة لم يحدث هذا في أمريكا، وإنما في بنجلاديش.

احترق تسعة وعشرون عاملَ ملابس بنجلاديشي أحياء، أو اختنقوا بفعل الدخان، أو قفزوا ليَلقوا حتفهم أثناء حريق مصنع الملابس الواقع بالقُرب من ملاهي فانتازي كينجدوم في ١٤ ديسمبر ٢٠١٠.

في حديثٍ مع برنامج «ديموقراسي ناو!» قال تشارلز كيرنيجان، مدير معهد العمالة العالمية وحقوق الإنسان، في معرض حديثه عن الحريق:

> حدَث هذا وقت الغداء؛ حيث كان العمال داخل المقصف في الطابق الحادي عشر، وبدءوا يَشمُّون رائحة دخان. لم يشعروا بالفزع، وإنما فعلوا ما فعله العمال في مصنع ترايانجل؛ توجَّهوا ناحية المخرج. حاول العمال الخروج. كانت ألسنة اللهب كبيرة جدًّا والدخان كثيفًا للغاية؛ ولذا اضطُروا إلى التراجع. ركضوا عبر المقصف إلى الجانب الآخر من البناية وحاوَلوا أن يخرجوا من مخارج طوارئ الحريق، ولكنها كانت مغلقة. احتُجزوا بالداخل ... أتعلم ما الذي أخبرنا به العمال؟ قالوا إن الإدارة تغلق، عادةً، مخارج الطوارئ أثناء الحرائق حتى لا يَتمكَّن أحد من سرقة الملابس.

أُصيب أكثر من ١٠٠ شخص، والتهمت ألسنة اللهب ٤٠٠ ألف سروال للأطفال كان من المُقرَّر إرسالها لأحد فروع متجر «جاب» القريبة منك.

تلقَّت أسر القتلى ٢٠٨٠ دولارًا تعويضًا عن خسارتهم. وكانت شركة جاب من أول من حرصوا على التأكُّد من تعويض المتضررين من الحريق وتحسين معايير السلامة ضد الحرائق داخل المصنع.

هذا ليس بجديد؛ ففي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٩، فقد ٤١٤ عاملًا حياتهم في ٢١٣ حريقًا داخل المصانع. وصناعة الملابس في بنجلاديش تنمو بمعدل جنوني؛ ولذا

تُشيَّد المباني سريعًا وتَجري التجديدات على عجل. وبسبب هذه العجلة انهار مصنع مثلما ينهار بيت العنكبوت؛ مما تسبَّب في قتل ٦٤ عاملًا عام ٢٠٠٥.

لقد تضاعفت هذه الصناعة تقريبًا منذ زيارتي عام ٢٠٠٧، وهي تُمثِّل الآن ١٥ مليار دولار من حجم الصادرات ويعمل بها ٣٫٥ ملايين شخص.

لم تعد عريفة منهم؛ لأنَّها تركت عملها بالمصنع في ٢٠٠٩ لتبقى بالمنزل مع ابنتها، سعدية، التي بلغَت من العمر آنذاك ٨ سنوات.

قالت عريفة لروما، الصحفية التي رافقتْني في مدينة الملاهي فانتازي كينجدوم في يناير ٢٠١٢: «من الخطورة أن تتركَ فتاة وحدها بأي مكان في هذا البلد. لن أترك ابنتي وحدها حتى مرحلة معيَّنة. وإذا اضطُررت لأن أبقى بلا عمل بسبب ذلك فسأفعل.»

إنهما تعيشان في نفس البناية الآيلة للسقوط التي تُديرها عريفة وتعيش فيها مجانًا بدون إيجار.

الآن يَتقاضى عمال الملابس أجورًا أعلى، لكن المعركة لم تكن سهلة؛ فقد خرَج العمال إلى الشوارع وقطعوا الطرق السريعة وقُبِضَ على زعماء العمال. لقد خُرِّبَت مصانع، وتوقَّفت الصناعة فجأة، وفي النهاية زاد أدنى أجر للعمال من ٢٤ دولارًا إلى ٤٣ دولارًا في الشهر، ولا يزال هذا أقل أجر على وجه الكرة الأرضية. وعلى الرغم من أن هذه الزيادة في الأجر قد تُغير وجه الحياة على ما يبدو، فإن ذلك لم يحدث نظرًا لأن تكاليف المعيشة في بنجلاديش تضاعَفت خلال السنوات الخمس الماضية.

تواصلتُ مع عريفة في عام ٢٠٠٩ حين كانت لا تزال تعمل في المصنع. كانت تتقاضى ٢٤ دولارًا في الشهر وتَشتري أرزًا بـ ١٥ دولارًا في الشهر.

لم يكن العمال الذين خرَجوا إلى الشوارع يتوقون إلى مزيد من الحقوق أو زيادة في الأجور، بل كانوا جياعًا فعلًا. وزيادة الأجور لم تجعل مستوى معيشتهم قريبًا لما كان عليه حين زرتُ بنجلاديش عام ٢٠٠٧، إلا أنها كانت كافية لإعادتهم إلى المصانع على أيِّ حال.

قالت عريفة لروما: «صحيح أن قطاع الملابس بوجه عام في بنجلاديش شهد تحسُّنًا فيما يتعلق بالأجور، ولكن في الوقت نفسه صار مستوى المعيشة مرتفعًا جدًّا. لم تُضف زيادة الأجور لحياتنا أي شيء. المرتبات تزداد، ولكن أسعار كل السلع المنزلية والطعام والشراب تزداد يومًا بعد يوم. وهكذا أصبح من الصعب لأناس مثلنا أن يعيشوا الحدود الدنيا لمستويات المعيشة.»

عاد أرمان، ابن عريفة الأكبر، من المملكة العربية السعودية وهو يعمل الآن بمرأب في دكا؛ حيث يتقاضى أجرًا شهريًّا قدره ٤٩ دولارًا، ويَدعم الأسرة بدخله بالإضافة إلى دخل ديدر، زوج أخت عريفة الذي لا يَزال يعيش معهم.

أكمل ابنها، عابر، ذو الستة عشرة ربيعًا الذي كانت تخشى إرساله للعمل بالخارج، عامه الثامن بالمدرسة. كانت عريفة تودُّ أن يُكمل دراسته، إلا أن أزمتهم المادية أجبرتها على مساعدته في أن يجد عملًا.

عريفة لا تُريد أن يصبح عابر عامل ملابس، فهي تعزو الآلام التي تشعر بها في رقبتها وذراعيها إلى سنوات عملها بمصنع الملابس. إنها لا تريد عابر أن يعاني مثلها، ولكنه قد لا يملك خيارًا مثل الكثير من الناس في بنجلاديش.

الجزء الثالث

سروالي: صُنع في كمبوديا

الفصل الثاني عشر

عيد العمال

مايو ٢٠٠٧

كان ذلك اليوم يُوافق عيد العمال بمدينة بنوم بنه، عاصمة كمبوديا، وفي هذا اليوم يجتهد الشحَّاذون في العمل.

ثمة فتاة صغيرة شعرها مُصفَّف على هيئة ثلاثة ذيول حصان تفصلها مسافات غير متساوية وترتدي رداءً خشنًا ومتَّسخًا، كان كبيرًا جدًّا عليها ويسقط من فوق كتفها. وقفت تَجرف ثمرة جوز هند مُستخدمةً قطعة من القشرة الخارجية للثمرة. التهمتها على نحوٍ فوضوي؛ حيث التصقت قطع بيضاء من ثمرة جوز الهند بوجهها وشعرها. وعندما انتهت من تناول الثمرة، مررتها إلى أختها الأكبر سنًّا التي لم تكن ترتدي شيئًا سوى سروال قصير وشبشب مطاطيٍّ كبيرٍ جدًّا عليها. عادت الفتاة إلى العمل وقد بدا عليها الحزن وهي تمدُّ يديها الصغيرتين إلى السائحين أو المتعبدين ليَجودوا بما معهم ويملئونها (شكل ١٢-١).

كانت الفتاة وأختها تواجهان قدرًا كبيرًا من المنافسة؛ حيث كان هناك نساء ورجال كبار السن وأشخاص مبتورو الأطراف يَتحرَّكون على عكازات ويَجلسون على كراسٍ مُتحرِّكة أو ألواحٍ خشبية ذات عجل دافعين أنفسهم عليها مُستخدِمين أذرعهم. ويتسابق هؤلاء على الأماكن المتاحة في الظل بالقرب من صفوف المُتعبِّدين، باذلين قصارى جهدهم ليبدو كل منهم أكثر بؤسًا ممن يَجلسون بجوارهم. وتبدو وجوههم مثيرة للشفقة أكثر مقارنة بالموسيقى المُفرحة التي تنبعث من خشبة المسرح الموجود أمام الضريح، والتي تَعزفها فرقة باستخدام ستِّ آلات موسيقية تتنوَّع ما بين دفوف وآلة أشبه بالإكسيليفون.

وعلى يسار الضريح، عُرضت أقفاص الطيور في صفٍّ من أجل عرضها للبيع، كان أصحابها يَستلقون على كراسٍ بلاستيكية تحت المظلات. مدت سيدة كمبودية، تَرتدي قبعة على شكل دلو أبيض، يدها ببضع عملات الريل الكمبودية وأدخلت يدها إلى القفص السلكي لتُخرج عصفورًا مُغرِّدًا. دعت وهي تضم يدها وتخفض رأسها. خرَج رأس صغير من بين طرفي يديها وظهر جناح ضعيف من بين أصابعها، قبَّلت رأس العصفور وفردت ذراعيها وفتحت يديها. انفرد الجناحان تدريجيًّا، رفرف الطائر فوق بحيرة تونلي ساب. بدا أن العصفور قد استغرق في شعوره بالحرية من جديد، كما لو أنه لا يَتذكر كيف يطير.

يَدين أغلبية الشعب الكمبودي بالبوذية. بالنسبة إليهم، إطلاق سراح الطيور الحبيسة هو تصرف يلجأ إليه المرء ليَتحرَّر من الحزن والألم والمرض والجوع وذكريات الحرب لا سيما في بلد مثل كمبوديا.

شاهدتُ العصفور وهو يَخفق بجناحيه بعنف، ليُحلق عكس التيار فوق مجرى النهر ويهبط ليقترب أكثر من الماء. تساءلتُ في نفسي عما كانت تدعو به السيدة.

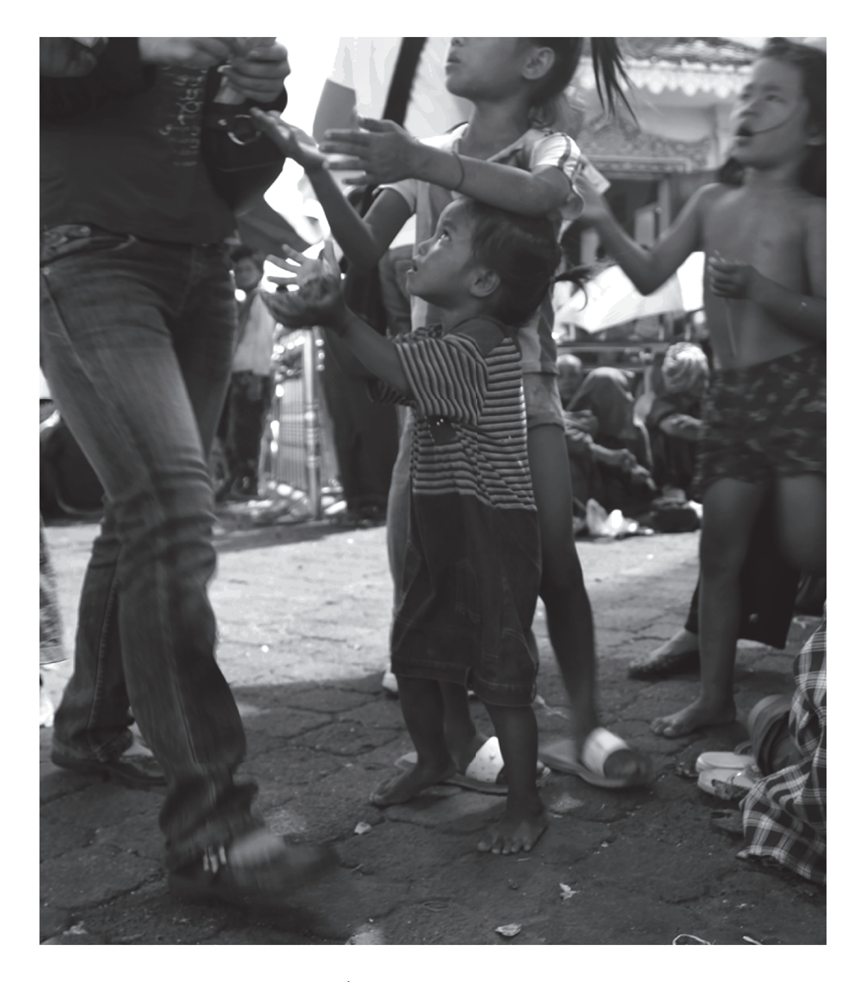
في ذلك الحين، اقترب العصفور من المياه على نحوٍ خطير، وتساءلت عما إذا كانت السيدة مهتمة بما إذا كان العصفور الذي أَطلقت سراحه في طريقه للسقوط من السماء.

تناثَر رذاذ المياه!

شق العصفور الصغير طريقه في المياه وسط الحليِّ التي أُلقيت كقرابين والقاذورات والتلوث الذي يُخلِّفه المتعبدون. وقد التفتُّ لأجد الرجل الذي باع لها العصفور. رأى الرجل العصفور في المياه، ولاحَظ أنني رأيته. أطلق عميل آخر من عملائه توًّا عصفورًا توجَّه على الفور إلى إحدى الأشجار القريبة. لاحقه بائع الطيور. تسلَّق الشجرة وأمسك بعصًا، سحَب العصا من فوق الشجرة، وقد عَلق العصفور بها. كانت هذه طريقته في الاحتيال لكسب المال. لم يكن يبيع الطيور وحسب، بل كان يبيع الأمل. في ذلك اليوم، كان محظوظًا في بحثه عن الطيور وإعادة بيعها مرة أخرى.

سرتُ إلى الضفة في عكس اتجاه مجرى النهر ناحية العصفور الذي كان لا يزال يُصارع الموت. شعرت أنني سخيف بعض الشيء؛ حيث إن ثمة أناسًا بلا سيقان يتحركون على ألواح مُتنقلة بالقرب من الضريح، وها أنا أسرع الخطى لإنقاذ عصفور.

جذبتُ انتباه مجموعة من الأطفال كانوا يَلعبون على حافة النهر حيث كنتُ أتحرك في اتجاه العصفور. ومن هناك، استطعتُ أن أسمع زقزقته، وقد بدا عليه الذعر إن جاز لي



شكل ١٢-١: فتيات يتسولن المال من المُتعبِّدين والسائحين.

التعبير. كان الموقف عاجلًا. أخرجت دولارًا من جيبي وعرضت على الأطفال أن أُعطيه لهم إذا أنقذوا العصفور.

لم يَقبل أيٌّ منهم العرض.

كنت أعرف أن بإمكاني الاحتفاظ به لنفسي. بدأت أضع حقيبتي — التي تحتوي على جواز سفري وكاميرتي الرقمية — على الأرض، وأدركت كم كانت تلك الفكرة سيئة. لم يكن «الإفرنجيون» — هذا الاسم يُطلقه السكان المحليون على السائحين الغربيين — نادرين في هذه البلاد، ومع ذلك فقيام أحدهم بخلع ثيابه ما عدا السروال الداخلي ماركة «جينجل نيس» تاركًا وراءه أغراضه الثمينة ليَسبح في الماء من أجل إنقاذ عصفور قد يجذب بعض الانتباه ويُسفر على الأرجح عن اختفاء تلك الأغراض الثمينة.

التفتُّ لأرى صائد الطيور يقف ورائي، وملابسه مُتكوِّمة عند قدميه. كان يوجد وشم على كتفه الأيمن لرسمة عصفور باسطًا جناحيه. خَطا بحذر نحو المياه الضحلة وشرع في السباحة وهو ينظر خلفه ناحيتي. أشرت إلى العصفور وكأنني عاملُ إنقاذ على الشاطئ. وصل إليه وأمسك به وكأنه كيس بلاستيكي يَطفو على سطح الماء، ووضعه فوق رأسه حيث استقرَّ بلا حراك. عاد الرجل إلى الضفة وهو يتنفس بصعوبة من المجهود الذي بذله ممسكًا بالعصفور في يده. كان للعصفور منقار طويل وعينان حمراوان، لا يَظهر فيهما أيُّ إشارة ذعر، وريش أسود ملبَّد تتخلَّله خطوط صفراء.

كنت قد وصلت توًّا إلى كمبوديا، ولم أكن أعرف كيف أقول «شكرًا لك» باللغة الخميرية؛ ومن ثم اكتفيتُ بابتسامة واستدرت لأسير مبتعدًا وأنا أشعر بالراحة لأن العصفور بخير. أمسك صائد الطيور بذراعي ومدَّ يده. صافحته. والتفتُّ لأبتعد، فأمسك بذراعي مرة أخرى.

كان يريد المال الذي عرضته على الأطفال قبل قليل. إنه عصفوره اللعين؛ ومن ثم كان سيعود ليَبيعه مرةً أخرى لشخص آخر في لعبة الصيد وإطلاق السراح، وها هو لديه الجرأة ليطلب مني المال.

أعطيته الدولار.

وافق ذلك اليوم الأول من شهر مايو، وهو عيد العمال في مختلف أنحاء العالم باستثناء بضع دول من بينها الولايات المتحدة؛ ففي مثل هذا اليوم من عام ١٨٨٦، خرج نحو ٤٠ ألف عامل في مظاهرة بشارع ميشيجان بمدينة شيكاجو، في محاولة منهم لجعل يوم العمل ثمانية ساعات. وبعد مرور بضعة أيام، اندلعت أعمال شغب في مظاهرة للعمال في هايماركت، وانتهى الأمر بانفجار قنبلة وإطلاق الشرطة للنيران على المُتظاهرين. قُتل سبعة من رجال الشرطة ومتظاهران، وأُصيب الكثيرون. قُبض على أربعة من «مثيري الشغب» وأُعدموا فيما بعد. ونظرًا لأن الرئيس جروفر كليفلاند لم

يرغب في الاحتفاء بحركة «الاشتراكيين»، رُحِّل عيد العمال الأمريكي إلى يوم الاثنين الأول من شهر سبتمبر.

وهكذا كان الأول من مايو هو اليوم الذي يحتفل فيها الكمبوديون بالأحداث التي تحاول الولايات المتحدة رسميًّا نسيانها، أحداث أدت في النهاية إلى دفع المصانع، في الولايات المتحدة، أجورًا أعلى للعمال مقابل ساعات أقل من العمل. كانت هذه الأحداث هي ما أدت إلى فقدان العمال الأمريكيين وظائفهم وأدَّت إلى نقلها إلى أماكن مثل كمبوديا، حيث حقوق العمال وأجورهم أقل، وحيث يُطلق سراح الأحزان ويُعاد تدويرها، ولكنها لا تُنسى أبدًا. إنها أماكن تتَّسم فيها الرأسمالية بالفوضوية، أماكن يكون فيها عدد النقابات العمالية أكبر من عدد المصانع، أماكن يُقتل فيها قادة الاتحادات.

وهي أيضًا الأماكن التي تُصنَع فيها سراويلي الجينز.

تخيَّل راعيًا للبقر أو عاملًا يبني سد هوفر أو عامل مناجم يبحث عن الذهب أو أمريكيًّا يتصرف بطريقة أمريكية صرفة. ما الذي يَرتديه هؤلاء؟

من العجيب أن من بين كل الملابس التي يُمكننا ارتداؤها يُعدُّ الجينز الأزرق هو أكثر ملبس يحمل طابعًا أمريكيًّا.

لقد أُلِّفت كتب كاملة عن الجينز؛ حيث ألف جيمس سوليفان كتابًا بعنوان بسيط: «الجينز» (نيويورك، دار نشر جوثام بوكس، ٢٠٠٦)، وهو كتابٌ يَزخر بمقولات تُعلي من شأن الملابس: «أولًا، وضعوا البنية التحتية للبلاد، ثم عمروها بسكان يَتمتَّعون بهوية جمعية.»

وهل هناك قطعة ملابس أخرى تَنال المدح والثناء على المشاركة في بناء دولة وهوية قومية؟ بالتأكيد، ليس المقصود السراويل الداخلية ماركة «جينجل ذيس».

كان رجال البحرية الإيطالية أول مَن ارتدى الجينز، إلا أن أول مكان أُنتج فيه الجينز المبرشم بالقطع المعدنية كان سان فرانسيسكو على يد ليفي شتراوس، وهو مهاجر ألماني؛ ومن ثم ربما لا يكون الجينز الأزرق أمريكيًّا خالصًا كما يروق لنا أن نظن، ولكن اسمع هاتين الكلمتين: جيمس دين.

وإليك كلمة ثالثة: فونزي.

لم نخترع الجينز الأزرق في الولايات المتحدة، ولكنَّنا جعلناه رائعًا.

كتب سوليفان يقول:

> جميع السراويل الجينز الزرقاء، سواء كانت خَشِنة كرصيف المشاة أم ناعمة الملمس كالكاشمير، تشترك في طابع «أمريكي». فربما تُقص وتُحاك في اليابان أو فيتنام أو هونج كونج، وتُصنَع باستخدام قماش الدنيم الذي تُنتجه مصانع النسيج بالمكسيك أو الهند أو إيطاليا أو تركيا، وباستخدام الصبغة النيلية المصنعة في ألمانيا أو البرازيل. وبغض النظر عن منشأ السروال الجينز الأزرق، فإنه يجسد خرافات ومُثُلًا خاصة بالثقافة الأمريكية امتدَّت على مدار قرنين من الزمان. وتُعد السراويل الجينز أثرًا باقيًا من المكتشفات الغربية؛ فهي تُلخص الاهتمامات التي تشغل بالنا في الوقت الحالي — ثقافة المشاهير والثقافة الاستهلاكية — وسنَستمر في ارتدائها على الأرجح بعدما نكون قد تخلَّصنا من بِذَل العمل في سلة نفايات الأزياء.

لا أتذكر أيَّ قطعة أخرى من الملابس قد تُرقعها والدتي، مثلما أتذكر بعضًا من سراويلي الجينز التي بها رُقَع فوق رقع. كان كل ثقب بها عبارة عن ندبة في معركة من الحركات الانزلاقية عند القاعدة الثانية في لعبة البيسبول ومباريات المصارعة في المنزل وحوادث ركوب الدرَّاجات وأمسيات اللعب التي كان يَتغلَّب فيها الخير على الشر. لقد مزقتُ السراويل الجينز ولطختها بالحشائش ونزفت وأنا أرتديها. وفي فصل الشتاء، لعبتُ في الثلج حتى تجمَّد سروالي الجينز. عندما أتذكر طفولتي، أتذكرها وأنا أرتدي سروال جينز وأستمتع بوقتي.

مثل لعبة البيسبول وفطيرة التفاح وطفولتي، السراويل الجينز ذات طابع أمريكي خالص. ورغم ذلك، الملصق الخاص بسروالي الجينز المُفضَّل مكتوب عليه: «صُنع في كمبوديا.»

الفصل الثالث عشر

العام صفر

«قبل يومين، نُسِفَت بقرة هناك.» هذا ما قاله تيم ريم الذي لم يكن يعيش مع زوجته سواي بالقُرب من حقل ألغام حقيقي، وإنما كان يعيش «وسط» هذا الحقل. وعلى أعمدة من البامبو مخطَّطة بالأحمر والأبيض عُلِّقت لافتات مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان. وفوق الجمجمة كُتبت حروف اللغة الخميرية وتحتها الترجمة: «خطر! ألغام!» جلَس تيم ريم وسواي في الظل أسفل منزلهما الخشبي القائم على ركائز خشبية طويلة. كان تيم ريم يجلس على صندوق خشبي، وسواي تتأرجَح على أرجوحة شبكية.

قال تيم ريم: «أمس، داس أحدهم على لغم أرضي ونُقل إلى المدينة لتلقِّي العلاج.»

تيم ريم وسواي كبيران في السن ونَحيفان في الجسم؛ حيث بدا رأساهما كبيرين جدًّا مقارنة بجسديهما الهزيلين. كان لا يملك كلٌّ منهما سوى سنٍّ واحدة، وهذه السِّنُّ كانت موجودة على لثة الفك السفليِّ لتيم ريم وكأنها شاهد قبر أعوج ذو لون أبيض باهت، حتى تجاعيدهما كان لها تجاعيد. بدءًا من وهنهما وحتى رأسَيهما الحليقين اللذين كُسيا باللون الرمادي، تقدم بهما العمر حتى صارا يُشبه كلٌّ منهما الآخر. لقد أُصيب تيم ريم بسكتة دماغية تَظهر آثارها حين يسير وفي طريقة حمله لذراعه اليمنى. ولم تكن سواي نفسها في حالة أفضل كثيرًا.

كنت في غرب ثاني أكبر مدينة بكمبوديا، باتامبانج، وقد وافق صديقي الكمبودي، كيم، على مرافقتي إلى الريف. كان كيم يعمل لدى المجموعة الاستشارية لإزالة الألغام (إم إيه جي)، وهي منظمة غير حكومية تعمل على إزالة الألغام والذخائر القابلة للانفجار في كمبوديا. وتعمل المجموعة بكد منذ عام ١٩٩٢، ويبدو أن عملها ليس له نهاية أبدًا.

في مقال بعنوان «قنابل في مختلف أنحاء كمبوديا» نُشر في عدد مجلة «ذا والروس» الكندية بتاريخ أكتوبر ٢٠٠٦، ادعى تايلور أوين وبن كيرنان أن كمبوديا ربما تكون

أكثر دولة تعرَّضت لقصف في التاريخ. وأشارا إلى أنه بالرغم من أن الحرب العالمية الثانية شهدت إلقاء قوات التحالف مليونيَ طنٍّ من المتفجرات والقنابل — من بينها ما أُلقي على هيروشيما وناجازاكي — فإنه في الفترة من ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٣، ألقت الولايات المتحدة ٢٫٧ مليون طن من المتفجرات والقنابل على كمبوديا، وهي دولة أصغر قليلًا من ولاية أوكلاهوما. بدأ القصف سرًّا عام ١٩٦٥ تحت قيادة إدارة جونسون، وكان يحدث على الأرجح لدعم تحركات وكالات المخابرات المركزية (سي آي إيه) والعمليات البرية للقوات الأمريكية الخاصة. وفي عام ١٩٦٩، وتحت قيادة إدارة نيكسون، تم تصعيد القصف لتدمير المقار المُتحرِّكة الخاصة بحركة المقاومة المسلحة فيت كونج وجيش فيتنام الشمالي ولتوفير استراتيجية للخروج من حرب فيتنام. وأبلغ هنري كسنجر أوامر نيكسون إلى الجنرال ألكسندر هيج قائلًا: «إنه يريد قصفًا شاملًا في كمبوديا. ولا يريد سماع أي شيء. إنه أمر ويجب تنفيذه؛ استخدم أي شيء يَطير لاستهداف أي شيء يتحرَّك. هل فهمتَ ذلك؟»

وزعم أوين وكيرنان أن حزب الخمير الحمر — وهو حزب شيوعي مُتمرِّد في كمبوديا — استخدم عمليات القصف لتجنيد القرويِّين وزيادة عددهم من بضعة آلاف لأكثر من ٢٠٠ ألف. وفي النهاية، وصل حزب الخمير الحمر إلى سدة الحكم، فارضًا بذلك شكلًا مُتطرِّفًا من أشكال الشيوعية الزراعية. وأعدم الحزب أي شخص اعتبروه عدوًّا لهم، كما نفذ الحزب عملية إبادة جماعية قُتل فيها ١٫٧ مليون شخص. وعلى الرغم من الإطاحة بحزب الخمير الحمر من السلطة عام ١٩٧٩، فإنه أحكم قبضته بقوة على مقاطعة بايلين في أواخر تسعينيات القرن العشرين. ووفقًا للمجموعة الاستشارية لإزالة الألغام (إم إيه جي)، زرع الحزب ملايين الألغام الأرضية لحماية منطقته.

قال لنا تيم ريم: «أعرف أين توجد الألغام. لقد زرعتُها بنفسي.» كان تيم ريم جنديًّا سابقًا في حزب الخمير الحمر. سمعتُ أن الكثير من القادة والجنود ما زالوا يعيشون في هذه الأجزاء من البلاد، ولكنَّني لم أتوقع أبدًا أن ألتقي بأحدهم.

واصل تيم ريم قائلًا: «لقد بنيتُ هذا المكان عام ١٩٩٠. أزلتُ أنا وأخي بعض الألغام، ولكنني لست متأكدًا من أننا قد أزلناها جميعًا. ونظرًا لأن ثمة احتمالًا بوجود بعضٍ منها بالجوار، فإننا نضع حفنة من التراب والقاذورات أولًا. لقد أخلينا بعض الأراضي.» ابتسم ثم أردف قائلًا: «وأُخلي البقر عن بعض الأراضي.»

إن الألغام التي زرعها تيم ريم انفجَرت في بقر جيرانه وانفجرت في جيرانه أنفسهم.

لقد قتلت القنابل الأمريكية عشرات الآلاف، إن لم يكن مئات الآلاف من الكمبوديين بين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٣. ومنذ ذلك الحين قتَلت القنابل الأمريكية — بالإضافة إلى الألغام التي زرَعها حزب الخمير الحمر — وجرحت الكمبوديِّين بمعدل شخصين يوميًّا.

قالت سواي، التي كانت راضية بالجلوس والاستماع حتى ذلك الوقت: «إنه يبلغ من العمر ٧٢ عامًا، لم يعد في مقدوره إزالة الألغام. هو لا يَستطيع تذكُّر مكانها جميعًا.»

وبينما كنتُ أودع — أنا وكيم — تيم ريم وسواي، طفق كلباهما ينبحان على شيء من بعيد. فاستدار الزوج والزوجة في آنٍ واحد وصاحا فيهما ليَسكُتا.

كنتُ أتتبع سوكبيسيث (سوك) خطوة بخطوة في حقل أسرته.

إذا كان آخر شيء تريد سماعه في حقل الألغام هو «بووم»، فإن الشيء قبل الأخير هو ...

«كيلسي! كيلسي! انتبه إلى موضع قدمك!» هذا ما قاله كيم وهو يُشير إلى الأرض من تحتي. تجمَّدت مكاني وقدمي اليمنى تتأرجح فوق ما ظننتُه نوعًا من المتفجرات البغيضة.

انفجر كيم في الضحك، وانضمَّ إليه سوك وعمدة القرية القريبة. الضحك «هو» الصوت الذي تريد أن تسمعه في حقل الألغام.

أشار كيم إلى لافتة ذات لون أبيض وأحمر في وسط الحقل قائلًا: «لا داعي للقلق.» ثم ترجم كيم المكتوب على اللافتة قائلًا: «لقد طهَّرت المجموعة الاستشارية لإزالة الألغام (إم إيه جي) هذه الأرض.» وأردف قائلًا: «بدأت المجموعة الاستشارية لإزالة الألغام تطهير هذه الأرض في أغسطس ٢٠٠٦ وانتهت من العمل في ٢٣ فبراير. وقد أزالت ١٧٤ لغمًا يستهدف الأفراد و٢٢ ذخيرة غير مُنفجِرة.»

قال سوك: «سنَنتقل إلى هذه الأرض في أسرع وقت مُمكن، ولكنني مزارع، والوقت الحالي هو وقت مزدحم بالعمل.»

يعيش سوك وأبناؤه الثلاثة وزوجته في الوقت الحالي مع والدَيه في القرية بمنزلٍ أشبه بمنزل تيم ريم وسواي، ولكنه أكبر قليلًا وأشبه بمتجرٍ عام يَبيع أشياء مُتفرِّقة ويتسكع فيه أشخاص كُثر أكثر من كونه مكانًا يستطيعون العيش فيه.

كانت مساحة الأرض التي أشار إليها من بعيد تبلغ نحو ستة أو سبعة أفدنة. وشرَع يصف خططه. كان يرى بِركة مياه بحاجة إلى حفرها بالقُرب من صخرة وكومة

شجيرات. ومن فوق منصة مصنوعة من الخَيْزُرَان، رأى حقلًا بحاجة إلى تطهير ومجموعة صغيرة من أشجار المانجو والموز تحتاج إلى زرعتها.

قال سوك: «في الماضي، كان يَنتابني شعور سيِّئ، ولهذا لم أكن أستغلُّ هذه الأرض. أما الآن، وقد جرى تطهيرها، فأشعر بسعادة بالغة.»

ضبَط سوك قبعة البيسبول المُمزَّقة خاصته وخلَّل أسنانه بظفره الطويل غريب الشكل. وأخبرنا بأنه بدأ بالفعل تطهير هذه الأرض المزروعة بالخَيْزُرَان قبل أن تُطهرها المجموعة الاستشارية من الألغام الأرضية.

سألته قائلًا: «أليس هذا أمرًا خطيرًا بعض الشيء؟»

لم يَنتظر سوك ترجمة كيم، وإنما شمَّر سرواله ليكشف عن ندوب في حجم الهامبرجر على الجزء السفلي من ساقه. حسنًا، كانت هذه إجابة عن سؤالي. ثم أومأ إلى عمدة القرية، الذي كان يَرتدي تي-شيرتًا عليه رسومات أطفال وأبقار تطير في الهواء بسبب وقوع انفجار في أحد الحقول. ومثل هذه الرسومات كانت على لوحات إعلانية مُصطفَّة على طول الطرق في جميع أنحاء كمبوديا. شمَّر العمدة عن ساقه اليمنى وكشف عن ساقٍ بلاستيكية صناعية باهتة اللون ومُتكسِّر منها أجزاء مُلتصق بها شبشب مطاطي خفيف أزرق.

لقد قضينا الساعة الأخيرة معًا، ولم ألاحظ ذلك.

قال سوك، وهو يُحدِّق في ساق العمدة: «هذه الأرض هي حياتي الآن، وهذا هو مستقبل أبنائي؛ أتمنى أن يزرعوا هذه الأرض يومًا ما.»

هذا، بالطبع، إحساس مألوف؛ فالوطن هو المكان الذي نريد فيه أن يصير آباؤنا أجدادًا وأن يصير أجدادنا أجدادًا لأولاد أولادنا وأن يصير أشقاؤنا أعمامًا وعمات؛ هو المكان الذي نريد أن نُكوِّن فيه أسرة.

الوطن هو الوطن حتى وإن كان مكانه حقل ألغام.

كنا ثلاثة رجال نستقل درَّاجة بخارية صغيرة عائدين إلى مقاطعة بايلين؛ وهو مشهد ليس مستجدًّا على كمبوديا. مرَّت بجوارنا أسر كاملة تستقل درَّاجة بخارية صغيرة، أطفال نائمون واضعين رءوسهم على ظهور آبائهم. إحدى الدرَّاجات البخارية — التي كانت تسير ببطء بالغ عبر الطريق — كان مُثْبتًا عليها سلة ضخمة مصنوعة من الخوص، ومنها كان يُطلُّ رأس خنزير.

كان ممتص الصدمات الخاص بدرَّاجتنا البخارية يصدر صوتًا عاليًا مع كل مطب نمر عليه في الطريق الترابي. كنتُ أجلس في المنتصف بين السائق وكيم الذي كان يَجلس خلفي. نزلنا إلى وادي به بحيرة صغيرة في المُنتصف؛ كانت زهور اللوتس وردية اللون تَفترش سطح البحيرة وتَتمايل مع النسيم العليل. كان يوجد ثلاثة أعلام كمبودية تحمل اللونين الأحمر والأزرق وفي المُنتصف صورة ظلِّية للمعبد الكمبودي الشهير أنجكور وات، تُرفرف على أعمدة خيزران رفيعة جدًّا بارزة من البحيرة.

كانت السماء زرقاء صافية والتلال خضراء زاهية. كان يومًا مثاليًّا ينبغي أن يقضيه الأطفال في الوثْب باستخدام الحبال أو التدحرُج على التلال، ولكن كما تشير لافتات التحذير من الألغام الأرضية، كانت أغلب الأراضي في هذه الأجزاء مسروقة.

استكملتُ أنا وكيم حوارنا عن تأثير الألغام الأرضية على السكان المحليِّين وكيف أن منظمات مثل المجموعة الاستشارية لإزالة الألغام تُحاول توعية الأطفال بشأن الألغام والقنابل.

قال كيم: «إننا نحاول أن نُعلمهم أنهم إذا رأوا عظامًا على الأرض، يجب أن يُغادروا فورًا لأن المكان يكون على الأرجح حقل ألغام.»

سألته قائلًا: «ثمة عظام مُنتشرة في أنحاء المكان؟»

أجاب قائلًا: «أجل.»

تَمتلك كمبوديا أكبر عدد لضحايا بتر الأطراف في العالم؛ فشخص واحد من ٣٥٠ شخصًا فقد جزءًا أو آخَر من جسده.

يَنجذب الأطفال الغافلون للقنابل اللامعة التي يَجدونها في الغابة أثناء جمع الحطب. ويَجمع المُزارعون القنابل ويبيعونها للاستفادة من الخردة المعدنية بها. القنابل مُنتشرة جدًّا لدرجة أن السكان المحليِّين يَستخدمونها في صيد الأسماك. فالألغام تُشوِّه وتَقتل في حالة تامة من اللامبالاة. لقد انتهت الحرب منذ فترة طويلة، إلا أن الألغام بقيَت متربِّصة. ربما كان من الآمن أن تسير في ذلك المكان اليوم أثناء موسم الأمطار، ولكن غدًا ليس آمنًا؛ بسبب عوامل التعرية التي تنقل أو تَكشف حقل ألغام أو ذخيرة غير منفجرة.

وعلى الجانب الآخر من الوادي، مرَرْنا على بيتٍ مختلف كثيرًا عن جميع البيوت الأخرى. كان مبنيًّا من الخرسانة والقرميد.

ألقى كيم نظرة من فوق كتفي وهو يُمسك بقبعته ذات الطابع العسكري قائلًا: «هذا هو منزل أحد قادة حزب الخمير الحمر. لقد صار الآن عجوزًا، إلا أنه يعيش حياة كريمة.»

لقد أفلت قادة حزب الخمير الحمر من العقاب على مدار ثلاثين عامًا؛ ففي أغسطس ٢٠٠٦، بدأ تحقيق رسمي، أجرته الأمم المتحدة، على أمل محاكمة القادة السابقين للحزب. كان الكثير منهم قد وافتْه المنية أو يعاني من الأمراض، بمن فيهم بول بوت، قائد الحزب الذي تُوفيَ عام ١٩٩٨. ولم تُوجَّه الاتهامات إلى أحد من القادة حتى صيف عام ٢٠٠٧ حين اتُّهم قائد مسئول عن أحد حقول القتل الكثيرة؛ ساحات الإعدام الخاصة بحزب الخمير الحمر.

وبينما كنا نَقطع الطريق الترابي في سرعة بالغة، حاجبين وجوهنا حين تقترب منَّا عربة أو دراجة بخارية صغيرة، أخبرني كيم بتجربته مع حزب الخمير الحمر.

قال كيم: «كنتُ أرعى الأبقار في الغابة حين سمعت بعض الأصوات، ذهبت لأتحرى الأمر ورأيت أسرة قد قُضي عليها على هذا النحو.» وتظاهر بالإمساك بمسدَّس ووجهه نحو قفاي، ثم أردف قائلًا: «ثم دُسُّوا جميعًا في حفرة. ركضتُ بسرعة. قالت لي أمي إنه لا يجب أن يعلم أحدٌ بما رأيته. وبعد ذلك بفترة وجيزة، أرسلتني — هي ووالدي — إلى تايلاند للبحث عن أحد أصدقائهما، وأقمتُ هناك باعتباري أحد لاجئي الحرب. كنتُ في الثامنة من عمري.»

كان تيم ريم جنديًّا سابقًا في حزب الخمير الحمر، وتحدَّث إليه كيم كما يتحدث إلى أي شخص آخر. أشار إلى المنزل الخاص بزعيمٍ سابق ولم يبدُ عليه الشعور بالمرارة. كيف يكون هذا ممكنًا؟

لقد درس عالم الإنسانيات ألكسندر لابان هينتون الإبادة الجماعية في كمبوديا وتحدث مع أشخاص عن مشاعرهم حيال جيرانهم الذين تورَّطوا في قتل أصدقائهم وأُسرهم. وفي كتابه بعنوان: «لماذا قَتلوا؟ كمبوديا في ظل الإبادة الجماعية» (بيركلي، مطابع جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٥)، كتب عن امرأة تُدعى تشلات حكت له قائلة:

> ما زلتُ أفكر في الانتقام. فكرة الانتقام هذه لا أعرف كيف أمنعها. لا ينبغي لنا أن نترك هذه الفكرة أو هذا الأمر ينمو ويَستمر لفترة طويلة من الوقت. يجب أن نُفكِّر ونتصرف بما يتوافق مع تعاليم الدارما. [والشخص الذي يسعى للانتقام] لا يَخلق إلا البؤس والتعاسة لمُجتمعنا. إنه جرثومة في المجتمع … الأشخاص الذين قتلوا أخي … جميعهم على قيد الحياة، يَعيشون في قريتي. وحتى هذا اليوم، ما زلت راغبة في الانتقام … ولكن لا أعرف ماذا أفعل … الحكومة تحظر ذلك.

سواء كان ذلك بسب الدين أو القوانين، لا خيار أمام شعب كمبوديا إلا تَحمُّل العيش مع ذكريات ماضيهم. ولكن كيف يَتسنى لهم أن ينسوا؟

كنت أود أن أسأل كيم عن هذه المشاعر نحو حزب الخمير الحمر السابق. هل كان يريد تحقيق العدالة التي فشلت حكومته والمجتمع الدولي في تحقيقها؟ هل أراد الانتقام من الأشخاص الذين تسبَّبوا في انفصاله عن أسرته؟ لكنني لم أفعل. لقد عمل كيم لدى منظمة كير حيث ساعد في مكافحة الاتجار بالجنس، والآن يعمل لدى المجموعة الاستشارية لإزالة الألغام (إم إيه جي) حيث يشتغل بتوعية السكان المحليِّين بمخاطر الألغام. وأظن أن الخير الذي يفعله مع الأشخاص الذين تجرعوا الكثير من الشر هو في حد ذاته انتقام، بطريقة أو أخرى.

كان حزب الخمير الحمر يُشير إلى عام ١٩٧٥، العام الذي وصلوا فيه إلى سدة الحكم، بالعام صفر. كان «العام صفر» يُمثِّل فكرة أن الثقافة والتقاليد والتاريخ السائد قبل عام ١٩٧٥ كان غير ذي صلة ومن ثم مُحي؛ وبذلك صارت كمبوديا أشبه بالصفحة البيضاء التي من شأنهم أن يَرسموا عليها تعاليم الزعيم ماو. في الحقيقة ضغط حزب الخمير الحمر على زرِّ إعادة ضبط الأوضاع إن جاز التعبير.

لقد أخلوا المدن وملئوا المَزارع. كانت الأولوية رقم واحد بالنسبة إليهم هي إنتاج الأرز؛ ثلاثة أضعاف ما كان يُنتج في السابق. صرَّح حزب الخمير الحمر بأن الحاجة تدعو إلى «رفع مستوى المعيشة». كانت كمبوديا بمنزلة صفحة بيضاء فارغة: لقد ذهبت المؤسَّسات الحكومية بلا رجعة، ومُنعت ممارسة الشعائر الدينية، وقُتل الأطباء والمحامون وغيرهم من المتعلمين، في الواقع ٢٠ بالمائة من السكان جرى إبادتهم، وانهار الاقتصاد.

عندما أُزيح حزب الخمير الحمر عن السلطة، كان قد حان الوقت لإعادة البناء. وجاء المجتمع الدولي ليُقدِّم المساعدة. جاءوا بالأموال، وجاءوا بالعمال، وجاءوا بالسياحة، وجاءوا بفرص العمل، وجاءوا بالاستثمار، وجاءوا بالصالحين، وجاءوا بالطالحين، وجاءوا بالأمل.

وجاءوا بالسراويل الجينز الزرقاء.

الفصل الرابع عشر

مَنْ يرتدون ليفايس

حضرتُ إعادة افتتاح مطعم ستيفز باربيكيو بصفة رسمية في العاصمة الكمبودية بنوم بنه دون حضور أي مُواطن كمبودي.

في تلك الليلة، كان ستيف يَحتفل بعيد ميلاده الخامس والخمسين، وكانت تكلفة البوفيه المفتوح الذي احتوى على كل ما لذ وطاب من الطعام، ٥٫٥٥ دولارات وكانت تكلفة البيرة، من البرميل الخشبي المزوَّد بصنبور، ٥٥ سنتًا. وبالمناسبة، أودُّ أن أشير هنا إلى أن الدولار الأمريكي يُستخدم في عدة أماكن في كمبوديا وفي الحقيقة يُفضَّل التعامل به.

ازدحمت الطاولات برجال ونساء، أجانب من الغرب، جلسوا جميعًا يَتناولون أكوامًا مُكدَّسةً من الطعام. أمسكتُ بطبق وملأته عن آخره من البوفيه وجلستُ على أحد المقاعد القليلة الشاغرة عند البار إلى جوار رجلٍ أشيَب ذي بشرة شاحبة. كان يحدق في التليفزيون — الموجود خلف نضد البار — والذي كان يَعرض برنامج «سبورتس سنتر» على شبكة إي إس بي إن التليفزيونية.

سألته، أثناء الفاصل الإعلاني بينما كنت أغمس شرائح البطاطس المقلية في البطاطس المهروسة ثم أغمسها مرة أخرى في الكاتشب، قائلًا: «هل تناول البطاطس المقلية والبطاطس المهروسة معًا مخالف لآداب تناول الطعام؟»

سألني الرجل: «من أين أنت؟»

فأجبته قائلًا: «ولاية أوهايو.»

وأردفتُ متسائلًا: «وأنت؟»

رد الرجل، وقد بدا أنه يمرُّ بمرحلة صعبة من حياته على ما يبدو، قائلًا: «ولاية كونيتيكت. كنا قد اعتدْنا إدارة شركة رحلات تنظم سفريات إلى دول بقارة آسيا؛ نيبال

والهند وكمبوديا وما إلى ذلك. إلا أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر وضعت نهاية لكل هذا قبل ثلاث سنوات؛ ومن ثم انتقلتُ إلى هنا.»

اعتدْنا إدارتها؟ انتقلتُ؟ خلال السنوات الثلاث الأخيرة، خسر هذا المسكين شركته وانتقل من الحديث بصيغة «الجمع» إلى صيغة «المفرد».

«في الوقت الحالي، أنا أدرس اللغة الإنجليزية لدى ستيف.» قالها الرجل وهو يشير بكأس البيرة ناحية الرجل الأمريكي المُزعج الذي كان يحاول إصلاح الصنبور المكسور الخاص ببرميل بيرة «تايجر بير» من خلف نضد البار. مطعم ستيفز باربيكيو؟ مدرسة ستيف لتعليم اللغة الإنجليزية؟ يبدو أن ستيف استطاع أن يُدير إمبراطورية ستيف هنا في مدينة بنوم بنه.

وبينما كنتُ بصدد تناول الطبق الثاني من البطاطس المقلية المغموسة في البطاطس المهروسة المغموستَين بدورهما في الكاتشب، انضمَّ إلينا رجل أمريكي بدين. ثمَّة شيء مكتوب على التي-شيرت الأسود ذي المقاس الكبير جدًّا الذي كان يَرتديه، كنتُ أحاول قراءته من فوق المرايا الموجودة وراء نضد البار. ولكني لم أستطع، لذا سألته.

قال: «أوه، لا أعلم!» وقد بدا عليه الإحراج بعض الشيء ونظر إلى أسفل ليقرأ الكلمات المكتوبة على التي-شيرت باللغة الإنجليزية: Caution 1990 Tool Style (تحذير: أسلوب الأداة ١٩٩٠.) لم يكن للعبارة أيُّ معنًى مطلقًا، ولكن أظنُّ أنك إذا احتجتَ إلى قميص مقاسه كبير جدًّا في دولة بقارة آسيا، فسوف تَشتري واحدًا أينمَا تعثر عليه، بغضِّ النظر عن مدى حماقة الكلمات المكتوبة عليه.

كان ذلك الشخص واحدًا من مُدرِّسي اللغة الإنجليزية الذين يَعملون لدى ستيف وكان يَتحدث بتعالٍ عن كل شيء في كمبوديا ليُعلمني أنه مكث هنا لفترة من الوقت. وعندما أدرك أن صنبور برميل بيرة تايجر بير لا يعمل، أشاح بنظره ورضيَ بتناول بيرة بيرلاو.

وما إن وصل المزيد من مُعلمي ستيف حتى انتقلنا للجلوس على طاولة.

ثم انضمَّ إلينا رجل في أواخر الثلاثينيات من عمره. كان أشبه بشخصية داتا — الإنسان الآلي شاحب البشرة — من فيلم «ستار تريك: الجيل القادم»، ويتحدَّث بصوت ذي نبرة رتيبة تُوحي بالسخرية. كان هذا الرجل — داتا — وصاحب التي-شيرت الأسود ذي المقاس الكبير صديقَين حميمَين. سرعان ما بدآ يَشكوان من قلة الطعام المقدم في البوفيه المفتوح.

قال صاحب التي-شيرت الأسود: «لن أدفع خمسة دولارات. الأمر لا يَستحق هذا المبلغ.»

قال شبيه داتا: «شيء سخيف. ستيف يقول إن لديه ١٠ أشخاص يعملون في المطبخ. لو كان لديه ثلاثة أشخاص أكْفاء، لكان البوفيه مجهَّزًا بالكامل.» التفت إليَّ وواصل شكواه قائلًا: «عشتُ في تايلاند لمدة عام. شعبها رائع، ولكنَّك إذا أردت إنجاز شيء، فهذا مُستحيل. لكن جماعة الخمير يَجعلون التايلانديِّين يبدون وكأنهم علماء ذرة ملاعين.»

انضمَّ المزيد من معلمي اللغة الإنجليزية، من بينهم شخص بريطاني مُعجَب ببراعة كلماته وشخص من نيوزيلندا أحدب الكتفَين ربما نتيجة لتعرُّضه لحادث عمل. وشرعت المجموعة تتحدث عن صديق يُحاول الحصول على تأشيرة دخول إلى فيتنام.

علق الرجل ذو التي-شيرت الأسود بلهجة سخرية قائلًا: «لقد أصبح خميريًّا في طباعه مؤخرًا.»

واصلت المجموعة انتقادها اللاذع لعدم كفاءة السكان المحليِّين وكسلهم حتى أُعيد تجهيز البوفيه مرة أخرى. ثم قرَّروا بعد ملء أطباقهم عن آخرها للمرة الثانية والثالثة بأصناف الهامبرجر والبطاطس المقلية أن البوفيه يستحق مبلغ ٥٫٥٥ دولارات.

ثم سمعنا صوتًا مرتفعًا للغاية. لقد سقطَت زاوية سقف الشرفة على طاولة البلياردو ما أسفر عن تطايُر قرميد السقف. ركض ستيف إلى المكان ليُعاين الخسائر. في البداية أصاب عطل صنبور برميل البيرة، والآن سقط السقف. وضع يديه فوق رأسه الذي أخذ يهزُّه في حالة من عدم التصديق. لم تكن هذه الطريقة التي كان من المفترض أن يَسير بها الاحتفال بإعادة افتتاح المطعم بعيد الميلاد.

قال شبيه داتا، وهو يدسُّ في فمه شطيرة الهامبرجر بالجبن: «اللعنة على الإنشاءات الكمبودية. لا قيمة لها!»

سراويل الجينز ماركة ليفايس مصنوعة في كمبوديا، ولكنها ليست للبيع رسميًّا بها. فكمبوديا ليست دولة يُباع فيها ماركة ليفايس، بينما إنجلترا ونيوزلندا والولايات المتحدة ومعظم الدول التي يأتي منها «الفرنجة» — أمثالنا — يُباع فيها ماركة ليفايس. الكمبوديون هم مُصنِّعو ماركة ليفايس، ونحن مُستهلكو ماركة ليفايس.

كان أصعب تغيير للانتقال مِن بنجلاديش إلى كمبوديا هو وجود أشخاص آخرين من الدول المُستهلكة لماركة ليفايس. لم يكن هؤلاء مُعلمي اللغة الإنجليزية وحسب، بل

كان يوجد أكثر من ألف منظَّمة غير حكومية عاملة في كمبوديا. سيارات لاند كروزر مزوَّدة بأنابيب تنفُّس تحت المياه ومثبت على أبوابها جميع أنواع الاختصارات المكوَّنة من ثلاثة وأربعة حروف تجوب شوارع مدينة بنوم بنه. وقد أخبرني صحفي كمبودي أن كمبوديا أشبه بتجربة حديثة لبناء أمة. ويبدو أن هذا الأمر صار مُيسَّرًا — على المدى الطويل — بسبب فترة حكم حزب الخمير الحمر. لقد نسوا الماضي كله وبدءوا من جديد، ولقد جاءت المنظَّمات غير الحكومية وأصحاب الأعمال الخيرية لمد يد العون، جالبة معها الديمقراطية والرأسمالية ونوعًا من الاستعمار المتظاهر بالتقوى والورع. وعلى النقيض من الاقتصاد القائم على المَزارع الشيوعية، صار الاقتصاد الآن قائمًا على إنتاج السراويل الجينز وغيرها من الملابس. وإذا لم تكن مواطنًا كمبوديًّا ولم تكن تصنع ملابس لإحدى الدول المُستهلكة لماركة ليفايس، فأنت تعمل على الأرجح لدى منظمة غير حكومية تابعة لإحدى الدول المُستهلكة لسراويل ليفايس، أو تعمل في خدمة السياح القادِمين من الدول المستهلكة لسراويل ليفايس في وظيفة مرشد سياحي أو سائق أو مُترجم. ووفقًا للمنشور الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية على شبكة الإنترنت بعنوان «كتاب حقائق العالم»، صناعة الملابس مسئولة عن ثلاثة أرباع صادرات البلد، وأسهمَت المساعدات الأجنبية في عام ٢٠٠٧ بنحو ٧٠٠ مليون دولار، كما أن صناعة السياحة تنمو بسرعة بالغة.

أنا لا أرتاد الملاهي الليلية؛ حيث لا أستطيع أن أسمع شيئًا أثناء عزف الموسيقى الصاخبة، وصوتي ليس قويًّا بالدرجة التي تكفي لتمكنني من الحديث مع أحدهم. ويمكنني أن أحصي عدد المرات التي دخلت فيها أحد الملاهي الليلية على أصابع اليد الواحدة. ولكن عندما دعتني مجموعة من الأجانب لمرافقتهم إلى ملهى جولدن بوس؛ بدَت التجربة مُبتذَلة للغاية بحيث لا يُمكنني أن أفوتها.

بدَت التجربة وكأنها فكرة جيدة في ذلك الحين إلى أن دخلتُ الحمام وبعدها مضى كل شيء في مسار خاطئ تمامًا، وأدركت أنها لم تكن فكرة جيدة.

بالطبع، كان يجب عليَّ المغادرة، إلا أنني اعتبرتُ الذهاب إلى الحمام فرصة للهروب من الموسيقى الصاخبة والجرعات الزائدة والفاخرة من مُخدِّر الماريجوانا. انحنى عامل الحمام تحيةً لي. كان يرتدي ربطة عنق فَراشية الشكل كبيرة الحجم حمراء. بادلته التحية بنصف انحناءة وتلويح باليد وتوجَّهت نحو مبولة موجودة في الركن الخلفي من الحمام.

وبينما كنتُ بصدد تأدية المهمة التي جئتُ من أجلها حتى بدأ تدليك الكتفين.

«ما هذا بحق ...؟!»

إذا كان يوجد قاعدة واحدة ألتزم بها طوال حياتي التزامًا صارمًا، فهي أنني لا أتبوَّل إذا كان أحدهم يتحسَّسني، خاصةً إذا كان أحدهم يُدلِّك كتفيَّ، و«بالأخص» إذا كان يَرتدي ربطة عنق فراشية الشكل حمراء.

نظرت إليه متوترًا بينما كان ماضيًا في تدليك كتفي. امتعَض وجهي بسبب هذا الاعتداء. وهززتُ رأسي أن «لا» ثم أومأت له ليَبتعد إلى الوراء، لم أكن أعرف ما كنت سأفعله لو لم يفعل ما طلبتُه؛ حيث إنني كنت في موقف حَسَّاس للغاية.

فهمَ التلميح على أيِّ حال.

وشعرت بالارتياح.

يَمتلك رجال أعمال من الصين وتايوان الكثير من مصانع الملابس في مدينة بنوم بنه، والملهى الليلي جولدن بوس هو المكان الذي يستمتعون فيه بوقتهم من خلال الرقص. كان يحيط بالمدخل الأمامي فتيات محليات يَرتدين فساتين سهرة. كانت وجوههنَّ مغطاة بطبقات من مساحيق التجميل كما لو كن يشاركن في مسابقة لملكات الجمال من الدرجة الثانية. كنَّ يضعن أرقامًا كذلك. كان رجال الأعمال يَستأجرون الفتيات للرقص معهنَّ.

تَدلَّى من السقف مجسمات لكواكب، وتلألأت أضواء الليزر على الأرضية. وصدَح صوت الغناء صاخبًا حتى إن الناس كانوا يَرقصون وهم يضعون أيديهم على آذانهم ومع ذلك استطاعوا الحفاظ على إيقاع الموسيقى. استطاع الجميع فعل ذلك باستثناء رجال الأعمال الصينيين.

انضممتُ مرة أخرى إلى مجموعتي الجالسة على أريكة جلدية سوداء تلتف حول طاولة زجاجية، كان جميعهم يَنتمون إلى مجموعة «هاش هاوس هاريرز». كنت قد قرأتُ عن المجموعة في الإعلانات المبوَّبة بصحيفة كمبوديا ديلي: «الركض والتنزه خارج مدينة بنوم بنه». وما أغفل الإعلان المبوَّب ذكره هو أن المجموعة عبارة عن نادٍ لشرب الخمور يُعاني مشكلة تتعلق بالركض. لعلهم يحتشدون على ظهر شاحنة عتيقة لنقل الحبوب ويَتجهون إلى الريف ويركضون عبر الحدائق الخلفية التي يَملكها آخرون، وذلك تحت المطر، مُتعقِّبين خط طلاء رش أبيض. تخيل أنك تجلس في شرفتك الخلفية ووجدت ٢٠ شخصًا أجنبيًّا في حالة رثة يَرتدون سراويل قصيرة يركضون وهم يَصرُخون بحماسة. في الواقع كانت هذه نوعية الأنشطة التي تمارسها مجموعة «هاش هاوس هاريرز».

اجتمعت المجموعة بعد الركض كي يتناولوا البيرة ويُغنُّوا أغاني مليئة بالتلميحات الجنسية والتوريات الصبيانية. لم أعرف أحدًا منهم باسمه الحقيقي؛ فجميعهم لديه

أسماء مستعارة مثل «جاست آد بير» و«بلاه بلاه» و«فلاسيدو دومينجو» و«مستر تينكل».

تنازل معالي السيد «توكيو جو»، مؤقتًا، عن دوره كـ «مستشار ديني» وحكى لي عن تجربة مرَّ بها أثناء الركض مع المجموعة تُوضح إلى أي مدًى تحسَّنت جودة الحياة في كمبوديا؛ حيث قال: «عندما انهمرت الأمطار بشدة، أويت إلى شجرة وجلست تحتها بجوار فتًى من السكان المحليِّين، وتحاورنا معًا بلغة إنجليزية واضحة تمامًا. سألني عما كنتُ أفعله، وتحدثنا عن الطقس، وحكى لي أنه كان يستقلُّ قاربًا ليذهب إلى المدرسة أثناء موسم الأمطار. وعندما بدأت العواصف تهبُّ، نصحني الفتى بألا أقف تحت الشجرة، وتحرَّكنا إلى شرفته القريبة. قبل بضع سنوات، لم يكن باستطاعة الأطفال في هذه البلاد الالتحاق بالمدارس، ولم يكن في مقدورهم التحدُّث باللغة الإنجليزية. ولولا قدوم المساعدات الأجنبية، لما وصلت كمبوديا إلى ما وصلت إليه اليوم. حتى وإن كان الفساد يُهيمن على المصانع والمُنظَّمات، فعلى الأقل لا يزال أغلب المال باقيًا هنا. نحن [أعضاء مجموعة «هاش هاوس هاريرز»] نتغلغل في حياة الناس. إننا نرى كمبوديا الحقيقية، وقد تغيَّرت للأفضل.»

جلستُ في ملهى جولدن بوس وشاهدت مدير السياحة الجنسية الخاص بمجموعة هاش، وهو رجل إنجليزي كان يَرقص مع فتاة كمبودية ذات ثمانية وعشرين عامًا متزوجة حديثًا من رجل أوروبي يجلس قُبالتي. ما لا يعرفه زوجها أنها واقعة في غرام مدير السياحة الجنسية، ولكنه لن يَتزوجها. وكما هي الحال مع معلمي اللغة الإنجليزية، مدير السياحة الجنسية لم يكن موجودًا في كمبوديا من أجل الزواج والاستقرار بها. تزوَّجت الفتاة من الرجل الأوروبي ليس بدافع الحب؛ وإنما لأنها تريد أن تعيش نمط الحياة التي يَعيشها مُواطنو الدول المستهلكة لماركة ليفايس. وسرعان ما ستعود مع زوجها الأوروبي إلى موطنه، وستعيش هناك نمط الحياة التي تُريدها، ولكنها ستَفتقد أسرتها بالتأكيد. أما في الوقت الراهن، فهي ترقص، وهو يجلس ويَتفرَّج عليها. كانت مُمزَّقة بين عالمين.

سألَتْني فتاة لعوب قائلة: «هل تريد أن ترقص؟» كانت فتاة كمبودية ذات وجه يُشرق عندما تَبتسم، ولكنها حين تكفُّ عن الابتسام تبدو عليها ملامح الجدية الشديدة.

قلت محاولًا تمالك نفسي: «لا أعرف.» إنني أحب الرقص على انفراد، ونادرًا ما أرقص على الملأ. لقد ضبَطني أحدهم وأنا أفعلها على انفراد؛ ذات مرة دخل زميلي في

الغرفة على غفلة بينما كنت أتراقص على أغاني ألبوم هاري كونيك الابن، «وين ماي هارت فايندز كريسماس»؛ حيث قرع زميلي الباب ودخل في الوقت نفسه، كنت أقف في غرفة مساحتها نصف متر تقريبًا متراقصًا بأنفاس متقطعة مُتلبِّسًا بفعلتي ومرتبكًا من اكتشافها. أردفتُ قائلًا للفتاة: «بالتأكيد، ولم لا؟»

انطلقنا وانضمَمنا إلى مدير السياحة الجنسية وعشيقته السرية ورجال الأعمال الصينيين ورفيقاتهم.

لو طُلب مني انتقاد طريقتي في الرقص، لقلتُ إنني أبالغ في التركيز على الإيقاع الموسيقي. كذلك لا أستطيع الاستمرار في تأدية نفس خطوات الرقص الصغيرة لفترة طويلة جدًّا من الوقت. فعندما أفعل ذلك يُصيبني الملل. لذا أحاول باستمرار ابتكار بعض الحركات الجديدة المستوحاة بصفة عامة من المهام اليومية المعتادة مثل قص العشب أو شراء البقالة. ولكن بغض النظر عن مدى ضعف مستواي في الرقص، فإنني لم أَشِن عائلتي بمستوى رقصي مثل رجال الأعمال الصينيين الذين لم يتناغموا مع الإيقاع الموسيقي أيًّا ما كان.

وقف على خشبة المسرح تسعة أشخاص؛ نصفهم كانوا فتيات هزيلات لم يكنَّ يَعزفن على أيِّ آلة موسيقية أو يغنين. كان الجزء الخلفي من المسرح مُزينًا بزينة الكريسماس وحروف فضية اللون تُكوِّن عبارة «عام جديد سعيد»، رغم أننا كنا في شهر يونيو.

أدينا شكلًا من أشكال الرقص التقليدي في كمبوديا وهو يتضمن حركات انسيابية باليد تُشبه حركة اليد عند تركيب مصباح كهربائي. لقد شاركت في حفلات الرقص الحماسي على موسيقى الروك في بنجلاديش التي كانت أكثر إمتاعًا. عندما صدَح المغنون فجأة بأغنية «سوزي كيو»، ابتهجتُ بارتياح. كان المغني الرئيسي يتراقص مُتظاهرًا بالعزف على جيتار ويُطلق من وقت لآخر صرخات الروك الشهيرة. تواصلتُ معه بصريًّا وأشرتُ إليه لأخبره بأن أداءه رائع حقًّا، وبادلني الإشارة. كنا جميعًا رائعين.

تباطأت أنغام الموسيقى، ومن ثم أبطأت الفتاة اللعوب من إيقاع رقصها. لم أرقص من قبل قطُّ مع أحد قصير القامة لهذه الدرجة. من جانب، كان أحدنا يمسك بيدَي الآخر، ومن جانب آخر كانت الأمور مربكة تمامًا. كانت تضع يدها على خصري، وكنت أحيط كتفها بيدي. بدأنا نتحدَّث معًا، وتفاجأت بكم الأشياء التي نتشاركها معًا؛ فنحن — الاثنَين — درسنا علم الأنثروبولوجيا بالجامعة، وهي مُدرِّبة مُعتمَدة لرياضة الغطس، على الرغم من أن مُعاناتها من دوار البحر تحدُّ من استمتاعها بالرياضة. كانت فتاة لطيفة

لديها رفيق يعيش في سويسرا. وكانا قد التقَيا في إحدى فعاليات مجموعة «هاش هاوس هاريرز» وقضيا معًا أسبوعَين، ولكنها لم تره منذ ذلك الحين. كانا يَتحدَّثان من آنٍ لآخر، وهو دومًا يختلق الأعذار ليُفسِّر عدم استطاعته زيارتها وعدم استطاعتها زيارته.

ربما تشهد الأمور في كمبوديا تحسُّنًا، لكن الشباب كان لا يزال يبحث عن فرصة للسفر إلى الخارج.

خارج ملهى جولدن بوس، ودَّع أفراد مجموعتنا كلٌّ منهم الآخر. كنتُ واقفًا إلى جوار السيد تينكل ورأينا مدير السياحة الجنسية يعرض واحدة من الفتيات المرافقات.

سألته: «ما طبيعة هذا الأمر؟ هل هو مجرد صفقة؟»

قال السيد تينكل: «القواعد مختلفة هنا.»

فسألته: «وما وجه الاختلاف؟»

أجاب قائلًا: «بالأساس، الفتيات لا يُمارسن الجنس خارج إطار الزواج. ليس أمامك اختيارات كثيرة إن كنت تُقيم هنا بمفردك. إما أن تتزوج وإما أن تبحث عن فتاة ليل. وأنا أتقبل تمامًا فكرة العيش مع فتاة ليل في الوقت الحالي. لا ضير في ذلك. لا بأس بهن، فهن أفضل من غالبية الناس. أجل، هي صفقة. جميعها صفقات. الأمر كله مُتعلِّق بالمال.»

سراويل ليفايس ليست للبيع في كمبوديا، أما الهوى والجنس فهما للبيع!

هذا الجانب تحديدًا هو نقطة التقاء المُنتج والمستهلك في كمبوديا.

الفصل الخامس عشر

مَنْ يصنعون ليفايس

صُفق الباب في وجهي، ومن ورائه لم يتوقَّف الضحك.

ظننت أنها أشارت لتأذن لي بالدخول، ولكن أحيانًا يختلط عليَّ إشارة الإذن بـ «الدخول» و«الابتعاد» في مثل هذه الأماكن. بأمانة، لم أرَ شيئًا.

حسنًا، لقد رأيت القليل؛ رأيتُ عددًا من الفتيات يرتدين زي السارنج ويجلسن في وضع القرفصاء أمام حوض، وعددًا آخر منهن يقفن على الفراش ليَجمعْن أشياء أو يصففن شعورهن أمام مرآة صغيرة مُعلَّقة على الحائط. رأيتُ القدْر الذي يَكفي لمعرفة أن هناك ثماني فتيات يتهيَّأن مع وجود صنبور واحد للمياه وحمَّام واحد؛ الأمر الذي يُمثل تحديًا يُجدن التعامل معه.

جلست شاعرًا بالحرج على الرصيف أمام شقَّتهن الصغيرة يمتد أمام ناظري الكثير من الشقق المُماثلة؛ طلاء أبيض مُتقشِّر وأبواب معدنية ونوافذ زرقاء. شاهدت مِن حولي طقوس الصباح الباكر حيث يَنفُض مواطنو مدينة بنوم بنه النوم عن أعينهم. كانت حركة المرور عبارة عن أفواج من الأشخاص المُترجِّلين على الأقدام. كان الشارع أشبه برصيف كبير، بينما كان الرصيف أشبه بشرفة أمامية لمنزل. إلى جواري، رأيتُ أمًّا تُحمِّم ابنتها في طَسْت أخضر مُستخدِمةً إبريقًا أحمر (شكل ١٥-١). كانت المياه تنساب على وجه الفتاة، ولكنَّها لم تجفل. حدَّقت فيَّ بثبات، كان شعرها مُلبدًا، وعيناها تُحدقان.

انفتح الباب المعدني وخرجت فتاة تَرتدي قميصًا مصبوغًا بألوان براقة ومرسومًا عليه شخصية العصفور تويتي لتقودني إلى الداخل، وأشارت إليَّ كي أَجلس على فراشٍ خشَبيٍّ بلا حاشية.

كانت مساحة الغرفة ٨ أقدام × ١٢ قدمًا مزوَّدة بمرحاض بدائي محاط بجدار عند الزاوية. وصنبور الماء يُفرِغ ماءه في حوضٍ يؤدي وظيفةً تجمع بين مُغتسَل ومطبخ

ومغسلة. تكوَّمت الأطباق المتسخة إلى جوار كومة من الملابس المُجهَّزة للغسيل. وعلى الرغم من عدم وجود دُش للاستحمام، كانت توجد أغطية رأس بلاستيكية معلَّقة على الحائط القريب. وعندما يكون الباب المفضي إلى الشقة مفتوحًا على مصراعَيه، يُصبح بمقدور المارة أن يشاهدوا الفتيات يغتسلن من الشارع.



شكل ١٥-١: عاملة ملابس تُحمِّم ابنتها في الشارع.

كانت الخصوصية، إذا ما أردتَ أن تسميها بهذا الاسم، موجودة في الزاوية الواقعة خلف الفراش؛ حيث تتدلَّى ملاءة على حبلٍ متراخٍ. كانت هذه بمنزلة غرفة لتغيير الملابس.

جلست بعض الفتيات على الأرض بينما استغرقت الأخريات في وضع اللمسات الأخيرة على ملابسهنَّ. كنتُ قد سجَّلت أسماءهن في عجالة بدفتري حين زرتهنَّ لأول مرة قبل بضعة أيام. كان تشون، مترجِمي، لديه أختٌ تعيش في الجوار، وكان يَعرف أن معظم الفتيات اللاتي يعشْن في هذا الحي يَعملن في مصنع الملابس القريب الذي ينتج سراويل ليفايس. حاولت أن أربط بين الأسماء والوجوه دون أن يُحالفني الحظ. وبعد بضع محاولات مُتعثِّرة، جلست إحدى الفتيات إلى جواري كي تساعدني.

«ناري.» قالتها وأشارت إلى نفسها. كانت ناري تضع الكثير من مساحيق التجميل وتَرتدي ثيابًا — عبارة عن سروال فضفاض وسترة خفيفة على تي-شيرت — تجعلها

تبدو وكأنها انتهت توًّا من مَعرض مزدحم لبيع مستلزمات المدارس. أشارت إلى الفتيات، واحدة تلو الأخرى، وهي تُعلن أسماءهن. كانت الفتيات يَفعلن شيئًا من اثنين: إما يتوقَّفن عما يفعلن ويَبتسمن لي، أو ينظرن إلى الأرض في خجل.

بمُجرد الانتهاء من التزين والتصفيف، جلسنا في صمت غير مريح. وبينما كنت بصدد الاستفاضة في شرح ما جئتُ هنا لأجله، بدأَت ناري تُداعب ذراعي. كنت قد اكتسبت السمرة البرونزية، وتحوَّل الشعر الأشقر الموجود على ذراعي إلى اللون الأبيض مما أكسب ذراعيَّ تألقًا غريبًا.

حاولت أن أفتح حوارًا وقد علت وجهي حمرة الخجل.

قلت وأنا أُشير إلى سترة ناري: «ألا تَشعرين بالحر؟»

قالت وهي تتفحصني بنظرها إليَّ بدءًا من ذراعي وصولًا إلى وجهي: «الشمس تجعلني سمراء. نحن جميعًا نرغَب في بشرة فاتحة وعيون زرقاء.»

«وماذا عن الأنف الكبير؟» قلتها وأنا أشير إلى أنفي الطويل المُدبَّب.

ارتفعت ضحكات الجميع.

علقتُ قائلًا: «الناس في الولايات المتحدة يريدون بشرة سمراء.»

«حقًّا؟» لم يكن بإمكانهنَّ تصديق ذلك. «بشرة سمراء ... لماذا يرغب أحدهم في بشرة سمراء؟» ضحكنا على هذا العالم!

«سندريلا، أليس كذلك؟» تساءلتُ وأنا أشير إلى ملصق باهت لسندريلا مُعلَّق على الحائط ومكتوب عليه كلمة «سندريلا» معكوسة كما لو كانت صورة سلبية لمُلصق حقيقي آخر.

قالت آي، الفتاة التي ترتدي التي-شيرت المرسوم عليه تويتي: «لا نعرف من هي. كان لدينا مساحة فارغة في الحائط، وحصلنا على الملصق من السوق بموجب صفقة جيدة.»

أشرتُ إلى مُلصق سنو وايت متسائلًا: «سنو وايت؟»

هزت رأسها أن «لا». أظنُّ أنها لم تكن تعرف من يكون العصفور تويتي أيضًا.

تساءلت ناري، التي كانت الأكثر جرأة وسط المجموعة، قائلة: «هل لديك حبيبة؟»

أجبتُ قائلًا: «أجل!» أخرجتُ هاتفي المحمول وعرضتُ عليها صور آني.

تجمهرت الفتيات وصِحْن في دهشة وإعجاب قائلين لي إنها جميلة جدًّا. أجبتُ عن أسئلة حول كيف التقينا، وماذا تعمل، وخطط زفافنا. جميع الفتيات يُحبِبن حفلات الزفاف بصرف النظر عن موقعهنَّ الجغرافي في العالم.

أدركت أنه لا توجد طريقة بأيٍّ حال تستطيع بها الفتيات الثماني الملتفات حولي النوم على الفراش المصنوع من خشب البامبو. كان الفراش كبيرًا، ولكن ليس إلى هذا الحدِّ ليَتسع لهن جميعًا. سألتهنَّ عن ترتيبات نومهن.

قالت فوان، وهي تدسُّ في فمها قطعًا من قالب مكرونة الرامن غير المطبوخة: «أربع فتيات يَنمْن على الفراش وأربع على الأرض.» كان هذا موعد الإفطار، وكانت هي الفتاة الوحيدة التي تأكل.

سألتها قائلًا: «ومَن الذي يقرر المكان الذي تنام فيه الفتيات؟»

أشارت كل واحدة إلى الأخرى وبهذا أخبرنني بمن تنام على الأرض، ومن تنام على الفراش، وهذا الترتيب دائم ولا يَخضع للمناقشة حقًّا.

قالت فوان: «يروق لي النوم على الأرض. ربما يكون الفراش مريحًا أكثر، ولكن الأرضية [الأسمنتية] أكثر برودة.»

يصل متوسط درجة الحرارة في كمبوديا في ذلك الوقت من العام إلى ٣٠ درجة مئوية مع نسبة رطوبة عالية، ولا يُمكنني تخيُّل مدى اللزوجة التي لا بد أن يتسم بها مكان صغير يوجد به ثمانية أشخاص.

كانت الساعة السادسة والنصف صباحًا، وقد حان وقت الذهاب إلى المصنع. وقفَت إحدى الفتيات ووزَّعت مجموعة من بطاقات الهوية المعلقة على مسمار مثبت في الحائط. كانت البطاقات تَحتوي على صور لهن يظهرن فيها بجدية بالغة ويَرتدين بِذَلًا رسمية وربطات عنق.

سألتهنَّ وأنا أُخرج سروالي ماركة ليفايس وأضعه على الفراش (شكل ١٥-٢)، قائلًا: «هل سبَق لكُن تصنيع هذا؟»

كنَّ يَصنعْن هذه السراويل بالفعل، وأخبرتني ناري بما تفعله كل فتاة أثناء عملية التصنيع. وتعيَّن على أغلب الفتيات، بمن فيهنَّ ناري، أن يكوين السراويل، وهو أقل الوظائف من حيث الإقبال بسبب حرارة الجو. كانت آي تَعمل مُراقِبةً تبحث عن عيوب في الثياب. زعمت أنها تفحص أكثر من ١٠ آلاف سروال جينز يوميًّا، وهو ما بدا عددًا كبيرًا للغاية. كانت فوان تحل محلها في العمل مؤقتًا كلما اقتضت الحاجة. كن يَكسبن ما بين ٤٥ دولارًا و٧٠ دولارًا في الأسبوع، حسب عدد الساعات الإضافية التي يعملنها.

بالإضافة إلى الفراش، كانت قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في الغرفة حاملًا معدنيًّا للملابس كان قد تقوَّس لأسفل من ثقل الملابس التي تُعلقُ به والخاصة بثماني فتيات.

نقلت فتاتان، تسيران بخطوات متثاقلة، الحامل المعدني إلى الخارج من أجل تجفيف الملابس التي غُسلت مؤخرًا في الشمس. أغلقْن الباب بقفل وانضممن إلى رحلة الذهاب إلى العمل صباحًا، متجهات نحو المصنع تحت أشعة الشمس.



شكل ١٥-٢: عاملة ملابس تفحص سروال المؤلِّف ماركة ليفايس.

لقد حوَّلت الأمطار الموسمية التي انهمرت الليلة الماضية الحفر الموجودة بالشوارع إلى بِرَك من الطين، كانت المَجموعة تحاول تفادي تلك البِرَك أثناء سيرهن على طول الطريق الموحل وسط الباعة الجائلين الذين يَبيعون وجبات الإفطار، ومرورًا بزملائهن من العمال الذين يَرتدون عباءات ومنامات وقمصانًا مرسومًا عليها ميكي ماوس والزي

الموحد الأشبه بزي المدرسة. عندما اقتربنا من المصنع، بدأت أتراجع إلى الخلف، مُسترجعًا الدرس الذي لقنتني إياه عريفة بخصوص عدم المبالغة في الاقتراب من المصنع.

كان المصنع محاطًا بحوائط من الحجر والطوب ومِن فوقها أسلاك شائكة. ويوجد، في كل ركن، حراس مُراقبة بمكانٍ عالٍ. وقف حارس آخر عند البوابة ليتحقَّق من بطاقات الفتيات أثناء دخولهن.

سرتُ مبتعدًا عن المصنع في عكس اتجاه الازدحام الصباحي واستدرت لأنظر ورائي قبل أن يَختفي الزحام عن الأنظار. ومع انعكاس أشعة الشمس مباشرة على عينيَّ، كل ما استطعت أن أراه كان حشدًا من الظلال يَتبدَّد تدريجيًّا.

كانت الفتيات الثماني يَعتبرن غرفة مساحتها ٩٦ قدمًا مربعة منزلهن. كانت مساحة المنزل الذي يَنتظرني في ولاية إنديانا تبلغ ٢٤٠٠ قدم مربعة لشخصين، أو ١٢٠٠ قدم مربعة لكل شخص. أمتلك أنا وآني — حرفيًّا — مساحةً أكبر مائة مرة من المساحة التي يعيش فيها هؤلاء الفتيات. في هذا المنزل، لدينا حمَّامان كبيران وحمام صغير، بينما كانت الفتيات يمتلكن حمامًا واحدًا بسيطًا للغاية. ومنزلنا يَزخر بالأجهزة المنزلية الحديثة والأثاث الذي أهداه إلينا والدانا، أما غرفتهنَّ فكانت تحتوي على قطعتَي أثاث، ولكنها مليئة بطاقة مرَح. الوضع أشبه بوجودك في غرفة مزدحمة بزملاء الدراسة المستجدين من الجنسين، الفارق أن هؤلاء الفتيات لا يدرسْن؛ إنهن يَذهبن إلى العمل ويصنعن سراويلنا الجينز الزرقاء.

مقار العمل لشركة ليفايس بكمبوديا موجودة في المركز التجاري باركواي سكوير بمدينة بنوم بنه، وهو مركز تسوُّق به محلُّ ملابس داخلية نسائية وصالة بولينج ومطعم لاكي برجر. فكرت مليًّا في تناول شطيرة هامبرجر، ولكنني قررت أنها ليست فكرة صائبة. لقد أخبرني أحد الأصدقاء في دكا أن رجل أعمال حاول فتح فرع لمطعم ماكدونالدز في بنجلاديش، ولكن معايير جودة الهامبرجر والدجاج لم تَفِ ببنود عقد حق الامتياز واستغلال العلامة التجارية. ومنذ ذلك الحين، قطعتُ عهدًا على نفسي بعدم تناول الوجبات السريعة في الدول التي لا يوجد بها فروع ماكدونالدز.

كان المكتب الموجود في الطابق الثالث مثلما توقَّعته: أبواب زجاجية عليها زخرفة من حروف وشعار ومكتب استقبال ومقصورات عمل هادئة.

قُدِّم إليَّ مشروب كوكاكولا باردة بينما كنت أنتظر في مكتب الاستقبال.

رحب بي براديب، المدير المحلي، وقادني إلى مكتبه عند الزاوية. كان المكتب يطل على منظر طبيعي، إلا أنه ليس هناك الكثير من المناظر في مدينة بنوم بنه لتُشاهدها. كانت يد براديب اليسرى مربوطة بضمادة. كان براديب قد انتقل من الهند مع أسرته قبل ثمانية أشهر، ولم يَتحدَّث بحماس كبير عن كمبوديا.

قال: «لديَّ ابنتان توءمتان وكنا قَلِقِين بشأن العثور على مدرسة جيدة، ولكننا وجدنا واحدة سرَّنا مستواها. لكن الأمور الأخرى هنا ليست مثالية، والمرافق الطبية مثال واحد على ذلك. عندما يكون لديَّ شكوى صحية، أتوجه إلى بانكوك. مستوى الأطباء هنا ليس جيدًا بالقدر الكافي، حتى الأجانب منهم.»

تحدثت مع براديب بصدقٍ تام، وأخبرته بأنني كاتبٌ أحاول تحديد مكان المصنع الذي صنَع سروالي الجينز الأزرق. توقَّعتُ أن يختصر معي الحديث ويتجاهل مقابلتي؛ فهو لن يكسب شيئًا من وراء الحديث معي.

أخبرته بأن المُنتِج والمُستهلِك لا يلتقيان أبدًا في عالم اليوم، وأنا أحاول سد تلك الفجوة بينهما. وبينما كنتُ أتحدث، ضغَط على زر في هاتفه. انتظرت أن ينفتح باب سحري أسفل الكرسي الذي أجلس عليه ليبتلعني. تخيَّلتُ أنني سأنزلق إلى حفرة تمتلئ بناشطين مناهضين للعولمة لأكون أنا الوحيد الذي يَرتدي ليفايس ويشرب الكوكاكولا وسطهم. يُشبه بعضهم الزومبي — وهم موجودون في هذه الحفرة منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين — ويَسيرون نحوي بحركة نمطية من حيث التوقف والاستمرار بأذرع ممتدة أمامهم مرنمين عبارة: «بنكهة الكرز أو نكهة الفانيليا أو من السكر خالية، كوكاكولا قاتلة!» ثم يأكلون مخي؛ لأن هذا ما يفعله الزومبي على أيِّ حال.

تحدث براديب في الهاتف قائلًا: «هلا جئت إليَّ دقيقة.»

أصبح سيناريو حفرة الناشط الزومبي مُستبعَدًا؛ إذن لقد استدعى براديب حارسًا مفتول العضلات ليسوقني إلى الباب.

قال براديب: «هذا سريكانث، مدير التوريدات لدينا، سيَتمكَّن من ترتيب زيارة لك إلى المصنع.»

مد سريكانث يده بأدب. هو مواطن من الهند مثل براديب، ولم يكن زومبي أو بلطجيًّا، كما تبين لي بكل وضوح.

لخَّص براديب أفكاري حول عدم التقاء المُنتج والمستهلك. ونظرًا لأنهما آتيان من دولة نامية ويَعملان في شركة متعددة الجنسيات، فهما يعرفان هذا على نحو أفضل مني.

دوَّن سريكانث بعض الأرقام من الملصق الموجود على سروالي وغادر الغرفة.

قال براديب: «تُصدِّر شركة ليفايس بضائع كل عام بقيمة ٩٠ مليون دولار وتُباع بالتجزئة بنحو ٤٠٠ مليون دولار. ٥ بالمائة فقط من المصانع تستوفي مواصفاتنا (في كمبوديا). نحن الآن نُورِّد من ١٣ مصنعًا. والكثير من الشركات الكبرى — مثل جاب وجي سي بيني وَوول مارت وسيرز — تورد من كمبوديا.»

قلت له: «جاب، تي-شيرتي صنعته شركة جاب. لقد اشتريتُه من السوق الروسية.» السوق الروسية عبارة عن متاهة من المقصورات المظلمة التي تبيع الحليَّ والحرير والأقراص المضغوطة وأقراص الفيديو الرقمية (دي في دي) والملابس ذات العلامات التجارية الشهيرة: جاب وكولومبيا وأولد نيفي وبولو ورالف لورين وليفايس. عرض الممرات لم يكن يتعدى عرض الكتفَين، ومجرد مرور أحد المُشترين بجوارك أمر مزعج مِن ضيق المكان. يُمكنك هنا تخيل أكثر سوق مزدحمة للسلع الرخيصة والمُستعمَلة، ثم اضرب عدد المتاجر في ١٠، وستجد مساحة السوق الروسية أقل منه أيضًا. كانت صاحبات المتاجر غارقات وسط بضائعهنَّ المعروضة على أراجيح شبكية يتصبَّبن عرقًا. لم تكن أكشاكهن مصنوعة من المعدن أو الخشب على ما يبدو، وإنما مصنوعة من سراويل الجينز الأزرق وتي-شيرتات رجالية فحسب. كان هذا هو المكان الوحيد في كمبوديا الذي يَبيع سراويل ليفايس (شكل ١٥-٣).

قال براديب: «جميع المعروضات هي سلع مسروقة من المصانع. ليس بوسعنا فعل شيء حيال ذلك. لا توجد قوانين تُطبَّق لحظر البيع. فشركة ليفايس لا تمتلك سوقًا في كمبوديا؛ ومن ثم نحن لا نُنافس منتجاتنا المسروقة. الأمر مزعج وحسب.»

قلت له: «ظننتُ أن المنتجات الموجودة هناك جميعها فائض إنتاج أو منتجات معيبة.»

رد براديب قائلًا: «العلامات التجارية لا تبيع فائض إنتاجها. لدينا طرُقنا الخاصة للعناية بالفائض. في الواقع بعض الشركات التي واجهت نقصًا في العدد أو الوقت تتجه إلى السوق الروسية لشراء منتجاتها مرة أخرى.»

قلت له: «ربما كان قميصي مسروقًا، لكنني على الأقل اشتريتُ سروالي ماركة ليفايس من أمريكا.»

عاد سريكانث ليقول: «لم نعد نتعاون مع مصنع رقم ٨٩٠ الذي أنتج سروالك.» وأخبرني أن هذا ربما يكون بسبب ظروف العمل السيئة أو عدم الكفاءة أو انخفاض الأسعار. أيًّا ما كان السبب، لقد أُغلق المصنع. واستطرد سريكانث قائلًا: «لقد أجريتُ لك ترتيبات لتزور مصنعًا آخر.»



شكل ١٥-٣: صاحبة متجر في السوق الروسية تُحصي نقودها.

شكرتهما على مساعدتهما. وقادني سريكانث بين مقصورات العمل إلى الرواق. خرجت من الباب الزجاجي المرسومة عليه الحروف المزخرفة، وركبت المصعد لأصل إلى الطابق الأرضي، ومررتُ من أمام محل الملابس الداخلية النسائية ومطعم لاكي برجر ولافتة تُشير إلى صالة البولينج مكتوب عليها «سوبر باول».

«امممم ... بولينج ...»

كان وقت تناول الغداء خارج المصنع محمومًا بالحركة والنشاط. كان الحشد من العمال يُسرعون الخطى أكثر مما كانوا عليه في الصباح؛ وذلك من أجل الفوز بالمقاعد البلاستيكية تحت المظلات. كان الباعة الجائلون يغرفون حساءً لزجًا ذا لونٍ زاهٍ من قدور منبعجة مصنوعة من الألومنيوم.

رأيتُ ناري وسط الزحام ودعوتها هي والفتيات الأخريات إلى الغداء. كان لديَّ الكثير من الأسئلة لأطرحها عليهنَّ، من بينها سؤال مهم للغاية.

رفضت ناري دعوتي لتناول الغداء وعادت بي إلى الشقة (شكل ١٥-٤) حيث كان الموقد مشتعلًا بالفعل والغداء يُجهَّز. كانت فوان وتشيندو تطهوان الطعام.

لحم خنزير وأرز وفاصوليا خضراء والقليل من السلطة. لقد شعرتُ بالشبع. عرضت فوان عليَّ المزيد من الأرز، وشعرتُ بأنني مُلزم بقبوله. جلست على الأرضية وشرعت في الْتهام الطبق بملعقتي، متسائلًا عما إذا كنت سأرى قاعَ الطبق على الإطلاق.

بدأ تشون يَضحك على شيء قالته إحدى الفتيات.

سألته: «ماذا تقول؟»

فأجاب قائلًا: «إنها تقول: «إنه يستطيع أكل الأرز بالتأكيد»».

نفختُ بطني ليَبرز أمامي وربَّت عليه.

قالت ناري وهي تُقهقه: «عندما تنتهي، يُمكنك أن تغسل الأطباق.»

أخرجت دفتري وبدأت بطرح الأسئلة: «من أين أنتنَّ يا فتيات؟»

كان معظم هؤلاء الفتيات من مناطق ريفية خارج نطاق مدينة بنوم بنه. إنهنَّ يتركن أسرهن وحياتهن في القرية، ويُضطررن إلى الانتقال إلى العاصمة بحثًا عن العمل، ويُرسلن جزءًا من أجورهنَّ الشهرية إلى أسرهنَّ.

سألتُ تشيندو قائلًا: «كم المبلغ الذي تُرسلينه إلى أسرتك؟»

ردت تشيندو: «[٧,٥٠ دولارات] كل شهر.» كانت هذه على ما يبدو نسبة كبيرة نوعًا ما حيث إنها لم تكن تتقاضى سوى ٤٥ دولارًا في الشهر.

التفتُّ إلى فوان وسألتها: «وماذا عنكِ؟»

قالت: «أنا أتقاضى [٦٠ دولارًا] وأرسل نصف المبلغ إلى أسرتي.»

مازحتها قائلًا: «يا إلهي، كم أتمنى أن تكوني ابنتي.»

اكتست ملامح فوان بالجدية وهي تقول: «إنني أعول ١٠ أشخاص. لديَّ خمسة إخوة وخمس أخوات. ولم أتلقَّ أي قدر من التعليم. ليس بوسعي القيام بأي شيء آخر سوى العمل بمصنع ملابس.»

ساد الصمت في أرجاء الغرفة.

سألتهنَّ قائلًا: «ما الذي تُردن قوله لشخص من الولايات المتحدة لا يرغب في شراء السراويل الجينز التي تُنتجونها لأنه يظن أنكن لا تتقاضَين أجرًا كافيًا أو لا تتلقَّين معاملةً منصفة؟»

حملقت فوان في الأرض مُستغرقةً في أفكارها.



شكل ١٥-٤: المؤلف في شقة ناري وآي.

قالت آي: «إذا كان سيدفع [٤٥ دولارًا] ثمن سروال جينز، فهذا سيُساعدنا. وإذا لم يَشترِ الناس منتجاتنا فلن يُسعدني ذلك؛ لأنني لن أجد عملًا.» ضحكت آي على بساطة المنطق الذي تُفكِّر به.

هل الأمر بهذا القدر من البساطة؟ هل عاملة الملابس التي تبلغ من العمر ٢٤ عامًا لديها الإجابة عن السؤال الخاص بطريقة التصرُّف التي ينبغي عليَّ اتباعها كمُستهلِك؟

أشتري أو لا أشتري، تلك هي القضية.

هل تذكر الأطفال الذين تظاهروا في بنجلاديش ضد مقاطعة المُستهلِكين الأمريكيِّين لمنتجاتهم؛ وذلك لأنهم مضطرون للعمل؟ أدت المقاطعة في النهاية إلى زيادة رهيبة في عدد أطفال الشوارع قبل أن تتدخل المنظَّمات والشركات لتُقدم خطة بديلة لدعمهم. لقد مرَّت كمبوديا بأزمات مماثلة، ولكنها حققت نتائج أكثر إيجابية؛ ففي عام ٢٠٠٠، كشف فيلم وثائقي بريطاني النقاب عن عمالة الأطفال في المصانع التي تصنع منتجات شركتَي جاب ونايكي. وكانت كلتا الشركتين قد انسحبَتا من كمبوديا بعد أن تعرَّضتا لنقد لاذع طالَ الكثير من شركات التوظيف العالمية في مُنتصَف وأواخر تسعينيات القرن الماضي؛ ونتيجة

لذلك، فقدَ آلاف الكمبوديِّين وظائفهم، الأمر الذي مثَّل تهديدًا لصناعة ناشئة. ولكن عملت المصانع والنقابات والمنظمات العالمية جاهدةً لحلِّ مشكلات الصناعة، وهي تزعم الآن أن المجال صار خاليًا من المصانع المستغلة.

اليوم، تعمل آي في أحد مجالات صناعة الملابس الأكثر خضوعًا للرقابة في العالم. ومع وجود منظمات، مثل منظمة العمل الدولية، تحمي حقوق العاملين في هذا المجال، تحمي تلك المنظمات أيضًا صور العلامات التجارية الكُبرى وضميرنا الاستهلاكي.

مواردنا المالية قوية ومؤثِّرة، ويَنبغي علينا أن نستغل هذه الموارد بحكمة.

كان لديَّ سؤال واحد مهمٌّ للغاية لأطرحه على آي وناري وفوان.

«هل سبَق لكُنَّ لعب البولينج؟»

في كل مرة أرتدي فيها الحذاء الخاص بلعبة البولينج، تنتابني رغبة ملحَّة في الرقص.

إلا أن الحذاء الذي ارتديته كان ضيِّقًا قليلًا؛ ومن ثم طلبتُ حذاءً آخر.

ذهبت إلى صالة سوبر باول مع ناري وآي وفوان وتشيندو وباقي المجموعة باستثناء فتاتَين اختارتا العمل في المصنع لساعات إضافية. كنتُ أواجه صعوبة في الربط بين الأسماء والوجوه؛ حيث إنهنَّ غيَّرن ملابسهنَّ وارتدَين سراويل جينز — ليست ماركة ليفايس — وتي-شيرتات مُبهرجة، وقد عقدن تلك التي-شيرتات عند الجوانب لأغراض الموضة. أخبرني تشون بأنهنَّ يَرتدين أحدث الملابس لديهن.

بحث الفتى المسئول عن الأحذية مرةً أخرى عن حذاء يُناسبني، وأخيرًا ارتديت واحدًا. جربت الحذاء من خلال القفز به بضع قفزات صغيرة. كان رائعًا!

كان من المُفترَض أن يكون هذا يومًا عاديًّا مع هؤلاء العاملات؛ كان من المرجَّح أن أقضي اليوم جالسًا على أرضية غرفتهنَّ لأتناول الأرز وأتعرف على الطريقة التي يَسترخين بها بعد قضاء يوم طويل في تَصنيع سراويل ليفايس. ولكنَّني قضيتُ ساعات هناك بالفعل، ورأيت عالمهنَّ، وها قد حان الوقت لأريهن جزءًا صغيرًا من عالمي. للأسف، كانت صالة البولينج أقرب شيء لحياة مُواطني الولايات المتحدة يمكنني العثور عليه في تلك البلاد.

كانت أغنية «كريزي إن لاف» (مجنونة في الحب) لبيونسيه يتردَّد صداها في جنبات صالة البولينج الفارغة ذات الحوائط البيضاء البسيطة. كنتُ أُفضِّل صالة البولينج خاصتي أن تكون ذات تفاصيل أكثر من ذلك. تذكَّرت وجود رسومات رياضية على

الحوائط أو ربما كرات لامعة أو مجسَّمات لكواكب كتلك الموجودة في صالات الديسكو أو ربما أشياء على غرار الملهى الليلي جولدن بوس.

لم نكن بحاجة إلى ثماني كرات لثمانية أشخاص، ولكن إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي تَلعب فيها البولينج، فأنتَ بحاجة إلى كرتك الخاصة، أليس كذلك؟ وضعنا الكرات من مختلف الأوزان والألوان: الكرات السوداء والأرجوانية والحمراء على حامل الكرات. لحُسنِ الحظ، كان يوجد جهاز كمبيوتر يُسجِّل النقاط لأنني لم يكن لدي أيُّ فكرة عن كيفية حساب النقاط الناتجة عن إسقاط القوارير من الرمية الأولى والثانية. أدخلت اسمي تحت خانة اللاعب (أ)، ولكن لم تُدخل أيٌّ من الفتيات اسمها. بدا الأمر وكأنني مميز. وفي كل مرة، كان يحين الدور عليَّ، كان جهاز الكمبيوتر ينطق اسمي «كيلسي»، أما بالنسبة إلى باقي اللاعبات، فكانت أسماؤهنَّ عبارة عن حروف وحسب بدءًا من اللاعب (ب) وصولًا إلى اللاعب (ح).

لقد جئتُ من دولة تزخر بلاعبي البولينج السِّمَان من جراء إدمان البيرة، دولة اخترعت جهاز تدفئة الأصابع من أجل التحكُّم في الإمساك بالكرة، دولة يُمكنك فيها في أي وقت من النهار أن تُتابع مباراة بولينج يشجع فيها الجمهور رياضيِّين محترفين تحت رعاية شركة لامبر ليكويداتورز، ومتاجر مستلزمات المنازل والمطاعم المُتخصِّصة في نقل فعاليات بطولة جراند سلام. وها قد حان الوقت المناسب لأُوضِّح لهؤلاء الكمبوديين كيف تُلعب لعبة البولينج.

وضعت قدميَّ في وضع الاستعداد وأخذت نفَسًا عميقًا، مُمسكًا بالكرة في مستوًى أسفل ذقني. وركَّزت بصري على مستوًى مُنخفِض في نفس مستوى القوارير. وتجاهلتُ صوت بيونسيه.

ثلاث خطوات ...

رميتُ الكرة ...

سقطت الكرة داخل المَجرى الجانبي. وتكرَّر الشيء نفسه في محاولتي التالية. أطلقت اللعنات، وقهقهَت الفتيات.

إنها ليلة الجمعة. وفي ليالي الجمعة بصالة وودكرست لينز بمدينة ينيون سيتي في ولاية أوهايو، تَمتلئ جميع المسارات بأشخاص أعرف أغلبهم. وفي كل مرة، أذهب إلى هناك، يكون الأمر أشبه بحلقة من حلقات المسلسل الوثائقي «هذه هي حياتك» (ذيس إز يور لايف). لقد لعبت كرة قدم مع الشاب الذي يَلعب على المسار رقم ٢، وساعدتُ

جليسة الأطفال تلك التي كانت تلعب على المسار رقم ٧، ورأيتُ الفتاة التي كانت تلعب على المسار رقم ١٣ تتقيَّأ في حصة العلوم. تُعد لعبة البولينج نشاطًا أساسيًّا في الحياة الترفيهية لمواطني وسط غرب الولايات المتحدة. وحقيقة أنني أخفقت في التصويب لتَنزلق الكرة في الممر الجانبي مرتين مُتعاقبتَين هي إهانة شخصية لأصلي وجذوري.

سقطَت بضع قوارير في الرمية الأولى، لكن لم يكن الأمر رائعًا. فدحرجة كرة ذات ثلاث فتحات على مسارٍ خشبي ضيق لا تَعكس براعتي. فالكرات لا تتحرَّك برفق على المسار الخشبي، وإنما تُلقى من ارتفاع في مستوى الفخذ، ليتردد صدى صوت أشبه بالطلق الناري. كلَّفني تأجير المسار والحذاء ٢٧ دولارًا، ولكنَّني أخشى أن يُكلفني تهشُّم الأرضية الخشبية ما هو أكثر من ذلك.

انتظرت عند الخطِّ الخارجي لمضمار اللعب وأسديت النصائح، كمدرب سباحة — كما كنتُ ذات مرة — يقف على الشاطئ ولا يستطيع السباحة. وما كان يَنقصني في المعرفة الفنية الفعلية كنتُ أُعوضه حماسًا. عندما أسقطت ناري جميع القوارير برمية واحدة، علَّمتها ما أظنُّ أنه أهم جزئية في لعبة البولينج؛ أقصد الاحتفال، وجزء من هذا الاحتفال عبارة عن رقصة مرح وجزء آخر عبارة عن رقصة شائعة من رقصات ثمانينيات القرن العشرين والكثير من الإشارات باليد لأعلى وإيماءات النصر.

بعض الفتيات، مثل ناري، تعلمت لعب البولينج بسهولة، وبعضهنَّ لم يتعلمنها بنفس القدر من السهولة؛ ومن ثم توجَّهن إلى الخط الخارجي لمضمار اللعب، ودحرجْنَ الكرة وجلسْن على مقاعدهنَّ ليَتحدَّثن إلى صديق عن أذرعهنَّ المتورمة وأظافرهنَّ المُتكسِّرة قبل أن تصل الكرة إلى نهاية المسار الخشبي.

كان لعب البولينج مع هذه المَجموعة المُكوَّنة من فتيات عشرينيات لا تختلف عن اللعب مع مجموعة فتيان عشرينيات في أيِّ مكانٍ آخر؛ حيث تضمَّن اللعب إسقاط القوارير جميعها من الرمية الأولى وإسقاطها من الرمية الثانية وخروج الكرة إلى المَمر الجانبي والابتسامات والضحكات والرقصات واللامبالاة. كان من الصعب أن أرى ذلك أثناء الجلوس في غرفتهنَّ المزدحمة والاستماع إليهن يتحدثن عن تصنيع سراويل ليفايس. ولكن هنا في صالة البولينج سوبر باول، ومع تردد صوت المغني جاستن تيمبرليك عبر سمَّاعات تكبير الصوت وسط صالة البولينج الفارغة، في طابق أسفل الطابق الذي يوجد فيه المكتب المحلي لشركة ليفايس حيث تَصدُر أوامر العمل إليهنَّ، كان بإمكاني أن أرى جانبًا آخر منهنَّ غير كونهن عاملات ملابس.

كن كغيرهن من الفتيات.

لقد فزتُ بتسجيل ١٠٤ نقاط، وجاءت ناري في المركز الثاني بتسجيل نحو ٨٠ نقطة.

سألت الفتيات: «هل ترغبْنَ في لعب جولة أخرى؟»

تشاورت الفتيات مع تشون، ثم قال لي: «لم يَرُق لهنَّ لعب البولينج. يقلن إنهنَّ مُرهَقات.»

سألته: «إذن، ما الذي يُرِدن فعله الآن؟»

ضحك تشون قائلًا:

«كيلسي، إنهن يُرِدن أن يَرقُصن.»

الفصل السادس عشر

ماكينة الجينز الأزرق

«هدفنا الرئيسي هو الحفاظ على حقوق الإنسان وحقوق العمال الأساسية. هل تعرف ما هذه الحقوق؟» قالها تومو، من فنلندا، مدير مكتب منظمة العمل الدولية في كمبوديا، وهي إحدى الوكالات التابعة للأمم المتحدة.

«امممم ...» في سري، كنتُ أُفكر في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة، ولكنني كنت أعرف أن هذه الإجابة لا يُمكن أن تكون صحيحةً. «لا للعنف ... لا للاغتصاب.» قلتها وأنا في حيرة من أمري.

أي نوع من حقوق الإنسان يَندرج تحته حق: «لا للعنف»؟ ربما كان يجدر بي أن أقول: «أن يَتمتَّع جميع البشر بحق عدم ممارسة أي شكل من أشكال العنف صَغُر أو كبُر حجم ذلك العنف.»

قال تومو، وهو يتساءل على الأرجح عن نوعية الصحفيِّين الذين أنتمي إليهم: «ليس بالضبط، إنها حرية تأسيس الجمعيات والنقابات. لا لعمالة الأطفال أو العمل الإجباري. لا للتمييز العنصري.»

كنتُ في مكتب منظمة العمل الدولية، الموجود في حيٍّ يضمُّ عددًا كبيرًا من المنظمات العالمية ذات الأسماء المُختصَرة التي تتكون من ثلاثة أو أربعة حروف؛ حيث العقارات المزوَّدة ببوابات عليها حُراس. كان المكتب ذا طابع عصري وأوروبي للغاية، وكذلك كان تومو، حيث كان أصلع الرأس يَرتدي نظارة طبية وملابس غير رسمية أنيقة.

رن جرس الهاتف، فقال لي: «معذرةً.»

ومن خلال طرف المُحادثة هذا، استنبطت أن لديه فريقًا أُوقف عند بوابة أحد المصانع لإجراء تفتيش عشوائي، ولم يُسمَح له بدخول المصنع.

قال لقائد فريقه: «إذا لم يَسمحوا لكم بالدخول اليوم، فعليكم أن تَعتبِروا ذلك شكلًا من أشكال عدم التعاون.» ثم أغلق الهاتف.

سألته قائلًا: «هل هذا يَحدث كثيرًا؛ أقصد عدم تعاون المصانع معكم؟»

أجاب قائلًا: «كلا، الآن هم يفهمون ما نفعله؛ حيث إن لدينا قائمة مؤلفة من ٥٠٠ بند نتأكَّد من امتثالهم لها. ثمانون بالمائة من المصانع يَمتثلون فعلًا. إننا ندعم الحد الأدنى المنصوص عليه في قانون العمل الكمبودي. أحيانًا تُريد النقابات العمالية منَّا أن نفعل ما هو أكثر من ذلك. فنقول لهم: «طالبوا بتغيير القانون.» وأحيانًا أخرى، تريد المصانع منَّا أن نفعل ما هو أقل من ذلك. ومن خلال تطبيق الحد الأدنى، يُمكننا أن نلفت النظر إلى القانون ونجعل الجميع سعداء.»

تدير منظمة العمل الدولية برنامج «مصانع أفضل في كمبوديا»؛ وهو برنامج يراقب سير العمل في نحو ٣٠٠ مصنع بكمبوديا، ويعمل على التأكُّد من أن نحو ٣٥٠ ألف عامل يتلقون معاملةً منصفةً وعادلةً وتُتاح لهم فرصة تحقيق النجاح والازدهار. وأدى نجاح منظمة العمل الدولية باعتبارها جهة رقابية مستقلة إلى كسب تأييد شركات على غرار نايكي وجاب من جديد في عام ٢٠٠٢. وكما هي الحال مع بنجلاديش، كانت صناعة الملابس في كمبوديا قَلِقة للغاية من المُنافَسة مع الصين، وذلك بعد رفع القيود التي كانت تفرضها اتفاقية الألياف المُتعدِّدة على كمية الملابس المُصدَّرة؛ ومن ثم كانت كمبوديا قد فرضت نفسها على الساحة كدولة مُنتجة خالية من المصانع المُستغلة، على أمل أن تُواصل الصناعة نموها؛ وذلك من خلال كسب ثقةِ كبرى شركات الملابس، مثل شركة ليفايس، والتأكُّد من عدم تشويه سمعة علاماتها التجارية.

سألته: «هل ثمة وجود للصناعة الكمبودية بعد وقف العمل باتفاقية الألياف المُتعدِّدة؟»

كان تومو يأمل ذلك من أجل مصلحة كمبوديا؛ حيث قال: «تُعتبر صناعة الملابس والمنسوجات في كمبوديا معجزة لأنها تنمو بسرعة بالغة. وتُمثِّل الملابس خمسة وسبعين بالمائة من صادرات كمبوديا؛ حيث تَمتلك البلاد عمالةً وفيرة ورخيصة تُبلي بلاءً حسنًا. لقد علَّق المشترون آمالًا على العلاقات الوطيدة، وآمنوا بكمبوديا كدولة.»

اكتُشفت حالة واحدة لعمالة الأطفال خلال الأشهر الستة الماضية، وقد حدَّد استطلاع رأي أُجري عام ٢٠٠٦ أن حالات عمالة الأطفال — ويُقصد بهؤلاء في كمبوديا الأطفال الذين تقلُّ أعمارهم عن ١٥ عامًا — تمثل نسبة أقل من ١ بالمائة.

قال تومو: «توجد حالات قليلة للغاية لعمالة الأطفال في كمبوديا. والمصانع لا تستفيد شيئًا من هذا الأمر؛ ففي معظم الحالات، [يقدم] الأطفال وثائق مزورة للمصنع. ولا يُمكن لوم المصنع بخصوص هذا الأمر، ولكن ربما يجب أن تكون عملية الاختيار أفضل من ذلك.»

إلا أن هذه مجرد حالة أخرى يُضطر فيها الأطفال الذين هم بحاجة ماسة للعمل إلى استخراج أوراق تُزوِّر أعمارهم. في الدراسات النظرية، يكون من السهولة بمكان إدانة أي شخص يستغل الأطفال في العمل، ولكن عندما ننتقل إلى أرض الواقع، لا تكون الأمور بنفس السهولة.

وعلى الرغم مِن أن مجال الصناعة الكمبودية يَكاد يخلو من المصانع المُستغِلة؛ فإنه لا يزال بعيدًا عن الوضع المثالي.

في مكان ليس ببعيد عن مكتب منظمة العمل الدولية، وفي مقر اتحاد النقابات العمالية في مملكة كمبوديا، يُحرَق تمثال في ذكرى مقتل رئيس الاتحاد، حيث قُتل أحد قائدَي الاتحاد خلال الأشهر الستة الماضية.

قال تومو: «الحركة النقابية كبيرة وتَتضمَّن الكثير من المصانع والشركات، حيث يوجد في كمبوديا ٣٠٠ مصنع ملابس و٨٠٠ نقابة.»

والكثير من النقابات العمالية تتوافق مع مختلف الأحزاب السياسية؛ بعضها يتوافق مع الحكومة، والبعض الآخر يتوافق مع المصانع نفسها، والبعض الآخر مُستقلٌّ نوعًا ما. لم يستقرَّ اتحاد النقابات العمالية في مملكة كمبوديا على أحد ليلومه على مقتل رئيسه؛ فربما يكون الفاعل نقابة أو مصنعًا أو ربما تكون الحكومة نفسها، كما يُخمِّن أعضاء النقابة.

أخبرني تومو بأن النقابات تُنظِّم إضرابات فورية بسبب المشكلات التي يتسبب فيها المصنعون والنقابات على حدٍّ سواء. ولقد طلبت إحدى النقابات التي عمل معها مؤخرًا زيادة الراتب الشهري بمقدار ٨٠ دولارًا. ورأى تومو أن هذه الزيادة غير واقعية تمامًا؛ نظرًا لأن العامل العادي يتقاضى نحو ٦٠ دولارًا في الشهر، وكذلك كان رأي المصنع الذي منَح زيادة شهرية مقدارها ٥ دولارات. وإذا حصلت النقابات على كل شيء تُريده، فسيَجري تصفية الأنشطة التجارية الخاصة بمجال تصنيع الملابس في كمبوديا، وسينتقل العمل على الأرجح إلى الصين.

قال تومو: «لا بد أن تتحمل النقابات العمالية المسئولية، وأن تكون على دراية بالسوق بالإضافة إلى حقوق العمال.»

وتُعدُّ حرية تأسيس النقابات من الأمور التي تُدافع عنها منظمة العمل الدولية غير أنها تُمثِّل تهديدًا للصناعة في كمبوديا؛ فوجود ثمانمائة نقابة عمالية يعني وجود ٨٠٠ أجندة.

علق تومو قائلًا: «أسوأ شيء يُمكن للمصنع فعله هو تفضيل نقابة على أخرى.»

ولعل ائتلافات ومنظمات المجتمع الدولي قد أثَّرت في كمبوديا أكثر من اللازم. فحتى الكشافة تتميَّز بالمبالغة في التنظيم وتوجد في كمبوديا منظمتان للكشافة. إلا أن المنظمة العالَمية للحركة الكشافية لا تَعترف بأيٍّ منهما لأنها تتطلب وجود مجموعة كشافة واحدة في كل دولة. وقد عرضت كل منظمة على الأخرى أن تنضم إلى مجموعتها، ولكن نظرًا لأنهما تنتميان إلى حزبين سياسيين متنافسين، فمن غير المُحتمَل أن تتنازل أي منهما.

وتوجد الكثير من المشكلات التي تواجه صناعة الملابس بصفة خاصة وتواجه كمبوديا بصفة عامة. قال لي تومو: «يجب أن تُوضع هذه المشكلات في سياق الديمقراطية والموقف السياسي.» وفي هذا المقام، السياق ليس رائعًا.

أصدرت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية تقريرًا عام ٢٠٠٤ تشير فيه إلى تفشي الفساد في كمبوديا ووصوله إلى مستويات خطيرة. وعجَّ التقرير بعبارات من قبيل «استولى موظفو الدولة أو مُحاسبوهم على المشروعات الحكومية»، و«يطلب رجال الشرطة وغيرهم من المسئولين رشاوى صغيرة»، و«يدفع الطلاب عبر مختلف الأنظمة التعليمية رسومًا يومية غير رسمية لاستكمال رواتب المعلمين والإداريين»، «مَنْ يحظون بحماية الدولة لا يطالهم العقاب»، وكلمات مثل «الرشاوى» و«الاستغلال» والمزيد من «الرشاوى».

بالتأكيد وصلتك الفكرة. كيف يُمكننا أن نتوقع أن تُدار الشركات إدارةً فعَّالة وعادلة عندما لا تُدار الحكومة — وأي شيء آخَر في البلاد — بالمعايير نفسها؟ كيف يتسنى للعاملين أن يَحظوا بمعاملة عادلة ومنصفةً عندما يعتمد التفوق في كمبوديا على قدرة الفرد — أو الشركة — على دفع الرشاوى؟ والعُمال الذين يَصنعون سراويل ليفايس التي نَرتديها لا يَتمتعون بهذه الرفاهية.

سألته قائلًا: «ما بين النقابات العمالية والفساد، هل يتقاضى العمال أجورًا كافية؟»

رد تومو قائلًا: «الحياة ليست رائعة بالنسبة إلى عُمال الملابس في كمبوديا. هم يبدءون العمل في سن العشرين ويُواصلونه لمدة سبع سنوات تقريبًا قبل أن يُعدُّوا كبارًا. وعامل المصنع العادي يَعول أسرة مكونة من سبعة أفراد، ويعيش هؤلاء على حدِّ الكفاف. ربما يَشترون شيئًا جميلًا أو يَلعبون ألعاب الفيديو من وقت لآخر لكنهم يُرسلون معظم

رواتبهم إلى أسرهم.» يقول تومو إنهم قد يكفيهم العيش بمبلغ قدره ٢٥ دولارًا نظير إيجار المسكن وشراء الطعام.

انتقلت مصانع شركة ليفايس إلى كمبوديا تحت وطأة ضغوط العولمة، والآن يواجه العُمَّال الكمبوديون المخاوف نفسها التي واجهها العمَّال الأمريكيون من قبل.

طرحت عليه هذا السؤال: «ماذا لو توقَّف الناس عن شراء الملابس المكتوب عليها «صُنع في كمبوديا» أو استَحوذتِ الصين على السوق؟»

أجاب تومو: «ستحدث انتكاساتٌ كبرى؛ ففي الوقت الحالي، يُرسَل نحو ٢٤ مليون دولار كل شهر في صورة حوالات مالية إلى القرى.»

ناقشنا التقارب الأسري وغياب الإعانات المالية أو الرعاية الاجتماعية لكبار السن أو ذوي الاحتياجات الخاصة، وناقشنا أيضًا مدى استحالة تحقيق النمو المالي بالنسبة إلى عُمال الملابس. تمدُّ الحكومتان الأمريكية والفنلندية يد المساعدة للوفاء بالاحتياجات الخاصة لكلٍّ من الأطفال أو كبار السن. ومع ذلك فإنَّ الروابط الأسرية في كمبوديا وبنجلاديش أيضًا قوية للغاية بما لا يترك حيِّزًا لتحقيق النمو؛ فالعمال يَعولون آباءهم وإخوانهم وأخواتهم وأجدادهم.

علق تومو قائلًا: «الخلاصة أنه لا بد أن يُمحى الفقر. لا بد أن يَتحقَّق قدر أكبر من التنمية الريفية، شيء يَستثمر الناس فيه أموالهم.»

قلت: «نحن محظوظون. لسنا مُضطرين إلى دعم وإعالة عدد كبير من الأشخاص. حكومتنا تُوفِّر لنا شبكات أمان من أجلنا إذا تعثَّرنا في الأوقات العصيبة.»

قال تومو: «محظوظون؟ ربما يكون هذا الموضوع مناسبًا لنقاش فلسفي. قد نمتلك تلك الأشياء دون أن تتمتَّع أُسرنا بهذا القدر من الترابط. أيهما أفضل؛ الأسرة أم الحرية المالية؟»

بهذه العبارة لخَّص تومو حياة عمَّال الملابس في كمبوديا. في واقع الأمر، ربما تكون وظائفهم في المدينة لكن قلوبهم تظلُّ مُعلَّقة بالقرى.

قالت فيوليت: «مديري يود أن يُجفِّف سروالك.»

«ماذا؟»

أشارت إلى سروالي ماركة ليفايس الموضوع على الطاولة وهي تقول: «إنه مبتل!»

قلت لها: «بالتأكيد! سيكون هذا رائعًا.»

لم أقلق إذ كنت أرتدي سروالًا آخر فضفاضًا ماركة أولد نيفي. كنت قد غسلتُ سروالي الجينز ماركة ليفايس في وقت سابق هذا الصباح، ولم يكن قد جف على الإطلاق، ولكني اضْطُررت إلى إحضاره على هذه الحال.

فيوليت هي مساعد المدير بمصنع رو هسينج للملابس. وهي مواطنة من مدينة جوانزو في الصين تعمل هنا منذ خمس سنوات.

قالت لي: «إنني أعيش في مسكن لطيف هنا.» مثل العمال الكمبوديِّين في مصنعها، ترسل فيوليت جزءًا كبيرًا من راتبها إلى مسقط رأسها من أجل إعالة أسرتها.

ثم علَّقت قائلة: «أفتقدهم.»

أجاب مدير فيوليت الذي يُدعى كان تشين تشين عن أسئلتي جميعها، وبدا صادقًا في تحمُّسه لزيارتي. فحص بنطالي الجينز ذا اللون الأزرق ووجد بقعة قذرة على ظهر الساق اليمنى منذ سفريتي إلى بنجلاديش. فركها بظفره وقال شيئًا لفيوليت.

ثم قالت لي: «مديري يَظنُّ أن بإمكانه إزالة البقعة.»

ضَغَطَ كان تشين تشين على زرٍّ في هاتف قاعة الاجتماعات وطلَب شيئًا ما. سرعان ما اندفع مُوظَّف إلى القاعة، ثم خرج ومعه سروالي.

لم يعد هناك وجود لمصنع ليفايس منذ إغلاق آخِر مصنع محلي في مدينة سان أنطوان بولاية تكساس، في عام ٢٠٠٤. لم تعد الشركة تُنتج سراويل جينز أو أي ملابس أخرى؛ حيث إنها ظلَّت علامة تجارية فحسب تُصمم المنتجات وتوزع الطلبات على مصانع مثل مصنع رو هسينج للملابس، وتُسوِّق هذه المنتجات لي ولك.

إذا قرأتَ كثيرًا عن شركة ليفايس، فستصادف قدرًا كبيرًا من اللغة المنمَّقة كما الحال في كتاب كارل شوينبرجر الذي بعنوان: «أطفال ليفايس: التصالح مع حقوق الإنسان في السوق العالمية» (نيويورك: مطبعة أتلانتيك مانثلي، ٢٠٠٠)؛ حيث كتب يقول: «تُمثِّل ليفايس الفردانية الأمريكية الخالصة.»

لست بحاجة حتى إلى تَحفيز الناس للحديث عن الجينز الأزرق؛ فقد قال رئيس مجلس إنتاج الدنيم إن الجينز «شعار جليل يُعلن عن وجود «الولايات المتحدة الأمريكية» للعالم أجمع.» والمصمم تشارلز جيمس يقول: «الدنيم الأزرق هدية أمريكا للعالم.» ولقد كتب جيمس سوليفان، مؤلف كتاب «جينز»، يقول: «الجينز هو الأثر الباقي من الغرب الأمريكي القديم.»

أمريكا مُغرَمة بالجينز الأزرق؛ فهو يُمثِّل جانبًا من الثقافة المُتفرِّدة القائمة على حرية ارتداء ما تريد وعدم الاكتراث برأي الآخرين، وهي ثقافة تفخر بها بلادنا. فشركة ليفايس تصنع السراويل الجينز، ونحن أدخلنا ماركة ليفايس إلى عالم العلامات التجارية الكبرى في مجال الملابس.

لطالما حاولت شركة ليفي شتراوس آند كومباني معاملة المُوظَّفين معاملة طيبة؛ فعندما دمَّر الزلزال الذي ضرب مدينة سان فرانسيسكو عام ١٩٠٦ مصنع الشركة ومكتبها ومخزنها، احتفظت الشركة بمُوظَّفيها. وعندما انخفض عدد الطلبيات أثناء فترة الكساد الكبير، وفَّرت الشركة عملًا آخر للمُوظَّفين بدلًا من تسريحهم. غير أن العولمة كانت بمنزلةِ قوًى مختلفة عن أي قوًى أخرى، طبيعية أو اقتصادية، تعرَّضت لها الشركة من قبل.

شهدت تسعينيات القرن العشرين ظهور أكبر متاجر البيع بالتجزئة، مثل جي سي بيني وسيرز اللذان أطلقا ماركاتهما من الجينز. وابتكرت شركات كالفين كلاين وتومي هيلفيجر ولاكي يو وجيس تصميمات الجينز الراقية. وبالطبع، كان هناك سراويل جينز ماركة باجل بوي التي حافظت والدتي تقريبًا على استمرارها في السوق آنذاك من خلال شراء ملابسي الجاهزة منها. كانت شركة جاب والشركات الناجِحة المُنبثقة منها — بانانا ريبليك وأولد نيفي — تتعهَّد بتصنيع منتجاتها من الملابس خارج البلاد، واستحوذت على لقب أكبر علامة تجارية بالعالم في مجال الملابس من ليفايس.

وصارت مُنتجات ليفايس غير رائجة لأول مرة في تاريخها، وجاهَدت لتُقاوم وتعود لسابق عهدها. عيَّنت الشركة فرقًا ذات خبرة في مجال العلاقات من أجل التفاعل مع الجماعات الثقافية في كبرى المدن في العالم كي يَتعرَّفوا على المنتجات الرائجة بينها ويَتوصَّلوا إلى أفضل الطرق للتسويق لتلك الجماعات بما يُناسب أذواقها. غير أن إعادة اكتشاف ما هو رائج كان مجرَّد نصف المعركة؛ حيث واجهت الشركة مُنافسةً أكبر من أي وقت مضى؛ منافسةً استغلت العمالة الرخيصة الموجودة في الدول النامية في حين لم تَفعل شركة ليفايس ذلك.

كانت شركة ليفايس واحدةً مِن آخر كُبريات شركات الملابس في الولايات المتحدة التي استسلمَت أمام قُوى العولمة. واختفَت عشرات الآلاف من الوظائف المُرتبطة بتصنيع منتجات ليفايس في الولايات المتحدة. وجاء في بيانٍ للشركة بخصوص تقليص عدد الوظائف: «لقد استبعدتْ جميع شركات الملابس الكُبرى مَرافق التصنيع أو قلَّلتَ عددها

أو لم تَمتلك أيًّا منها على الإطلاق.» وفي حين أن شركة ليفايس حاولت أن تُحافظ على وجودها في مجال التصنيع بأمريكا الشمالية، فإن المنافسة لم تسمح بذلك. كان عمال شركة ليفايس بمصنع مدينة سان أنطونيو يتقاضون أجرًا يتراوح بين ١٠ دولارات و١٢ دولارًا في الساعة قبل أن يُستغنى عن وظائفهم. أما الآن فشركة ليفايس لا تدفع أجور عمال الملابس. هي تدفع للمصانع التي تَدفع بدورها للعمال كما هي الحال بالنسبة إلى هذا المصنع الموجود في كمبوديا، الذي يدفع أجرًا لعُماله يصل بالكاد إلى ١٢ دولارًا في الأسبوع.

تساءلتُ: «هل من الممكن أن أتجوَّل في أروقة المصنع؟»

من داخل قاعة الاجتماعات، قادني كان تشين تشين وفيوليت ناحية الأبواب الزجاجية المزوَّدة بمرايا. كانت صورتي المنعكسة على المرايا تَكبُر مع اقترابي من الأبواب، وسرعان ما كان كل ما استطعتُ رؤيته هو انعكاس صورتي. وعندما فتحا الباب، تلاشيتُ داخل قاعة بها عمال وماكينات خياطة. إنها أرض الجينز الأزرق الحقيقية إن جاز التعبير. كانت توجد أسلاك وأحواض مُتدلية من السقف الذي بدا منخفضًا لأن القاعة فسيحة للغاية. كانت العربات المحملة بالأقمشة والمواد تُدفع، وسنون الإبر تَصطك. كان نحو ألف من العمال يرتدون أغطية شبَكية للشعر ملوَّنة حسب مهامهم الوظيفية. كان معظمهم يرتدي أغطية شعر ذات لون أزرق فاتح، ولكن كان يوجد عدد أقل يرتدي أغطية شعر ذات لون أصفر وعدد أقل منهم يَرتدي أغطية شعر ذات لون وردي، وهم مراقبو خط الإنتاج حسبما قيل لي.

بدأنا من عند كومة من قماش الدنيم المقصوص وشرعنا في السير من عند هذه النقطة. وعلى كلا الجانبين من حولنا، كانت الشابات يَطوين القماش ويُكشكِشْنه، راصَّاتٍ إياه في صفٍّ قبل ضغطه في بضع دفعات نحو ماكينات الخياطة. كان الشيء نفسه يتكرر: طي القماش وكشكشتُه ورصُّه في دفعات. كانت أيديهنَّ تعمل بسرعة وكفاءة. وبالتدريج بدأت السراويل الجينز تَتشكَّل أثناء سيرنا على طول خط الإنتاج.

وفي نهاية الخط، وقفْنا إلى جوار كومة من السراويل ماركة ليفايس ذات القماش المتيبس بشدة مُجهَّزة للغسيل وتنعيم وتطرية القماش. لم تكن هذه الطريقة لتصنيع السراويل الجينز كتلك التي نعرفها اليوم، ولكنها الطريقة التقليدية القديمة التي تتطلَّب من مُرتديها نقعها في الماء ونفضها وغسلها مرارًا وتكرارًا حتى تصير مريحة. استرجعتُ

من مرحلة طفولتي هذا النوع من السراويل الجينز المتيبسة حين كنت أضطر إلى القيام بعدد من تمارين القرفصاء قبل أن أستطيع السير بها.

تساءلت قائلًا: «كم عدد الأشخاص الذين يَعملون على حياكة سروال جينز واحد؟» لم أُحصِ عددهم وأنا أسير بموازاة خط الإنتاج، لكنني كنت أعلم أنهم كثيرون.

أجابت فيوليت: «خمسة وثمانون.»

«خمسة وثمانون؟!»

ردت فيوليت قائلة: «أجل، وهذا لا يَشمل الآخرين أيضًا.»

«الآخرين؟»

«تفضَّل، سأُريكَ.»

تفخر شركة ليفايس بأخلاقيات العمل الراسخة لديها. فحين كان السجناء يصنعون السراويل الجينز في القرن التاسع عشر، أعلنت شركة ليفايس أن سراويلها الجينز «غير مصنوعة في السجون». وفي ستينيات القرن العشرين دمَجت شركة ليفايس جميع مصانعها الموجودة في جنوب أمريكا قبل تمرير قانون الحقوق المدنية. لم يكن البِيض والسود يَتشاركون الحمامات ونوافير المياه العامة، ولكنَّهم كانوا يتشاركون العمل في مصانع ليفايس. وكانت شركة ليفايس تُفكِّر في القيام بمشروعات تجارية في السوق الناشئة في جنوب أفريقيا، ولكنها أحجمت عن القرار وانتظَرت حتى انتهاء نظام الفصل العنصري.

وفي مواجهة العولمة، وضعت شركة ليفايس المبادئ التوجيهية للتوريد العالمي. وإليك هذا المقتطف من الموقع الإلكتروني للشركة:

> في عام ١٩٩١، كنَّا أول شركة مُتعدِّدة الجنسيات تضع مدونة قواعد السلوك المهني للتأكد من أن الأفراد الذين يصنعون منتجاتنا في أي مكانٍ في العالم يعملون في ظلِّ ظروف عملٍ آمنة وصحية، وأنهم يَتلقون معاملة أساسها حفظ كرامتهم واحترامهم. وشروط التعيين لدينا جيدة بالنسبة إلى مَن يعملون لصالحنا وجيدة لسمعة علاماتنا التجارية على المدى الطويل.

واليوم، يمتلك الكثير من الشركات الأخرى مبادئ توجيهية قوية مثل مبادئنا؛ ففي عام ١٩٩٣، استشهدت شركة ليفايس بمبادئها التوجيهية باعتبارها سببًا في بدء انسحابها

من الصين؛ حيث كان يوجد بالصين حالات كثيرة جدًّا لانتهاك حقوق الإنسان بما لا يَتماشى مع المعايير التي وضعتْها شركة ليفايس في مبادئها التوجيهية لاختيار الدول المُصنِّعة لمنتجاتها.

لقد التزمت شركة ليفايس بمبادئ حقوق الإنسان وتجنَّبت انتهاكات العمل التي انزلقت فيها الشركات الأخرى. لكنها ظلت على هذا المنوال إلى أن صار نشاطها التجاري مُهدَّدًا. فبعد مرور خمس سنوات على إيقاف عمليات التصنيع في الصين، استسلمَت الشركة لضغوط السوق وخفَّفت من صرامة المعايير. ويُفسِّر شوينبرجر هذا الأمر قائلًا: «يجب أن تبقى الشركة مشروعًا مربحًا قابلًا للاستمرار قبل أن تَتمكَّن من تطبيق مبادئها الأخلاقية بقدر الإمكان.» عادت شركة ليفايس إلى الصين بحلول عام ١٩٩٨ لأنه كما قال بيتر جاكوبي، مدير شركة ليفايس: «لا يُحسب وجودك في آسيا ما لم تكن في الصين.» ولم يَتحسَّن موقف حقوق الإنسان في الصين قيد أنملة، ولكن مُنافسة ليفايس قد حمى وطيسها كثيرًا.

كتب شوينبرجر يقول:

> لسوء الحظ، رحل ليفايس شتراوس الحَذِر والهادئ — مُستسلمًا لنوبات المد اللاأخلاقي للعولمة — عن مجتمع الأعمال الدولي دون أن يترك منارة للقيادة القوية في وقتٍ ظهرت فيه حاجة ماسة إلى نماذج إيجابية للسياسة الأخلاقية أكثر من أي وقت مضى … وإذا انطفأت الشعلة فستكون هذه خسارة فادحة للعالم؛ لأنه إذا لم يَستطع ليفايس شتراوس أن يفعلها، فربما لن يستطيع أحد أن يفعلها.

ولكن لم يَنطفئ ضوء المنارة تمامًا بعد؛ فمكتب شركة ليفايس بمدينة سان فرانسيسكو هو الذي أخبرني بالتواصل مع تومو، مدير مكتب منظمة العمل الدولية. وكانت شركة ليفايس هي من رتَّبت لي الجولة التفقُّدية لهذا المصنع.

تُورِّد شركة ليفايس منتجاتها من أكثر من ٤٠ دولة في العالم. وفي حين أنني لا أستطيع تحديد جودة الظروف في جميع المصانع التي يَشترون منها، إلا أن هذا المصنع الموجود في كمبوديا على نفس المستوى الذي أتوقع أن يكون عليه مصنع ملابس في الولايات المتحدة. ربما يكون هذا نتيجة لأن شركة ليفايس تحافظ على مواصفاتها ومعاييرها، أو لأنَّ منظمة العمل الدولية تحتفظ بإدارة جيدة لبرنامج «مصانع أفضل في كمبوديا».

لست متيقنًا من ذلك. غير أن الحضور القوي لمنظمة العمل الدولية يَضمن خضوع مصانع الملابس في كمبوديا للمراقبة. وثمة مُنظَّمات مثل منظمة كير وصندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة ومؤسسة وورلد فيجن ومؤسسة أوكسفام تدعم العمال وتُوعيهم. وتوجد الكثير من النقابات الاتحادية التي تُثقف العاملين بشأن حقوقهم. وقد مولت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية مسلسلًا اجتماعيًّا ميلودراميًّا من ستة أجزاء بعنوان: «على بوابة المصنع» (آت ذا فاكتوري جيتس) من إنتاج منظمة العمل الدولية لتوعية العمال بكل شيء يتعلق بحقوقهم والحفاظ على صحتهم. هي دراما تليفزيونية صادرة باللغة الخميرية. لديَّ جميع الحلقات الست مترجمة إلى الإنجليزية. وإذا لم يكن العمَّال لديهم مشغِّل أقراص الفيديو الرقمية (دي في دي)، وهذا هو الأرجح، فإن الكتب المصوَّرة مُتوافرة أيضًا. سأندهش إن علمتُ أنه توجد دولة نامية أخرى تُزوِّد عمال الملابس بالكتب المصورة أو أقراص الفيديو الرقمية.

ولكن ما يُضايقني أنه إذا كانت كمبوديا تَمتلك قطاعًا صناعيًّا لإنتاج الملابس يَخضع لأعلى درجات الرقابة والإدارة الجيدة فيما يَتعلَّق بحقوق الإنسان، فلا بد أن تكون مصانع الملابس في أي مكانٍ آخر على نفس مستواه أو أقل. وفي حين أنه يُمكنني أن أرتدي سروالي الجينز ماركة ليفايس الذي «صُنع في كمبوديا» وأنا مُتأكد تمامًا من أن العاملين في ذلك البلد قد تلقوا معاملةً عادلةً ومنصفةً أكثر من غيرهم، فمن المحتمل أن سروالي الجينز الآخر، المصنوع في واحدة من الدول الأربعين الأخرى التي تستورد منها شركة ليفايس، يُصنع على أيدي عمال يعيشون حياة أكثر صعوبة وقسوة.

قالت فيوليت: «مديري يقول إن تكلفة هذه الماكينة ٢٠ ألف دولار.» عدلت امرأة عاملة في أواخر العشرينيات من عمرها — لن تَتمكن على الأرجح من كسب هذا المبلغ من المال طوال حياتها — من وضع جيب قماش الدنيم على الماكينة. بعد ذلك ضغطت المرأة على الزر، وحيك التصميم الشهير للجيوب الخلفية لسروال ليفايس — وهو عبارة عن رسمة طفولية لعصفور داخل شكل خماسي الأضلاع معكوس — في أقل من ثانيتين. وفي الوقت الحالي، تقاضي شركة ليفايس المُنافِسين الذين انتهكوا حقوق ملكية العلامة التجارية الخاصة بتصميم الجيب الخلفي، ولكني أشك كثيرًا أن هذه السيدة تَكترث بهذا الأمر.

فالعمل بالنسبة إليها صار أوتوماتيكيًّا مثلما أن صناعة السراويل الجينز ذاتها مُؤَتْمتة.

وفي قاعة جانبية أصغر، اصطفَّت طاولات بموازاة الحوائط عليها أحجار صقل وكبس أوتوماتيكية لسنفرة وتنعيم قماش الدنيم. رأيتُ شابة تَلتقط سروالًا من كومة هرمية الشكل لسراويل الجينز بجانبها وبدأت تكبس ثنايا سيقان السراويل الجينز وجيوبها لتَخرُج في أفضل صورة. ورأيت سيدة أخرى تصنع ثقبًا عند الركبة وتَكبِسه ثم ترفع السروال إلى أعلى. تخيَّلتُها وهي تقول في نفسها: «هل سيكون هذا الثقب رائعًا من وجهة نظر الأمريكيين؟» وبعد شعورها بالرضا عن مستوى عملها، تُضيف السروال إلى كومة هرمية أخرى أصغر حجمًا. بطريقة ما، بدت لي هاتان السيدتان «ملكتَي الروعة»؛ حيث إنهما تأخذان سروالًا عاديًّا من الجينز وتُضيفان عليه القدر المناسب من العيوب الرائعة. ونظرًا لأننا نكسل حتى عن تنعيم وصقْل السراويل الجينز، فإنَّ العمال يَفعلون ذلك بالنيابة عنَّا. إنهم ليسوا ماكينات، هم بشر مثلنا.

عند موقع آخَر استخدم أحد العمال طريقة الصقل الرملي، وهي طريقة لصقل القماش وتفتيح لون الصبغة باستخدام مسدس رمل كان صوته صاخبًا. تراكم الرمل عند قدميه. كان يرتدي نظارة وشيئًا أشبه بمئزر الحداد. كانت شركة ليفايس قد حظَرت مؤخرًا استخدام طريقة الصقل الرملي بعد أن اكتشفت دراسة أُجريت في تركيا عام ٢٠١٠ تفشِّي السحار السيليسي، وهو مرض رئوي مُميت، بين العمال الذين يستخدمون طريقة الصقل الرملي. ولكن حينذاك، كانت هذه هي الطريقة المستخدمة في تصنيع الجينز، وكان هذا هو العامل المسئول عن تصنيع الجينز بهذه الطريقة. لم يكن هو الآخر ماكينة.

لا يوجد ما يُسمى بماكينة الجينز الأزرق.

يوجد بغرفة الغسيل غسالات كبيرة الحجم يُمكنها أن تغسل من ٦٠ إلى ٨٠ سروالًا في المرة الواحدة حسب المقاس. ولكي يَغسل العمال الجينز باستخدام طريقة الغسل بالحجارة — وهي طريقة تُستخدم لإضفاء مظهر القماش البالي على الجينز — كانوا يَستعينون بحجر صغير أشبه بحجر الخفاف. كان المكان تفوح منه روائح مواد تفتيح الصبغة وغيرها من المواد الكيميائية. وبحلول الوقت الذي كنا نُغادر فيه الغرفة، كنتُ قد اعتدت على الرائحة.

هل من المؤذي استنشاق هذه المواد الكيميائية؟ مَن أنا لأؤكد أو أنفي هذه النقطة؟ لديَّ اعتقاد أن نظام الرقابة الفائقة المُطبَّق في كمبوديا يحرص على أن تكون هذه الأماكن بيئات عمل آمنة وصحية نسبيًّا. في الواقع، بيَّن سجل الزيارات، الذي وقَّعت فيه عند دخولي المصنع في ذلك اليوم، أن موظفًا من منظمة العمل الدولية وقَّع في السجل في وقت سابق.

لطالما حظيت صناعة الملابس بسمعة سيئة على مر التاريخ؛ فما إن يَسمع الناس عبارة «صناعة الملابس» حتى يطرأ على أذهانهم أسوأ الممارسات، ومع ذلك فإن الكثير قد تغير بسبب هذه السمعة. في الوقت الحالي تكون نوعية الإصابات الأكثر شيوعًا هي إصابات ناشئة من الممارسات البشرية الخاطئة مثل متلازمة النفق الرسغي.

دخلنا مكانًا آخر من أرض الجينز الأزرق. اقترب مني أحد العمال وسلَّمني سروالي الجينز بعد أن غُسل وجُفِّف وأزيلت البقعة منه. ابتسم كان تشين تشين ونظر في ساعة يده. كنا قد تجوَّلنا في المصنع لمدة ساعة، وكان يتعين عليه، على الأرجح، العودة إلى عمله.

قالت فيوليت: «مديري يقول إنه قد حان الوقت.»

سألتها: «وقت الرحيل؟»

وقبل أن تتمكَّن من الإجابة، انبعث صوت من السماعات الداخلية ليَخرُج نحو ألف عامل من مواقعهم. ترددت نغمات أغنية ذات إيقاع صاخب في الخلفية مُنبعثة من سماعات مكبرة للصوت. أصدر الصوت توجيهات بخصوص التمارين الرياضية. أدَّى العمال تمارين رياضية بسيطة خاصة بالأذرع والرقبة والأرجل. توقَّف الصوت بعد بضع دقائق وعاد العمال إلى صناعة سراويلنا.

لو كانت توجد ماكينة لتصنيع الجينز الأزرق، فلن تحتاج على الأرجح حاجة إلى فترة استراحة.

الفصل السابع عشر

التقدم المُحرز

ناري وآي تَنتميان إلى قريتين صغيرتين بالقُرب من مقاطعة كامبونج تشام؛ حيث يأكل السكان المحليون عناكب الرتيلاء المقلية. قد يبدو هذا غريبًا، ولكنه لن يكون كذلك إن كنت تعيش هناك.

بعد أن ذهبنا للعب البولينج ببضعة أيام، قبلَتْ ناري وآي دعوتي لزيارة قريتَيهما لمدة يوم. لسوء الحظ أن الفتاتين لا تَذهبان إلى قريتِهما كثيرًا بسبب ضيق الوقت بالأساس؛ حيث تقطعان المسافة بين قريتَيهما ومدينة بنوم بنه بحافلة صغيرة غير مريحة، يَبلغ ثمن تذكرتها ٣ دولارات، في رحلة تستمر لمدة خمس ساعات؛ ومن ثم لا يُتيح لهما العمل لمدة ستة أيام في الأسبوع الوقت الكافي للقيام برحلة ذهاب وعودة في نفس اليوم.

ومثل معظم الأمريكيين، لا أستطيع أن أتخيل عطلة نهاية الأسبوع مدتها يومًا واحدًا. ووفقًا لويتولد ريبتشينسكي، مؤلِّف كتاب «في انتظار عطلة نهاية الأسبوع» (نيويورك: فاينكينج، ١٩٩١)، العطلة الأمريكية لمدة يومَين لها جذور في صناعة الغزل والنسيج؛ ففي عام ١٩٠٨ جعل أحد مصانع الغزل والنسيج بإقليم نيو إنجلاند عطلة نهاية الأسبوع يومين لتَشمل يوم راحة اليهود وهو يوم السبت ويُصاحبها يوم راحة المسيحيين وهو يوم الأحد. وقد تمَّ الالتزام بهذا لبعض الوقت. وقد اعتنَق هنري فورد الفكرة من هذا المُنطلق؛ حيث ظن فورد أن يوم الإجازة الإضافي سيَزيد من نفقات المُستهلك وسيزيد على وجه التحديد من رحلات السيارات. هكذا صارت رحلات الطريق خلال عطلة نهاية الأسبوع تصبُّ في مصلحة العمل التجاري.

ولو كان لديَّ يوم واحد فقط كإجازة أسبوعية، فبالتأكيد لن أقضي ١٠ ساعات جالسًا في حافلة صغيرة مُزدحمة؛ ومن ثم لا يُمكنني أن ألوم ناري وآي على عدم زيارة

أسرتيهما كثيرًا. وعلى الرغم من أن مبلغ ٣ دولارات لا يبدو مَبلغًا كبيرًا، فإن رحلة الذهاب والعودة تُكلِّف ٦ دولارات؛ أي أكثر من ١٠ بالمائة من الدخل الشهري للفتاتين.

ومثل جميع عمال الملابس في كمبوديا، تحصل ناري وآي على عطلة رسمية مدتها يومان — رأس السنة الخميرية وإجازة في شهر أكتوبر — ومن ثم فإنهما تقومان برحلة الزيارة الأسرية مرتين في العام. ولكن في هذا العام، ستزوران أسرتيهما ثلاث مرات؛ ذلك لأن سيارة الأجرة أسرع من الحافة الصغيرة، وكنت قد استأجرتُ واحدةً لهذا اليوم.

تُمثِّل ناري وآي الميزة التنافُسية لكمبوديا المُتمثلة في العمالة الرخيصة. إنهما تُمثلان الصورة النمطية لعمال الملابس؛ فتاتان تبلغان من العمر بضعة وعشرين عامًا غير أُميتَيْن، وقادمتان من منطقة ريفية. كانت آي خجولة وكثيرًا ما كانت تنظر إلى الأرض حين أتحدث إليها، أما ناري فكانت على العكس تمامًا.

قالت ناري من مقعدها الأمامي أثناء توجيه سائقنا ليَنعطف يسارًا: «لقد دفعت ٥٠ دولارًا لأحصل على وظيفتي في المصنع. قال لي الرجل: «إذا دفعتِ لي، فسأَضمن لكِ الحصول على الوظيفة».» كان «الرجل» الذي أشارت له ناري مُترجمًا لأحد المديرين الصينيِّين للمصنع الذي تعمل به. في أوساط حقوق العمال، هذا الرجل يُعرف باسم مورد العمالة؛ حيث إنه يستغلُّ منصبه للاستفادة من أشخاص يحتاجون الوظيفة مثل ناري. وخمسون دولارًا هو الراتب الشهري لناري، وكانت قد استغرقت ثلاثة أشهر لتدفع له المبلغ. لقد مضى على عملها في المصنع ثلاث سنوات. لقد علَّقت قائلة إن الحصول على الوظيفة يَستحقُّ دفع هذا المبلغ، ولا سيما أنها تَستغلُّ الوظيفة لتمويل حلمها.

قالت ناري: «أريد أن أمتلك صالون تجميل في قريتي. لقد اقترضتُ المال للالتحاق بمدرسة لتعليم فنِّ التجميل. الآن ندرس مُستحضرات التجميل.» تذكَّرت الليلة التي لعبنا فيها البولينج وكيف أن بعضًا من الفتيات كن يَضعْنَ مُحدِّد العين وأحمر الشفاه وقد صففن شعورهن؛ وهو ما كان حتمًا من صنع ناري. «لقد اشتريتُ مكواة شعر لأستخدمها في صالوني.»

سألتها قائلًا: «هل يُمكنكِ أن تبدئي مشوارك المِهَني كخبيرة تجميل بالعمل لدى شخص آخر؟»

أجابت قائلة: «العاملات في صالونات التجميل يَتقاضَين رواتب أقل من عاملات الملابس، ولكني سأكون صاحبة صالون تجميلٍ وسأكسب الكثير.» توقفَتْ عن الحديث وكأنها تتخيل نفسها في صالون التجميل خاصتها، حيث يُثرثر زبائنها بينما تحصي هي أموالها. «كم تكلفة طلاء الأظافر في الولايات المتحدة الأمريكية؟»

أجبتُ قائلًا: «لست متأكدًا ... ربما ٣٠ دولارًا.» أظن أنني لم أضع أبدًا طلاء أظافر أو حتى خمَّنت من قبل تكلفته حتى تلك اللحظة.

«ثلاثون دولارًا! يا إلهي!»

ربما كان لا يَجدر بي أن أقول كم أظنُّ تكلفته. كنت أبذل قصارى جهدي لتفادي مشاركة ما يبدو بالضرورة نفقات باذخة للحياة في عالمي. في الواقع حاولتُ ألا أفكر في النفقات بأي حال من الأحوال لأن هذا سيُؤدِّي إلى مقارنات تتسبَّب في الشعور بالذنب. فثمن طلاء الأظافر في الولايات المتحدة يُساوي ثمن أجر نصف شهر عمل في كمبوديا. والقسط الشهري لمنزلي يُساوي أجر عام ونصف لعامل ملابس، وكاميرتي والعدسة تساوي أجر خمس سنوات عمل في كمبوديا.

قالت: «في كمبوديا، تتكلَّف [١٫٧٥ دولار] لتُصفف شعرك وتعتني بأظافرك. ماذا عن الشعر المُستعار؟ كم تبلغ تكلفته في الولايات المتحدة الأمريكية؟»

قلت: «لستُ متأكدًا فعلًا. لم أضع فرشاةً على شعري منذ ١٠ سنوات. لا أعرف الكثير عن مثل هذه الأمور.»

سألتني قائلة: «وكيف تُصفِّف شعرك؟»

رفعت كلتا يديَّ وسويتُ شعري من الهامَةُ حتى الجبهة، ثم صنعت مفرقًا على الجانبين مبتدئًا من عند الصدغين. «هذا كل ما في الأمر.»

أشاحت بعينيها وقالت شيئًا لا يُترجم. أشك أنها قالت شيئًا على غرار: «أخرق.»

ظلَّ سائق سيارة الأجرة صامتًا حتى هذه اللحظة، باستثناء النحنحة — من وقت لآخر — التي بدَت أشبه بنخير الخيل. من الواضح أن كل هذا الحديث عن الولايات المتُحدة جعَله يتساءل قائلًا: «هل ترتدي النساء في الولايات المتحدة الأمريكية ملابس داخلية؟»

مرَّت فترة صمت وجيزة كما لو أن السيارة تَنتظرني حتى أسمع الترجمة، ثم انفجَرنا في الضحك.

الكمبوديون لا يَتعانقون؛ ومن ثم حين نزلت ناري من سيارة الأجرة، حيَّت والدتها وانحنت احترامًا لها، ففعلتُ مثلها.

كان منزلهم الخشبي مُشيدًا على قوائم عالية، ومن الداخل كان يوجد عدد قليل جدًّا من قِطَع الأثاث، كان كل شيء في حالة جيدة. وكما هي الحال مع المنازل التقليدية في كمبوديا، كانت المساحة المفتوحة أسفل المنزل تقوم مقام المطبخ وتُستغلُّ كمكان

للاستراحة. كانت الأراجيح الشبكية تتدلى من القوائم الخشبية للمنزل ليَجلس عليه أفراد أسرة ناري. عرضَت والدة ناري عليَّ الجلوس على فراش من الخيزران، وأطاح والدها بالجزء العلوي لثمرة جوز هند مُستخدمًا منجلًا وناوَلَني إياها. حاولت أن أشرب عصير جوز الهند دون أن يتسرَّب العصير على ذقني، ولكنَّني فشلت. وَثَبَتْ ناري على الدَّراجة الصغيرة سريعًا لتُحضر لي ماصَّة.

طرحتُ سؤالًا: «ما رأيكما في عمل ابنتكما بمدينة بنوم بنه؟»

أجابت والدة ناري قائلة: «أخاف على سلامتها، ولكن ناري مُضطرَّة للعمل في المدينة؛ حيث إنها تساعد في إعالة أسرتنا. لا توجد وظائف هنا. عندما كنت في نفس عمرها، لم تكن الوظائف مُتوافرة في المدينة؛ ومن ثم عملَتُ في مزرعة قريبة لأشجار المطاط الطبيعي.»

عندما كانت والدة ناري في مثل عمر ابنتها، كانت الحياة في كمبوديا في أشد حالاتها قسوة حيث الألغام والقنابل والإبادة العرقية؛ أقصد فترة «العام صفر». وفي مكان غير بعيد عن هنا، كان حزب الخمير الحمر يَحمل ٣٠ أو ٤٠ فردًا من القرويين على الشاحنات. قالوا لهم إنهم سيأخذونهم إلى «قرية جديدة». وحالما وصلوا، طُلب منهم أن يَصطفُّوا، ثم أعدمتهم فرقة الإعدام رميًا بالرصاص وأُلقي بجثثهم فوق جثث أخرى في حفرة. وعندما كانت تَمتلئ الحفرة، كان الجنود يُغطُّونها بالتراب ويَحفرون حفرةً أخرى. لم يكن أمام والدة ناري خيار: إما أن تعمل في الحقول أو تموت في حقول القتل.

اليوم تَحدث الهجرة من القرية إلى المدينة؛ فالأسر تُقرِّر إرسال فتياتها إلى المدينة لتصنيع سراويل الجينز الأزرق، بينما يظلُّ فتيانهم في القرية للعمل بالمزرعة.

لم يكن بإمكان والد ناري أن يَزرع الكمية الكافية من الأرز لإعالة أسرته؛ ومن ثم تُرسل ناري إلى أسرتها نحو ٢٠ دولارًا كل شهر لمساعدة أسرتها المكونة من ٧ أفراد.

قالت والدة ناري: «أزور ناري مرتين في السنة. كنت في المدينة يوم الخميس ... لقد فاتك لقائي. أزور ناري في موسم حصاد الفاكهة لأُحضر لها بعضًا منها من القرية. الفاكهة الموجودة في بنوم بنه ليست مُماثلة.» ناولتني ثمرة جاك فروت (كاكايا). قذفتُ الحبات الصفراء الحلوة في جوفي. كان مذاقها أشبه بطعم الأناناس، إلا أنها ذات لبابة أكبر وتحتوي قدرًا أقل من العصير.

«كانت ناري مصدر عون كبير.» قالها والد ناري، بينما كانت هي عائدة على الدراجة الصغيرة. كان وجه والد ناري ذا قسمات رجولية حادَّة. استطرد قائلًا: «كانت تُطعم

الخنازير وتعمل في الحقول.» ثم لانت تعبيرات وجهه وهو يقول: «إننا نفتقدها، ونفخر بها.»

امتلأت الأطباق بالأرز والسلاطة والدجاج ولحم الخنزير. كان الطعام كله شهيًّا. وإذا وجدتُ شيئًا لستُ متأكدًا من كنهه، سألت والدة ناري لتشير إلى شجرة في الحديقة، أو قنٍّ بجوار المنزل، أو حظيرة في الساحة الخلفية. كان الطعام طازجًا بمعنى الكلمة.

سألتني ناري قائلة: «أَتودُّ أن تتجوَّل في قريتي؟»

سِرنا على طول الطريق الترابي من منزل ناري. تَفاجأ الجيران بزيارة ناري وتساءلوا عما إذا كان كلُّ شيء على ما يرام. أوضحتْ لهم ناري سبب وجودي، ثم دعونا للجلوس أسفل منزلهم لتناول الشاي. ولكنَّها اعتذرت عن قبول دعوة تلو أخرى بأدب. كنا نسير ببطء في تلك النزهة بفضل كرم ضيافة القرويِّين وحفاوتهم بنا.

أخبرني تشون بأن هذه هي الطبقة الوسطى في كمبوديا. كانت المنازل والطُّرق في حالة جيدة. والناس يَرتدون ملابس مُهندمة. قال تشون: «أنا أعيش في منزل مشابه، ونتناول طعامًا مشابهًا.»

أشارت ناري إلى صالونَين للتجميل لم يَبدوَا كصالونات التجميل على الإطلاق. كان يُباع فيهما وجبات خفيفة وبضائع مُتفرِّقة.

فسَّرت ناري قائلة: «معظم الصالونات هنا لا تُستخدم إلا في مناسبات معينة مثل حفلات الزفاف؛ ومن ثم يبيعون أشياء أخرى.» كان هؤلاء هم المنافسين المستقبليِّين لها.

سألتها قائلًا: «كيف سيكون صالونك مختلفًا؟»

قالت: «أريد أن يَثِق بي عملائي.» ولم تُضف أي توضيح لعدم أهلية الصالونات الأخرى، في القرية، لحوز ثقة العملاء.

قفزنا مِن فوق سور خيزران آيل للسقوط لنسير بصعوبة عبر جدول مغمور بأشعة الشمس، مياهُه دافئة كمياه المغطس. وصلنا في النهاية إلى أحد حقول والد ناري. كان والد ناري لا يَقيس مساحة أرضه بالأفدنة، وإنما بالأمتار.

كنا نُطلُّ على مساحة شاسعة من حقول الأرز غير ذات نسق هندسي محدد. في وسط غرب الولايات المتحدة، يُشير المزارعون إلى حدود أراضيهم من خلال بسط أذرعهم كي يخبروك بأنها تتسع لمئات الأفدنة. كانت ناري تُحصي قِطَع الأرض التي يمتلكها والدها بأصابعها، قالت: «تلك القطعة الموجودة هناك ملك لأبي.»

كنا نقف عند حافة الحقول، نُشاهد المزارعين يجتازون السدود الضيقة المتآكلة بين الأراضي في الطريق من وإلى حقولهم.

ابتعدنا عن حقول الأرز وسِرنا عبر بستان من أشجار الفاكهة.

ناولتني آي فاكهة أشبه بفواكه العصور الوسطى — حمراء ذات أشواك خضراء — كانت قد قطفَتها من شجرة قريبة. أزالت القشرة الخارجية بإبهامها، وقذفت كرة بيضاء في جوفها، وابتسمَت. وبعد أن مضغت ومصت قليلًا، بصقت بذرة في حجم البلية وقذفَتْها على ناري.

عُدنا من الحقل وتجوَّلنا في بستان فواكه تقليدية. في النهاية وصلنا إلى حقل ذرة صغير. ولعلَّ كلمة «حقل» تشير إلى قطعة أرض محدودة. فعندما كنت صغيرًا، كانت لدينا حدائق ذات كمية ذرة أكبر من تلك. صاحت ناري على طول الصفوف الخضراء الطويلة التي كانت تُحدث حفيفًا قبل أن يَندفع من وسطها أحد أشقائها ثم تبعه الآخر. حيَّتهما مثلما حيَّتْ والدتها، ولكن على نحو أقل رسمية.

بدوَا وكأنهما شابان مَرِحان للغاية؛ حيث إنهما ابتسما حين قدَّمتْني إليهما ناري وضَحِكا حين أدركتُ أنني أقف على عش نمل. بصرف النظر عن المكان الذي تنتمي إليه، وجود نمل داخل سروالك شيء مضحك.

كانا شابَّين قويَّي البنية في العشرينيات من العمر، كان أكبرهما سنًّا ذا قسمات رجولية حادة مثل أبيه وشارب خفيف، أما الأصغر فلم يكن قويَّ البنية مثله ولكنه كان أطول قامة منه. تسلَّق الشجرة بسهولة وكسر غصنًا صغيرًا محمَّلًا بالفاكهة.

مررنا على ديرٍ بوذي مطلي بألوان زاهية ومُزيَّن برءوس الأفاعي وله أبراج عالية تصل إلى السماء من سطح مُتعدِّد المستويات. انبعثت صلوات وترانيم وفاحت رائحة البخور من فتحات بلا نوافذ وأخرى بلا أبواب. أخبرتْني ناري أن أسرتها لا تأتي إلى هنا كثيرًا كما يَنبغي، ولكنهم يأتون في المناسبات الخاصة.

وبينما كنا نُواصل سيرنا، كنا نتقاذف بالبذور. بالخارج حيث الهدوء يُخيِّم على القرية، لم يَكن يوجد ضجيج سوى الضحكات والصلوات.

تبادَلت ناري عبارات الوداع مع أسرتها، وأعربنا نحن عن الشكر والعرفان، ثم ركبنا جميعًا سيارة الأجرة وتوجَّهنا إلى قرية آي.

كانت حياة آي أصعب من حياة ناري.

لم يكن منزلها جميلًا. كان جيرانها سكارى. وكانت ملابس أسرتها رثَّة. وكان أحد أشقائها قد تُوفِّي بسبب الملاريا، والآخر قد انتحر. كانت تتقاضى ٥٥ دولارًا في الشهر وتعول أسرتها المكوَّنة من ٦ أفراد بالأموال التي ترسلها إلى قريتها. لكنَّ وظيفتها في المصنع لم تكن مضمونة؛ فلم تكن قد تعاقدت على العمل، وهذا يعني أنها لم تكن تَتمتَّع بحقوق. بإمكانها أن تذهب إلى العمل غدًا وتجد أنهم فصلوها دون أي سبب على الإطلاق.

وجدنا أسرتها تجلس أسفل منزلهم بعيدًا عن حرارة الجو. سألتهم عن الحياة في القرية مقارنةً بالحياة في المدينة (شكل ١٧-١).

قالت والدة آي: «لطالما عشتُ في هذه القرية. لن أعيش مطلقًا في مكان آخر، ولكن لا توجد وظائف هنا؛ ومن ثم أُضطر إلى إرسال بناتي إلى بنوم بنه للعمل.»

سألتها: «إذن القرار في هذا الشأن هو قرار الأم؟»

أجابت: «نوعًا ما. لقد طلبت من بناتي الذهاب إلى المدينة لمساعدة الأسرة، وقد وافقْنَ على ذلك.»

كان من الصعب إجراء حوار مطوَّل مع والدة آي؛ لأنَّ جدتها كانت تُقاطع الحوار. كانت تَمتلك رأسًا كبيرًا مستديرًا يمتلئ بالتجاعيد ولم يَتبقَّ لها سوى عدد قليل من الأسنان. كانت تتحدَّث وكأنها تُلقي النكات. ولم يسعني إلا أن أبتسم لها حين تحدَّثتُ لأول مرة. ولم أُدرك أنها ليست مضحكة إلا حين سمعتُ الترجمة.

قالت: «صارت الحياة في القرية صعبة، لم تعد تُشبه ما كانت عليه. لقد سُرقت جاموستنا قبل أسبوعين. كنتُ وحدي بالمنزل، وأحدهم وضع لي شيئًا في كوب الشاي جعلني أنام. وعندما استيقظت، كانت الجاموسة قد اختفت.»

أذهلني شيئان هنا؛ أولًا: أن يُخدِّر أحدهم سيدة مُسنَّة ليَسرق جاموستها. وثانيًا: أن هذه قرية صغيرة. كيف يستطيع أحد أن يَسرق جاموسة دون أن يعرف الجميع ذلك؟

تجمهرَت جماعة من أطفال الجيران حولنا، وصرنا رسميًّا مشهدًا للمُتفرجين؛ ومن ثم فقدنا الحميمية والخصوصية.

سألت الأطفال: «ماذا عن قضاء بعض الوقت في لعب الفريسبي؟»

كانت آي تمتلك مساحة مفتوحة بين منزلها وجدول ماء. كان من الأصعب أن نلعب لعبة الفريسبي لو كانت الجاموسة موجودة في منتصف تلك المساحة، ولكنَّنا لا نعاني من تلك المشكلة الآن.



شكل ١٧-١: آي (جهة اليمين) وأفراد أسرتها.

أولًا: شكلنا دائرة وقذفنا الطبق. انضم إلينا اثنان من جيران آي السكارى. لقد ذكَّرني الموقف بشيء قاله تومو مدير مكتب منظمة العمل الدولية: «قد يكون من المثير للاهتمام أن تعرف أن المبالغ التي تُرسلها الفتيات إلى أُسرهنَّ تُنفَق على الخمر أو القمار.»

لم تعد الحياة في مقاطعات كمبوديا مُحتملة. حدث الانتقال من الريف إلى المدينة ومن المزرعة إلى المصنع. ربما مثَّلت الوظائف والصادرات تقدمًا مُحرزًا، ولكن ما الثمن؟ لقد تفرَّقت الأُسَر.

في طريق عودتنا بسيارة الأجرة إلى مدينة بنوم بنه، قبل أن نغطَّ جميعًا في نومٍ عميق نتيجة الإرهاق جراء قضاء يوم طويل وحارٍّ، أخبرتني آي بأكثر شيء تفتقده في العيش بقريتها.

قالت آي: «إنني أفتقد العمل والحديث في حقول الأرز. في المصنع ليس مسموحًا لنا بالحديث. الرؤساء الصينيون يُريدوننا أن نعمل بأسرع ما يمكن.»

قالت لي إنه يجري تقسيم العمال في المصنع إلى فِرَق مُكوَّنة من ٧٠ فردًا يُشرف عليها جميعًا مديران كمبوديان ورئيس صيني. استطردَت آي قائلة: «الرؤساء ليسوا

ودودين على الإطلاق. فإذا لم يُحقِّق العامل الحصة المُستهدَفة من العمل، فإنهم يُسيئون معاملة هذا العامل إساءة بالغة.»

وفقًا لتقريرٍ أصدرته منظمة العمل الدولية، يتعرَّض أكثر من ثلث العمال إلى إهانة لفظية من مديريهم؛ مما يُصعِّب الانتقال من العمل في الحقل إلى العمل في المصنع. إنها أول وظيفة رسمية لثلاثة أرباع العمال الذين يُهاجرون إلى المدينة. هنا في الحقول المفتوحة، لا توجد أغطية رأس شبكية ملونة أو فترات استراحة محدَّدة أو مستويات إدارية أو بطاقات هوية، بل يوجد إخوة وأخوات وآباء وأمهات. بالتأكيد توجد شمس حارقة لا تَرحم، ولكن توجد أيضًا صداقة حميمة وشعور بالانتماء ومزاح صاخب. ويوجد فرصة للحديث أيضًا.

تستطيع الفتاة تحقيق النجاح في كمبوديا إذا ما انتقلَت إلى المدينة للعمل في تصنيع الجينز واحتفظت بكل مُدخراتها أو استثمرتها في التعليم، ولكنها لا تفعل؛ حيث يُرسلن مبالغ كبيرة إلى قريتهن لإعالة أسرهن. فحين لا تَملك الكثير، تصبح الأسرة هي كل شيء.

ناقشت أنا وتومو هذا الأمر في مكتبه. إن الآباء في الولايات المتحدة مسئولون عن أبنائهم بصفة قانونية حتى سن الثامنة عشرة، وبعد ذلك من المقبول — قانونيًّا واجتماعيًّا — أن يُقطع عنهم جميع سُبل الدعم المادي. كنت محظوظًا بأن ساعدني والداي أثناء الدراسة الجامعية، وأسهَما في سداد دفعات مقدمة للشقق السكنية. غير أن الكثيرين في الولايات المتحدة ليسوا محظوظين بهذا القدر؛ فبعضهم يُكمل عامه الثامن عشر، ثم يَستقلُّ بحياته. هم يحصلون على فرصة عمل أو دراسة وينتقلون للعيش بمفردهم. بالطبع توجد مكالمات هاتفية في أعياد الميلاد وزيارات في الإجازات، ولكن الحياة التي كانت مترابطة ومتداخلة في مرحلةٍ ما صارت الآن مُشرذَمة ومفككة. والصِّلات التي كانت تربط الأسر فيما مضى صارت مُقطَّعة. فمن الناحية النظرية، الطوارئ الطبية والأحداث المأسوية تُغطيها شركات التأمين. وفي نهاية المشوار المهني، يتلقَّى الآباء — نظريًّا أيضًا — الدعم من خلال صناديق التقاعد والمعاشات.

أتذكر أنني تعلَّمت في الكلية أن الصائدين وجامعي الثمار كانوا يقضون الكثير من الوقت مع أسرهم. وأدَّت التطورات الزراعية إلى فائضٍ في الطعام مما أتاح للناس أن يُمارسوا أنشطة أخرى بالإضافة إلى العمل في المزرعة؛ ومن ثم ظهرت حِرَف مثل الحدادة والحياكة. فإذا احتجتَ إلى خبزٍ ذهبت إلى الخباز، وإذا احتجتَ إلى لحم ذهبت إلى الجزار. وإذا احتجتَ إلى ملابس ذهبت إلى حائك الملابس. كنتَ تعطي المال إلى الشخص الذي أنتج ما كنتَ تَشتريه والذي كان موظفوه ومُساعدوه من أفراد أسرته على الأرجح.

اليوم في الولايات المتحدة تَتعرَّض المزارع والمشروعات الأسرية إلى تهديد، مما يجعلها تعجز عن منافسة القوى الشرائية لكبرى الشركات؛ ومن ثم يجري دمجها وشراؤها، بينما يزداد عدد من يعملون لدى شخص آخر. فنادرًا ما يتبع الأبناء والبنات خطى آبائهم.

في الظلام الهادئ لسيارة الأجرة، انطلقنا من القرية إلى المدينة بسرعة ٦٠ ميلًا في الساعة. وقبل أن أغطَّ في نومي، راودتني فكرتان:

(١) هذا تقدم مُحرز.
(٢) هل هذا تقدم مُحرز؟

الفصل الثامن عشر

كنوز ونفايات

في مكب نفايات مدينة بنوم بنه، كان من الصعب أن تُفرِّق بين الناس والنفايات.

أحذية طويلة الرقبة سوداء، مُصْطَفَّة في انتظار، بدت وكأنها أشبه بأكياس نفايات جاهزة للتخلُّص منها. بدت الأيادي المُرتدية قفازات مطاطية صفراء، التي كانت في حركة دائمة من الالتقاط والفرز، أشبه بقشور موز لزجة. وبدت القمصان الخضراء أشبه بنباتات عفنة، والقمصان الحمراء أشبه بالحقيبة المُمزَّقة الملقاة عند قدمي.

اقتربَتْ شاحنة وتجمَّع حولها زبالون. كانوا لا يدفعون أو يَحشرون النفايات؛ لأنه توجد قواعد وتقاليد رسمية لكل شيء، حتى هذا الأمر. ارتفع قلاب الشاحنة مُفرِغًا ما به من نفايات. كانت نفايات حديثة لم يحدث تنقيبٌ فيها من قبل؛ ومن ثم كانت من النوع الأثمن قيمة.

بدأ السباق.

كان مُعظَم الزبالين يُغطيهم تمامًا طبقات من الخِرَق الممزقة، باستثناء أحدهم — الذي كان حتمًا مُستجدًّا — إذ كان يرتدي سروالًا قصيرًا. كانوا يُمسكون بعصيٍّ ذات خطاطيف في طرفها يُقلِّبونها في النفايات. كانوا يضعون على الفور أي شيء بلاستيكي في حقائبهم القماشية التي كان يُحمَل فيها من قبلُ الأرزُ أو الأسمنت أو الدقيق. كانوا يُفكِّرون للحظة في مدى أهمية الأشياء الأخرى ثم يُقرِّرون سريعًا التخلص منها أو الاحتفاظ بها. كان الوقت في غاية الأهمية؛ لأنه حان وقت عمل آلة الحفر.

امتدَّت الذِّراع الصفراء الطويلة ذات السطل المعدني اللامع. تحرَّكت الذراع كما لو أنها محاطة فقط بنفايات جامدة، متجاهلة الإصابات التي قد تُلحقها بالبشر من حولها. كان الزبالون يأخذون حذرهم ويتحرَّكون إذا ما كانت المنطقة التي يَقفون فيها مُستهدَفة. كانت الذراع تَسحق وتدفع وترفع وتلتف لتُفرغ حمولتها على قمة جبلٍ عالٍ من النفايات. وبالأعلى وقَف عدد قليل من الزبالين الشجعان أو ربما الأغبياء. كانوا غارقين في فيض من النفايات آملين أن تفرغ الذراع حمولتها بالقرب منهم كي يُمكنهم العثور على شيء فاتَ الآخرين التقاطه (شكل ١٨-١).



شكل ١٨-١: في مكبِّ نفايات مدينة بنوم بنه، من الصعب أن تُفرِّق بين الناس والنفايات.

كانت كومة النفايات قد تكدَّست فوق الجبل جراء حركة الذراع بضع مرات ذهابًا وإيابًا. ثم اقتربت شاحنة أخرى. استمر السباق وبدا أن أمامه بعض الوقت إذا أخذنا في الاعتبار الشاحنات المصطفة في انتظار.

لم يكن هذا أسلوب حياة يَليق بالبشر، ولكن هؤلاء البشر اضْطُرُّوا لقبول هذا العمل على أيِّ حال. كان الكثير منهم مُزارعين عجزوا عن إعالة أسرهم، وكانوا قد سمعوا عن فرصة عمل في مكب نفايات بلدية ستونج مانشي. لقد اختاروا أن يَتركوا قراهم حيث

الهواء الطلق والمساحات الشاسعة والخيارات المعدومة. وتحوَّل نحو ألفَي مزارع إلى زبالين مُستقلِّين يعيشون هنا ويَتقاضون أجرًا أقل من دولار واحد في اليوم نظير جمع الأشياء القابلة لإعادة الاستخدام. إنهم يَعيشون في أكشاك مؤقتة على حافة المكب الذي تبلغ مساحته ١١ فدانًا، ويَدفعون إيجارًا ليعيشوا في تلك الأكشاك. لقد اختاروا المجيء إلى هنا سعيًا وراء حياة أفضل. تساءلتُ هل هذه هي الحياة الأفضل التي سعوا إليها.

كانت توجد نار مشتعلة. انبعَث من النفايات المُحترقة دخان كثيف مُهيِّج للأنف. انبعث الكبريت في الهواء. إنه الجحيم على الأرض. ولكن للجحيم مستويات مختلفة، وهو ما جعلني أتساءل: ما قدر الجوع والمعاناة والاكتئاب الذي عاشوه قبل أن «يختاروا» العيش هنا؟

يُساورنا القلق بشأن حياة العمال الذين يَصنعون سراويلنا الجينز الأزرق، ولكن ماذا عن الأرواح المُهدَرة في مكبات النفايات؟ لم أسمع عنهم من قبل. العمال الذين يَتلقَّون معاملة سيئة يُشكِّلون محنة لضمائرنا بالتأكيد، ولكن وصول الفقر لهذا المستوى أسوأ بكثير.

كانت الرائحة شديدة الخبث والتأثير، فلم تتوقَّف عند أنفي، بل زحفت لتصل إلى حلقي وأخذت تؤرق حجابي الحاجز. كان للرائحة تأثير حارق لعيني.

كان المنظر والرائحة مُثيرَين للغثيان ومسيلَين للدموع. كان من الممكن أن أتقيَّأ أو أبكي لكنني قاومت كلتا الرغبتَين. وبينما كنتُ أسير مبتعدًا، لم أُغطِّ أنفي؛ إذ لم أرغب في إظهار شعوري بالغثيان مما يَفعلونه ومن المكان الذي يعملون به.

سرتُ مُطأطئ الرأس؛ لأنني اكتفَيت من النظر حولي. غطَّى وحلٌ لزج الملمس أسود ثنايا ساق سروالي الجينز ماركة ليفايس. ثم وجدتُ أمامي على الأرض دُمية صفراء صهباء الشعر؛ كانت مُغطَّاة بنفس الوحل الأسود اللزج الأسود ومُمددة على الأرض كأنها إطار جثة رُسم بالطباشير. كانت الدمية ملقاة بجانب مسار شاحنة. بدا إسرافًا أن يُرمى شيء كهذا من المُمكن أن يجعل طفلة صغيرة تَبتسم.

تطلَّعت إلى كومة النفايات الموجودة على يساري ورأيتُ مجموعة من الأطفال يراقبونني. أحد الصبية كان لا يرتدي شيئًا سوى سروال؛ فلا حذاء ولا قميص. جلسوا على النفايات التي تُحيط بهم من كل جانب يُنقِّبون فيها بتراخٍ مُستخدِمين عِصيَّهم الخاصة في تقليب النفايات. سرت في اتجاههم ودعوتهم للقيام بالشيء الوحيد المنطقي؛ ألا وهو لعب الفريسبي.

بعد شرح قصير لكيفية رمي الطبق الطائر، قذفتُه إلى الفتى الحافي القدمين العاري الجذع. حملت الريح الطبق ليَطير من فوق رأسه، ويَتدحرج على الأرض على أحد جانبيه مارًّا بماسورة معدنية صدئة مغروزة في الأرض.

لقد صعَّبت الريح علينا قذف طبق الفريسبي على نحوٍ دقيق، إلا أني مدين لها رغم كل شيء. كنا نقف عكس اتجاه الريح القادمة من جهة النفايات والأكوام المُحترقة. لو كنت أعمل في جمع الزبالة واحتجت إلى استراحة، لكان هذا هو المكان المناسب. كان أغلبية الموجودين أطفالًا يُنقِّبون في النفايات القديمة المُكدَّسة هنا على هضبة القمامة. كانت احتمالات العثور على شيء ثمين محدودة. كان متوسط دخل الأطفال هو ٢٥ سنتًا في اليوم مقابل التنقيب عن الأشياء القابلة لإعادة التصنيع. لكن كان المكان أكثر أمانًا، والهواء أفضل. لم تكن أيُّ شاحنات أو معدات ثقيلة تتحرَّك بالقرب من المكان.

جرى الصبي وهو يَعرج وراء الطبق. وعندما وصل إليه، جلس على الأرض وفحص جرحًا قديمًا في قدمه. كان الجرح قد تلوث، ولذا كشط الطين اللزج الأسود المحيط به بإحدى أصابعه المُتسخة.

ما الذي يُمكنني فعله؟ هذا سؤال وجدتني أطرحه على نفسي مرارًا وتكرارًا. ما الذي يمكنني فعله من أجل قدم هذا الصبي؟ بإمكاني على الأقل أن أُنظِّفه وأضع ضمادة عليه لو كان معي أدوات الإسعافات الأولية، ولكن لم تكن معي. ما الذي يُمكنني فعله لهؤلاء الأطفال العاملين بمكبِّ النفايات؟

فكَّر سكوت نيسون — منتج أفلام هوليوود الذي زار مكبَّ النفايات أثناء رحلة خلوية قام بها في فترة بين إنتاج فيلمي «إكس مِين» و«تقرير الأقلية» (مينوريتي ريبورت) — في الشيء نفسه. وباعتباره رجلًا لديه الإمكانيات اللازمة للقيام بشيء حيال الأمر ويَعيش حياة من الترف والبذخ لا يُمكنني تخيُّلها، لا بد أن هذا السؤال شغل بال نيسون؛ حيث إنه باع سيارته البورش ومنزله، وانتقل إلى كمبوديا. وأسَّس صندوق الأطفال الكمبوديِّين وأنقذ الأطفال من النفايات؛ حيث إنه آوى وأطعم وعلَّم سبعمائة طفل منهم.

صرَّح نيسون لقناة إيه بي سي نيوز قائلًا: «المشكلة في الطريقة التي تقول بها لا.» قال إنه عندما يزور المكان، يأتي الأطفال إليه ويقولون: «من فضلك، خذني إلى المدرسة.»

الأمر كله مرتبط بالحظ. هذا الصبي وُلد لأبوَين كانا محظوظين باجتيازهما «العام صفر» أثناء فترة حكم بول بوت، ولكنه تعيس الحظ لأنه وُلد بواحدة من أفقر دول العالم. ويُصبح سعيد الحظ إذا عثَر على أشياء قابلة لإعادة الاستخدام ليَحصُل في المقابل

على ٢٥ سنتًا، ويصبح والداه — إذا كانا سعيدَي الحظ بالدرجة الكافية ليكونا ما زالا على قيد الحياة — سعيدَي الحظ إذا كان لديهما ما يكفي لإطعامه. وهو تعيس الحظ لأنه مصاب بجرح في قدمه. وسيكون سعيد الحظ إن ضمَّه سكوت نيسون إلى مدرسته أو إن مدَّت واحدة من المنظمات غير الهادفة للربح الكثيرة في كمبوديا يد العون له. ولكنه تعيس الحظ لأنه يوجد عدد كبير جدًّا من الأطفال في مثل حالته.

نظَّف الجرح وقذف طبَق الفريسبي إلى الفتاة قبالته. طار الطبق عبر الهواء الساخن الكريه الرائحة. أخذَت تمدُّ ذراعيها تارة في ترقُّب وتُمسك بقبعتها تارة أخرى. كانت عيناها لامعتين وتتلألآن حين تَبتسم ابتسامتها الرائعة. لم تُمسك بالطبق، ولكنها كانت سريعة في الوثب عليه أثناء ترنُّحه ليتوقف.

كانت بصدد قذف طبق الفريسبي وهو مقلوب رأسًا على عقب، فأشرتُ إليها لتعدله. التصقت خصلات من شعرها بوجهها المُتعرِّق، وتمايل شعرها الطويل غير المصفَّف والمعقوف على هيئة ذيل حصان، مع نسيم الهواء. كانت تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، وفي غضون بضع سنوات كانت ستَصل إلى السن القانونية للعمل في كمبوديا، لم تكن تبدو راغبة في العمل بكدٍّ حتى يَحين ذلك الوقت.

قذفت طبَق الفريسبي، وطار وراءها. أحد الصبية قال لها شيئًا، فألقت برأسها إلى الوراء وأخذت تَضحك. كانت لا تزال تتمتع بالبراءة التي فقَدها الزبالون البالغون — بالأسفل — قبل وقت طويل. كانت ضحكتها هي الضحكة الوحيدة التي سمعتها خلال الساعة الأخيرة. لم تكن عيناها خاليتين من التعبير. كانت تعرف الجوع لا الحرب. كان الأمل لا يزال في قلبها.

أن تكون واحدًا من ٨٥ شخصًا يَصنعون سروال جينز أزرق أو يُلقون عليه نظرة إعجاب أثناء استخدام طريقة أحجار الصقل أو تقنية الصقل الرملي، وأن تعمل ستة أيام في الأسبوع، وأن تحصل على أجر ٥٠ دولارًا في الشهر — لتُرسل نصف المبلغ إلى أسرتك ليستطيعوا شراء الطعام — لا يبدو كل هذا حياة بالنسبة إليَّ. ولكنها حياة ستَحظى بها تلك الفتاة إن كانت سعيدة الحظ (شكل ١٨-٢).

ما كنتُ لأفكر بهذا الأمر قطُّ قبل هذه الرحلة، ولكني أتمنى أن تَحظى هذه الفتاة يومًا ما بفرصة تصنيع السراويل الجينز الزرقاء. وأتمنى ألا تضطر إلى دفع رشوة إلى قرش العمالة. وأتمنى أن تتقاضى أجرًا عادلًا منصفًا وتُعَرَّف بحقوقها. فثمة أسلوب حياة أسوأ من حياة عمال الملابس.



شكل ١٨-٢: الفتاة تعود إلى العمل بعد لعب مباراة الفريسبي مع المؤلف.

في مكبِّ النفايات، قمامة شخص هي كنز لشخص آخر. وفي كمبوديا، المصنع المُستغِل من وجهة نظر شخصٍ ما بمنزلة فرصة من وجهة نظر شخص آخر.

تحديث النسخة المنقحة

أوجه الأزمة

قالت لي آي عام ٢٠٠٧: «إذا دفعوا ٤٥ دولارًا مقابل سروال جينز، فهذا سيُساعدنا. وإذا توقَّف الناس عن الشراء، لن يُسعدني ذلك لأنني لن أجد عملًا.»

من الواضح أن آي كانت محقة.

فنحن — المُستهلِكين الأمريكيين العظماء — توقفنا عن شراء الكثير من المنتجات، بما فيها الجينز، لدرجة أن التأثير كان محسوسًا حول العالم.

عندما كانت الأمور على ما يرام — خلال الوقت الذي كنا نشتري فيه الكثير من الملابس وتحديدًا في العام ٢٠٠٧ — كان الناتج المحلي لكمبوديا ينمو بنسبة تفوق ١٠ بالمائة وخرجت نسبة ١ بالمائة من الكمبوديِّين من دائرة الفقر كل عام. ولكن كل هذا توقَّف فجأة عندما حدثت الأزمة المالية العالمية. ووفقًا للتقرير النهائي لاستطلاع الرأي الذي أجرَتْه لجنة بتكليف من منظمة العمل الدولية، بعنوان: «فهم أثر الأزمة الاقتصادية العالمية على قطاع الملابس في كمبوديا»، أغلق ٧٠ بالمائة من المصانع أبوابها وسُرِّح ٧٠ ألف عامل بحلول ديسمبر ٢٠٠٩.

حاولت متابعة أحوال ناري وآي عن كثب من خلال أحد المُترجمين الذين تعاملت معهم، ولكن أرقام هواتفهما توقَّفت عن العمل بعد مرور بضعة أشهر على زيارتي. قال لي مترجمي إنني لا ينبغي أن أقلق؛ فالناس يُغيرون أرقام هواتفهم باستمرار. لم يكن بمقدوري تخمين ما قد حلَّ بحياتهما إلا من خلال متابعة أخبار كمبوديا وعمال الملابس. ولم تكن أخبارًا جيدة.

قال دوجلاس برودريك، مُنسِّق الأمم المتحدة المُقيم في كمبوديا، في تصريح صحفي من مكتبه: «الأزمة الاقتصادية العالمية لها وجه إنساني؛ ففي كمبوديا ليست لقمة عيش الناس وحدها هي المهددة، وإنما حياة الناس أيضًا.»

ونص التصريح الصحفي بتاريخ أبريل ٢٠٠٩ على ما يلي:

> تُظهر المؤشرات الأولية أن الكثير من العاطلين عن العمل عادوا إلى قراهم؛ حيث فرص كسب العيش، وهي في الأساس من خلال الزراعة، لا تَتجاوز حد الكفاف وهي فُرَص محدودة للغاية. ومن أجل البقاء قد يجد المزيد والمزيد من السيدات والأطفال الكمبوديين أنفسَهم داخل إطار الاقتصاد غير الرسمي راضين بأجور أقل وظروف أفقر ومَخاطر أكبر للاستغلال الجنسي والاتجار بالبشر.

قرأتُ ذلك وفكرت في حلم ناري أن تكون خبيرة تجميل. تمنَّيت أن تكون قد انتهت من تدريبها وأن تكون الآن منشغلة بتزيين وتجعيد شعر السيدات في قريتها وتقليم أظافرهن. وإن لم يكن الأمر كذلك، فأتمنى أنها لا تزال تَحتفظ بوظيفتها في مصنع سراويل الجينز الأزرق. أتمنى أن تكون قد وجدت شيئًا آخر لتفعله بدلًا من الاضطرار إلى العمل كعاهرة. ولكن الحقيقة هي أن فتيات كثيرات لا حصر لهنَّ مثل ناري وآي اللتين تعولان أسرتَين مكوَّنتَين من ستة أو سبعة أفراد في قريتَيهما بأجرَيهما من العمل في تصنيع الملابس؛ قد اتجهن إلى البغاء. فقْد وظيفتك هو عذر جيد لتبرير عدم إرسال الأموال إلى أسرتك، ولكن لن تَدفع لك الأعذار ثمن علاج جدتك أو ثمن مصاريف مدرسة أخيك أو ثمن الطعام.

ونظرًا لعجزي عن السفر إلى كمبوديا بنفسي وقطع الرحلة من مدينة بنوم بنه إلى قريتَيهما، حيث لا تزال أسرتاهما تعيشان على الأرجح، لم أكن متيقنًا مما ينبغي عليَّ فعله. تواصلت مع صديق بجامعة كمبوديا أوصلَني بطالبة، تُدعى سيما، كانت على استعداد للقيام بالرحلة بدلًا مني.

ومما أسعدني أنها وجدتهما!

تركَت ناري العمل بالمصنع في عام ٢٠٠٩، قبل أن يُغلَق بخمسة أشهر. أصابها العمل بالدوار.

الإغماءات الجماعية ليسَت نادرة وسط عمال الملابس في مصانع الملابس بكمبوديا؛ ففي عام ٢٠١١، ذكرت التقارير أن ١٥٠٠ عامل فقدوا وعيهم أثناء العمل: «... كشفت التحقيقات أن الكثير من أسباب حالات الإغماء، تتراوَح بين سوء التهوية والكيماويات السامة وبين «الأمراض النفسية الجماعية وأسلوب الحياة غير الصحية».» وفقًا لصحيفة بنوم بنه بوست. «ورغم ذلك، أشار قادة النقابات العمالية إلى الأجور المتدنية وساعات العمل الإضافية على نحو مُبالَغ فيه، مُفسِّرين أن العمال، وهم بالأساس شابات من القرى، يَعولون أسرًا كاملة اعتمادًا على الأجر الأساسي ...» في الواقع، التقليل من نفقات مأكلك معناه أن تُرسل المزيد من المال إلى الأسرة، ولقمة الطعام التي لا تأكلها هي لقمة طعام لأسرتك.

عادت ناري إلى العيش مع والدَيها وبدأت العمل نحو تحقيق حلمها لامتلاك مشروع خاصٍّ بها كخبيرة تجميل؛ ففي عام ٢٠١٠ افتتحت متجرَها ولكنه لم يكن مربحًا ولذا اضْطُرت إلى إغلاقه.

ثم تزوَّجت من أحد مُعلِّمي المرحلة الابتدائية وكانت تقضي يومها في العناية بابنها الصغير ذي التسعة أشهر وبيع الحلوى والشامبو والكعك من كشك صغير أمام منزلهم. وداخل الكشك وُضع كرسي حلاق مُحاط بالمرايا.

إنها لا تَتخلى عن حلمها؛ هي لا تزال راغبة في أن تصير خبيرة تجميل شهيرة.

أبلغتْني سيما قائلة: «كانت آي ودودة للغاية بوجهها البسام في كل مرة تحدَّثتُ فيها معها. جلسنا في الغرفة وسعدنا بالثرثرة.»

سافرت سيما إلى قرية آي. لقد جاءت آي ورحلت. عندما أُغلق مصنع سراويل الجينز الأزرق، حصلت آي على وظيفة في مصنَع آخر لتعمل كمُفتِّشة. فرَضت عليها وظيفتها الجديدة أن تقف طوال اليوم، مما تسبَّب في شعور بآلام بساقيها. كانت في السابعة والعشرين من عمرها، أكبر بعامٍ من السن الأساسي لعُمال الملابس، وقررت أن تعود إلى قريتها لتُساعد في أعمال الزراعة.

وفي نهاية عام ٢٠١٠، سمعتْ عن فرصة عمل في فندق لاكي ستار. سعر المبيت في الغرفة ليلة واحدة هو ١٥ دولارًا كما أن الغرفة مزوَّدة بتليفزيونات ذات شاشات مسطحة وخاصية الاتصال اللاسلكي بشبكة الإنترنت مجانًا. تُنظِّف آي الغرف وتنام فيما وصفته سيما بـ «مكان عشوائي». إنها تعمل ثماني ساعات في اليوم طوال أيام الأسبوع. ويُقيم

الفندق حفلات زفاف في المساء، تعمل آي فيها وتحصل على أجر نظير العمل لساعات إضافية. تتقاضى آي ٧٠ دولارًا في الشهر، أي بزيادة مقدارها ٢٠ دولارًا عما كانت تَكسبه كعاملة ملابس في عام ٢٠٠٧، ولكن بزيادة بضعة دولارات عما يكسبه العامل العادي في عام ٢٠١٢. وعادةً ما تُعاني آي من الأمراض ولا يُمكنها تحمُّل تكاليف الرعاية الطبية.

قالت آي لسيما: «أظنُّ أن هذا يَكفي مقارنة بعملي في المصنع.»

كتبت سيما في تقريرها: «في النهاية، كانت مُندهشة للغاية من التواصُل مع السيد كيلسي. كادت لا تصدق بأنه لا يَزال يَذكرها.»

الجزء الرابع

شبشبي المطاطي الخفيف:
صُنع في الصين

الفصل التاسع عشر

نائب المدير الغاضب

يونيو ٢٠٠٧

«لطالما كنتَ مخادعًا وكاذبًا في كل خطوة على الطريق.» قالها بات وهو يُنهي جولتي سعيدة الحظ مع المصانع والعلامات التجارية.

بات هو نائب مدير فرع التوريدات العالمية لشركة ديكرز أوتدور؛ وهي الشركة الأم لشركة أحذية يو جي وسيمبل وتيفا، التي تَصنع شبشبي المطاطي الخفيف. كنتُ في المكتب المحلي لديكرز، بالقرب من مدينة جوانزو، بالصين، أما بات فكان في ... حسنًا، لستُ متأكدًا بالضبط من مكان بات. أتخيَّل أنه يجلس بمكتبه الفسيح في المقر الرئيسي بكاليفورنيا، وربطة عنقِه مفكوكة بعد قضاء يوم طويل من إبرام الصفقات التجارية الناجحة، يَرتشف النبيذ من كأس كريستال، ووجهه مخضَّب بحمرة الغضب أثناء حديثه في هاتفه المحمول. ثمَّة شيء واحد كنت متأكدًا منه قطعًا، ألا وهو أنني لم أكن أروق لبات.

قال: «لقد زرتَ المصنع. من الذي أعطاك العنوان؟»

أجبته قائلًا: «مكتب شركة تيفا. لقد اتصلتُ به الأسبوع الماضي، والرجل الذي ردَّ على الهاتف سأل مديره وأعطوني إياه.»

قال بات: «اذكر لي اسمًا.»

فقلت له: «لا أعرف اسمه. لقد تحدَّثت إلى ما لا يقل عن ثمانية أشخاص في شركتَي تيفا وديكرز خلال الأسبوع الماضي.»

استطرد بات قائلًا: «غير مسموح لأحد أن يُدلي بتلك المعلومة. ليس من المفترض أن تكون متاحة للجمهور.»

فقلت له: «حسنًا، لكنَّهم أعطوني إياها. الشركات الأخرى التي عملتُ معها كانت عناوين مصانعها متاحة للجمهور. لا أرى سببًا وراء اعتبار زيارة المصنع مشكلة كبيرة.»

علَّق قائلًا: «هذا أغبى شيء سمعته طوال اليوم؛ عدم الاهتمام بظهور «سائحٍ» ما في المصنع. نحن لا نستضيف سائحين. ولا نُتيح معلومات مصنعنا للجمهور.»

جاء ردي عليه: «لستُ سائحًا.»

كان هذا كل ما استطعت أن أقوله. أردت أن أشرح له أن زيارتي للمصانع في بنجلاديش وكمبوديا والصين ليست على سبيل قضاء إجازة مطلقًا، وأنني كنت قد قضيت جولة سياحية في هندوراس خصَّصت منها يومًا لزيارة مصنع ملابس هناك. أما الآن بعد أن غفوتُ في غرفة عريفة، ولعبتُ الفريسبي في مكبِّ نفايات بمدينة بنوم بنه، وزرتُ القرى في كمبوديا، فأنا «لست» بالتأكيد سائحًا. فهذه الرحلة ليسَت لها علاقة باستمتاعي بالوقت. لقد أخذت رهنًا عقاريًّا ثانيًا لآتي إلى هنا. لقد فوَّتُّ فرصة التخطيط لحفل زفافي وهو أمر لم يُحبطني على الإطلاق. ومع ذلك، السفر في إجازة بمفردي أثناء هذه المرحلة سيجعل مني شخصًا مُغفَّلًا تمامًا. تخيَّلني وأنا أقول لآني: «استمتعي بالتخطيط لحفل زفافنا يا آني. سأُسافر لأقضي إجازة بأموال لا نَمتلكها. أراكِ بعد ثلاثة أشهر.»

قال بات: «لقد قضيتُ ٣٠ عامًا في هذا المجال، ورأيت الكثير من الأمور. وأستطيع أن أكتشف من يكذب عليَّ ويخدعني.»

كان بات يَستفزني، وشعرتُ بأن وجهي يتخضب بالحمرة. الشيء الوحيد الأسوأ من الدخول في حلقة مفرغة من المكالمات الهاتفية للوصول إلى أحد المسئولين بالشركة هو الدخول في حلقة مفرغة من المكالمات الهاتفية لتصل إلى أحد المسئولين بالفعل ليَنتقدك وينعتك بالكاذب والسائح الأناني حين تَتصرَّف بناءً على المعلومات (القليلة جدًّا) والمساعدة التي أُتيحت لك. قبل أن أحجز تذكرة السفر إلى الصين، أجريتُ عدة مكالمات هاتفية مع شركة ديكرز في محاولة للوصول إلى الشخص المناسب. وسارت الأمور على النحو التالي:

عند اتصالي لوصف رحلة البحث، قلت: «مرحبًا، أنا كاتبٌ أسافر إلى جميع الأماكن التي تُصنع فيها ملابسي. لديَّ شبشب مطاطي ماركة تيفا مصنوعٌ بالصين، وأود أن تُخبرني بالمكان الذي يُصنع فيه هذا الشبشب بالصين.»

وآتاني الرد: «انتظر من فضلك.» أو «سأقوم بتحويل مكالمتك.»

وصفتُ رحلة البحث مرة أخرى.

«انتظر من فضلك.» أو «سأقوم بتحويل مكالمتك.»

وفي النهاية، ربما انقطع الخط «مصادفة»، أو انتظرت لأجل غير مُسمًّى أو حُولت لترك رسالة صوتية.

انقطع الخط. ثم اتصلت مرة ثالثة.

أخيرًا، أخبرني رجل يُدعى برايس أنه مصنوع في مدينة جوانزو، وهو ما كان يَكفي لأضع خطط سفريتي في ذلك الوقت.

عندما وصلت إلى مدينة جوانزو، واجهت جولة أخرى أكثر إرهاقًا من المكالمات الهاتفية من أجل الوصول لأحد مسئولي الشركة. كنت بحاجة إلى عنوان المصنع، والأهم، كنتُ أريد أن أتحدث مع أحد الممثلين بالبلاد في محاولةٍ مني لترتيب لزيارة أو على الأقل لمقابلة شخصية. ففي مدينة هندوراس، ما إن وصلت إلى وجهتي حتى استُقبلت بفتور بالغ. وفي بنجلاديش اختلق دالتون كذبة، وجاريتُه فيها بارتباك. ولكن الترتيب لزيارة مصنع مع مدير قُطْري، كما فعلتُ في كمبوديا عند زيارتي مصنع ليفايس، كانت بالتأكيد الطريقة التي جرَّبتها من قبل وآمل تكرارها في الصين.

اتصلت بمكتب شركة ديكرز بكاليفورنيا من فندقي بمدينة جوانزو وعرفتُ أن برايس لم يعد يعمل هناك. انتظرت وانقطع الخط أثناء انتظاري لسيدة لم أعرف اسمها لتسأل مديرها عن طلبي. عاودتُ الاتصال وتحدثتُ مع روبرت. أعطاني مديره عنوان المصنع، ولكن لم يُعطني أيَّ معلومات للاتصال بمكتبهم في الصين. أخبروني بأن أتَّصل بجايم على الرقم الداخلي الذي لم يتمكنوا من تحويلي له. أغلقت الهاتف واتصلت بجايم، ولكنها لم تكن موجودة فتركتُ لها رسالة صوتية. وعاودت الاتصال وتحدثت إلى ستيفن، الذي قال إنه سيتحدَّث إلى جايم.

مرَّت الأيام دون استجابة من أحد. أرسلتُ رسائل إلكترونية وتركت رسائل صوتية. وعندما وصلت أخيرًا إلى جايم، أعطتني معلومات الاتصال ببات. أرسلتُ سلسلةً من الرسائل الإلكترونية والصوتية إلى بات إضافة إلى روابط لُمدوَّنتي عليها المقابلات الشخصية التي أجريتها والمنشورات الخاصة بزيارة المصانع في بنجلاديش وكمبوديا.

لقد قضيتُ ساعات وأنفقت أكثر مما كنتُ أتخيل من المال لأقطع مسافة طويلة كي أصل في النهاية إلى لا شيء. كل ما كنت أريده هو اسم ورقم شخص بشركة ديكرز في الصين يُمكنني أن ألتقي به. يمكنهم أن يقرروا بأنفسهم ما إذا كانوا راغبين في مُساعدتي أم لا.

راودني شعور بأنهم يَنتظرون اختفائي. ولكنَّني لم أقطع كل هذه المسافة لأختفي. زرتُ موقع شركة ديكرز على الإنترنت وقرأتُ: «مكتبنا للإشراف الداخلي بمدينة

بان يو سيتي، بالصين، هو نقطة وصل محلية بين مصنعَيْنا المستقلَّيْن في منطقة الشرق الأقصى.» هذا جعلني أومِن بأن مكتب ديكرز قد يكون واقعًا في المصنع الذي لديَّ عنوانه بالفعل؛ وهو عنوان بالقرب من مدينة بان يو سيتي؛ ولذا ذهبت إلى هناك.

شرحتُ كل هذا لبات، بالإضافة إلى كيف أنني ظللتُ أحاول طيلة شهور الحصول على معلومات اتصال مناسبة ولم أحصل إلا على ردود غامضة. وسألته ماذا كان سيفعل لو كان مكاني.

قال بات: «أنا من يتعين عليَّ أن أسأل هذا السؤال!» أتخيله وهو يضع كأس النبيذ التي أفرغها توًّا بعصبية على مكتبه.

ما تبع ذلك لم يكن أسئلة وإنما اتهامات عن إجادتي الخداع، كما لو كنتُ استعنت بحِيَل عقلية شديدة المكر والدهاء كتلك التي يَتمتَّع بها فرسان الجيداي لأخدع موظَّفي شركة ديكرز وعمال المصنع.

قال لي: «لقد أخبرتهم بأنكَ تَعرفني وأنني دعوتُك للزيارة.»

فكان ردي: «لم تَسِر الأمور على هذا النحو، يا بات.»



شكل ١٩-١: خارج مصنع الشباشب المطاطية الخفيفة.

قالت آنجيل، مترجمتي: «في الصين، عندما تذهب إلى مكانٍ كهذا ينبغي أن يكون معك خطاب تعريفي.»

لم يرغب حراس المصنع في التورُّط بأي شيء له علاقة بنا؛ ومن ثم قالوا إنهم لم يَسمعوا من قبل عن شركة ديكرز مطلقًا. ثم اقتربت سيدة تملأ بعض الاستمارات الورقية في كشك الحراسة من آنجيل. لقد سمعت عن ديكرز وعملت معهم. في الواقع كان مكتبهم في الطابق العلوي، كما أشارت. (شكل ١٩-١).

سألتني السيدة: «ما طبيعة نشاطك التجاري؟»

أخبرتها.

فسألتني: «مَن الذي أَذِن لك أن تأتي إلى هنا؟»

جاءت إجابتي بعيدة تمامًا عن حصافة فرسان الجيداي؛ إذ قلت لها: «لا أحد! لم يدعُني أحد. ولكن شركة ديكرز أعطتني هذا العنوان. لقد تحدثتُ مع ستيف وجايم وحاولت أن أصل إلى بات.»

بينما كانت السيدة تتَّصل بمديرها، سألتُ آنجيل عما إذا كانت تلك السيدة قد تعرَّفت على أيٍّ من الأسماء التي ذكرتها؛ كانت قد تعرَّفت على اسم بات، وهو الشخص الوحيد بالتأكيد في طاقم عاملي ديكرز الذي «لم» أكن قد تَحدثتُ إليه.

ولذا، افترضتُ أن بات لديه سبب وجيه ليَحمل ضغينةً تجاهي؛ وذلك لاستغلال اسمه، ولكن لماذا لم يستوعب أحد قولي: «لم يَدعُني أحد»؟ إنني حتى كررت هذه العبارة. لم أمارس أي نوع من الكذب.

قادتْنا السيدة أمام الحرس وعبر بوابة معدنية مُتحرِّكة إلى مصنع يبدو وكأنه أشبه كثيرًا بحرم جامعي، محاط بنوافذ ذات زجاج مُعتم ووحدات تكييف تنقط على الرصيف بالأسفل. كانت البنايات متصلة بعضها ببعض من خلال طُرقٍ علوية، وكانت توجد نخلة وحيدة في الظل. سمعتُ طنينًا مرتفعًا صادرًا من مولد كهربائي في مكان بعيد.

دخلنا إلى أقرب بناية عبر قاعة مليئة بموظفين يَجلسون على مكاتب، ربما كانوا مُصمِّمين يفحصون أحذية. كانت رائحة المكان طيبة عبارة عن مزيج مثالي لرائحة الجلد والغراء التي تزيد رغبتك في شراء تلك الأحذية الجديدة. توجَّهنا إلى قاعة محاطة بمقصورات زجاجية تبدأ من الأرض وتصل إلى السقف، تَعرض أحذية تحمل العلامتين التجاريتين تيفا وسيبمل.

بعد مرور بضع دقائق، دخل السيد هوانج، مدير تلك المرأة وسأل: «مَن الذي أَذِن لك أن تأتي إلى هنا؟»

أجبتُ عليه، وأنا أكرر واحدًا من الأعذار التي أُقدمها بسبب ضعف التواصُل فيما بينهم قائلًا: «لا أحد. موظفو ديكرز أعطوني هذا العنوان، ولأنهم مشغولون بمشروعٍ مُرتقب لم أتمكن من التواصل معهم مؤخرًا للحصول على المزيد من المعلومات. أتمنى أن يكون بإمكانكم مساعدتي.»

قال السيد هوانج: «هذه منطقة سرية للغاية مُخصَّصة للأبحاث والتطوير. لا يُمكننا السماح لأحد بالتجول فيها فقد يَسرق أسرار الصناعة.»

من الواضح أن «مكتب الإشراف الداخلي» لم يكن المقر الرئيسي لشركة ديكرز بالصين، وكان السيد هوانج يعمل لدى المصنع، لا لدى شركة ديكرز. حاولت أن أُؤكِّد له أنني أودُّ فقط أن أعرف كيف تُصنع أحذيتي مثلما عرفت طريقة تصنيع سراويلي في كمبوديا لدى شركة ليفايس، وأنه إذا أمكنه أن يُساعدني في الوصول إلى المسئولين المناسبين في شركة ديكرز، فسوف أُقدِّر له جميله هذا.

كرَّر السيد هوانج سؤاله عما إذا كنتُ قد تلقَّيتُ دعوة أو ما إذا كان لي سابق معرفة ببات. كررت التأكيد على أنني لم أتلقَّ دعوة ولا أعرف بات، رغم أنك إذا ما سمعتَ بات وهو يحكي عن الزيارة والجزء الذي يخصه، فقد تظنُّ أنني أخبرت السيد هوانج: «أجل، أنا وبات صديقان. لقد أخبرني أن آتي لزيارة المصنع لتَصحبني في جولة داخله.»

ترَك السيد هوانج الغرفة وجاء ومعه بطاقات عمل. وقرأ المعلومات الموجودة فيها لآنجيل.

قال: «هذا رقم مكتب شركة ديكرز في مدينة بان يو. يجب أن تتصل بهم. لا يُمكنني أن أخبرك بأي شيء هنا حتى يَسمحوا لي بذلك. آسف لا يُمكنني أن أعطيك العنوان. يجب أن تتصل وتُرتِّب للزيارة بنفسك.»

الآن، هل كان السيد هوانج سيقول هذا لو أنني كنت قد خدعته بشأن علاقتي ببات وديكرز؟

اعتذرت عن مجيئي بدون سابق ميعاد وشكرته على وقته.

قلت لبات: «لقد حاولتُ أن أفعل الشيء الصحيح في كل خطوة على طول الطريق. آسف إن كان ثمة نوع من سوء التواصل أو سوء الترجمة. شكرًا على ...» ترددتُ؛ شكرًا على ماذا؟ على نعتي بالكاذب؟ «شكرًا على وقتك.» أعدتُ لديندو، المدير القُطْري لشركة ديكرز، هاتفه المحمول.

أجرى ديندو حوارًا من طرف واحد مع بات وقال «نعم» بعدة أشكال مختلفة قبل أن يُغلق الخط. وبدا أن ما أخبره بات به على العكس تمامًا مما قاله بات لي وطريقة قوله إياه. فاعتذَر عن سوء الفهم وقال إن بات أخبره بأن يُجيب عن أي سؤال قد أطرحه عليه.

كان ديندو لطيفًا للغاية؛ بدا وكأننا صديقان مقربان. لقد واجهتُ غضبًا، ولقد واجه هو ذلك الغضب أيضًا عدة مرات على الأرجح. حكى لي عن حياته؛ حيث إنه وُلد في الفلبين وانتقل إلى الولايات المتحدة حين كان في الخامسة من عمره. وفي ذلك الوقت كان يقضي ثلاثة أشهر هنا وشهرًا في بلده مع زوجته وابنه ذي السبعة عشرة ربيعًا في ولاية كاليفورنيا. تحدثنا عن رياضة الغطس. لم يكن يَفصلنا من هذا المكان عن الفلبين سوى رحلة قصيرة. وتُقدِّم الفلبين تجربة رائعة فيما يتصل برياضة الغطس.

في النهاية، عدتُ إلى المهمة التي جئت من أجلها وراجعتُ قائمة الأسئلة الموجودة في مفكرتي. قلت له: «خذني في جولة لتفقُّد عملية تصنيع صندلي.»

قال: «جميع الخامات تأتي من الصين. نحن نختار المُورِّدين ونُصدِر موافقة على جميع العناصر التي تستخدمها المصانع. ونختار التصميم الموجود على الأشرطة والمواد المستخدمة في تصنيع النعال الخارجية والداخلية.»

خلعتُ صندلي كريه الرائحة الذي ارتديته طوال الرحلة، بل حتى قبل بدئها، ورفعته على الطاولة.

قلت: «احذر لمسه؛ إنه قذر.»

أشار ببطاقة العمل خاصتي إلى كل قطعة على حدة، موضِّحًا أن الأشرطة تأتي على هيئة بكرات ضخمة وأنها تُقطع إلى أطوال مناسبة قبل رتق القطع بعضها مع بعض. ثم تُثبَّت بحلقات أشبه بحلقات منع ارتشاح ماء الصنبور عند إصبع القدم الكبير وعلى جانبي القدم حيث موضع التقائها بالنعل الداخلي. ويُصنع النعل الداخلي والخارجي من مطاط ابتكرته شركة تيفا. ولم تسجل الشركة المادة المطاطية المستخدمة كبراءة اختراع باسمها، ولكنها الشركة الوحيدة تقريبًا التي تستخدم هذه المادة، وهي عبارة عن مادة عالية المرونة والكثافة. وتُرتَق النعال معًا وتلصق بالغراء. ولم أكن لأظن أبدًا أن أيَّ حياكة تتمُّ في شبشب مطاطي خفيف.

الشباشب المطاطية الخفيفة سهلة الصنع، ويحتاج تصنيعها إلى نحو خمسة أشخاص: قاطع وحائك وعامل غراء وعامل تلميع وعامل تعبئة. ويستطيع العاملون أن يُنتجوا من ألفين إلى ثلاثة آلاف زوج أحذية في اليوم. قارن هذا بالخمسين إلى الثمانين

شخصًا الضروريِّين لإنتاج حذاء تِنِس تقليدي، يصل معدل إنتاجه اليومي لنصف مُعدَّل إنتاج الشبشب المطاطي الخفيف.

سألته: «هل ستحلُّ الماكينات محل الأيدي العاملة؟»

قال: «التكنولوجيا موجودة منذ ١٥ عامًا، ولكن الحال ليست كما كانت عليه. [عليك أن تتعامل مع] كل قطعة جلد على نحو مختلف. والماكينة لن تَعرف ما يتعيَّن عليها فعله. فشركة ريبوك لديها خط ماكينات، ولكن ماكينات الحياكة هي الماكينات الوحيدة التي يَستخدمونها، حيث يجمع العُمال القطع ويَضغطون على زر. وبعد مرور بضع ثوانٍ، يَجري عمل الغُرز.»

سألته قائلًا: «إذن، كيف حال صناعة الأحذية؟»

فقال: «بخير. المبيعات تزداد (شكل ١٩-٢). سؤالي هو من الذي يَرتدي كل هذه الأحذية؟ تُنتج شركة نايكي ٢٠ مليون حذاء في الشهر، وتُنتج شركة ريبوك ١٠ ملايين حذاء. ونحن نُنتج نحو ٨ ملايين حذاء في العام.»

قلت: «يا إلهي، هذا العدد يَقترب من العدد الذي تنتجه شركة ريبوك.»

علق قائلًا: «العدد ٨ مليون حذاء في «العام»، وليس في الشهر. لدينا خمسة مصانع نعمل معها في ضاحية بان يو. وكنا نَمتلك من قبل مصانع في ماكاو وتايلاند، ولكن بإمكاننا الإشراف والمراقبة على كل شيء على نحوٍ أفضل في مكان واحد. والشباشب المطاطية مثل الذي تَرتديه مصنوعة في مصنع أروفا بضاحية بان يو.»

سألته: «هل من المُمكن زيارة خط الإنتاج؟»

رد قائلًا: «موسم تصنيع صنادلك انتهى في الوقت الحالي.» هذا أول «رفض».

وهذا منطقي، كنَّا في شهر يونيو، وهم على الأرجح يُنتجون أحذية الخريف والشتاء في الوقت الحالي.

قلت له: «أي خطٍّ لإنتاج الأحذية سيَفي بالغرض. أتوقع أن تكون مُشاهَدة تصنيع الأحذية العادية أكثر إثارة للاهتمام على أيٍّ حال.»

قال: «للأسف، المصنع الذي يُنتج صندلك مغلق في الوقت الحالي بسبب انقطاع الكهرباء. وفي مقاطعة جوانجدونج، يوجد جدول لانقطاع الكهرباء. وبعض المصانع تُشغِّل مُولِّدات الكهرباء، وبعضها يغلق.» هذا ثاني «رفض».

أظن أن ديندو يحب عمله؛ إذا أراد أن يحافظ عليه، فما مِن سبيل لدخولي أي مصنع من المصانع التي تتعاون مع شركة ديكرز. إنه يتعامل بأدب وحسب.



شكل ١٩-٢: سيدة في مدينة الأحذية الكبرى، جوانزو، تجلس وسط أرفف الأحذية.

سألته: «ربما الأسبوع المقبل؟»

فأجاب: «ربما الأسبوع المقبل.»

كان بات محقًّا؛ فمن الذي سيأتي إلى الصين ليرى أين يُصنَع شبشبه المطاطي؟ فلو كنتُ مكانه لساوَرني الشك أيضًا. بالإضافة إلى ذلك، ليس لديَّ أي أوراق اعتماد. فأنا لا أعمل لدى صحيفة «نيويورك تايمز»، بل إنني لا أعمل لدى أيِّ جهة. هكذا يصعب التعامل معي على محمل الجد إلى أن تجدني واقفًا على عتبة بابك وحينئذٍ لا يَعود بإمكانك تجاهلي.

ولكن ما الذي يَسوءني في أن أكون عميل تيفا المُخلص الذي يريد أن يعرف من أين يأتي شبشبه المطاطي الخفيف؟

أنا على يقينٍ بأن واقع صناعة الأحذية، مثل واقع صناعة الملابس، ليس جميلًا. وبات لا يريدنا أن نُفكِّر فيها. ولهذا السبب لم أَرُق لبات. ولكنَّ ثمة شيئًا واحدًا يجب أن يَعرفه بات: أنا أحبُّ ارتداء الأحذية. ولا أحب أن تَخِزَني الأجسام الحادة في قدمي. وأحب أن أحظى بدعامة صغيرة للنعل.

تقريبًا كل حذاء لديَّ مصنوع في الصين، وأظن أن أحذيتك كذلك. من أنا لأصب اللعنات على العلامات التجارية والمصانع التي تصنع أحذيتي؟

بات لا يُريدنا أن نفكر في أحذيتنا. إنه يريدنا أن نشتريها ونبليها ونشتري زوجًا آخر منها. بات لا يريدنا أن نفكر في العُمال الذين يصنعون أحذيتنا وكيف تبدو حياتهم. ولكن بصرف النظر عن قدر السيطرة التي يُمارسها بات على سلسلة توريداته العالمية، هو لا يستطيع أن يَمنعني من مقابلة العُمال الذين يَصنعون شبشبي المطاطي الخفيف.

الفصل العشرون

الحياة في القاع

الشبشب المطاطي هو أكثر شيء مرح يُمكنك ارتداؤه. وطريقة نُطقك لاسمه هي الأكثر مرحًا من بين جميع الأشياء التي ترتديها.

فالشبشب له وقع خفيف على أذنَيك وقدميك؛ فهو مرتبط بالخفة والمرونة. إنه بسيط ورائع. ولكن هل فكَّرت في الأمر من قبل؟ هو شبشب مطاطي يُمَد ويُمَط وله صوت مميز وموسيقي كاسمه، ووقعه يجذب الأذن!

هكذا، تكون أفكاري بهذا القدر من العمق عندما أرتدي الشبشب المطاطي الخفيف. وبينما أسير أسمع خطوات قدمي اليُسرى وخطوات قدمي اليمنى تسيران بإيقاع موسيقي؛ أفكر في الأمر لثانية أو ثانيتَين ثم أتوقف عن التفكير فيه؛ لأن اليوم الذي أرتدي فيه الشبشب المطاطي هو دومًا يوم رائع، ولديَّ فيه خطط أفضل لقضاء الوقت.

يكون الجو دافئًا عندما أرتدي شبشبًا مطاطيًّا خفيفًا، على الأقل تكون درجة الحرارة ٢٣ درجة مئوية. ولا يَشغل بالي أن تُسحق إصبع قدمي الكبيرة بأجسام كبيرة أو تَجرح الأشياء الحادة قدمي. لستُ من هؤلاء الأشخاص الذين يَرتدون الشبشب المطاطي طوال العام أو خلال جميع أنشطتهم. في الواقع ربما أكون شخصًا سيئًا بسبب ذلك، ولكنَّني حين أرى شخصًا يرتدي شبشبًا مطاطيًّا في فصل الشتاء أجد جزءًا منِّي يتمنى سرًّا أن يُصاب هذا الشخص بلسعة الصقيع لتُلقنه درسًا. أو حين أرى شخصًا يرتدي شبشبًا مطاطيًّا أثناء ممارسة أيِّ رياضة أو أثناء القيام بعمل بدني شاق، أريد أن أذهب إليه وأدوس على إصبع قدمه الكبيرة.

بدأت علاقتي الغرامية بالشبشب المطاطي الخفيف في مدينة كي ويست؛ كنتُ أستيقظ من النوم وأرتدي التي-شيرت وسروال السباحة القصير، وأركب دراجتي على طول الشوارع المُظلَّلة بأشجار النخيل لأصل إلى محل أدوات الغطس الذي كنت أعمل فيه. كنت أساعد الزبائن على الاستعداد للغطس. إنهم في إجازة، يُدندنون بسعادة أغاني جيمي بافت، ويرتدون الشباشب المطاطية الخفيفة أيضًا. وعندما يحصل الجميع على معداتهم، نصعد على متن المركب ونَخلع ما نرتديه في أقدامنا دون أن ننحني.

وعلى مدار الساعات الأربع التالية، كنا نَرتدي زعانف الغطس ونُطارد الأسماك الملوَّنة حول الشِّعاب المرجانية، أو نقضي الوقت على متن المركب، حفاة الأقدام، نأكُل ثمار الأناناس الطازجة. وفي نهاية الرحلة نعود مرةً أخرى لارتداء شباشبنا، دون أن نُرهق أنفسنا بالانحناء حتى. كان الزبائن يَسيرون بشباشبهم إلى أقرب حانة لتناول عصير كوكتيل الفواكه، وكنتُ أذهب أنا ورالف أو روي أو راستي (يبدو أن جميع أسماء ربابنة السفن تبدأ بحرف الراء) للبحث عن صندوق الثلج من أجل الحصول على مشروبَين بارِدَين أثناء غسل المركب بالماء. ثم أعود إلى منزلي بالدراجة في ظلال صفوف أشجار النخيل المتقابلة. كنت أقذف الشبشب المطاطي عند مدخل الباب بمجرد أن أجتازه، ليبقى هناك حتى صباح اليوم التالي، ثم أعيد الكَرَّة من جديد.

للأسف، هذا ليس أسلوب حياة مَن يعملون في تصنيع الشباشب المطاطية التي نَرتديها.

بل حياتهم بعيدة كل البُعد عن ذلك.

أمام مصنع الشباشب، كان مُصنِّعو الشباشب المطاطية الخفيفة يَرتدون الشباشب.

بقدر ما يَروق لي أن أربط بين الشباشب المطاطية وماركة «مارجرتفيل» للشباشب الرجالية الغالية الثمن، يوجد عدد كبير جدًّا من الفقراء الذين يَرتدون الشباشب المطاطية في الوقت الحالي يفوق عدد سكان الجزر أو مُرتادي الشواطئ أو المصطافين. والشباشب المطاطية هي ما يقع عليها الاختيار كلباس للقدم في الدول النامية، والسبب في ذلك غالبًا أنها رخيصة الثمن — عادة ما يكون ثمنها أقل من ١ دولار — وقابلة للتصليح. وجميع العاملين الذين التقَيتُ بهم حتى الآن كانوا يرتدون شباشب مطاطية خفيفة في العمل، والعمال الصينيون لا يَشذون عن القاعدة (شكل ٢٠-١).



شكل ٢٠-١: يُحظر الدخول بالأحذية، ولذا يَخلع العمَّال في كمبوديا الشباشب قبل دخول غرفهم.

كانت الساعة الخامسة مساءً، وكان العمَّال يَتدفَّقون خارج المكان بين البوابة المعدنية المتحركة ومبنى الحراسة أمام المصنع. وأغلبهم يعبرون الطرق ويدخلون زقاقًا ضيقًا. تبعتُهم أنا وآنجيل إلى أن وصلنا إلى تقاطُع الزقاق مع زقاق آخر؛ حيث انتظرنا هناك.

قلت: «حسنًا، هذا يبدو رائعًا. سليهم إن كانوا يُمانعون الحديث وما إذا كانوا يَصنعون منتجات تيفا.»

بعض العمَّال تجاهلونا، في حين أن البعض الآخر ابتعدوا وحدَّقوا من بعيد. وأنا لا ألومهم. لقد اعتدتُ هذا الأمر إلى حدٍّ ما؛ وذلك بعد أن واجهتُ أمورًا مماثلة في مصانع بهندوراس وبنجلاديش وكمبوديا، وما زلت أشعر نوعًا ما بأنني أَشبَه بشخص يُجري استطلاع آراء في مركز تسوق ويُحاول فرض نفسه على الآخرين.

إلا أن عشوائية التجربة هي المثير في الأمر؛ فأنا موجود في الصين لأن صندلي صُنع هنا. وأنا هنا أمام هذا المصنع لأنه يصنع منتجات تيفا. ولقد توصَّلتُ إلى المصنع لأن أحد العاملين بشركة ديكرز زل بلسانه وأعطاني العنوان. مر العمَّال ومعهم حكاياتهم التي تَنتظر أن يسردها أحد. ومن سيشاركني حكايته؟

أوقفت آنجيل سيدة ترتدي شارة خضراء. كانت تشو تشون سيدة خجولة ولم تَرغب في الحديث معنا. بدأت حلقات من المُتفرِّجين تتجمَّع حولنا. اندفع رجل صفَّف

شعره بحيث بدا قصيرًا. كان الرجل مُنتصِب القامة واثقًا من نفسه وسط الجموع، وشقَّ طريقه ليصل إلى السيدة ويشجعها على الحديث.

سألتُهما: «هل أنتما زوجان؟»

ابتسم الرجل، ويُدعى ديوان، ابتسامة خفيفة إلى تشو تشون. وقال: «أجل، نحن مُتزوِّجان.»

سألتُهما وأنا أشير إلى شبشبي المطاطي: «وهل تَصنعان هذا؟»

أومآ برأسيهما.

سألتهما: «وإلى أين تذهبان الآن؟»

ردَّ الرجل: «عائدان إلى غرفتنا.»

فاستأذنتُهما: «هلا نرافقكما؟»

رد قائلًا: «أجل.»

تبعناهما عبر الأزقَّة الضيقة. حاولت أن أحفظ اتجاهات الطريق، ولكن دون جدوى؛ حيث إن كل شيء بدا متشابهًا، ولم تُسعفني الشمس — التي تخفَّت وراء الدخان والضباب — في الاسترشاد بها.

صعدنا بضع درجات أسمنتية بارزة من جانب بناية من الطوب، وفتح ديوان الباب حيث يؤدي السُّلم إلى منزل ويُقابله سلم معدني، كما لو أن هذا مخرج طوارئ. اضطُررتُ إلى أن أحني رأسي أثناء دخولي من الباب ودخلت إلى المطبخ المُشترك. كان يوجد خمس مقالٍ صينية مَتْرُوكة بلا عناية يفوح منها رائحة زيت دافئ. كانت غرفتُهما عند منبسط الدرج الثاني. وصلنا إلى بابٍ خشبي مكتوب عليه رقم «٣٠٥» بقلم تحديد ثابت بالإضافة إلى حروف باللغة الصينية لم أستطع قراءتها.

كانت مساحة الغرفة كافية لتسع الفراش الذي احتلَّ أكثر من نصف المساحة الضيقة. وعلى منضدة مهزوزة، كان يوجد موقد لطهي الأرز وتليفزيون مُزوَّد بمشغل أقراص الفيديو الرقمية. كانت أسلاك السماعات تخرج من التليفزيون وتتصل بالسماعات الموجودة في الزوايا. لست واثقًا من أن غرفة صغيرة كهذه تحتاج إلى نظام مكبر للصوت، ولكن عليك أن تقدر المجهود على أية حال.

كان ديوان البالغ من العمر ٣٦ عامًا، وتشو تشون البالغة من العمر ٣١ عامًا، يقضيان فترة استراحة. وفي يومهما المعتاد، كانا يعملان من الساعة السابعة والنصف صباحًا حتى الظهيرة، ثم يأخذان استراحة لساعة ونصف، ثم يعودان للعمل من الساعة

الواحدة والنصف مساءً حتى الساعة الخامسة مساءً، وبعد ذلك يمكنهما اختيار العمل من الساعة السادسة مساءً حتى الساعة التاسعة مساءً إن كان يوجد عمل يجب إنجازه. اليوم اختارا العمل لساعات إضافية. ففي يومهما العادي، يَختاران العمل من تسع إلى اثنتي عشرة ساعة أو ما شابه.

لم تبدُ ساعات العمل أكثر مما هو معقول، ولكني كنت أتساءل إلى أي مدًى تكون ساعات العمل الإضافية «خيارًا» مطروحًا أمام العمال. لم أسأل لأنني لم أكن راغبًا في أن أسلك ذلك الطريق. فإذا جاءك أحدُهم وسألك على الفور أسئلةً بخصوص مدى سوء وظيفتك، فستَشعُر في البداية بالإهانة نوعًا ما — كما لو أنَّ من يطرح الأسئلة يتعالى عليك لسوء الوظيفة التي تعمل بها — ولا يودُّ إلا الحديث عن الجوانب السلبية في العمل على الأرجح حتى ولو تضايقتَ من الرد.

سألتهما: «هل لديكما أطفال؟»

قالت تشو تشون: «أجل، لدينا ابن واحد، لي سين، إنه في الثالثة عشرة من عمره.»

قلت: «الثالثة عشرة! تبدوان صغيرَين في السن للغاية لأن يكون لديكما ابنٌ في الثالثة عشرة من عمره.» كانت تبدو صغيرة في السن فعلًا. أنا لا أحاول هنا أن أكسب نقاطًا بمجاملتها؛ فلا يكاد يظهر أي تجعيد على وجهها.

ضحك ديوان، وأخفضت تشو تشون رأسها في خجل لتُخفي ابتسامة على وجهها.

سألتُهما: «إذن، هل يعيش معكما هنا؟» لم يكن يبدو أن ثمَّة مساحة كافية لأن يعيش صبي في الثالثة عشرة من عمره بمتعلقاته وأغراضه. كانت المساحة تسعنا بالكاد نحن الأربعة. جلست تشو تشون على مقعد بلاستيك بلا ظهر في منتصف الغرفة، وجلستُ أنا وديوان وآنجيل على الفراش متلاصِقِين. بدت الغرفة أصغر مساحةً مما هي عليه في الواقع، لو كان ذلك ممكنًا. لم يكن يوجد بها نافذة بل مُجرَّد مروحة تقلب هواءً ساكنًا في جنباتها. كانت جباهنا تتصبَّب عرقًا.

قالت تشو تشون: «كلا، إنه يعيش في قريتنا.»

سألتُهما: «أين هي قريتكما؟»

رد ديوان: «إننا نَنتمي إلى مقاطعة سيتشوان.»

أخرجت دليلي السياحي ونظرت في خريطة الصين. أشار ديوان إلى غرب مدينة تشونجتشينج.

قلت: «لا تبدو بعيدة جدًّا.»

قال ديوان: «الرحلة تستغرق ٣٠ ساعة بالقطار.»

راجعت الخريطة مرة أخرى محاولًا استنباط فكرة عن حجم الصين. كانت المسافة الفاصلة من مدينة تشونجتشينج إلى مدينة جوانزو بوصتين على الخريطة ... ٦٠٠ ميل في خط مستقيم.

قال ديوان: «لم نرَ لي سين منذ سنتين أو ثلاث.»

ليس من السهل أن تقرأ انفعالات أشخاص يَتحدَّثون لغة لا تفهمها، ولكن كليهما لم يبدُ عليه أيُّ انفعالات. تفحَّصت الغرفة بحثًا عن صورة أو رسمة أو أيِّ علامة تدلُّ على أنهما أبوان؛ لا شيء. كانت الجدران مغطاة بأوراق الجرائد والملصقات. كان أحد الملصقات مكتوبًا عليه شيء بخصوص مولد السيد المسيح وعليه صورة لبابا نويل.

علق ديوان قائلًا: «الجدران ليست بحالة جيدة.»

قلت له: «ماذا؟»

«الجدران.» أزاح طرف أحد الملصقات وأظهر جدارًا خرسانيًّا متآكلًا ومليئًا بالثقوب. واستطرد قائلًا: «إنها في حالة سيئة ولذا نُغطِّيها.»

قلت: «يا إلهي!» قلتها وأنا أشك في أن لديهما ابنًا فعلًا لم يرياه منذ سنتين أو ثلاث، لم أستطع التغلب على الفكرة. فعدتُ لأطرح سؤالًا: «مع من يعيش ابنكما؟»

أجاب ديوان مرة أخرى بلا مشاعر: «مع والدي.»

سألتهما منقِّبًا عن رد فعل من أي نوع: «ماذا يريد أن يكون حين يكبر؟»

قالت تشو تشون بطريقة تنمُّ عن الاستخفاف بأمنيات الأطفال: «آخر مرة رأيناه فيها كان يريد أن يكون ضابط شرطة.»

لم أشعر بأنهما أبوان. ثمة خطأ ما في الأمر.

قررتُ أن أغير الموضوع وأتحدث عن شبشبي المطاطي. مررتُ من جانب تشو تشون بصعوبة وأمسكت بشبشبي من وسط كومة الشباشب المطاطية الموجودة عند باب غرفتهما. رفعته لأعلى وأنا أقول: «أخبروني بأن صندلي يُصنع في مصنع مختلف.»

قال ديوان: «نحن الآن نصنع الأحذية، ولكنَّنا نصنع هذه الصنادل.»

قالت تشو تشون: «إنني أحيك الشرائط ومُلصَق الاسم.»

وقال ديوان: «وأنا أدهنها.»

تحدثنا أكثر عن مهامهما الوظيفية. كانا سعيدين بأجريهما — مبلغ يتراوح ما بين ١٤٠ دولارًا و٢٢٥ دولارًا في الشهر — وهو أجر جيد للغاية مقارنَة بأجور عمال الملابس الآخرين الذين التقيتُ بهم.

سألتهما: «هل يروق لكما عملكما؟»

قال ديوان: «بالطبع، إننا سعيدان للغاية بهذا العمل.»

شرَعا يُعِدان الغداء. أخبرتني آنجيل بأننا يَنبغي أن نرحل. شكرتهما على وقتهما وارتديتُ شبشبي المطاطي على عجل دون أن أنحني.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، طالعت ملاحظاتي وصوري محاولًا أن أربط الأفكار التي ناقشتها في الوقت الذي قضيتُه مع ديوان وتشو تشون. لقد انفَصلا عن ابنهما منذ ثلاث سنوات ومع ذلك بدا كل شيء على ما يُرام؛ حيث بدا أنهما راضيان بالعيش في غرفتهما الصغيرة، بعيدًا عن أسرتهما، ليَصنعا الشباشب المطاطية الخفيفة. لم أقتنع بهذه القصة.

وبينما كنتُ أستعرض الصور المأخوذة في غرفتهما، كبَّرت الصور بحثًا مرة أخرى عن أيِّ علامات تدل على أنهما أبوان. لا شيء. ولكن ثمة شيء لفت نظري: قطعة من شريط لاصق على الباب يُستخدم في التغليف بدَتْ مألوفة.

ملبوسات القدم ماركة كيين؛ «إذا ظهَرت أي علامة تدلُّ على تعرض هذا الشريط اللاصق للقطع أو النزع ... لا تَقبل استلام المنتج. وسارع بإبلاغ المُرسِل.»

قبل بضع سنوات، اعتدتُ استلام الكثير من الطرود المُغلَّفة بذلك الشريط.

كنتُ أبيع أحذية نسائية.

لا أقصد، في هذا المقام، احتقار النساء أو الأحذية بأي شكل كان، ولكنِّني بصدد وضع بعض التعميمات بخصوص كلا الأمرين. ليس في نيتي أن أتبنى توجُّهًا ذكوريًّا متزمتًا أو أن أبدو معارضًا للباس القدم، ولكن في مجال بيع الأحذية — مثلما هي الحال مع الحياة الواقعية — التعميمات هي سر البقاء. وكما الحال مع أسماك القرش في المحيط، كنت أتعامل مع جميع النساء في قسم بيع الأحذية بحذر.

من الناحية الفنية، المتجر الذي كنتُ أعمل به يعمل في مجال توريد ملابس ومعدات المُغامرات والرحلات. كنتُ أساعد العملاء على اختيار معدات المغامرات والرحلات مثل حقائب النوم والخيام وأجهزة تنقية المياه والمواقد وحقائب الظهر أحيانًا. ولكن في الأغلب كنتُ أبيع الأحذية للنساء.

ولا أُوصي بهذه الوظيفة أحدًا، حتى النساء الأخريات.

وأحد أسباب ذلك هو أن النساء يَكذبن بخصوص مقاس أحذيتهنَّ؛ فإذا قلن لك إن مقاسهن ٣٧ فالمقاس على الأرجح ٣٩. وسرعان ما أدركتُ أنه من مصلحتي أن أردد عبارة: «هذه الأحذية تُناسب المقاسات الصغيرة.»

ذات يوم أعادت سيدة صندلها إلى المتجر وهي تشكو من رائحته الكريهة. أردتُ أن أخبرها بأن البشرية تستطيع أن تَبني ناطحات سحاب، وتستطيع أن تُرسل الإنسان إلى سطح القمر، وتستطيع أن تجوب أعماق المحيطات من داخل الغوَّاصات، وتستطيع أن تُدمِّر عالمنا بضغطة على بضعة أزرار، ولكننا لن نخترع أبدًا، ومطلقًا، صندلًا ليس له رائحة كريهة. لكن بدلًا من ذلك، تظاهرتُ بأنني قد تفاجأت. بالتأكيد قدماها الصغيرتان لن تتعرَّقا ولو بالقدر القليل لتفوح منهما رائحة كريهة؛ ومن ثم لا بد أن ثمة خطأً ما في صندلها، ثم أعطيتُ لها تعليمات بخصوص طريقة غسله.

وبعد مرور عام على بيع الأحذية، ظننتُ أنني شاهدتُ وسمعت كل شيء حتى أربكتني سيدة بسؤالها فعلًا.

سألتني: «هل لديك أي حذاء تنزُّه غير مصنوع في الصين؟»

قلت لها: «بالتأكيد لدينا. دعيني أنظر.»

كم كنت غافلًا لحسن الحظ عن الحقيقة؛ فالصين تُنتج ٩ مليارات زوج أحذية كل عام، وهو أكثر من نصف إنتاج العالم.

كان لدينا في المتجر تشكيلة رائعة من أحذية التنزُّه — ربما ١٥ أو ٢٠ طرازًا — ولم يكن لدينا إلا حذاء واحد غير مصنوع في الصين، وهو حذاء جارمونت فيجانز المصنوع في سلوفاكيا. فهذا الحذاء كان يتناسب مع المبادئ الأخلاقية لتلك المرأة، ولكنه لا يَتناسب مع مقاس قدمها. غادرَتِ المتجر بلا حذاء بنية طلب حذاء مصنوع بفيتنام مِن موقع على الإنترنت. بحثتُ على نطاق أوسع في باقي مخزن الأحذية الخاص بمتجرنا. كانت الاختيارات معدومة. أن تتعامل مع عميل يبحث عن صندل وردي اللون لا تَفوح منه رائحة كريهة ولا يُسبِّب التهاب اللفافة الأخمصية أفضل من أن تتعامل مع عميل يَبحث عن صندل غير مصنوع في الصين.

ماذا الذي جعل هذه السيدة تَكره الصين؟

استرجعت أيام دراستي بالجامعة ومادة علم الاجتماع. أثناء محاضراتنا عن أضرار العولمة والمصانع المستغلة، شرَح لنا أستاذنا مفهوم السباق نحو القاع. فالشركات على الأرجح تذهب إلى أيِّ مكان تكون فيه العمالة أرخص، وعادةً ما يكون ذلك المكان هو المكان الذي يعيش فيه أكثر الناس بؤسًا. قال لنا إن الصين كانت تفوز بالسباق كما تُبرِهن أغلبية منتجاتنا المصنوعة هناك. وحين صارت التجارة أكثر تحررًا، واصلت الصين تصدُّر السباق نحو القاع.

أخبرنا أستاذنا بأن الصين لديها شوارع وموانئ أفضل من الدول النامية الأخرى؛ فالصين لديها الكثير من الموارد، بما في ذلك أكبر عدد سكان في العالم، وهو ما يجعل لديها موردًا لا ينضب تقريبًا من العمَّال الذين يَفتقرون إلى الحقوق الأساسية التي نتمسَّك بها بشدة؛ ألا وهي حرية التعبير وحرية تأسيس النقابات وحرية الدين والمعتقد. وأخبَرَنا بأنه لا يكاد يوجد ديكتاتور تُعارضه أمريكا ولا تدعمه الصين، ورغم ذلك فإننا ندعم اقتصاد الصين الذي يدعم الحكومة.

كان يوجد أسباب كثيرة مُحتملة تجعل تلك السيدة تشتري أحذية غير مصنوعة في الصين.

كانت الصين هي القاع حينئذٍ، وهي كذلك الآن.

تصوَّرتُ أن محنة العمال الصينين لا بد أن تكون مشابهة أو تكون أسوأ مقارَنة بالعمال الذين التقيت بهم بالفعل. لقد عبَّر العمال الآخَرون عن شكواهم بخصوص عملهم أو المعاناة في حياتهم وقلة الخيارات المتاحة أمامهم دون أن أَدفعهم إلى ذلك. ولكن ديوان وتشو تشون لم يَفعلا ذلك. كانت أجورهما أعلى من أيِّ أجر يَتقاضاه غيرهما من العمال. كان لديهم نظام مُكبِّر للصوت. والجزء الأغرب في القصة أنهما بدوا راضيَين على الرغم من أنهما لم يرَيا ابنهما منذ ثلاث سنوات.

كنت أتوقع أن يكون القاع مختلفًا عن ذلك.

سألتهما: «كيف كان يومكما؟»

دعوت ديوان وتشو تشون على الغداء بالقُرب من مصنعهما. لم يكن من السهل الترتيب لهذه الدعوة؛ حيث إنهما كانا يَعملان كثيرًا في المساء خلال الفترة الأخيرة، وكانا يستغلان استراحة الغداء لأخذ غفوة قصيرة وسط النهار.

قالت تشو تشون: «أنا مُرهَقة. لقد عملنا ليلة أمس مرة أخرى.»

«إلى متى؟» سألتها وأنا أرفع حبة فول سوداني إلى فمي بعِصيِّ الطعام التي كانت تهتز وأنا أمسكها بيدي.

قال ديوان وهو يضحك حين رأى حبة الفول السوداني تَتدحرج سريعًا على الأرض: «حتى الساعة الحادية عشرة.»

كانا يَبدوان اليوم في حالة مختلفة؛ أقل رسمية وأكثر انفتاحًا.

طلب ديوان زجاجة بيرة، وصبَّ بعضًا منها في كأسي الصغيرة وبعضًا في كأسه. رفعنا كأسَي البيرة — اللتَين كانتا تحتويان على رغوة في أغلبهما — معًا، وغمز لي.

وبعد مُراوغة حبة فول سوداني أخرى، عدلت تشو تشون من طريقة إمساكي بعِصي الأكل. أشار ديوان إلى النادل ليُحضر لي ملعقة.

سألته: «أخبِرْني مرة أخرى، كم عدد الساعات التي تعملها أسبوعيًّا؟»

رد ديوان قائلًا: «من ثمانين إلى مائة ساعة.»

مائة ساعة! هذا يعني ١٦ ساعة في اليوم، إذا ما كان الحد الأقصى الرسمي لأيام العمل الأسبوعية ستة أيام. ولكنهم لا يفعلون؛ ذلك لأنهم يعملون كل يوم. هل هذا أسوأ أم أفضل؟ هل تُفضِّل أن تعمل ١٦ ساعة لمدة ستة أيام في الأسبوع أم ١٤ ساعة لمدة سبعة أيام في الأسبوع؟ أخبراني بأنه مر أكثر من شهر على آخر إجازة حصَلا عليها. بدا هذا أشبه بالقاع الذي توقَّعتُ العثور عليه.

قالت تشو تشون: «إنها حياة صعبة للغاية.»

سألتهما: «هل تحصلان على أجر العمل لساعات إضافية؟»

قال ديوان: «ليلة أمس، حصلت على أجر العمل حتى الساعة التاسعة، ثم أخبرنا مديرنا بأن نسجل انصرافنا ونعود إلى العمل.»

الوحدة الأساسية للشيوعية هي العامل؛ فالجميع يعملون لأجل صالح المجتمع بوجه عام. ولكن الصالح الأعم لـ ١٫٣ مليار شخص قد يقود مئات الملايين للعيش في أوضاع مُتردية. ويفخر المشرعون الصينيون بقوانين العمل التي يضعونها لحماية العامل؛ حيث إنهم حددوا ٤٠ ساعة عمل في الأسبوع. والعمل لساعات إضافية مسموح، ولكن في عام ٢٠٠٧ حُظر أن يعمل العمَّال لأكثر من ٢٠٣٫٤ ساعة في الشهر. ومثل هذه الدقة تجعل القانون يبدو أجوف وأحمق على نحو استثنائي؛ نظرًا لأن العامل يعمل ساعات أكثر من ذلك بكثير في الشهر.

في الصين يوجد قانون، ثم يوجد ديوان وتشو تشون، اللذان أخبراني بأنه ليس من النادر أن يَعملا لأكثر من ٤٠٠ ساعات في الشهر. لقد أخبراني أيضًا أنهما سيَفقدان عملهما إذا اشتكيا من ساعات العمل أو عدم تلقِّي أجر نظير العمل لساعات إضافية، وهما لا يُمكنهما تَحمُّل ذلك؛ فقد حصلا على قرض لبناء منزل من طابقين في قريتهما، وبعد فترة قصيرة من الانتهاء من بناء المنزل، مرضت والدة ديوان وتُوفِّيَت بعد أن تراكمت عليهم فواتير طبية باهظة التَّكلفة.

لم يكن يوجد أحد يُدافع عن ديوان وتشو تشون؛ فالمسئولون الحكوميون، المنشغلون بازدهار الاقتصاد، لا يرغبون في اتخاذ أي إجراء يعوق المشاريع المحلية والاستثمار

الأجنبي. ونقابة العمال تَخضع لإدارة الحزب الشيوعي الذي يَسن القوانين التي لا تُطبق. ومع الوضع في الاعتبار أن التجمعات العامة محظورة، لن تنشأ النقابات من تلقاء نفسها؛ فالمنظمات غير الحكومية تخضع للقيود، والمنظمات الدولية الأخرى، مثل منظمة العمل الدولية، تُجاهد لتحقيق نجاح على صعيد حقوق العمال. ولعل مكتب الإشراف الداخلي الخاص بشركة ديكرز يَضمن الجودة والكفاءة الإنتاجية، لكنه لا يفعل الكثير على ما يبدو من أجل ديوان وتشو تشون.

سألتهما: «لماذا تغيَّرت قصتكما؟ من قبل، أخبرتماني بأنكما تعملان ١٢ ساعة في اليوم كحدٍّ أقصى وأنكما سعيدان بعملكما.»

قال ديوان: «كنا نظنُّ أنك عميل لمصنعنا، ولستَ كاتبًا.» من الظاهر أن آنجيل لم تُخبرهما بذلك الأمر في المرة الأولى، أو أنهما لم يُصدِّقاها عندما أخبرتهما.

وكما هي الحال مع معظم زملائهما في العمل، ديوان وتشو تشون عاملان مهاجران، أتيا من صينٍ مختلفة عن الصين التي يعود منها رجال الأعمال والسياح يَملؤهم الإعجاب بالتغيير والنمو والحداثة. ولكن صِينَهما لم تتغَيَّر كثيرًا ولم تنمُ سريعًا. فإذا ذهبت إلى فروع ماكدونالدز الموجودة بالمدن، فستجد فتاةً مبتسمة ترتدي سروال جينز أزرق خاصًّا بماكدونالدز تُسجل طلبك على مساعد رقمي شخصي يَنقل طلبك لاسلكيًّا إلى الموظف القائم بتسجيل الطلبات. ويُمكنك أن تتفقد البريد الإلكتروني الخاص بك في مقهى ستاربكس من خلال كمبيوترك المحمول. ويُمكنك أيضًا أن تَستقل شبكة نقل حديثة لمترو الأنفاق أو سيارة أجرة يضغط السائق فيها على زرٍّ ويَنبعِث صوت مرحبًا بك باللغة الإنجليزية.

أما في القرى، فإنهم لا يَزالون يزرعون بأيديهم الحقول المُدرَّجة.

قالت تشو تشون: «الحياة اليومية في القرى أفضل.»

قال ديوان: «قطعًا سنعود بمجرد أن نُوفِّر مبلغًا كافيًا من المال ... ربما في غضون خمس سنوات.»

قالت تشو تشون: «أتمنى لو بإمكاني أن أَمكُث مع ابني وأسرتي وأن نلعب بورق اللعب. هنا يجب علينا أن نعمل كل يوم. لسنا أحرارًا.»

العمال الذين يَصنعون أحذيتنا أو صنادلنا في الصين ليسوا أحرارًا. إنهم، مثل مُعظم عمال ملابسنا، مقيدون بعملهم لأنه ليس لديهم خيارات أخرى.

وعلى الرغم من أنهم يعيشون ويعملون في المدينة، فكل شيء يَعيشون ويعملون من أجله موجود بالقرية الكائنة على بُعد مئات الأميال؛ ولذا سألت ديوان وتشو تشون إذا ما كانا يرغبان في الذهاب معي إلى قريتهما. سأتحمَّل عنهما التكاليف.

قال ديوان: «يجب علينا أن نعمل.» ولكنه أعطاني العنوان وقال لي إنني يُمكنني الذهاب بمفردي في زيارة، إن رغبت ذلك.

سألته: «هل ثمة شيء يُمكنني أخذه منكما إلى لي سين؟»

لم يستطيعا التفكير في أي شيء، ولكني استطعتُ؛ حيث أخرجت الكاميرا خاصتي وقلت لهما ابتسما.

نظر ديوان ناحية الساعة وربَّت على بطنه. شكرني كلٌّ منهما على الغداء. سار اثنان من ٢٠٠ مليون عامل مهاجر، جنبًا إلى جنب، زوجًا وزوجة، أبًا وأمًّا، عائدَين إلى المصنع نفسه بالهدف نفسه؛ ألا وهو كسب ما يَكفي من المال للعودة إلى ديارهم والبقاء مع أُسَرهم.

الفصل الحادي والعشرون

آلام متزايدة

وضع رجل يرتدي شبشبًا مطاطيًّا وردي اللون سمكة صغيرة في المظلَّة التي كانت مقلوبة رأسًا على عقب وتمتلئ بمياه خضراء اللون. إذا بدأت السمكة في السباحة، فإنها ستتمكن من الوصول إلى حافة المظلَّة وبلوغ الحرية قبل أن تعود لتنزلق لأسفل داخل المظلة. في النهاية، استسلمت السمكة.

كانت عصا الصائد — وهي أشبه بورقة عشب طويلة تصل إلى ١٢ قدمًا — عبارة عن قضيب طويل بدون بكرة. وضع الصائد يَرقانة في الخُطاف كطُعم ومدَّ العصا بحركة سريعة في الماء ووقَف ينتظر. لم أرَ من قبل عصا صيدٍ طويلة للغاية هكذا، ولم أرَ من قبل سمكة صغيرة للغاية كهذه تُصطاد بالخطاف. فعادةً ما يُصطاد سمك بهذا الحجم بواسطة شبكة ويُستخدم هذا السمك الصغير كطعم لاصطياد السمك الأكبر حجمًا. عندما كنت في الخامسة من عمري، اعتدت اصطياد سمكة الخياشيم الزرقاء التي يَعدل حجمها ١٠ أضعاف حجم هذه السمكة الصغيرة من البحيرة الموجودة عبر الطريق، وذلك بواسطة عصا صيدٍ مناسبة للأطفال.

لا بد أن مذاق السمك طيب؛ لأن الصائدين يَصطفُّون على طول الضفة الصخرية. وجميع الصائدين يحملون عصا صيدٍ مشابهة ويستعينون بمجموعة متنوعة من الدِّلاء والعُلب والدوارق والجِرار لوضع طُعمهم من أجل اصطياد السمك.

يندفع جدول مياه بين الصخور ويصب في النهر. كانت الأسماك تتحرك داخل الدلاء والمظلات المقلوبة لتنتثر المياه هنا وهناك. كانت أجواء ذلك اليوم هادئة ومواتية للصيد في أطول ثالث نهر في العالم، نهر اليانجتسي، حتى صدر صوت محركات الأوناش.

كانت الأوناش موضوعة على بوارج وتُنزل كلَّاباتها في المياه. أخرجت الكلَّابات أصابع مليئة بالرواسب وأُلقي بها في صَنْدَل قريب. والأنهار الجارية على نحو طبيعي لا تحتاج

إلى هذا النوع من الصيانة، ولكنه ليس نهرًا جاريًا على نحو طبيعي. في الواقع لا يوجد شيء طبيعي بخصوص أي شيء هنا؛ فحوافُّ الجرف جرى نسفها باستخدام الديناميت، والضفاف كانت مُغطاة بالأسمنت، والسماء كانت مليئة بالغبار، وحتى الصخور التي يقف عليها الصائدون موحَّدة في الحجم والشكل على نحو مفرط ما يجعلك تستبعد أنها طبيعية. إلا أن كل هذا يتضاءل عند مقارنته بالسد (شكل ٢١-١).



شكل ٢١-١: الصائدون يبدون أقزامًا أمام أكبر سد في العالم، سد الممرات الثلاثة.

سد الممرات الثلاثة، ذو التدرجات المتعددة، عبارة عن كتلة خرسانية هائلة الحجم. لم أنبهر بالسد على النحو الذي كنت أتوقعه. جدران مُنحدرة ضخمة مثل سد هوفر الذي

يمتدُّ إلى عنان السماء. يُعد سد الممرات الثلاثة أكبر سد في العالم، ولكني أظن أن ضخامته تُهدَر نوعًا ما بسبب عرضه. وعلى الرغم من ذلك، ولكي أكون صادقًا، لا تَستحوذ الكتل الخرسانية على إعجابي بسهولة، وإذا فشل هذا السد — الذي يبلغ طوله نحو ميل ونصف وارتفاعه نحو ٦٠٧ أقدام — في إبهاري، فلن ينجح أي هيكل خرساني في ذلك.

بدأ تشييد السد في عام ١٩٩٤ بعد عقودٍ من التخطيط قاطعتها ثورات و«قفزات للأمام». ظلت الكتلة الخرسانية في مكانها، ولكن المولِّدات لم تعمل لمدة بضعة أشهر أخرى. سيوفر المشروع — الذي بلغت تكلفته ٢٣ مليار دولار — الكهرباء لسبع مقاطعات، بما فيها مقاطعة جوانجدونج حيث يُصنع شبشبي المطاطي الخفيف. وهذا يَعني أنني إذا عدت في عام ٢٠٠٩، فسيتعيَّن على شركة ديكرز أن تبحث عن عذر آخر غير انقطاع التيار الكهربائي عن المصنع لرفض جولتي داخله. أنا على يقينٍ بأنهم سيُفكِّرون في سبب آخر.

وفقًا للافتة في متحف المشروع، يُعتبر السد نجاحًا عظيمًا لن نَستوعبه على الأرجح لأننا لم نكن موجودين وقت بنائه:

> بدون المشاركة الذاتية، يكون من الصعب فهم التكنولوجيا المعقَّدة والبناء الشاق الذي استلزمه إغلاق مسار النهر. [إغلاق المسار] ... سجَّل رقمًا قياسيًّا جديدًا في تاريخ بناء السدود النهرية على مستوى العالم؛ مما يُبرهن على قدرة الشعب الصيني وتصميمه وحكمته للاستفادة من الأنهار.

وفيما يلي هذا المُقتطف من اللافتة نفسها، في حال لو لم نقتنع بالأهمية التاريخية والعظمة الفائقة للمشروع:

> الإنجاز العظيم لبناء السدود النهرية ... الذي حقَّقه الشعب الصيني في نهر يانجتسي سيُكتب عنه في تاريخ تنمية الموارد المائية على مستوى العالم باعتباره نموذجًا باهرًا.

وعلى الرغم من ذلك بعض الصينيِّين لا يشعرون بأن المشروع نُفذ «بأيديهم»، ولكن «فُرض» عليهم. ففي عام ٢٠٠٦، تفاخرت الحكومة بالأرقام القياسية العالمية التي سجَّلها السد. ولم تَسرد الحكومة حجمه وقدرته على توليد الكهرباء وحسب، بل ألقت الضوء على التضحية التي قدمها الشعب لبناء السد أيضًا. فقد أسفر رفع مياه نهر يانجتسي عن

تهجير أكثر من ٤ ملايين شخص. في الواقع، المياه التي يَصطاد عندها الصائدون في تلك اللحظة كانت تُغطي منازلهم على الأرجح.

أعتقد أنه بإمكانك أن تَعتبر إعادة توطين أكثر من ٥ ملايين شخص إنجازًا، إذا ما أثار إعجابك حجم السلطة التي تَمتلكها حكومة البلاد، أو قدر الطاعة التي يُبديها مواطنوها.

ومن أجل الترويج للمشروع وتزويد محلات الهدايا بالبضائع، كان للسد تميمتا حظٍّ؛ فتًى مبتسم وفتاة مبتسمة يقفزان. كلاهما يرتدي قبعة صلبة وبدلة العمال. وتَحمل الفتاة ذات الشعر المصفَّف على هيئة ذيل حصان شعارًا يوحي بشيءٍ ما دون شك، بالإضافة إلى سطر يقول: «أنا «أحب» السد.» مقدار سعادتهم بجدار خرساني عملاق هو أمر مفزع ومخيف.

لقد نُفِّذ المشروع من أجل الشعب الصيني وبأيدي الشعب، ولقد نُفِّذ أيضًا من أجل البيئة. وانخفض مستوى جودة المياه نظرًا لتوقُّف التدفُّق الطبيعي للنهر. ويُعتبَر السد مسئولًا جزئيًّا عن انقراض أسماك الدولفين النهرية من نهر يانجتسي وتهديد طائر الكركي السيبيري بالانقراض. ولا تبدو الأسماك في حالة ازدهار هي الأخرى.

تأمل الحكومة الصينية أن تتفوَّق الإيجابيات على السلبيات على المدى الطويل. وستتمكَّن الحكومة من التحكم في مياه فيضانات نهر يانجتسي ومنع أضرارها، وهم بحاجة إلى المزيد من الطاقة الكهربائية نظرًا لتزايد عدد السكان والمدن والصناعات. وأغلبية الطاقة الكهربائية في الوقت الحالي تأتي من الفحم الذي يتسبَّب بوجهٍ عامٍّ في ظهور ضبابٍ في العديد من المدن الكبرى. ويُعتبر السد والطاقة المائية التي ستنتج منه جزءًا من مساعي الدولة الرامية إلى توفير ١٥ بالمائة من الطاقة الكهربائية عبر مصادر متجددة للطاقة بحلول عام ٢٠٢٠.

تركتُ الصائدين لِعِصِيِّهم الطويلة وأسماكهم الصغيرة واقفين في ظلال سدِّهم الكبير، وتوجهت إلى مدينة زيجوي لأعرف رأي السكان المحليِّين في أكبر مشروع أشغالٍ عامة على مستوى العالم يُنفَّذ في عُقر دارهم.

تَمتلك تشو تشي مطعمًا صغيرًا على ضفاف نهر يانجتسي. كانت ذات نمَش وشعرها مصبوغ بالأحمر، بدت سعيدة حقًّا لأنني توقَّفتُ لأتناول الطعام في مطعمها. صبَّت لي كوبًا من الشاي الساخن وجلستْ قبالتي.

كانت جدران المطعم عبارة عن كتلة خرسانية عارية وأرضيته أسمنتية. كان كل شيء في المكان مرتَّبًا ونظيفًا.

سألتها: «أين كنتِ تعيشين قبل بناء السد؟»

أشارت إلى الباب، عبر الطريق، وإلى الماء أسفل منها.

سألتها: «منزلك موجود الآن تحت الماء؟»

ردَّت، وهي تداعب القلب الذهبي الذي يتدلى من سلسلة معلقة في رقبتها، قائلة: «أجل، كانت أسرتي تزرع البرتقال. كانت هذه المنطقة تشتهر بزراعة البرتقال. الآن، جميع الحقول تُغطيها المياه. ولكن الحياة أفضل بفضل السد.»

تساءلتُ قائلًا: «كيف كان شعورك حين سمعتِ لأول مرة أن عليكِ أن تتركي المنزل وتَنتقلي إلى مكانٍ آخر؟»

قالت: «لا بأس في ذلك. السد رائع وهو يَخدم عملية التنمية.»

قلتُ: «لكن بالتأكيد، كنتِ محبطة قليلًا.»

فردت قائلة: «لم أكن راغبة في الابتعاد عن أسرتي. لقد أعطَتِ الحكومة كل شخص [١٠ آلاف دولار]، وأسرتي أسَّست هذا المطعم؛ ومن ثم صارت حياتنا أفضل، والطرق أروَع، ووسائل المواصلات أكثر ملاءَمة، وصارت الكهرباء أكثر توافرًا. إنني لا أفتقد شيئًا.»

سار الحديث على هذا المنوال، وامتلأ دفتري بملاحظات عن كيف يُعَد السد «شيئًا جيدًا» وكيف أصبحت الحياة أفضل. كانت تقع أرض العائلة، التي امتلكتها ثلاثة أجيال، أسفل سطح النهر بمسافة ٦٠ قدمًا، ولا يبدو أن تشو تشي تَشعُر بالندم على اضطرارها للانتقال، ولو بالقدر الضئيل. كانت في غاية السعادة مثل تميمتَي الحظ الخاصتَين بالسد.

التقيت بوانج كاي، كان شابًّا مفتول العضلات ذا لحية خفيفة رمادية اللون، خارج منزله على بُعد بضعة منازل من مطعم تشو تشي. لقد انتقل إلى هنا قبل ١٠ سنوات، وأشار ناحية الماء بإصبع إبهام معقوفة حين سألتُه من أين جاء.

لقد اعتاد أن يعمل مُزارعًا للبرتقال أيضًا، أما الآن فإنه يعمل حِرَفيًّا.

قال: «كنتُ أحب عملي كمزارع، ولكن …» رفع يديه وكأنه يقول «ما باليد حيلة.» ثم تحدَّث عن مدى روعة السد؛ مُكرِّرًا الكثير من النقاط نفسها التي أثارتها تشو تشي ومضيفًا أن شبكة الهواتف صارت أفضل. «الحياة أفضل … السد رائع … المستقبل صار واعدًا أكثر بكثير الآن … إننا نستفيد من السد … إنه في صالح الدولة … أنا سعيد بالتضحية.»

يُمكنني أن أتفهم السبب الذي يجعل السكان المحليِّين يَظنون أن بناء السد شيء رائع؛ لقد اختفَت حقولهم وتغيَّر أسلوب حياتهم السابق، ولكن ظهر أسلوب حياة جديد؛ فقد أسَّست الحكومة بِنية تحتية محلية، وقدَّمت الكثير من وسائل الراحة الحديثة، ووفَّرت الأموال لإعادة البناء وتيسير الانتقال للعيش في أماكن جديدة. وليس لديَّ أدنى شكٍّ في أن الحياة صارت أفضل بالنسبة إلى مُواطني مدينة زيجوي الذين يعيشون خلف السد.

ورغم ذلك، فإن أحوال من يعيشون في قرًى معزولة أغرقها السد أيضًا ليست جيدة كما تُشير التقارير؛ فلقد حاولوا أن يَنقلوا مزارعهم إلى أرضٍ أكثر انحدارًا وارتفاعًا حيث أدى تآكُل التربة إلى جرف محاصيلهم، ولكن لم تُقدم الحكومة تمويلًا كافيًا أو مساعَدة في هذا الصدد. وكتبت صحيفة «نيويورك تايمز» تقريرًا عن فقدان إحدى الأسر لمنزلها ومُكوثها في خيمة بقطعة أرض تضم نصبًا تذكاريًّا «تمجيدًا لجهود المسئولين المحليِّين الرامية إلى تحسين البيئة.»

وعلى الرغم من أن الحياة قد تكون أفضل في مدينة زيجوي، أرعبَتْني فكرة أنه ما من أحدٍ لديه شيء سلبي ليقوله. وتفهمتُ أن الشعب الصيني مُتردِّد في الحديث بسلبية عن أي شيء تفعله الحكومة — وبخاصةٍ الحديث مع شخص أجنبي مثلي — ولكني ظللتُ أتوقَّع أن أستشفَّ من حديث أحدهم موجة من المشاعر السلبية. لقد جئتُ من عالم يَعتبر التغيير جيدًا إذا ما حدَث في عقر دار شخص آخر. ولكن التغيير في عقر دارك أنت يُعطيك الحق لتشكو وتَنتقد. فإذا قالت الحكومة الأمريكية إن أرضك بصدد أن تُغرقها الفيضانات وأنه يَتعيَّن عليك الانتقال إلى مكان آخر على الأرجح، فستظهر أنت — ومُستشارك القانوني — في كل برنامج إخباري من شروق الشمس حتى غروبها. وحتى وإن كانت شَكواك لا طائل من ورائها، فإنها ستجعلك تشعر بالتحسن.

أليس هذا في واقع الأمر هو مِحوَر حق الشكوى والانتقاد؟

إن إيجابيات بناء سد الممرات الثلاثة وسلبياته موضع جدال حامي الوطيس حتى داخل أوساط الحكومة الصينية. ومن المرجَّح ألا يعرف أحد على سبيل اليقين جميع الإيجابيات والسلبيات، وما إذا كان الأمر يستحق الوقت والمال ومواجهة الصعاب قبل مرور عدة سنوات مُستقبلية. أما في الوقت الحالي فيُعدُّ المشروع واحدًا من عدة آلام مُتزايدة تُواجهها الصين.

ولقد واجهناها — نحن — أيضًا.

«حسنًا، اذهب يا أبتِ.» قلتُها بنبرة عالية وصوت أشبه بصوت شخصية ميكي ماوس. كنتُ في السابعة من عمري.

ضغَط أبي على دوَّاسة الوقود، وبدأ الزورق يَسحبني في الماء. لم يستغرق الزورق وقتًا طويلًا ليشق طريقًا أمام مزلاجتي. كنتُ أفعل ما يُملى عليَّ و«أتخذ وضعية المؤخِّرة المكتنزة»: جالسًا القرفصاء عند طرف لوح التزلُّج الذي لم يكن أكبر من تلك الألواح التي تراها على شبكة الإنترنت والتي تستخدمها شخصيات السناجب الكرتونية. ومثل السناجب، كان شقًّا لوح التزلُّج خاصتي مربوطَين معًا، ومن جديد كنت أبتسم ابتسامة بأسنان بارزة كأسنان السناجب تمامًا.

لم يكن وزني كافيًا لسحب حبل مشدود يَبلغ طوله ١٠٠ قدم، وتحرَّكَ الحبل في انسيابية عبر المياه. ارتفعتُ مع الأمواج وحرَّكتُ لوح التزلج بسرعة أثناء مرورنا على الزوارق الأخرى التي كان راكبوها يَصيحون عاليًا ويتفاخرون بمهاراتهم. كنتُ متحمسًا للغاية. لم أكن متزلجًا محترفًا ومحط الاهتمام وحسب، بل وعَدني والدي أيضًا أن يشتري لي دمية دبٍّ إذا استيقظتُ مبكرًا ذلك اليوم. أطلقتُ على الدب اسم «سكيتير» (المتزلج).

كانت هذه مجرد ذكرى واحدة من ذكريات عديدة عشتُها في بحيرة كمبرلاند، جنوب ولاية كنتاكي.

كانت بحيرة كمبرلاند متنفَّسًا لأسرتي؛ حيث كنَّا نذهب إلى هناك عدة مرات في الصيف. بالنسبة إليَّ، كان هذا يعني أكياس شيتوس وعنبًا وجبنًا معلبًا وحروق شمس وتمزقات وسقطات من فوق لوح التزلج ووقوعًا على الوجه وكثيرًا من الأوقات الممتعة. في كل مرة أشمُّ رائحةَ كِريم واقٍ من أشعة الشمس، أتذكَّر بحيرة كمبرلاند.

لكنني لا أجد دومًا بحيرة كمبرلاند.

تشكَّلتْ بحيرة كمبرلاند نتيجة بناء سدٍّ على نهر كمبرلاند. وبمجرد الانتهاء من بناء سد وولف كريك في عام ١٩٥٠، وفَّر السد الطاقة الكهرومائية والتحكم في الفيضانات على طول النهر.

ولكن لم يَسعد الجميع بهذا الأمر.

فلقد أُغرقت عدة مدن صغيرة بالفيضانات في خضمِّ ذلك؛ إحداها مدينة روينا، بولاية كنتاكي. ووفقًا لخبر نُشر عام ١٩٤٣ في صحيفة «كوريور جورنال» الصادرة في مدينة لويفيل أثناء تشييد السد، تباينت آراء السكان المحليِّين بخصوص موضوع السد.

فقد قال بعض الناس أشياء على غرار:

«السد سيُطوِّر مدينتنا.»

«الصناعة ستدخل الوادي.»

«إنه رائع.»

وعلى الجانب الآخر، رأى آخرون أن السد ليس بهذه الدرجة من الروعة، ومِن بين هؤلاء إل سي هامبل، وهو مُزارع في الرابعة والسبعين من عمره كان يَمتلك قطعة أرض شطرها السد إلى نصفين.

قال إل سي هامبل (ساخطًا): «السد هو أسوأ شيء على الإطلاق حدَث في ولاية كنتاكي. السكان الذين كانوا يعيشون في أعالي النهر لم يُضطرُّوا إلى إخلاء مساكنهم لمدة عامين أو ثلاثة. ولكننا اضطُررنا إلى إخلاء مساكننا على الفور. ليس لدينا أدنى فكرة عن المكان الذي سنذهب إليه.»

كان هامبل وزوجته يُربيان ١٢ طفلًا في منزل مُكوَّن من طابقين؛ حيث كان «(هامبل) وزوجته الضئيلة البنية ذات الشعر الرمادي يَحتفلان باليوبيل الذهبي لزواجهما عام ١٩٣٩.» وذلك وفقًا لما جاء في المقال.

لم تكن زوجته ثينورا تتطلَّع إلى مُغادرة الأرض أيضًا. «لطالما حاولنا أن نُقاوم ونتشبَّث بالأرض حتى نعرف ما الذي سنفعله بخصوص جُثث موتانا.» صرَّحت للصحيفة التي وصفت صوتها بأنه «كاد يقترب من النحيب» وكانت «وجنتاها السمراوان بفعل الشمس تَرتجفان قليلًا.» «لدينا ابنٌ وابنتان مدفونون في المقبرة الخلفية. إننا نُريد إخراجهم قبل أن تَطرح الحكومة عطاءات وتمنح أحدًا المال كي يُنفِّذ المهمة ... أكثر ما يؤلمني هو ترك هذا البيت. لقد بُني عام ١٨٤٧ قبل أن نأتي إلى هنا بفترة طويلة. وأظنُّ أن أكثر ما يؤلم الناس هو ترك ماشيتهم ... الجميع يظنون أننا سنحصل على مبلغ كبير من الحكومة.» وأضافت قائلة: «ولكن هل المال يُعوِّض ما فُقد؟»

لم يكن مواطنو مدينة روينا هم وحدهم من يأملون في الحصول على أموالٍ لتعويضهم عن فقدان أراضيهم. تعرَّض عمي الأكبر وزوجته، اللذان كانا يَعيشان في حي هايواي بولاية كنتاكي — واللذان كانا مهدَّدَين أيضًا ببناء السد — إلى الموقف نفسه؛ حيث تعرَّضا لمشكلةٍ بسبب تصنيعهما مشروباتٍ روحية بطريقة غير قانونية وانتقَلا إلى ولاية مسيسيبي. وبمجرد الانتهاء من بناء السد، عادا إلى ولاية كنتاكي وحاوَلا أن يُطالبا الحكومة بدفع تعويضٍ لهما. ورغم ذلك ردَّت الحكومة بأنه نظرًا لأنهما تسلَّما الأرض

من خلال منحة أراضٍ، كان يجب عليهما أن يَشغلا الأرض حتى يُثبتا ملكيتهما لها. ولكن لم يُحالفهما الحظ.

لستُ متأكدًا من مكان حي هايواي، ولكنْ ثمة احتمال قائم بأنني تزلَّجت على الماء فوق هذا المكان.

وبمرور الوقت، أصبح يُقال إن سد وولف كريك وفَّر مئات الملايين من الدولارات نتيجة لتفادي حدوث أضرار الفيضانات. بالإضافة إلى ذلك وإلى الطاقة الكهربية التي ينتجها السد، صارت أنشطة الزوارق في بحيرة كمبرلاند مصدرًا رئيسيًّا للدخل جنوبي ولاية كنتاكي. حتى ذلك الوقت، سارت الأمور على خير ما يُرام بالنسبة إلى سد وولف كريك إلى أن حلَّ الفزع عام ٢٠٠٧ عندما اكتشف فيلق المهندسين بالجيش الأمريكي أن الماء يتسرَّب من السد وأنه مُعرَّض لخطر الانهيار. عمل فيلق المهندسين على حلِّ المشكلة، ولكن لو انهار السد، لكانت الأضرار الناجمة عن ذلك تُقدر بـ ٣ مليارات دولار، وهو ما كان من المُمكن أن يَحرمنا الكثير من المزايا الاقتصادية التي تحقَّقت حتى اللحظة الراهنة.

ظهر الكثير من السدود في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة في أعقاب الكساد الكبير. وكان لكل سدٍّ من هذه السدود إيجابياته وسلبياته، وكان لكلٍّ منها ألمٌ متزايد عايشته دولة لا تزال تخوض مراحل التنمية.

لا تُمثِّل السدود سوى ألمٍ واحد من الآلام الكثيرة المتزايدة في تاريخنا. ومصانع الملابس والمنسوجات هي ألم آخر أيضًا.

كان الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة هو الحضيض فيما مضى. وكانت الشابَّات يَتعرَّضن لظروف عمل في مصانع الملابس والمنسوجات شبيهة بظروف العيش في السجون. كانت حقوقهنَّ قليلةً للغاية، ومعاناتهن كبيرة للغاية، والحريق المأسوي الذي وقَع في مصنع ترايانجل شيرتويست كان مثالًا لذلك. وبينما كان العمال يَكسبون المزيد من الحقوق، انتقل الحضيض إلى الجنوب وقفَز في النهاية خارج البلاد ليُواجه الاشتراكية ويُخفِّض أسعار ملابسنا.

يرى مجتمع الأعمال وعلماء الاقتصاد والدول النامية أن أولئك الذين يُركِّزون على سلبيات السباق نحو الحضيض يَنسون أن الكثير من الدول المتقدمة اليوم، بما فيها الولايات المتحدة، كانت فيما مضى عند الحضيض وأن صناعة الملابس والمنسوجات كانت ضرورية لتَقدُّمها. يُمكنني أن أتفهم هذا المنطق نوعًا ما. يُمكنني أن أرى إلى أيِّ مدًى

تُوفِّر صناعة الملابس لأميلكار وعريفة وناري وآي — أو لأولادهم على الأقل — فرصة عيشِ حياةٍ أفضل. فمهما بلغ فساد دولهم على المستوى السياسي أو الاقتصادي، فهم يعيشون في أنظمة ديمقراطية تُتيح للمُنظَّمات الأجنبية أن ترفع من وعي العمال بحقوقهم على أمل أن تَرتقي بمستوى الحضيض. ولكن ماذا عن ديوان وتشو تشون؟ إنهما يعيشان تحت نظامِ حكمٍ شيوعي قائم على حزب واحد لا يَسمح بأي شيء من هذا.

ومن ثم حين يقول مجتمع الأعمال أو الاقتصاديون أو الحكومة الصينية إنَّ تقاضي العمال أجورًا ضئيلة نظير العمل لساعات طويلة في ظروف غير مواتية كله يُعد جزءًا من عملية النمو في الصين، فأنا أجد صعوبة في تصديق ذلك. ومَن يُمكنه أن يتنبَّأ بأن حقوق الإنسان وحقوق العمال ستشهدان تحسُّنًا في الصين؟ لقد اتخذت شركة ليفايس موقفًا ضد الصين، على أمل أن تورد من مكان آخر إلى أن تغير الحكومة الصينية نهجها في التعامل مع حقوق الإنسان لتَتوافق مع قواعد السلوك المِهني الخاصة بشركة ليفايس. وبدلًا من أن تُحسِّن الصين من أوضاع حقوق الإنسان لديها، خفَّضت شركة ليفايس معايير السلوك المِهني لديها.

يُطلِق جيمس مان، مؤلف كتاب «خرافة الصين» (نيويورك: فايكينج، ٢٠٠٧)، على هذا المنهج «السيناريو المُسكِّن». يقول جيمس مان إننا نظن أن التجارة تتحلى بخاصيةٍ سحريةٍ ما مُرتبطة بها ستؤدي إلى تحسين أوضاع حقوق الإنسان في الصين وستقود في النهاية إلى الديمقراطية. وتساءل ماذا لو لم يَحدث ذلك. ماذا لو احتفظَتِ الصِّين بنظام الحكم القمعي القائم على حزبٍ واحد ونظام الاقتصاد المفتوح؟ كيف سُيؤثِّر ذلك على ديوان وتشو تشون؟

إن الظلم الواقع على العمالة في مجال صناعة الملابس والمنسوجات هو مجرد جزءٍ يَسير من الظلم الهائل الذي يُمارَس في الصين؛ فقد أنقذ تحقيق أُجري في شهر يونيو عام ٢٠٠٧ حياة ٤٥٠ عاملًا في مجال تصنيع القرميد كانوا يتعرَّضون للضرب المُبرِّح والحرق والقهر النفسي والبدني. وصرَّح تقرير، نُشر في صحيفة «الجارديان» اللندنية بتاريخ ١٥ يونيو ٢٠٠٧، أن العمال «حُبسوا لسنوات في غرفة خالية بلا فِراش أو موقد، ولم يكن يُسمح لهم بالخروج منها إلا مِن أجل العمل في أفران متَّقدة، حيث يحملون هناك أحمالًا ثقيلة وبالغة السخونة من القرميد المحترق توًّا على ظهورهم العارية. والكثير منهم عانوا من حروق بالغة. وكان يُخصَّص لهم استراحة مدتها ١٥ دقيقة لتناول وجبة مُكوَّنة من خبز مدخَّن وماء بارد فقط.» وتعرَّض أحد العمال للضرب بجاروف حتى الموت، وتضوَّر عمال آخرون جوعًا حتى الموت.

ومثل سدِّ الممرات الثلاثة مقارنةً بسد وولف كريك المتاخم لبحيرة كمبرلاند، صار لهذا الألم المُتزايد — وهو ألم واحد من آلام كثيرة في الصين — بُعد آخر أشد قسوة. عادةً من يَتحمَّل الضرر الأكبر جراء هذه الآلام هم سكان القرى الريفية مثل ديوان وتشو تشون على أمل ألا تَنتقل هذه الآلام إلى ابنهما، لي سين الذي كنتُ في طريقي لزيارته.

استقللتُ حافلةً إلى محطة معدية السد حيث كنت بصدد السفر إلى مدينة تشونجتشينج، وهي مدينة على مقربة من قرية ديوان وتشو تشون. في تلك اللحظة، طغَت موجة عنيفة على الضفة التي كان الصائدون قد اصطفُّوا عليها من قبل؛ حيث فُتحت بوابة موجودة بالسد، واندفعت منها المياه إلى الخارج لتصبَّ في النهر.

المعدية ليست قاربًا، إنما هي زورق سريع مُثبَّت على زلاجتين يسير بسرعة ٣٥ ميلًا في الساعة. وهي عبارة عن أسطوانة معدنية طويلة مغلقة بإحكام، وقد بناها السوفييت. راوَدَني شعور جامح بأنني جيمس بوند أثناء تزلُّجنا على المياه فوق المكان الذي كان يضم فيما مضى منازل ١٫٤ مليون شخص.

الفصل الثاني والعشرون

الصين الحقيقية

كان بإمكاني أن أشعر بالهواء النقي يملأ رئتي، كان شعورًا يَبعث على الارتياح. كان بإمكاني أن أشمَّ أريج الزهور والروائح الجميلة المنبعثة من النباتات الخضراء. هذا هو الريف، لم يَنتبْني هذا الشعور بالأُلفة منذ وصولي إلى الصين.

فأنا فتًى ريفي، ولا تَروق لي المدن الكبرى.

كانت مدينة جوانزو مكانًا تفوح منه رائحة العرق ويعجُّ بالصخب والضجيج. واستلزم استقلال الحافلة أو استخدام مترو الأنفاق الشد والجذب والتدافع، وأغلب الوقت كنتُ أنا من يُشَدُّ ويُجذَب ويُدفَع به على أيدي أناس أحجامهم تبلغ ثلثَي حجمي، وكأنني قطعة خبز صغيرة يَتدافع نحوها أسراب من النمل.

لم أكن قد سمعتُ عن مدينة تشونجتشينج من قبل. كنت أتوقع أن تكون مدينة صغيرة، إن لم تكن قرية ومتنفَّسًا يبعث على الارتياح بعيدًا عن جوانزو.

كان هذا القدر اليسير الذي أعرفه عن الصين.

يَبلغ تعداد سكان مدينة تشونجتشينج ٣١ مليون نسمة. وهذا تقريبًا ضعف سكان ولايتَي أوهايو وإنديانا معًا. وهي واحدة من مائة مدينة صينية يفوق تعداد سكانها مليون نسمة.

الناس يَبصقون كثيرًا في المدن، وهم مُضطرون لذلك؛ فالهواء عبارة عن سلاح كيميائي يدفع الجسم لإنتاج المخاط بأقصى طاقة إنتاجية ممكنة. والبصق ظاهرة صحية؛ فأنت إما أن تَبتلع الهواء أو تبصق. الناس يفعلون ذلك في كل مكان: في القطار وفي البنك، على السجاد أو على القرميد.

ولكنك لستَ مُضطرًّا للبصق هنا.

بمساعدة المترجم الخاص بي، ويُدعى هوانج من جامعة تشونجتشينج، اتبعتُ اتجاهات الطريق التي وصفها ديوان وتشو تشون من مدينة تشونجتشينج إلى مدينة يانجشوان إلى هنا أمام ثاني أكبر حديقة حيوان في الصين، وقد بدتْ وكأنها مهجورة.

كانت اتجاهات الطريق من هنا مُبهَمة إلى حدٍّ ما، كان من المفترض أن نَطلب من أحدٍ أن يَصحبنا إلى «أسرة شواي» عند «الفريق السادس». وكان هذا سيُصبح أمرًا لا بأس به لو وُجد أحدٌ حولنا نطلب منه ذلك، ولكن الريف مهجور تمامًا مثله مثل حديقة الحيوان.

ارتفع بوق حافلة تسير عند المنعطف ووقفَت أمامنا. نزلت منها سيدة ترتدي ثيابًا من قماش الدنيم مع فتاة في سن المراهقة. كانت كلتاهما محمَّلتَين بأكياس بقالة.

تساءلت قائلة: «أهذا هو الأجنبي؟» أكَّد لها هوانج الشيء الواضح. فعقَّبت قائلة: «اتبعاني.»

قادتْنا عبر الطريق. وعرضتُ عليها أن أحمل بعضًا من أكياس البقالة، ولكنَّها رفضت. سِرنا في الطريق الضيق الصاعد نحو ضفَّة مُنحدِرة من العشب والحشائش. أحاط بنا الطريق، الذي كان رطبًا بما يكفي لأن نترك آثار أحذيتنا مع كل خطوة نَخطوها في الحقول المتلاصقة.

تلك السيدة كانت أخت ديوان وتُدعى لين تشانج. كانت ترتدي سروال جينز أزرق وسُترة جينز أيضًا. كان هذا نوعًا من الإفراط في ارتداء الجينز، ولكن أظنُّ أن مظهرها لم يكن لِيُصبح مستغرَبًا في معظم متاجر البقالة الموجودة بالولايات المتحدة في صباح أحد أيام السبت. كانت ابنتها، داي جان، طويلة ونحيفة ترتدي جينزًا أرجواني اللون مُطرَّزًا بالزهور وسترة بيضاء. ولن يكون من المُستغرَب أن أراها تقفز من حافلة مدرسية تسير في ضاحية إحدى المدن الأمريكية.

وبينما كنا نسير في طريقنا، حيَّتْنا أصوات آتية من الحقول. أحيانًا كانت الأصوات تأتي من تَحتِنا أو فوقنا، وأحيانًا أخرى كانت مختبئة وسط حقول الذرة. كانت تلك الأصوات تخاطب لين تشانج، ولكنها لم تتوقَّف لتتحدث إليها، لم تكن مُضطرَّة إلى ذلك؛ فالأجواء هادئة ويمكنها أن تفتح حوارًا أثناء سيرنا من وادٍ إلى آخر. والوادي المُجاور أتى بمجموعة مختلفة من الأصوات والحوارات.

وفي النهاية، بعد أن شقَقْنا طريقنا عبر ومن فوق عدة وديان متدرجة، وصلنا إلى منزلٍ فوق إحدى التلال. كان المنزل المُكوَّن من طابقين مُغطًّى بقرميد أبيض، وكانت

نوافذه ذات قضبان حديدية محاطة بأُطر مصنوعة من القرميد الأحمر. كان المنزل عبارة عن قلعة صغيرة تُطلُّ على حقولٍ خضراء لمحصول الذرة والبطاطس والأرز وبِركة كبيرة.

اختلَس صبيٌّ النظر إلينا من الظلال وراء الباب، ركضَت داي جان إليه كجروٍ مُتحمِّس دون أن تدري ماذا تفعل حين وصلت إليه. عرفتُ أنه لي سين، ابن ديوان وتشو تشون (شكل ٢٢-١). كان بإمكاني أن أرى والده في ملامح وجهه الحادَّة وذقنه المدبَّب، وخاصةً في عينيه اللتَين كان يبدو فيهما الوعي وتَشِيان بالأذى. وظهر عند الباب وجهٌ مشابه. وبينما كان وجه لي سين هو النسخة الأصغر سنًّا من ديوان، كان ذلك الوجه هو النسخة الأكبر سنًّا والأكثر إرهاقًا. كان هذا والد ديوان، جوانج.

انحنى جوانج برأسه انحناءةً بسيطة وابتسم وأشار لنا بالدخول. جلسْنا على طاولة خشبية على مقاعد خشبية عرضُها ليس أكبر من عرض زوجين قديمين من العوارض الخشبية المُستخدَمة في أعمال النجارة. استأذن لمُغادرة المكان وذهب إلى الغرفة المجاورة. اختلستُ نظرة سريعة ناحية الزاوية وشاهدته وهو يُشعل النيران أسفل مِرجل يمتلئ بنوعٍ ما من الجذور المقطَّعة، قلَّب المحتويات، كان هذا هو المطبخ؛ لم يكن مزوَّدًا بمياه جارية، إلا أنه كان يوجد به مصرف للتخلص من القمامة، أو بالأحرى مصرفان. وفي النصف الثاني من المطبخ وخلف بوابة خشبية رقَد خنزيران. كان جوانج يطهو طعامًا لخنزيرَيْه.

وقَف لي سين عند الزاوية مُعلِّقًا ذراعه اليسرى فوق كتفه اليمنى، كما لو أنه يُعانق نفسه نوعًا ما. بدا وكأنه يمر بواحدة من اللحظات المُربكة التي لا يعرف فيها المرء ماذا يفعل بذراعيه. شعر بالارتياح حين دخل الغرفة أحد الجيران، ثم توافَد الجيران واحدًا تلو الآخر. وسرعان ما امتلأت الغرفة بالجيران الذين جلسوا على مقاعد خشبية صغيرة في حجم تلك المقاعد التي لا يَجلس عليها الكبار في الولايات المتحدة إلا إذا كانوا يَمزحون.

سألوني عن عمري وما إذا كنتُ متزوجًا.

سرَتْ في الغرفة صيحة استغراب حين أخبرتُهم بأنني أبلغ من العمر ٢٨ عامًا ولستُ متزوجًا. قال المتحدث الرسمي عن المجموعة، وهو عم ديوان — الذي أطلقتُ عليه اسم العم راندي لأنه يتمتع بتلك السمة المُميزة للوقاحة التي يتمتع بها أحد أعمامي الذي يحمل الاسم نفسه: «لا بد أن تتزوج الآن؛ ففي القرية سن الزواج التقليدي هو ١٧ أو ١٨ عامًا.»

لم يُفزعهم خبر عدم زواجي حتى الآن بقدر ما أذهلهم أن يروا رجلًا أجنبيًّا أحمق لا يستطيع العثور على زوجة.



شكل ٢٢-١: لي سين مع المؤلف.

طمأنتهم بأنني سأتزوَّج قريبًا، ولكني شعرت بأنهم ظنوا أنني أختلق قصة لإرضائهم وحسب. وها قد انتهينا من هذا الموضوع المهم، فسألني العم راندي عما أفعله هنا.

فأخبرته بأنني صديق لديوان وتشو تشون، وأخرجتُ الصورة التي التقطتُها لهما في المطعم وناولتها إلى لي سين. أخذها في تردد وراح يتأملها لمدة دقيقة قبل أن يُدرك أنها صارت محط اهتمام الغرفة بأكملها ومرَّرها بسرعة إلى زوجين هرمين. كان هذان الزوجان هما والدَي تشو تشون.

قالت والدة تشو تشون، وهي تُعبِّر عما يشغل كل أم — على اختلاف الثقافات وتباينها — لم ترَ ابنتها منذ فترة طويلة: «لا بد أنها تأكل جيدًا؛ إنها سمينة.»

قهقهت المجموعة، وتملَّكتْهم الرغبة جميعًا لمشاهدة الصورة.

كان ديوان وتشو شون قد ازدادا وزنًا منذ آخر مرة زارا فيها القرية. من الحقائق التي يُجمع عليها الناس أن الطعام الموجود في المدينة أفضل وأَوفر.

مُررت الصورة من فلاح مُسنٍّ إلى فلاح مُسن آخر. بوجه عام كانت الغرفة يَنقصها جيل؛ حيث وقفت جدة تُمسك حفيدها الرضيع، وعندما جذب شعر السيدة الواقفة إلى

جوارهما، صفعت مؤخِّرته العارية المُدمِّلة. كان يوجد بالغرفة أجداد وأحفاد، ولكن لم يكن يوجد أحد من جيل الوسط باستثناء لين تشانج.

سألتهم: «كم واحدًا منكم لديه أبناء يعملون في المدينة؟»

أومأت الرءوس وارتفعت الأيادي. كان للجميع أبناء يعملون في المدينة؛ حيث يصنعون الملابس والأحذية وأجهزة الكمبيوتر والدُّمى. كان العمال يرسلون الأموال إلى أُسرهم لإعالة آبائهم وأبنائهم.

حجم الطبقة الوسطى في الصين يتزايد، إلا أن الهوة بين الفقراء والأغنياء تزداد اتساعًا؛ فالأغنياء يزدادون ثراءً بوتيرة أسرع من وتيرة تراجُع حدَّة الفقر. نحو سبعمائة مليون شخص يعيشون في الأرياف الشاسعة على أرض الصين. ويقلُّ دخلهم عن ٦٠٠ دولار سنويًّا ولا يقتربون من الطبقة الوسطى بأيِّ حال من الأحوال. ويصل دخل أسرة تنتمي للطبقة الوسطى إلى ١٠ آلاف دولار سنويًّا ويعمل أفرادها كحِرفيِّين في المدن الكبرى. وتشير التقديرات المتحفظة إلى أن حجم الطبقة الوسطى يصل إلى نحو ٥ بالمائة من تعداد سكان الصين الذي يبلغ ١٫٣ مليار نسمة. فالصين التي نراها على شاشات التليفزيون، والصين التي نزورها، والصين التي نستورد منها منتجاتنا؛ جميعها تختلف عن الصين التي يعيش فيها غالبية الشعب.

هذه هي الصين الحقيقية.

إنهم مُزارعو الصين ومُصنِّعو القرميد وعُمال مصانعها وعمال الإنشاء. إنهم فقراء قُرى الصين الذين يُحبون الريف، ولكنهم يَحلمون بالمدينة.

مُرِّرت الصورة إلى جوانج.

فسألتُه: «هل تعرف ماذا يفعل ابنك في المصنع؟»

هز رأسه نافيًا.

قلت له: «إنه يَدهن الأحذية. إنه يعمل بكد.»

قال جوانج: «لقد سافر ابني منذ ثلاث سنوات. إنه يكسب مبلغًا أفضل في المدينة. أنا على يقينٍ بأن الحياة في المدينة أفضل من الحياة في القرية، لكن لكلٍّ منهما إيجابيات وسلبيات.»

طرحتُ عليه هذا السؤال: «هل تشعرون بالسعادة في حياتكم بالقرية؟»

أجاب قائلًا: «هذا يتوقف على تعريفك للسعادة.»

تدخَّل العم راندي، وهو شخص لا يُمكنه البقاء صامتًا، ليقول: «هنا يُمكنك أن تفعل ما تريد. ليس لديك رئيس عمل.»

قال جوانج: «في القرية، الهواء منعش وأشعة الشمس قوية. أما في المدينة فيمكنك أن تشتري أشياء كثيرة، ولكن لا يُمكنك أن تشتري الهواء المنعش.»

أخبرني جوانج أن الحياة صارت أفضل منذ أن منحته الحكومة مزرعته عام ١٩٨٥. وقبل ذلك كانت الحكومة تجمع محصوله، ولكنه الآن بإمكانه أن يُطعم أسرته بمحصوله الخاص ويبيع ما يتبقى منه.

قال جوانج: «إننا نأكل معظمه. وأكسب نحو [١٤٠ دولارًا] من بيع الباقي.»

سألته: «حين تتوقَّف عن الزراعة، من الذي سيعتني بالحقل؟»

أجال النظر في الغرفة وتنهَّد، ثم عقب قائلًا: «الشباب لا يُريدون الاشتغال بالزراعة.» ثم انسل ناحية الخنزيرين للعناية بهما.

سألتُ لين تشانج، وهي المُمثل الوحيد عن الجيل المفقود بين الأجداد والأحفاد: «ماذا تعملين؟»

فأجابت: «أعمل الآن مُزارعة، ولكني كنت أعمل في المصنع نفسه مثل أخي. عملت هناك لمدة أربع سنوات، ولكني قدمت استقالتي لأَعتنيَ بابنتي.»

سألتها: «وهل كانت وظيفة جيدة؟»

ردَّت قائلة: «كنتُ أشعر بالحنين إلى أسرتي حين كنت أعمل هناك، ولكن الطعام كان أفضل؛ فمدينة جوانزو أكثر تقدمًا، والظروف المعيشية كانت على خير ما يرام. كنت أعمل ما بين ١٥ و١٦ ساعةً في اليوم حسب حجم العمل وأعبائه. وكان من السهل ادِّخار المال لأنني كنتُ أعمل دائمًا. فالحياة أفضل كثيرًا في مدينة جوانزو.»

وعقبتُ متسائلًا: «وما عدد الساعات التي تعملينها في القرية؟»

أجابت: «ساعتان أو ثلاث.»

قلت لها: «مهلًا! لو خُيِّرتُ بين العيش في شقة مكوَّنة من غرفة واحدة صغيرة والعمل لمدة ١٦ ساعة في اليوم، على مدار ستة أو سبعة أيام في الأسبوع في مدينة مزدحمة بعيدًا عن أصدقائي أو أقاربي والعمل لمدة ساعتين أو ثلاث في اليوم والعيش في منزل مكون من طابقين في الريف ذي الهواء النقي وسط جميع أصدقائي وأسرتي، فلسوف أختار الريف. لماذا تكون الحياة أفضل في مدينة جوانزو؟»

أجابت: «السبب هو أن الأجر أفضل. كما أن جوانزو ذات طابع عصري.»

فطرحت سؤالًا آخر: «إذن، لماذا لا تعودين مرة أخرى؟»

ردت قائلة: «ابنتي لا تستطيع تحدُّث لغة مدينة جوانزو، وستواجه مشكلة في المدرسة. ربما حين تتخرج [من المدرسة]، يُمكنني أن أعود، ولكن الآن يجب أن أعتني بها.»

مساحة الصين هي نفس مساحة الولايات المتحدة تقريبًا، إلا أنَّ المناطق عُزلت من الناحية التاريخية واللغوية. ولقد وطَّنَت الحكومة أفرادًا في المناطق الريفية في خمسينيات القرن العشرين لإنتاج الطعام للمدن. وهذا عمل على تأخير الهجرة من الحقول إلى المدن إلى أن أُلغي هذا النظام في الثمانينيات من القرن نفسه. وتوافَدت على المصانع العمالة بأعداد كبيرة مُنعت من قبل من البحث عن وظائف في المدن.

كان هذا الإمداد — الذي لا نهاية له فيما يبدو — من العمالة القروية المطيعة والأُمية هو ما أدى إلى نجاح الصين في مجال التصنيع. كما أدَّى تقييد حركتها إلى وجود حواجز لغوية صارمة. فأهل مدينة جوانزو يتحدَّثون اللغة الكانتونية، بينما يتحدث سكان القرى إحدى لهجات لغة الماندرين. ويتعلم طلاب مدينة جوانزو بلغة تختلف عن اللغة التي تتحدَّثها داي جان.

ومن أكون أنا لأحدد هل الطابع العصري أفضل أم لا؟ فبإمكاني أن أعيش في الولايات المتحدة بعيدًا عن أي مدينة وأن أتمتَّع بإمكانية الوصول إلى مصدر معتمَد للطاقة الكهربائية وخدمات البنوك وخدمات الرعاية الصحية. ويُمكنني مشاهَدة الفضائيات والحصول على شهادة جامعية عبر شبكة الإنترنت؛ فريف الولايات المتحدة ذو طابع عصري. ربما قد يَعني الطابع العصري شيئًا بخلاف مظاهر الترف ووسائل الراحة. وربما قد يعَني الطابع العصري كونك جزءًا من المستقبل، والجميع يعرفون أن مُستقبَل الصين ليس في الأرياف وإنما في المدن.

كان ديوان وتشو تشون يتحدَّثان كما لو أنهما يريدان العودة إلى القرية ليكونا مع أسرتهما وأصدقائهما. ولكن هل حدث ذلك؟ راق لي الاعتقاد بأنهما يَرغبان البقاء مع ابنهما وأنهما يُفضِّلان هدوء الريف على صخب المدينة. ولكن إذا كان رأيهما من رأي لين تشانج، فلن يكون هذا ما يَرغبان فيه على الإطلاق.

بدا أن الأجداد الذين يَحملون أحفادهم يعرفون هذا الأمر أيضًا؛ فالحياة التي اعتادوها لم يعد لها وجود. لقد رحَل أبناؤهم وربما لا يعودون. ومن يدري نوعية الحياة التي تنتظر أحفادهم؟

كسر العم راندي حاجز الصمت قائلًا: «الشباب يُريدون العيش في المدينة. وسأنتقل إلى المدينة يومًا ما.»

خرج جوانج من المطبخ ببريق في عينيه وهو يقول: «لطالما كنتَ تردِّد على مدار الـ ٦٠ سنةً الأخيرة قائلًا إنك ستنتقل إلى المدينة. وستستغرق على الأرجح ٦٠ سنةً أخرى قبل أن تفعلها.»

جلس ثمانية أشخاص منَّا على المائدة الصغيرة لتناول الغداء. لم أتوقع أنه سيوجد حيِّز كافٍ لأطباقنا أو أوعيتنا أو أيًّا ما كان الذي سنستخدمه لتناول الطعام. وخرجَت الأطباق واحدًا تلو الآخر، وما خرج من المطبخ الصغير كان مدهشًا. كانت بعض الأطباق بسيطة؛ مجرد حبات فاصوليا. وكان يوجد أطباق أخرى تحتوي على مكوِّنات متعددة. كان من الصعب تصديق أنهم أعدوا كل هذا بهذه السرعة.

تساءل جوانج: «بيرة؟»

أجبته: «بالتأكيد.»

ناول جوانج الزجاجات للعم راندي الذي فتح أغطية الزجاجات من خلال وضع حافة الغطاء على طرف الطاولة ثم ضرب الجزء العلوي من الزجاجة بقبضة يده بحركة سريعة. كنتُ بصدد أخذ رشفة كبيرة من الزجاجة حين بدأ الجميع يصبُّون البيرة في سلطانيات. شربنا بيرة دافئة من سلطانيات.

لم يكن تناول الطعام سهلًا؛ حيث كنا نغرف الطعام من أطباق عميقة ربما تكون بعيدة عن متناول أيدينا ويُمرِّر الواحد منا اللقمة فوق الأطباق والأذرع حتى تصل إلى فمه. لم يكن لدينا أطباق مسطحة لنغرف فيها أو سلطانيات لنملأها سوى تلك السلطانيات التي نشرب منها البيرة. كانت أولى مُحاولاتي الخرقاء لتناول حبة بطاطس موجودة على الجانب الآخر من المائدة هي ما جعلهم يتساءلون عما إذا كنتُ بحاجة إلى شيء آخر غير عِصيِّ الطعام، ولكني في النهاية حُزْت على ثقتهم بأنني أستطيع استخدام عِصيِّ الطعام.

تتطلَّب هذه الطريقة في تناول الطعام قدرًا كبيرًا من التخطيط واختيار التوقيت المناسب. فإذا أردت تناول قلب الخنزير الموجود على الجهة المقابلة من المائدة، اضطُررتَ إلى الانتظار حتى يخلو الطريق من الأذرع والعِصي. (وبالمناسبة، لم أكن أعرف أنه قلب خنزير حتى أخبَرني هوانج بذلك، وبعد ذلك توقَّفتُ عن الأكل.)

وعندما انتهى الجميع من تناول الطعام، ظهَر على وجه العم راندي نظرة ساخرة وقال: «هل تريد أن تلعب لعبة؟»

فقلت: «بالتأكيد.»

قال وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «لعبة شرب البيرة؟»

كنتُ أكره ألعاب الشرب، إلا أنني أومأت برأسي «موافقًا» على أيِّ حال.

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم أطفأها ونزع عقب السيجارة بحركة خاطفة.

شرح قائلًا: «سوف أمدُّ يدي وستُخمِّن ما إذا كان عقب السيجارة موجودًا بداخل قبضتي أم لا. اتفقنا؟ إذا كنتَ محقًّا، شربتُ أنا. وإذا كنتَ مخطئًا، تشرب أنت.»

سألته: «ما الكمية التي سنشربها؟»

قال وهو يضحك: «سلطانية كاملة.»

ابتسم ووضع يده وراء ظهره وهو ما جعله يَنحني باتجاه الطاولة. وقهقه ثم خبَّأ يده اليمنى وضم قبضته. حدَّقت في عينيه ثم نظرت إلى يده الخشنة والمتضخمة بفعل سنوات من العمل الشاق في الزراعة.

هززتُ رأسي ولوَّحت بيدي أنه لا يوجد شيء.

لم يَفتح قبضة يده على الفور لمزيد من التشويق والإثارة للحضور في لعبة شرب البيرة في منتصف فترة ما بعد الظهيرة.

ثم فتح قبضة يده فإذا هي خاوية.

ربحتُ. وشرب هو السلطانية دفعة واحدة.

في الجولة الثانية، خبَّأ يده اليسرى. كان تخميني خاطئًا. أمسكتُ السلطانية بكلتا يديَّ وقمت بإمالتها إلى الوراء وبدأت أتجرَّع الشراب دفعة واحدة. تساقطَت قطرات البيرة على ذقني، وضحك الجميع.

بعد بضع جولات أخرى، انتهت لعبتنا، وغادر الجيران بنفس السرعة التي جاءوا بها. ألقى جوانج ببقايا طعامنا إلى الخنزيرَين اللذَين كانا يُعدَّان مصرف التخلص من القمامة، وقد تردَّد لي سين قبل أن يوافق على مرافقتي لمشاهدة المنزل.

كانت غرفة النوم قبالة المطبخ. كان لي سين وجدُّه يتشاركان الغرفة. تدلَّت ناموسية فوق الفراش الوحيد بالغرفة، وبالتأكيد ظلت كومة من الأغطية على حالها منذ أن وُضعت بالغرفة. كانت مساحة الغرفة أكبر من الغرفة التي يعيش بها ديوان وتشو تشون في المدينة، ولكن أكثر فوضوية. كان واضحًا أنها غرفة عُزاب.

أشرتُ إلى الزاوية وسألت عن التليفزيون الذي كان يَنقصه سماعة.

قال لي سين بفخر: «أنا أُصلحها.»

كان هناك غرفتان بالطابق العلوي؛ إحداهما كان بها كومة من عرنوس الذرة عند الزاوية، والثانية كان بها فراشان خشبيان مضمومان كلٌّ منهما بجانب الآخر. بدا المنزل

من الخارج لامعًا ومطليًّا باللون الأبيض وجديدًا؛ كان عمره سبع سنوات فقط على أيٍّ حال. ولكن من الداخل كانت الأجواء معتمة وباعثة على الكآبة، أشبه بسجن ذي أثاث خشبي بسيط وأسطح أسمنتية مُصمتة. لم يَتوافر في المنزل ذلك الشعور بالألفة على الإطلاق.

عقَّب قائلًا: «لم يمكث أحد طويلًا في هذه الغرفة. هذه هي غرفة والدَي.»

وقفنا في الشرفة الموجودة بالطابق الثاني خارج الغرف، نطلُّ على الوادي. كانت الطيور ترفرف وسط مياه البِركة. وتصاعَد الدخان من منازل مشابهة. وقَف مُزارعٌ مُسنٌّ يزيل بعض الأعشاب عند طرف حقل الذرة.

تخيَّلتُ روح التفاؤل التي تشاركتْها الأسرة عام ٢٠٠٠ حين بُني المنزل. لا أعرف ما الذي كان يبدو عليه منزلهم السابق، ولكنه على الأرجح كان أقل استقرارًا من ذلك بكثير؛ فلن تقترض أموالًا وتبني منزلًا من الخرسانة إن لم تكن ستَقضي بقية عمرك فيه. في عام ٢٠٠٠ كانت زوجة جوانج على قيد الحياة وتَنعم بصحة جيدة. كان لي سين في السادسة من عمره. وأنا على يقينٍ أنهما كان لديهما ترتيبات لكلِّ غرفة: من سينام في هذه الغرفة وطريقة تزيينها؛ ستُوضع هنا الأسِرَّة، وربما تُوضع هناك خزانة ذات أدراج، وهكذا.

لقد سمع ديوان وتشو تشون على الأرجح عن الجيران الذين سافروا إلى مدينة جوانزو لكسب الأموال ووضعا الخطط للسفر بأنفسهم. بعد قضاء بضع سنوات في تصنيع الأحذية، سيكونان قد سدَّدا قرض بناء المنزل وسيعودان إلى ديارهما ليَبقيا مع أسرتهما. على الأقل، كانت هذه هي الخطة.

ولكن مرضت زوجة جوانج وتُوفِّيت، وأُضيفت أعباء الفواتير الطبية إلى القرض الذي أخذاه لبناء المنزل. وتلَت البضع سنوات التي قضياها في مدينة جوانزو بضع سنوات أخرى ثم تلتها بضع سنوات أخرى وهكذا. أظن أن شيئًا غير متوقع آخر قد حدث؛ ألا وهو أنهما أصبحا يُحبان تدريجيًّا العيش في المدينة ذات الطابع العصري.

مرَّت سبعة أعوام على بناء المنزل لأسرة مكونة من خمسة أفراد، ولكن لم يتبقَّ منها سوى فردين فقط. لقد زرع جوانج وأسرته الأرض لعقود من الزمن. لقد شهد فترات جفاف وفيضانات كما شهد تنازل الحكومة الشيوعية عن سيطرتها على محصوله، شهد أيضًا ثورات، ولكنه على الأرجح لم يُفكِّر قطُّ في اليوم الذي سيأتي عليه ليُصبح جدًّا أعزب لصبي في الثالثة عشرة من عمره.

إذا كنتَ تظن أن مدن الصين قد تغيَّرت كثيرًا على مدار الأعوام الثمانية الأخيرة، فأنت لم ترَ حياة جوانج وأسرته عن قرب.

الفصل الثالث والعشرون

ميزانية محدودة

لم يكن في استطاعتي تحمُّل تكاليف الإفطار هذا الصباح. في ذلك اليوم كنتُ أتناول الطعام وفقًا لميزانية محدودة؛ لا أقصد ميزانيتي وإنما ميزانية ديوان وتشو تشون؛ فبعد أن كانا يدفعان إيجارهما ويرسلان مبلغًا إلى جوانج ولي سين، كان يَتبقى لهما ٣ دولارات يوميًّا لتناول الطعام وشراء الضروريات ودفع ديونهما؛ ومن ثم كان هدفي في ذلك اليوم أن أنفق على الأكل مبلغًا أقل من ٣ دولارات.

لم تكن جزيرة شاميان الموجودة بمدينة جوانزو مكانًا جيدًا لخوض هذه التجربة؛ فهي جزيرة بها وسائل ترفيه ورفاهية ذات طرازٍ غربيٍّ حيث يُقدم فيها أطعمة للأزواج القادمين من الولايات المتحدة المُتبنِّين لأطفال صينيين. وهناك يتناولون الطعام في أماكن، مثل مطعم لوسيز ديانر، تُقدم شطائر هامبورجر بالجبن وفطيرة التفاح ومكرونة سباجتي، وعددًا كبيرًا من الأطباق الغربية الأخرى؛ حيث تتكلف الوجبة نحو ١٠ دولارات. أما الجادَّات فهي محاطة بأشجار مورقة ويُخيِّم عليها الهدوء على العكس تمامًا من باقي مناطق مدينة جوانزو.

ومن ثمَّ توجهتُ إلى الجزيرة بحثًا عن طعام أرخص. مررتُ على الأسواق الصغيرة التي تبيع أفراس البحر المجفَّفة حيث يجلس بائعوها على أرضية الرصيف أمام المتاجر واللحوم المعلَّقة بخطاطيف والفواكه غير المألوفة.

خرجتُ إلى مركز تسوُّق مفتوح في الهواء الطلق. وأحصيت ثماني نسخ مختلفة شبيهة بمتجر إيجل الأمريكي. وقَف شباب الهيبيز وشباب في سن التعليم الجامعي يُصفِّقون ويُحاولون اجتذابي. كانوا يُشغلون موسيقى صاخبة للغاية أو يَصيحون في ميكروفون. ولم يسفر أسلوبهم في التسويق والترويج عن شيء سوى تنفيري.

لا توجد أماكن كثيرة في العالم يُمكنك فيها شراء رأس خنزير أو أرجل دجاج والتجول في الممرات لشراء سراويل جينز وأحذية ذات ماركات شهيرة، إلا أن مدينة جوانزو واحدة من هذه الأماكن القليلة.

مررت من أمام مطعم ماكدونالدز وكنتاكي وبيتزا هات ومطعم ماكدونالدز آخر. لا أمانع التجول، ولكنْ ثمة شيء مريح في هذه الأماكن؛ فأنا أعرف ما يَنتظرني هناك، ولكن في ذلك اليوم، كانت هذه الأماكن مُكلِّفة للغاية.

مررتُ على مطعم يبيع البيتزا بالقطعة، وتكون مصنوعة على طريقة نيويورك. لم أكن قد تناولتُ البيتزا منذ شهور. فكَّرتُ في التخلي عن العيش بميزانية محدودة، لكنني تماسكتُ وثبتُّ على موقفي، وقررتُ أن أذهب إلى هذا المطعم في وقت لاحق.

أنهيت صف المتاجر والمطاعم لأصِل إلى زقاق ضيق حيث لمحتُ رجلًا يحمل عددًا من علب الفوم الأبيض، ما يدل على وجود طعام الشارع رخيص الثمن على مقربة من المكان.

مقابل ٥٠ سنتًا، حصلت على سلطانية أرز وطبقين آخرين من اختياري. دفعت المبلغ لسيدة تجلس على طاولة مدرسية، وناولتني إيصالًا. انضمَّت سيدة الطلبات إلى سيدة أخرى في غرفة زجاجية ثم طلبت مني الإيصال الذي كانت أعطتني إياه لتوها. أشرت إلى البيض المخفوق مع الطماطم ثم إلى الفاصوليا الخضراء ومعها لحم من نوعٍ ما، أظن أنه سمك، ولكن قد يكون لحم خنزير. بصرف النظر عن الأطباق التي أختارها في أماكن كهذه، كان مذاق جميع الأطباق واحدًا بالنسبة إليَّ. حاولت أن أختار أطعمة لا تحتوي على عظام وأن أتجنَّب الأطعمة التي صُنعت من حيوانات أليفة كانت «جميلة» فيما مضى. قدَّمَت السيدة لي الطعام وناولتْني علبة طعام من الفوم الأبيض من خلال فتحة صغيرة في الجدار الزجاجي كتلك التي يجلس وراءها موظفو البنوك. وجدت مقعدًا فارغًا على كرسي بسلم بلاستيك.

لستُ أول شخص يُحاول العيش وفقًا لميزانية العُمال. فمُحاولتي مثيرة للشفقة مقارنةً بمحاولة جيم كيدي، ولا سيما حين تضع في الاعتبار أنني كدتُ أنهار أمام شريحة البيتزا.

ففي عام ١٩٩٧، كان جيم، مساعد مدرِّب كرة قدم بجامعة سانت جونز، يدرس علم اللاهوت بالجامعة. وفي إحدى المواد، طلب منه أستاذ المادة أن يقدم مشروعًا عن علم اللاهوت والرياضة. واختار جيم التحقُّق من ممارسات العمل التي تتبعها شركة نايكي في الدول النامية. وفي الوقت الذي بدأ فيه بحثه، كانت جامعة سانت جونز — وهي أكبر

جامعة كاثوليكية في الولايات المتحدة — بصدد توقيع عقدٍ بملايين الدولارات يُلزم مُدرِّبيها ولاعبيها بعدم ارتداء شيء سوى أحذية نايكي وملابسها ومعداتها الرياضية. وتلقى جيم الذي رفض أن يرتدي أيًّا من منتجات نايكي تحذيرًا مفاده: «ارْتَدِ نايكي وإلا فُصلت من العمل.» وبالفعل انتهت الحياة المِهنية لجيم كمدرب كرة قدم، وبدأت حياته كناشط في مجال حقوق العُمال.

سافر جيم مع ليزا كريتزو — وهي الأخرى ناشطة في مجال حقوق العُمال أيضًا — إلى إندونيسيا حيث عاشا على الميزانية اليومية المحدودة لعُمال نايكي المحليِّين؛ بواقع ١٫٢٥ دولار لليوم مدة شهر كامل. وقد فقَدا معًا نحو ١٨ كيلوجرامًا كما ذكر جيم في مقالٍ كتبه لمنظمة أطباء من أجل الصحة العالمية. وصف جيم كيف عاشا «في مقصورة خرسانية ٩ أقدام × ٩ أقدام (٧٫٥ أمتار مربَّعة) بها حصيرتان غير سميكتَين للنوم ... في حيٍّ مُحاط ببالوعات مفتوحة نَتِنة الرائحة مليئة بأكوام من النفايات المُحترقة والملوثات التي يُمكنك أن تشقَّ طريقك خلالها.» وقد تركتْهما التجربة أكثر تحمُّسًا لزيادة الوعي بأحوال العمال، وعن هذا كتب جيم قائلًا: «إنهم إخواننا من بني البشر؛ إخواننا وأخواتنا. سنُجاهد لنمنحهم صوتًا، لندع العالم يعرف أنهم يُعانون ويحتاجون إلى العدالة والإنصاف.»

أطلق جيم على التجربة عملًا من أعمال التضامن.

هل تجربتي تسير على المنوال نفسه؟

كنت أفكر في ذلك الأمر بينما تصبَّبتْ قطرات العرق من حاجبي لتسقط على علبة الفوم المكدسة بالأرز والبيض والطماطم والفاصوليا ولحم الخنزير المشكوك في مصدره أو ربما السمك المريب في مظهره (ما زلت مُتشكِّكًا في مصدر هذا اللحم). كان من المستحيل أن آكل كل هذا.

لا تترد كلمة «التضامن» بصفة يومية سوى بين نشطاء مجال حقوق العمال؛ ففي مؤتمر مينيسوتا لمناهضة المصانع المستغلة، سُمع تصفيق حادٌّ من الحاضرين في إشارة للتضامن، وعلَتْ هتافات التضامن ضد شركة كوكاكولا واحتدمت النقاشات التي تحوَّلت غالبًا إلى الحاجة إلى التضامن بين العُمال والمستهلكين.

كتب إميل دوركايم، عالم الاجتماع الفرنسي، عن ضرورة وجود تضامن عضوي داخل المجتمعات المتقدمة. وزعم دوركايم أنه حين تزداد درجة تخصُّص العمالة، تزداد درجة اعتماد شرائح المجتمع بعضهم على بعض مثل أعضاء الجسد الواحد، ومن ثمَّ ينشأ

عن ذلك روابط اجتماعية أكثر قوة بين شرائح ذلك المجتمع. على سبيل المثال، قبل ١٠ آلاف سنة من ميلاد السيد المسيح، كان بإمكان الإنسان في مجتمع الصيد/جمع الثمار أن يَصنع أدواته وملابسه ومسكنه وأي شيء آخر يحتاجه للمعيشة. ولكن أنا لا أستطيع ذلك؛ فأنا آكل لحمًا ذبحه شخصٌ آخر، وأقود شاحنة صمَّمها شخص آخر، وأرتدي ملابس صنعها شخص آخر. ولو كنت مسئولًا عن تصنيع ملابسي، لكنتُ ارتديتُ — على الأرجح — خِرَقًا مُثبتة معًا بدبابيس أو أكياس قمامة مُلصقَة معًا. لكن شخصًا آخر يصنع الخِرَق والدبابيس والشريط اللاصق أيضًا.

فأنا لا حيلة لي.

وإذا ما اعتبرنا العالم بسُكانه هو مجتمعنا الخاص، فما الدور الذي ألعبه فيه؟

من السهل أن تلاحظ الدور الذي يُؤديه العُمال الذين التقيتُ بهم في رحلة بحثي. إنهم يصنعون المنتجات. إنهم يُسهمون حقًّا بشيء ملموس في عالمنا، أما أنا فأكتب حكايات قصيرة غير مألوفة عن سفريات بعيدة تُنشَر على صفحات الجرائد يومًا وفي اليوم التالي تُفرش هذه الجرائد في قفص الطيور. وإذا سلَّمنا بتشبيه أننا أعضاء في جسم المجتمع، فأنا أَشبه بالزائدة الدودية الموجودة لتُخزِّن ما يتبقى من هضم النباتات، ولن تلاحظ غيابها إلا إذا انفجَرت.

حقق جيم كايدي نجاحًا مدويًا، ولعلَّك لاحظتَ استضافته في برامج على شبكة تليفزيون إي إس بي إن وشبكة إتش بي أوه وعلى صفحات صحيفة نيويورك تايمز، وغيرها من البرامج والإصدارات الصحفية الأخرى من هنا وصولًا إلى أستراليا.

ربما أقول إنَّ بعض الحاضرين في مؤتمر مناهضة المصانع المستغلة كانوا أشبه بالزائدة الدودية المُنفجِرة أو على الأقل التي في مرحلة توشك على الانفجار.

ولكن ماذا عني أنا؟ لستُ زائدة دودية اجتماعية مُنفجرة.

وتجربتي لتناول الغداء بميزانية ديوان وتشو تشون لم تكن عملًا من أعمال التضامن، بل كانت من مُنطلَق إشباع فضولي بخصوص مدى كفاية مبلغ الـ ٣ دولارات للعيش في الصين.

هل التضامن مُمكن؟ كان العالم مكانًا مختلفًا جدًّا حين بدأتْ فكرة دوركايم عن التضامن تترسَّخ في مطلع القرن العشرين. كانت الحركة العُمالية في الولايات المتحدة تُناضل من أجل الحد الأدنى للأجور والعمل لمدة ٤٠ ساعة فقط في الأسبوع. تظاهَر العُمال في ميدان هايماركت بشيكاجو. وأصبح يُحتفل بعيد العمال. وعمَّت البلاد حالة من

الفزع إثر حريق مصنع ترايتجل شيرتويست. كان العُمال الذين ناضلوا من أجل حقوقهم مواطنين من بني جلدتنا يجمعنا بهم العَلَم واللغة والثقافة والولع بلعبة البيسبول. كانت حياة العُمال لا تختلف كثيرًا عن حياة غيرهم من المواطنين الأمريكيين. ولم يكن من الصعب تخيُّل كيف تبدو حياة الأشخاص الذين يصنعون ملابسنا. كنَّا — نحن وهم — كيانًا واحدًا بطريقة أو بأخرى. كان المُنتِجون يعيشون مع المُستهلِكين على أرض واحدة.

أما في الوقت الحالي، فإننا نتقاسم القليل مع العُمال المُصنِّعين لملابسنا؛ حيث يفصلنا المحيطات والسياسات واللغة والثقافة وشبكة معقَّدة من العلاقات الاقتصادية. لن تتأثَّر حياتنا اليومية إذا ما تحمَّلوا أعباء عمل تفوق طاقتهم وتقاضَوا أجورًا متدنية مثلما حدث في مطلع القرن العشرين. هكذا نحن لا نفكر في أحوالهم كثيرًا، وهم لا يُفكِّرون في أحوالنا كثيرًا. يبدو أننا لا ننتمي للجسد نفسه.

حدَّقتُ في قاع العلبة الفوم ولم يتبقَّ فيها إلا بضع حبات أرز مُتفرِّقة. لم يكن بإمكاني تصديق أنني أكلت كل هذا. ثم خطرت ببالي فكرة: ربما وظيفتي الوحيدة في العالم هي الاستهلاك.

وربما بامتناعي عن أكل أو شراء ما أريد في الوقت الذي أريد، لا أحافظ بذلك على الوظيفة الوحيدة التي أؤديها، إنني أُسهم في تمزيق تضامننا الاجتماعي.

ليست هذه نهاية سعيدة، ولكن لا يبدو أنني بصدد التوصُّل إلى نهايةٍ أخرى وأنا أُحدِّق في قاع علبة الأرز. فأنا مُستهلِك غافل لا صوت له، يرتدي ملابس تُصنع بأيدي مُصنِّعين غافلين لا صوت لهم. ولكن لا يبدو من العدل أن يُضطر ديوان وتشو تشون إلى العمل بجهد جهيد مقابل مبلغ زهيد بينما أنا — الذي يؤدِّي وظيفة محدودة — أعمل قليلًا مقابل الكثير جدًّا.

لا يبدو مطعم صغير في شارع جانبي— حيث تكلفة طبق مكدَّس بطعام الغداء أقل من تكلفة تذكرة ألعاب فيديو في مركز تشَكي تشيز الترفيهي — مكانًا مناسبًا للتفكير بعمق في حالتي كمستهلك.

ولكن أظن أنني أعرف مكانًا أفضل لهذا الغرض.

الفصل الرابع والعشرون

متجر وول مارت الأمريكي في الصين

لم يكن هذا متجر وول مارت الأمريكي بصورته المعتادة. بدايةً، كان هذا المتجر في الصين؛ حيث يقع مركز وول مارت الكبير بمدينة فوشان الصينية على بُعد رحلة قصيرة بالحافلة من مدينة جوانزو. بعد أن التهمتُ غدائي، قرَّرتُ أن أذهب إلى هناك لاستعادة الحنين إلى أرض الوطن. وباعتباره أكبر متجَر في العالم للبيع بالتجزئة، ربما لا يوجد مكان أفضل مِن وول مارت للتفكير مليًّا في الفجوة الموجودة بين المُصنِّعين الصينيين والمُستهلكين الأمريكيين.

ولولا اللافتة المألوفة ذات اللونين الأزرق والأبيض على جانب المبنى، ما كنتُ لِألحظ أن هذا متجر وول مارت. فلا توجد باحة لانتظار السيارات تمتلئ بالسيارات والكرفانات، ولا يوجد مِنطات أو بالونات دعائية مصطفَّة على جانبي المبنى.

مررتُ من أسفل اللافتة ودخلت من الباب الزجاجي الذي لا يُفتح آليًّا.

«مرحبًا.» قالتها شابة ترتدي سروال جينز أزرق ووشاحًا أزرق عليه وجه أصفر مبتسم (شكل ٢٤-١). كان هذا وجه وول مارت الباسم، وكانت هذه موظَّفة استقبال تُرحِّب بالمتسوقين في وول مارت. ولكن هذا ليس متجر وول مارت، بل هو مركز تسوق من ثلاثة طوابق به متاجر ملابس ومجوهرات. انبعثت من السماعات موسيقى تليق بمراكز التسوق، وفاحت من المكان رائحة الأرضيات النظيفة والرائحة المألوفة لمراكز التسوق. كان يوجد مطعم ماكدونالدز ومطعم كنتاكي.

سألتها: «وول مارت؟»

أشارت إلى أقصى طرف القاعة حيث رأيتُ موظَّفة استقبال أخرى ترتدي الوشاح الأزرق ذاته.



شكل ٢٤-١: موظفة استقبال بمركز وول مارت الكبير في مدينة فوشان.

قالت الموظَّفة رقم ٢ باللغة الصينية: «مرحبًا.» كانت تقف أعلى سلَّم مُتحرِّك يحمل المتسوقين إلى الطابق السفلي.

وعند أسفل السلم المتحرك، استقبلتني موظفة رقم ٣. ومثل الموظفتَين الأُخريَين، كانت شابة أيضًا. لم تكن أيٌّ منهنَّ تُشبه موظفي الاستقبال الموجودين في الولايات المتحدة؛ فنحن يَروق لنا موظفو الاستقبال كبار السن الودودون. لم تكن الفتيات غير ودودات، وإنما بدا أنَّهن قد وُزعن في أماكن محددة وطُلب منهنَّ بحسم أن يَبتسمن. كانت

الفتيات مُتصلِّبات نوعًا ما. أشك أنَّهن مسَّدن شعر صغير أو داعبْنَ خد طفل رضيع على الإطلاق.

بدا وصف المركز بأنه مركز ضخم مبالَغًا فيه. كان مستوى السقف منخفضًا للغاية، والممرات ضيقة جدًّا. لدينا متاجر كيه مارت بمساحة أكبر من تلك في منطقة الغرب الأوسط الأمريكي.

أشار إليَّ رجل يُوزع عيِّنات من مشروبٍ ما أثناء مغادرة أسرة مكوَّنة من ثلاثة أفراد المكان. وقف الصبي الصغير وحدَّق. حثَّه والداه على التحرُّك حتى لاحَظا ما كان يحدق به — أنا — ثم انضما إليه. افترضتُ أن رؤية مواطن أمريكي في متجر وول مارت بالصين أشبه برؤية نجمٍ بالرابطة الوطنية لكرة السلة في صالة الألعاب الرياضية المحلية عندك أو رؤية البابا في كنيستك. ناوَلني الرجل كوبًا ورقيًّا. رفعته لأعلى لإضحاك الأسرة وأنا أتشمَّم محتويات الكوب ثم رفعتُ إياه تحية لهم. شربت الكوب دفعة واحدة؛ كان المشروب عبارة عن عصير تفاح مُعتَّق له نكهة ويسكي مثيرة وغير متوقعة. سار جزء من الشراب في القناة الخاطئة. لحسن الحظ مرت لحظة قبل أن تبدأ نوبة من نوبات الشَّرَق، واستطعت أن أتخذ الاستعدادات المناسبة الخاصة بالحنجرة كي أتحكم في عدم تدفُّق المشروب من أنفي. كان الأمر أشبه بمُشاهدة لاعب الرابطة الوطنية لكرة السلة وهو يُهدر تسديدة لترتدَّ عبر الجهة المقابلة من الملعب، أو الاستماع إلى البابا في كنيستك يقول: «اللعنة!» حين يسقط منه الخبز المقدس.

أخذت أسعل وأنا في طريقي إلى قسم الإلكترونيات، وأبديتُ إعجابي بأجهزة التليفزيون ذات الشاشات المسطحة التي تبلغ تكلفتها أكثر من ألف دولار. مَن الذي يشتري هذا؟ قلت في نفسي ببعض الاشمئزاز: «الأثرياء.»

في بنجلاديش كان أي شخص يَمتلك سيارة يُعتبر ثريًّا. وفي كمبوديا قلَّبت عيني في المقيمين في قصور محاطة بأبواب عليها حراس. لطالما تساءلت عن الطريقة التي يَكسبون بها أموالهم ومن الذين يدهسونهم تحت أقدامهم ليَحصلوا على هذه الأموال. ولطالما نسيت على ما يبدو أن القدر الذي أتقاسمه مع الطبقة الراقية في هذه الدول أكثر من القدر الذي أتقاسمه مع العُمال الذين قضيت معهم وقتي. أنا مواطن أمريكي عادي، والعاملون مواطنون بنجلاديشيون وكمبوديون وصينيون عاديون، لكن عاديَّتنا غير عاديَّتهم.

كان من بين أول الأشياء التي اشتريتها أنا وآني فور انتقالنا إلى منزلنا الجديد جهاز تليفزيون ذو شاشة مسطحة؛ حيث يوجد بمنزلنا غرفة معيشة ذات مساحة كبيرة

ومفتوحة. وبدا جهاز التليفزيون ذو الـ ١٩ بوصة الذي تمتلكه آني منذ فترة دراستها بالجامعة مُضحكًا نوعًا ما وهو يقبع في أحد أركان الغرفة. لقد مرَّت شهور على آخر مرة رأيت فيها التليفزيون الجديد، إنني أواجه صعوبة في تذكُّر عدد بوصات الجهاز أو ما إذا كانت شاشته إل سي دي أم بلازما.

بدا كل هذا في غاية الأهمية في تلك اللحظة.

ربما يبدو هذا سخيفًا وتافهًا، ولكن مشاهدة أجهزة التليفزيون هذه جعلتني أشعر بالحنين لأرض الوطن قليلًا. لم أفتقد التليفزيون في حدِّ ذاته، وإنما كنت أفتقد استلقائي على طرف الأريكة واستلقاء آني على الطرف الآخر، وتشابك أرجلنا معًا في المنتصف؛ حتى يغلب النعاس كلينا.

لقد وافتني آني بما تفوتني مشاهدته على شاشة التليفزيون، حيث فازت جوردين سباركس بلقب برنامج «أمريكان آيدول» بينما كنت في كمبوديا. لم أفتقد برنامج أمريكان آيدول في حدِّ ذاته، وإنما افتقدت عودتي إلى المنزل مسرعًا لمشاهدة البرنامج وانتقاد المتسابقين ومشاركتي أنا وآني كأسًا من عصير العنب وطبق الفشار. كما افتقدتُ مشاهدة مباريات الدور قبل النهائي لكرة السلة للرجال في منافسات الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات بينما كنت في بنجلاديش. لم أفتقد المباراة بقدر ما افتقدت حديثي مع والدي وإمكانية مُشاهدتي المباراة في قبوه. وافتقدت إيقاظه لُمشاهدة الهجمات المذهلة أو اللحظات المهمَّة في المباراة.

وفي قسم الأجهزة المنزلية، أدهشَني الحجم الصغير للثلاجات. كان حجم أكبر ثلاجة في المتجر نحو ثلثَي حجم الثلاجة التي أهداها والداي لنا كهدية لانتقالنا لعشِّ الزوجية. كنتُ أفتقد ثلجَ وماء ثلاجتنا وكيف تركض قطتنا أوريو لتستجدي بعضًا من مكعبات الثلج في طبق الماء الخاص بها. افتقدت إعداد شطائر البيتزا المجمَّدة عندما كان يمنعنا الكسل عن طهو الطعام أو يَمنعنا الإرهاق الشديد من الخروج إلى المطاعم.

إنني لا أفتقد «الأشياء»، وإنما أفتقد نمط العيش والعلاقات الإنسانية التي بنَيتُها حول هذا النمط.

لم أكن أتوقَّع قط أن متجر وول مارت سيَجعلني أشعر بالحنين إلى الوطن. وعلى الرغم من أنه يوجد الكثير من الأشياء التي تبدو مألوفة، فإن الكثير منها أيضًا لا يبدو كذلك.

على سبيل المثال، يوجد ممرٌّ واحد فقط للألعاب والدُّمى. ربع هذا الممر تحتله دمية باربي، وجميعها ينتمي للعِرق القوقازي. أما نحن في متاجر وول مارت بمنطقة الغرب

الأوسط الأمريكي فلدينا دُمى باربي آسيوية، ولكنها غير موجودة في الصين. أما قسم الأدوات والسيارات فكان عبارة عن نصف ممر فقط.

لم تكن أحواض السمك موجودة في قسم الحيوانات الأليفة، وإنما في قسم المُنتجات الزراعية. وفي أحد الأحواض، أزاحت سمكة قادوس مثيرة للشفقة زوجَين نافقَين من سمك النهاش الأحمر من الطريق وهي تُحاول أن تقضم بعض الطعام الموجود على سطح المياه. وعُرض تمساح طوله ٤ أقدام ذو حراشيف وغير ذلك من الأشياء التي تُميِّز التماسيح على قطع ثلج وكأنه خنزير في وليمة. وهناك وقَف زبون يَنتظر الجزار أثناء تقطيعه قطعة ضخمة من اللحم.

وفي قاع حوضٍ جافٍّ كانت توجد ثعابين تزحف. الشيء الوحيد الذي قد يعضُّك في متجر وول مارت بمنطقة الغرب الأوسط الأمريكي هو طفل صعب المراس في حالة هياج من فرط تناول السكريات وليس اللحم.

في قسم مُنتجات الألبان، صدحت من السماعات أنغام أغنية «هو ليت ذا دوجز أوت» (من الذي أخرج الكلاب؟) مُعاد توزيعها، ثم تبعتها أغنية «وي ويل روك يو» (سنجعلك ترقص).

في الركن الخلفي بالقرب من مستحضرات التجميل، وقفت مجموعة من الموظَّفين الذين يضعون وجوهًا مبتسمةً صفراء يَهتفون ويصفقون. كنت قد سمعت عن هذا الأمر؛ ففي المدرسة الثانوية، كان لي صديق، يُدعى جون، يعمل في متجر وول مارت، وقبل ورديته، كان رئيس الوردية يُحمِّس جون وزملاءه في العمل من خلال هتاف جماعي، وهو هتاف وول مارت للتضامن:

قد يقول لهم رئيسهم: «أسمع واوًا!»

فيجيبون عليه: «واو!»

«أسمع لامًا!»

فيَهتفون: «لام!»

يستمر رئيس الوردية في سؤالهم بأن يَنطقوا حروف الاسم ويطلب منهم هزَّ مؤخرتهم عند منتصف الاسم. وعندما ينتهون من جميع الأحرف، يسألهم قائلًا: «ما الاسم الذي يُمكنكم استنتاجه منها؟!»

فيأتي ردهم بحماسة: «وول ماااارت!»

«من هو رقم واحد؟»

«العملاااااء!»

ذات مرة أخبرني جون قائلًا: «ثمة أشياء كثيرة فعلتُها في حياتي أحاول أن أنساها؛ واحد منها هو هز مؤخرتي أثناء هذا الهتاف.»

اقترب مني رجل مُهندم حليق الرأس والذقن قائلًا: «مرحبًا سيدي، أنا توني، كيف يُمكنني مساعدتك؟»

لا تدع اسمه يخدعك؛ فاسم توني اسم صيني، كان صينيًّا بكل ما تحلمه الكلمة من معنًى، مثل المترجمين الذين ساعدوني هنا في الصين. طالما تروق لي الأسماء الإنجليزية التي يُسمُّون أنفسهم بها؛ حيث وُجدت أسماء مثل آنجيل التي تحلَّت بصبر الملائكة، وبينك الفتاة ضئيلة البنية، ولوثر التي كان اسمها الرجالي الصارم يُناقض طبيعتها الأنثوية الخجولة تمامًا. وكل هذه الأسماء ذكَّرتني بحصة اللغة الإسبانية في المدرسة الثانوية، حيث أرادت جميع الفتيات أن يَحملن اسم مارجريتا وأراد جميع الصبية أن يحملوا اسم جيسَس.

سألته قائلًا: «أين أجد كريم الحلاقة؟»

قال: «من هذا الاتجاه يا سيدي.»

كان توني هو مدير المتجر. كانت لغته الإنجليزية ممتازةً. لقد سافر إلى الولايات المتحدة ليتدرَّب وقريبًا سيزور متجر وول مارت بولاية تكساس للمزيد من التدريب. أخبرته بأنني لم أعرف من قبل أنه يوجد متاجر وول مارت بالصين، وسألته ما إذا كان هذا أكبر متجر للبيع بالتجزئة في البلاد.

أجاب قائلًا: «نحن في المرتبة الثامنة أو العاشرة، ولكن العدد يتزايد. عندما بدأت العمل قبل أربع سنوات، كان يوجد ٤٠ متجرًا، أما الآن فيوجد أكثر من ١٠٠ متجر. وهذا المتجر افتُتح في شهر أبريل. وجميع متاجرنا موجودة في مدن كبرى. الأمر هنا مختلف عن الولايات المتحدة.»

أكدت على صحة هذه العبارة؛ فليس لدينا تماسيح وثعابين في الولايات المتحدة، ولدينا ساحات لانتظار السيارات.

أردف توني قائلًا: «معظم عملائنا يأتون بالحافلات وسيارات الأجرة. نحن نقدم لهم تجربة تسوُّق على الطريقة الأمريكية بمجموعة متنوعة من الخدمات في مكان واحد. عادات الناس في كلا البلدَين متباينة كثيرًا. ففي أمريكا، يأتي العملاء إلى وول مارت ربما مرة واحدة في الأسبوع ويَشترون كثيرًا. أما هنا فربما يأتي عملاؤنا كل يوم. إنهم يأتون ليَلتقطوا سلعة أو سلعتين صغيرتين.»

وبينما كان توني يتحدَّث، أمسكتُ بزجاجة كريم جيليت للحلاقة. كانت مصنوعة في الصين وتكلفتها أكثر مما تَسمح به ميزانية طعام هذا اليوم. خطر ذلك ببالي وفكَّرت في إعادة الزجاجة مكانها.

قلت: «في الولايات المتحدة، معظم الأشياء التي تُباع في وول مارت مصنوعة في الصين. ماذا عن الوضع هنا؟»

أجاب قائلًا: «بالتأكيد! تسعة وتسعون بالمائة من منتجاتنا صُنعت في الصين. لدينا بعض الصادرات، ولكنها عادةً ما تكون غالية الثمن ولا تُحقِّق نسبة مبيعات جيدة.»

أردفت قائلًا: «بعض الناس في بلادي لا يتسوقون في وول مارت لأن معظم منتجاتهم صُنعت في الصين. هل الناس في الصين لا يتسوقون في وول مارت لأنها شركة أمريكية؟»

رد قائلًا: «ليس بالضبط.» ثم حكى قصة عن عميل شكا من موظف خدمة العملاء معقبًا: «كان العميل يُحاول إرجاع مُنتَج ما، ولم يكن راضيًا بردِّ موظَّف خدمة العملاء عليه.» قال له العميل: «لماذا تعمل لصالح شركة أمريكية؟ أنا من بني وطنك. ينبغي أن تساعدني.» رد عليه موظف خدمة العملاء قائلًا: «سيدي، هذه وظيفتي. وهذه الشركة الأمريكية تعطيني أجرًا لأداء وظيفتي. السؤال الأفضل هو لماذا تُعطي أنت أموالك لشركة أمريكية؟»

ابتسم توني قائلًا: «أظن أنها إجابة رائعة جدًّا.»

حاولت أن أعرف المزيد عن الرجل الثاني بعد المدير، وسألتُ توني ما إذا كان متزوجًا ولديه أطفال. قال إنه مُتزوِّج ولديه أطفال ثم غيَّر الموضوع سريعًا بالحديث عن مدى روعة وول مارت. فتوني رجل ذو مهمة محددة وهدفه جذب الزبائن وإقناعهم بشراء السلع.

اليوم يبلغ تعداد الطبقة الوسطى بالصين نحو ١٠٠ مليون شخص، لكنَّ الخبراء يتوقعون أنه بحلول عام ٢٠٢٠ سيتجاوز تعداد الطبقة الوسطى ٧٠٠ مليون شخص؛ أي ضعف التعداد الحالي لسكان الولايات المتحدة، وأحيانًا يُشير إليهم الخبراء ب «الطبقة المُستهلِكة». سيتوافر المزيد من المنتجات المصنوعة في الصين، والمزيد من المنتجات المباعة في الصين، ومع وجود «دعاة» مخلصين مثل توني الذين يَجذبون الناس نحو اعتناق المذهب الاستهلاكي يوميًّا، سيتوافر على الأرجح المزيد من متاجر وول مارت في الصين.

قال توني: «نريد أن تكون تجربة التسوق هنا تجربة حقيقية؛ حيث نقدم مسابقات الكاريوكي والحفلات الترفيهية، ويروق لنا تقديم الثقافة الغربية للمُتسوِّقين لدينا؛ فعلى سبيل المثال، نقيم حفلة بالملابس التنكُّرية وثمار اليقطين كل عيد هالوين.»

ومع تزايد أعداد الصينيين الذين يَنتقلون من الاشتغال بالزراعة في القرى إلى الاستهلاك في المدن، سيتواجد توني وَوول مارت وعدد لا يُحصى من الأشخاص المشابهين لتوني والمتاجر المشابهة لوول مارت ليَدُلوهم على الطريق.

قلت له: «سؤال أخير: هل لديكم فطيرة تفاح؟»

ابتسم توني قائلًا: «بالتأكيد.»

شكرت توني واشتريت كريم الحلاقة. ابتسمَت موظفة الاستقبال رقم ٣ وأحنت رأسها وأنا أضع قدمي على السلم المتحرك حاملًا كيس وول مارت المطبوع عليه الوجه الباسم. وقفَت أمامي سيدة أثقلت يديها أكياس بلاستيكية مملوءة عن آخرها، كما حملت سيدة أخرى تقف خلفي أكياسًا مملوءة بالسِّلع. نفس الشيء كان ينطبق على كل شخص آخر يصعد على السلم المتحرك، وكأننا أدَّينا الصلاة في باحة المذهب الاستهلاكي.

وبقدر كرهي لرؤية تلاشي نمط حياة القرى، لا يسعني سوى أن أتمنى أنه في عام ٢٠٢٠ حين يُحصي الخبراء عدد أبناء الطبقة الوسطى المزدهرة في الصين أن يكون من بينهم ديوان وتشو تشون ولي سين وجوانج. أتمنى أن يكون في مقدورهم شراء شطائر البرجر بالجبن من ماكدونالدز وربما قطعة رائعة من لحم التماسيح بالإضافة إلى طبق جانبي من الثعابين من وول مارت.

الفصل الخامس والعشرون

الوهم الصيني

ثمة مبالغ كبيرة من المال يمكن كسبها بالعمل في مجال تصنيع الشباشب المطاطية الخفيفة. باتْ، صاحبي الذي عنَّفني على الهاتف، هو نائب مدير فرع التوريدات العالمية لشركة ديكرز أوتدور. مهمَّته هي التفكير في الأماكن التي تصنع أحذيتنا. يتقاضى باتْ راتبًا أساسيًّا يبلغ ٢٠٠ ألف دولار، بالإضافة إلى علاوات تشجيعية ومكافآت على شكل حصة من أسهم الشركة نظير أداء العمل.

ويكسب باتْ في ثلاثة أيام — اعتمادًا على الراتب الأساسي وحده — ما يتقاضاه ديوان وتشو تشون كلٌّ على حدة في عام كامل نظير العمل بالمصنع في لصق الشباشب وتخييطها وطلائها لصالح باتْ كي يبيعها لي ولك.

وعندما أخبرت ديوان وتشو تشون بهذا، اتَّسعت أعينهم عن آخرها وفغرا فمَيهما من فرط الدهشة.

قالت تشو تشون: «أوووووووه.» تبعها قول: «يا إلهي!»

قال ديوان وهو يهز رأسه مستهجنًا: «رباه ... رباه ... رباه. إننا مجرد عُمال صغار في المصنع. ليس لدينا أدنى فكرة.»

قالت تشو تشون: «أجرُنا متدنٍّ للغاية، ولكن ليس بإمكاننا تحسينه. وهذا يجعلني أشعر بالضيق، ولكننا ليس لدينا القدرة على كسب كل هذا المبلغ من المال.»

عندما وجدت عقد باتْ مع شركة ديكرز أوتدور على شبكة الإنترنت واكتشفت راتبه، كان أول ردِّ فعل لي هو «عدم» إخبار ديوان وتشو تشون. لعله من الأفضل ألا يعرفا. ثم أمعنت التفكير بعض الشيء في الأمر وأدركت أن عدم إطلاعهما على الأمر هي المشكلة؛ وهذا ما يُريده باتْ تمامًا. لم تُطور نظرية «الجهل نعمة» حياة أحد قط. المعرفة هي

ما ينقص ديوان وتشو تشون وغيرهما من العُمال الذين التقيتُ بهم. لن تعرف متى تتلقى معاملة غير عادلة إذا لم تَعرف الطريقة التي يُفترض أن تُعامَل بها.

شعرتُ بأنني أناني إلى حدٍّ ما خلال هذه الرحلة بأكملها. لقد حكى لي العُمال عن عالمهم، ولكنَّني كنت حريصًا على عدم الحديث عن حياتي على نحو مُفرط. أَجريت الحسابات في رأسي بينما كنت أقارن ثمن أغراضي بأجورهم الشهرية أو السنوية.

ولكن كانت هذه هي الليلة الأخيرة في رحلة بحثي، والليلة أعترف!

سألني ديوان: «كم كلَّفك الطيران إلى هنا؟»

أخبرته بالتكلفة.

قالت تشو تشون حين عرضتُ عليها الصورة الموجودة على هاتفي المحمول: «منزلك جميل للغاية. كم كلَّفك؟»

حكيت لها عن أول قرض عقاري لي، ثم حكيت لها عن ثاني قرض. وحكيتُ لهما عن وحدة التدفئة/التكييف، التي تعطَّلت وعن الوحدة الجديدة الباهظة التي اضْطُرت آني إلى تغييرها.

ابتسم ديوان وقال لي يؤازرني: «نحن مُتشابهان — كلانا مَدين.»

إذا كان التضامن، أو أي شيء مشابه له، احتمالًا قائمًا في عالمنا الذي تسوده العولمة، فهو طريق ذو اتجاهين. والسبب وراء أنني لم أناقش قطُّ عالمي بالتفصيل مع العُمال الآخرين هو الشعور بالذنب. ولكن الشعور بالذنب لا يفعل شيئًا لتحفيز التغيير أو مُساعدة ديوان وتشو تشون. والشعور بالذنب هو شعور يجب علينا أن نتخطاه.

كنت فيما سبق أظن أن شراء المنتجات المصنوعة في الصين أمر سلبي بالنسبة إلى الأمريكيين، ولكني الآن أتساءل ما إذا كان الأمر سلبيًّا بالنسبة إلى الصينيين أيضًا؛ فالشركات التي تورِّد من الصين لها تأثير مميَّز على الحكومة الصينية. فأكثر شيء ترغبه الصين هو إقامة المشروعات التجارية مع الولايات المتحدة. كان الخبر الرئيسي على صفحات جرائد عام ٢٠٠٧ يُفيد بأن الألعاب «المصنوعة في الصين» مدهونة بطبقة طلاء تحتوي على مادة الرصاص. توالت حالات سحب تعاقُد التوريدات واحدة تلو الأخرى من جانب الولايات المتحدة. واجتاح الرأي العام الأمريكي نوبة غضب من أن لُعب توماس التي على هيئة قطار والتي تُثير بشدة أطفالنا ذوي الأعوام الثلاثة، كانت سامة. كما سُحبت أيضًا تعاقدات أخرى لتوريد الأسماك وأطعمة الكلاب والقطط التي «صُنعت في الصين»؛ إذ تسببت في قتل حيواناتنا الأليفة. ولحفظ ماء الوجه، أعدمت الصين مديرًا سابقًا للهيئة

العامة للغذاء والدواء، كما لو أن إعدام موظَّف حكومي سابق من شأنه أن يُصلح الضرر الذي وقع. كان الأمر أشبه ببيان صحفي شديد اللهجة: «انظري يا أمريكا. لقد أعدمنا الرجل. من فضلكِ لا تتوقفي عن شراء منتجاتنا.»

من الصعب الخوض في جدل حول النتائج التي أحرزتها الصين؛ حيث إن أكثر من ٤٠٠ مليون شخص أنقذهم الاقتصاد السريع النمو من براثن الفقر. كنتُ أظن أن عدم الشعور بالجوع وعدم الشعور بالفقر والحرمان هما أهم أشكال الحرية؛ حرية البقاء على قيد الحياة. ولكنْ ثمة أشكال أخرى من الحريات لا يتمتع بها ١٫٣ مليار شخص في الصين.

يعمل تنج بياو محاميًا في مدينة بكين؛ وهو يُمثل النشطاء والمزارعين الذين سُلبت أراضيهم. كتب تنج بياو، بالتعاون مع الناشط هُو جيا، خطابًا يتحدث فيه عن تنظيم الألعاب الأوليمبية وفشل الصين في تحسين أوضاع حقوق الإنسان كما وعدت المجتمع الدولي بأن تفعل. كتبا يقولان:

> عندما تأتي لحضور دورة الألعاب الأوليمبية في بكين، سترى ناطحات السحاب والشوارع الواسعة والملاعب الحديثة والمُشجِّعين المتحمِّسين. سترى الحقيقة، ولكن هذه ليست الحقيقة الكاملة، فكأنك ترى فقط قمة جبل جليدي. ربما لا تعرف أن الزهور والابتسامات والانسجام والرخاء جميعها مبنية على أساسٍ قوامه الظلم والدموع والسجن والتعذيب والدماء.

وبعد أن كتبا الخطاب، قبضت الشرطة على تنج بياو من أمام شقته ووضعوا كيسًا على رأسه واحتجزوه لمدة يومين. لقد حذَّروه من التعبير عن رأيه وأذاقوه شيئًا مما يَنتظره من التعذيب إن لم يمتثل للأوامر. لم يكن هُو جيا محظوظًا بالقدر نفسه، حيث إنه سُجن.

أشعر بالقلق من أن الوهم الصيني — بأن الرخاء الاقتصادي سيُسفر عن التمتع بحريات ديمقراطية — لن يصير واقعًا. وأشعر بالقلق من أن ديوان وتشو تشون لن يَشهدا أبدًا الحريات كما ينبغي لهما، وأن الناس الذين يُعبرون عن آرائهم بالنيابة عن ديوان وتشو تشون سيستمر قمعهم والتنكيل بهم.

كان ذلك اليوم هو الأحد. وعادةً ما يعمل مُصنعو الشباشب المطاطية في أيام الأحد حتى الساعة ٥:٣٠. حاولت أن أرتِّب قضاء أمسية في الخارج مع ديوان وتشو تشون من

أجل شيء من الاستمتاع. ربما نحضر حفل كاريوكي ونذهب إلى السينما ونتناول البيتزا وبعض المشروبات. لم أتمكَّن من فعل أي شيء سوى الجلوس والتحدُّث معهما، ولطالما شعرت بأنني أتطفَّل على وقت قيلولتهما. فلو كنت أعمل لمدة ١٦ ساعة في اليوم، لوجدتُ صعوبة في تحفيزي على فعل أي شيء آخر.

رفضا دعوتي لأنَّ ديوان لديه موعد لزيارة الطبيب بسبب ألم أصاب حنجرته. لم يتمكَّنا من الخروج، ولكنهما دعواني لزيارتهما على العشاء.

جاء ديوان في وقت متأخِّر على العشاء، افترضتُ أنه ذهب لزيارة الطبيب، ولكنَّني كنت مخطئًا.

لقد زار الطبيب، ثم عاد إلى العمل لينتهي من طلبية مهمة للأحذية، وحين عاد إلى العمل، لم يكن مسموحًا له أن يُسجِّل حضوره مرة أخرى. ليس من النادر بالنسبة إلى من يصنعون أحذيتنا أن يعملوا بلا مقابل، كما لو أن تصنيع أحذيتنا هو امتياز لهم؛ فهم إما أن يعملوا بلا مقابل وإما أن يَخسروا وظائفهم. وكما هي الحال مع جميع العاملين الذين يصنعون ملابسنا، ليس أمامهم الكثير من الخيارات المتاحة.

غادرت تشو تشون الغرفة لتجلب العشاء المطهو على المواقد المشتركة عند مُنبسط الدرج. جلستُ أنا وديوان نضحك ونتسامر كالأصدقاء. وفي وقتٍ لاحق، لن يكون بمقدوري تذكُّر كل ما تحدثنا عنه لأنني وضعت مفكرتي جانبًا عندما بدأتُ الحديث عن نفسي. علاوةً على ذلك، كانت المفكِّرة ممتلئة حيث إن الصفحات الأخيرة تُوثق رحلتي إلى وول مارت. كنت سعيدًا بها نوعًا ما.

انتهت المقابلات الشخصية.

كانت المفكرة مجرَّد شيء يقف كالحاجز بيني وبين ديوان مثله مثل المُشترين والبائعين والوسطاء والعلامات التجارية والمحيطات والقارات والشعور بالذنب والأشخاص من أمثال باتْ. الآن لا شيء يفصل بيننا. ها أنا وهو فقط؛ رفيقان مختلفان تمامًا.

بعض الأشياء لا تحتاج إلى مفكرة لتذكُّرها.

بعد تناول العشاء، مددت يدي إلى حقيبتي وقلت لتشو تشون وأنا أناولها صورة ذات إطار لـ «لي سين» (شكل ٢٥-١): «لديَّ شيء من أجلك.»

قالت، وقد تغيرت نبرة صوتها وتعبيرات وجهها: «يا إلهي، لقد صار نحيفًا جدًّا.»

لقد مرَّ وقت طويل على آخر مرة رأته فيه، استغرقت في التحديق في الصورة ثانية أو ثانيتين قبل أن تُمرِّرها لديوان. ابتسم وعلق على مشهد الخضرة الموجود في الخلفية



شكل ٢٥-١: لي سين وابنة عمته داي جان.

قبل أن يُعيد الصورة إلى تشو تشون، ثم وضعت الصورة في كيس بلاستيك ودسَّته وراء الفراش، كما لو أنه المكان الطبيعي للاحتفاظ بها. لقد أحضرتُ الصورة لأنني لاحظت في زيارتي الأولى أنه لا توجد أيُّ صور لابنهما، وهو ما رأيته شيئًا غريبًا. حينذاك تساءلت ما إذا كان هذا الأمر متعمَّدًا، وما إذا كانت توجد صور أخرى لـ «لي سين» مخبأة في ثنايا أو أركان غرفتهما لإلقاء نظرة عليها ثم طرحها جانبًا مرة أخرى. فالصور بمنزلة تَذكِرة لما يعملان من أجله، وفي الوقت نفسه، تذكرة أليمة لما يفتقدانه أيضًا.

قالت تشو تشون: «ثمة شيء وحيد أكيد، ألا وهو أننا لا نريده أن يأتي إلى هنا للعمل في المصنع. إنني فقط أريده أن يَدرس لأن أناسًا مثلنا ليس لديهم المعرفة مضطرون إلى العمل بكد شديد.»

سأل ديوان: «هل ستكتب عنا في كتابك؟»

لم أقوَ على إخباره أنه في الوقت الحالي لا يوجد ناشر، ولا صفقة لنشر الكتاب، وإنما مجرد فكرة آمل أن أمنحهما من خلالها صوتًا لم يتمتَّعا به قط، ولكنني لا أستطيع أن أقطع على نفسي أيَّ وعود، ومن ثم كذبت عليه.

قلت: «بالطبع، سأفعل.»

قال ديوان: «هل صار لديك اسم صيني؟»

«كلا، أطلب للناس أن يدعوني باسم تيم لأنه لا أحد يستطيع أن ينطق اسم كيلسي.»

جاهد ديوان لنُطق حرف اللام في اسمي قبل أن يَستسلم، ثم قال: «أظن أن اسمك يصعب جدًّا على الصينيين نطقه. أنت بحاجة إلى اسم صيني.»

«بالتأكيد.»

قال ديوان: «ما رأيك في شيونج دي؟»

شرح لي نُطق اسمي الصيني الجديد، ثم سألته: «ما معنى الاسم؟»

أحاطني ديوان بذراعه وقال:

«معناه الأخ.»

تحديث النسخة المنقحة

الهجرة

في كل عامٍ صيني جديد، تحدث أكبر موجة هجرة في تاريخ البشرية على كوكب الأرض؛ فأرقام الإحصاءات الخاصة بالهجرة السنوية مهولة؛ لدرجة أنني أعجز عن تخيُّل ما الذي تعنيه هذه الأرقام مثلما أعجز عن تخيُّل مشهد الديناصورات وهي تُلبي نداء الطبيعة قبل مئات الملايين من السنين.

في عام ٢٠١٢، بيع أكثر من ثلاثة مليارات تذكرة من تذاكر الطائرات والقطارات والمراكب والحافلات؛ إذ يعود ٢٠٠ مليون عامل إلى القرى الريفية للاحتفال بالعام الجديد.

وهؤلاء العمال يَنتظرون أيامًا حتى يشتروا التذاكر. وإذا حالفهم الحظ بالقدر الكافي للحصول على تذكرة، فإنهم يَحشرون أنفسهم في عربات لا يوجد بها أماكن إلا للوقوف فقط. وعندما يصلون إلى وجهاتهم، فإنهم يَحتضنون الأبناء الذين تركوهم في رعاية أقاربهم المسنين.

كتب هوانج تشينجهونج — عامل مهاجر من مدينة تشونجتشينج — في جريدته المحلية قائلًا: «إنني أعمل في مدينة وينزو منذ أكثر من ١٠ سنوات، ولا أزور أرض الوطن إلا مرة واحدة كل عامين؛ لأن الحصول على تذاكر أمر صعب للغاية. الآن صارت ابنتي في السادسة من عمرها، وأتساءل كم طولها، وكم عدد الكلمات التي تعرفها.»

وتُنظِّف الأسر التي يلتئم شملها المنزل الأسري بأكمله من أعلى إلى أسفل، ليَنفضوا عنه مصائب الحياة منذ العام الماضي مُفسحين المجال للحظ السعيد. إنهم يكتبون أبياتًا

شعرية للعام الجديد تزخر بالسلام والأمنيات الطيبة وقرارات حياتية في العام الجديد بخطٍّ جميل وحبر معطَّر ويُعلِّقون إياها على الباب الأمامي.

كانت الاحتفالات بالعام الجديد سنة ٢٠٠٩ أقل بهجة قليلًا؛ حيث فقد «عشرون مليون» عامل وظائفهم، الأمر الذي يُشبه فصل جميع سكان أستراليا من العمل. وأصبح نحو ٥ ملايين شخص آخر بلا وظيفة مؤخرًا بحلول شهر مارس ٢٠٠٩، كما عانى أولئك الذين احتفظوا بوظائفهم من خفض عدد ساعات العمل الإضافية وأيام العمل.

كان الغرب يعاني أسوأ فترة كساد اقتصادي منذ الكساد الكبير، وانخفض عدد طلبيات التوريد. كان عدد العُمال أكبر من عدد الوظائف.

وبعد مرور عام، تغير كل شيء.

عاد الطلب من خارج البلاد على المنتجات التي «صُنعت في الصين»، ولكن لم يحدث الشيء نفسه مع العُمال. ووفرت محاولات التحفيز الاقتصادي في الصين، وهو ردٌّ فعل إزاء الكساد العالمي، المزيد من الفرص للعُمال داخل البلاد. وزادت أعداد الشباب المسجلين للدراسة بالجامعة. وفي ذلك الوقت، كان عدد الوظائف أكبر من عدد العمال، وارتفعت الأجور بسبب تنافُس الشركات على العمالة المُدربة محدودة العدد؛ ففي عام ٢٠١٠، زادت الأجور في مدينة جوانزو بنسبة ٤٠ بالمائة وواصلت الارتفاع بنسبة ٢٠ بالمائة كل عام.

انتقلت بعض المصانع القائمة على الكثافة العمالية المرتفعة مثل مصانع الأحذية والملابس إلى داخل البلاد حيث الأجور والتكاليف العقارية أقل.

كتب بول ميدلر، مؤلف كتاب «صُنع في الصين برداءة: رواية تفشي الأسرار الداخلية لتكتيكات لعبة الإنتاج في الصين» (هوبوكين، نيو جيرسي، جون ويلي آند صنز، ٢٠٠٩)، رسالة بريد إلكتروني يقول فيها: «ربما تكون العمالة أرخص، إلا أن التكلفة المضافة للانتقال داخل البلاد يمكن أن تمحو هذه المدَّخرات. وفي النهاية، ثمة قيمة عظيمة في جعْل المصانع تتكاتف معًا. أنت تُحقق تأثيرًا شبكيًّا في بعض الصناعات من الصعب تكراره. فكِّر في أن تكلفة تأجير مكتب في مدينة أوماها أرخص من تكلفة التأجير في حي مانهاتن، [وأنت ما زلت] غير مُقتنع بأن نقل بورصة وول ستريت إلى مكانٍ آخر بمنزلة وسيلة لتخفيض التكاليف. فعندما تَنتقل جميع المصانع إلى هونج كونج وجنوب الصين، سيكون توفير المال هائلًا. أما الآن، فإن الفجوة في تكاليف الانتقال من الساحل إلى المقاطعات الداخلية صغيرة. بعبارة أخرى، لا يزال بإمكاننا توقُّع بقاء مقاطعة جوانجدونج في مركز قوي باعتبارها مركزًا للتصنيع.»

لا يُمكن أن يكون هذا الأمر جيدًا إلا بالنسبة إلى ديوان وتشو تشون، أليس كذلك؟ إذا ظلا يَعملان في مصنع الأحذية، فإنهما سيكسبان أجرًا أكبر بنسبة ٤٠ بالمائة. وإذا أصدر رئيس ديوان أمرًا بانصرافه من العمل والعودة في وقت لاحق، فيُمكنه أن يرفض بفظاظة ويَذهب للبحث عن وظيفة في مصنع آخر في أمسِّ الحاجة للعمالة. أو لعلهما يعثران على وظيفة جديدة بالقرب من قريتهما، وهو ما يَسمح لهما بممارسة مهام الرعاية الأبوية التي يحتاج إليها لي سين والتي لم يستطيعا ممارستها وهما يعيشان في مدينةٍ تبعد آلاف الأميال عن قريتهما.

ولا يُمكننا فعل شيء سوى تخمين ما تبدو عليه حياتهما الآن؛ حيث إنني لا أستطيع التواصل مع ديوان وتشو تشون. لم تعد أرقامهما متاحة وكذلك رقم والد ديوان، جوانج.

«هل بات ديفاني موجود؟»

كنت أقف في مقر شركة ديكرز أوتدور بمدينة جوليتا، في ولاية كاليفورنيا. كان ذلك في ربيع عام ٢٠١١.

قال موظف الاستقبال: «لم يعد يعمل هنا.»

لدقيقة، تمنَّيت سرًّا — في قرارة نفسي — أن يكون باتْ فُصل من العمل بسببي. تمنَّيت أن يكون كتابي قد خرج إلى النور وأن يكون الرئيس التنفيذي قد استدعى باتْ إلى مكتبه. تخيَّلت السيناريو التالي:

قال الرئيس التنفيذي المُتخيل: «أغلق الباب. اجلس. هل تعرف رجلًا يُدعى كيلسي تيمرمان، يا باتْ؟»

ردَّ باتْ قائلًا: «أوه، هل تقصد ذلك الرجل من مسلسل «تشيرز»؟»

قال الرئيس التنفيذي الوهمي: «كلا، أقصد الرجل الوحيد في العالم الذي يُدعى كيلسي.»

رد باتْ قائلًا: «كلا، لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم، ولكن اسم كيلسي هو اسم نسائي تمامًا.»

عقب الرئيس التنفيذي المُتخيَّل قائلًا: «اسمك باتْ وهو يحمل معنى الرفق!» ثم سادت لحظة صمت ليدفع الرئيس التنفيذي بعدها نسخة من كتابي عبر الجهة الأخرى من مكتبه العريض وهو يقول: «باتْ، لقد كنتَ وضيعًا معه وآذيتَ مشاعره بعض الشيء عندما نعتَّه بالكاذب. وأخشى أن أقول لك إن تصرفك خرق سياستنا الخاصة بـ «رفض التعامل الوضيع» وقد فُصلت عن العمل على الفور.»

وبعد أن دار هذا السيناريو الوهمي في رأسي، شعرت بالأسى حيال باتْ؛ فهو لديه على الأرجح أسرة كما أنه مدين برهن عقاري. ولقد تأثرَت ولاية كاليفورنيا بشدة بأزمة الفقاعة العقارية. إذن، كيف يتسنى له أن يدفع أقساط الرهن العقاري؟

اتَّضح أن باتْ بخير. في الواقع، لقد ظهر لي مؤخَّرًا على الشريط الجانبي لموقع «لينكد إن» من بين «أشخاص قد تعرفهم». على ما يبدو أنني أعرف ستة أشخاص يَعرفون شخصًا يعرف باتْ. ضغطت على استعراض صفحته الشخصية وعرفت أنه يعمل الآن لدى شركة ستيلا إنترناشونال هولدينجز ذات المسئولية المحدودة التي دخلت في مشروع مشترك مع ديكرز في عام ٢٠٠٨ — قبل تعيينهم لباتْ مباشرة — لطرح الأحذية ذات الرقبة الطويلة ماركة أوج في السوق الصينية.

ناولت موظَّف الاستقبال كتابي وأنا أقول له: «هلا تعطي هذا إلى جايم؟» جايم كانت بمنزلة جهة اتصال أخرى بالنسبة إليَّ داخل شركة ديكرز.

وبعد مرور بضعة أيام، أرسلت إليَّ جايم رسالة بريد إلكتروني وساعدَتني في التواصل مع مارك هاينتز، مدير قسم المسئولية المؤسسية والاستدامة بالشركة. كان مارك أول شخص يشغل هذا المنصب بالشركة، وأكَّد لي أن تعيينه كان واحدًا من الأشياء الكثيرة التي تغيَّرت منذ زيارتي عام ٢٠٠٧.

وسألته عما إذا كانت شركة ديكرز تودُّ أن ترد على كتابي ردًّا رسميًّا. وجاء الرد كما يلي:

> نعتذر عن أي صعوبات واجهتَها أثناء إعدادك لهذا الكتاب. وكما قلتَ، فإن سفر أحد العملاء إلى مصنع ليرى المكان الذي تُصنع فيه أحذيته هي رحلة بحث استثنائية لم نرَها من قبل؛ ولذا لم يكن تجاوُبنا معها كما يَنبغي أن يكون.
>
> قطع برنامج المسئولية المؤسسية الخاص بشركتنا شوطًا طويلًا منذ إصدار الطبعة الأولى لهذا الكتاب. ومنذ عام ٢٠٠٧، أنشأنا قسم المسئولية المؤسسية وعيَّنا مديرًا ليُساعد في إدارة جهودنا نحو تخفيف حدة تأثيرنا الاجتماعي والبيئي. وزِدنا أيضًا من درجة شفافيتنا من خلال نشر قائمة بمَصانعنا وإنشاء موقع إلكتروني للمسئولية المؤسسية؛ حيث يمكنك أن تجد معلومات عن برامج ديكرز المتنوعة.

اقرأ الرد بالكامل على الموقع الإلكتروني: www.kelseytimmerman.com/Deckers.
تناول الردُّ الجوانب الثلاثة الرئيسية لبرنامج المسئولية المؤسسية الخاص بشركتهم:

(١) مصانع عادلة وآمنة: إنهم يُراقبون جميع المورِّدين الأساسيِّين والمصانع التي يتعاملون معها على الأقل مرة واحدة في العام ولديهم إجراءات صارمة للتعامل مع انتهاكات المورِّدين لقواعد السلوك المهني الخاصة بالشركة.
(٢) الاستقرار البيئي: إنهم يَبذلون جهودًا لتقليل وطأة تأثيرهم على البيئة ومراقبته.
(٣) المشاركة المجتمعية: لقد تبرَّعوا بمبلغ يُقدر بنحو ٢,٤ مليون دولار و٢٢٠ ألف حذاء لمنظَّمة خيرية منذ عام ٢٠٠٦.

إنني أُقَدِّر جهود شركة ديكرز للتواصُل معي، ويُعد نشر قائمة مصانعها خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. هل حسَّنت جهودُهم حياة العُمال؟ ليس لديَّ أدنى فكرة. ولكن ميزان القوى مال قليلًا نحو العُمال في هذه الفترات التي تشهد حالات نقص العمالة.

أودُّ أن أتخيل أنه بمكان ما في مدينة تشونجتشينج أو مدينة جوانزو، تدخل تشو تشون إلى متجر وول مارت، وهي ترتدي حذاءَ أوجورديَّ اللون اشتراه لها أخي ديوان.

الجزء الخامس

صُنع في أمريكا

الفصل السادس والعشرون

في الغنى والفقر

سبتمبر ٢٠٠٧

كانت جدتي، ويلت، عاملة ملابس. ونظرًا لنشأتها في منطقة فيرساي، بولاية أوهايو، كانت تحيك في فصل الصيف الجيوب على بِذَل العُمال ماركة لي بيب. لقد أخبرتني قائلة: «كلما أنجزتَ عددًا أكبر، زاد أجرك.» لم يكن يروق لها العمل، ولا عجب في أن المبلغ لم يكن جيدًا للغاية.

من المثير للدهشة أنني لم أعرف ذلك قط. لقد سافرت في جولة حول العالم لألتقي بعُمال الملابس دون أن أعرف أن جدتي كانت واحدةً منهم.

لم تكن جدتي من طراز الجدات التقليديات. على سبيل المثال، لقد شاهدَت جميع حلقات مسلسل «ديث ويش» (أمنية الموت) الذي أدى المُمثل تشارليز برونسون بطولته، وكانت مُعجَبة بالمسلسل التليفزيوني «ووكر: جَوَّال تكساس» (ووكر: تكساس رانجر). ولكن مثلها مثل أيِّ جدَّة، كانت تتألق بفخر وتبتسم لي من مقعدها في الصف الأمامي بجوار والدي في حفل زفاف حفيدها.

كانت جدتا آني تجلسان على الجانب الآخر من الممشى بجوار والدتها، جلوريا. كانت بيتي تتذكَّر فترة الكساد الكبير، وحتى يومنا هذا يؤلمها أن تتخلَّص من أي شيء. فلديها عدد كافٍ من السلع المعلبة والمجمدة لاجتياز فصل الشتاء النووي. في تلك الفترة لم تكن إعادة التدوير والاستخدام من الممارسات البيئية، بل كانت ممارسة اقتصادية خالصة. في الواقع، اعتادت جدة آني الأخرى، كلارا، أن تصنع الملابس لأسرتها ولنفسها من أجولة علف الدجاج.

تدفَّقَت المياه من النافورة الموجودة في منتصف البِركة. وبرغم جفاف فصل الصيف، كانت زهور والدتي كبيرة ومُشرقة وحشائش والدي خضراء. كانت المقاعد البيضاء التي شغلها ٣٥٠ فردًا من أقرب أقربائنا وأصدقائنا تفصلها مسافات متساوية على كل جانب من جانبَي الممر. من السهل أن ننسى البداية البسيطة لأجدادنا ونحن نقف في الفناء الخلفي الخاص بوالدي.

كنت أظنُّ أن حفل زفاف يحضره ٣٥٠ مدعوًّا هو حفل كبير، ولكن أصدقائي في بنجلاديش صحَّحوا لي الفكرة؛ حيث إنهم يَقيسون عدد المدعوِّين بالآلاف لا المئات.

إنني أكره التأنُّق في الملبس. ولكن في الواقع لم يكن هذا يُمثِّل شيئًا إذا ما قُورن بحفل زفافٍ في كمبوديا. لقد أخبرَتْني ناري، خبيرة التجميل الطَّموحة بأن حفلات الزفاف في كمبوديا تستمر بضعة أيام وتتطلَّب تغيير الملابس عدة مرات. ومع الوضع في الاعتبار أن الشيء الوحيد الأسوأ من «التأنُّق في الملبس» هو «إعدادك» لارتداء هذا الملبس، شعرت بالامتنان أنني اضْطُررت لخوض جولة واحدة فقط من إحكام أزرار الأساور وربط ربطة العنق وضبط ياقة القميص.

كانت الحرارة مُرهِقة وكان المدعوون يتصبَّبون عرقًا. كانت بذلتي مصنوعة في جمهورية الدومنيكان. تساءلت عما إذا كان يوجد أحدٌ هنا يعرف المكان الذي تُصنع فيه ملابسه المُتعرِّقة.

كنتُ أشعر بالراحة، باستثناء قيود البذلة اللعينة، حتى رأيتها.

بدت آني جميلة. كانت رقبتها تتمايل بخفة على كتفَيها العاريتين. كانت شفتاها مرجانيتَي اللون تتناسبان مع لون فساتين وصيفات العروس. سارت واضعةً ذراعها في ذراع جيم وحدَّقت فيَّ على طول الممشى.

كانت عضلات وجهي وكل عضلة في جسمي تَرتجف. ابتسمتُ بصعوبة بالغة لدرجة أنني ظننتُ أن وجنتَيَّ ربما تتشقَّقان.

لست متأكدًا كيف تبدو الحال بالنسبة إلى الأزواج الذين لم يتواعدوا لمدة ١٠ سنوات أو الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا منذ وقت طويل يسبق حتى تعلُّمهم القيادة. فلعل حفلات زفافهم كانت بمثابة علامة بارزة ومُثيرة في حياتهم؛ نقطة تحول رئيسية. أما بالنسبة إليَّ، لم يكن الأمر كذلك، بل كان بمنزلة شهادة بأن عقدًا من الرقصات السخيفة والمعانقات الترحيبية وقبلات الوداع كان واقعيًّا ورائعًا بقدر ما كنا نَستشعرها. لم تُسافر آني خارج البلاد إلا مرتين فقط، إذا اعتبرت رحلة مدتها يوم واحد إلى مدينة تيخوانا

سفرًا خارج البلاد، ورغم ذلك كانت آني معي في كل خطوة من كل رحلة قطعتها. ولمدة ١٠ سنوات، بصرف النظر عن المكان الذي كنتُ أنا فيه أو كانت فيه آني، كانت هي أول شيء أفكِّر فيه في الصباح وآخر شيء أفكر فيه في المساء. ومعرفة أنها بصدد المواصلة لتكون كذلك طيلة ما تبقَّى من حياتي غمرتني بإحساس نادرًا ما أشعر به؛ ألا وهو الشعور بالرضا والاطمئنان.

لقد وصلت إلى مبتغاي.

ولحسن الحظ — قبل أن أتحوَّل إلى كتلة رخوة ومنفِّرة من المشاعر — أعادتني العاصفة الرعدية إلى اللحظة الراهنة.

حاولتُ أن أنتبه إلى القس، ولكنني لم أستطع التوقف عن التحديق في سحب العاصفة الوشيكة. لم يكن يوجد خطة بديلة. إذا هبَّت العاصفة، فسنُضطرُّ إلى الانتقال إلى المرأب. تخيَّلت آني، وقد سالت مُستحضرات التجميل التي تضعها وطار شعرها في اتجاهٍ أفقي وتَلطَّخ فستانها، تقف بين جهازِ ضاغط الهواء ومنضدة العمل. لن يكون هذا شيئًا رائعًا، لا سيما إذا وضعت في الاعتبار أَن فكرة إقامة حفل الزفاف في الهواء الطلق كانت فكرتي والشيء الوحيد الذي أسهمتُ به في التخطيط لحفل الزفاف. ولقد طمأنتُ آني قائلًا: «لا تقلقي، شهر سبتمبر هو أكثر الشهور جفافًا في السنة.»

لم يكن السؤال يدور حول ما «إذا» كانت ستُمطر بل «متى» ستمطر. تحدَّث القس عن الحب والزواج والالتزام؛ الموضوعات التي يستطيع القساوسة التحدُّث عنها بلا توقف لأيام.

«هل تقبل، يا كيلسي …»

رأيتُ ومضةً من البرق بين السُّحب وشرعت في العد. تذكَّرتُ ما تعلمته مع فريق الكشافة بخصوص كيفية توقُّع المسافة التي تفصلنا عن عاصفة وشيكة. كل خمس ثوانٍ تُساوي ميلًا واحدًا. ولهذا أهمية خاصة حين تَتنزَّه في الجبال سيرًا على الأقدام، حيث يكون البرق مميتًا. ومثل معرفة كيفية إضرام النيران بعودَين أو كيفية تصميم سترة نجاة باستخدام سروالك، هذه ليست نوعية المعرفة التي تودُّ أن تستخدمها في حفل زفافك.

«… في الغنى والفقر …»

قلت في نفسي: «هذا أمر نسبي، أليس كذلك؟ أيُّ غنًى؟» وفقًا لتقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية، ٤٠ بالمائة من سكان العالم يعيشون بمبلغ أقل من دولارين في اليوم. ولو سمحتْ جمعية اتحاد مُلاك المنازل بهذا الأمر، لاستطعتُ أنا وآني أن نفتح كشكًا لبيع الليمون وعشنا حياة أكثر ثراءً من معظم الأشخاص الذين يصنعون ملابسنا.

والفجوة بين عالَم الأغنياء والفقراء بمنزلة ظاهرة جديدة نسبيًّا؛ فبإمكان أجدادنا الارتباط بحياة مُصنِّعي ملابسنا ارتباطًا وثيقًا أكثر مني أنا وآني؛ فنحن لم نذق حياة العَوَز والحاجة قطُّ، وعلى الأرجح لن نذوقها على الإطلاق، وذلك يرجع في أغلب الظن إلى حقيقة أنَّ أجدادنا «ذاقوها»؛ فحياتنا قائمة على العمل بكدٍّ ومستوى الرفاهية التي حقَّقتها الأجيال السابقة.

ومقارَنة بباقي العالم، لن أعرف أنا وآني «للفقر» طريقًا مطلقًا.

«... في المرض والصحة ...»

لقد فقدتُ ثلاثة من أجدادي إثر الإصابة بمرض ألزهايمر. ولقد رأيتُ ما يعنيه أن تُحب أحدًا في مرضه وفي صحته ومدى الصعوبة التي قد يصير عليها هذا الالتزام. وعائلة آني لها تاريخ مرَضي في الإصابة بالسرطان. وعلى الرغم من أن الإصابة بهذه الأمراض نذير شؤم، فإنها تَرتبط عادة بالشيخوخة. وهذه الأمراض هي الأسباب الرئيسية للوفيات في الولايات المتحدة.

بينما الأسباب الرئيسية للوفيات في الدول النامية مثل بنجلاديش وكمبوديا هي أمراضٌ وعِلَل نادرًا ما تكون مميتة في الولايات المتحدة مثل الالتهاب الرئوي والسل والملاريا والإسهال. ومهما كانت الأمراض التي قد أُعاني منها أنا وآني، فليس من المرجَّح أننا سنُضطرُّ إلى مشاهدة الآخرين يموتون من أمراضٍ يسهل علاجها أو الوقاية منها.

ومع انتهاء القس من مراسمه، لفتَت آني انتباهي بعينَيها المتسعتين عن آخرهما. وعبر جميع مراحل التحضير للزفاف — ما بين شراء كعكة الزفاف ونكهة الطبق الرئيسي والمُصوِّر ولقاءات مُنسِّق الأغاني وشراء فستان الزفاف وجدول سير الحفل واختيار الأغاني وبروفة الحفل — نسيَتْ آني أن تخطط ربما لأهم شيء في الحفل كله، ألا وهو قبلة الزفاف.

وقد بذلتْ آني قصارى جهدها لتُبلغني بنواياها مستعينةً بعينيها وأنفها وفمها، ولكني ارتبكت. هل كان من المفترض أن أتجه ناحية اليمين؟ هل كان من المفترض أن أتجه ناحية اليسار؟ أم كانت تطلب مني أن أطبع قبلةً على جبينها؟

«يجوز لك أن تُقبِّل العروس.»

اختُتمت رحلتنا التي استمرَّت لمدة ١٠ سنوات بقُبلة خرقاء لا تختلف عن القُبلة الأولى التي بدأت بها الرحلة من الأساس.

ومن دواعي سروري أن القُبلة انتهت ولاحت العاصفة في الأفق، وتوجَّهنا على طول الممشى، بين الأصدقاء والأقارب المُبتسمين والجدات الباكيات، إلى حياتنا معًا لنبدأها بشهر عسل تقليدي في شلالات نياجرا وغير تقليدي على الإطلاق بزيارة مصنع ملابس أخير.

أعلن الصوت القادم من المذياع قائلًا: «شعرت سيدة من مقاطعة وايومينج — كانت تسير من سيارتها إلى منزلها — بألمٍ طفيف في ظهرها. وقد قرَّرت الشرطة أنه كان طلقًا ناريًّا صغيرًا.»

إذا كنتَ ستشعر بغصة أثناء تناولك الخبز الفرنسي المُحمَّص، فأعتقد أنك ستود ذلك لو كنت تأكل الخبز الفرنسي المحمَّص الذي يقدمه مطعم سيلفير لييك دييزر؛ إنها تجربة رائعة. فلقد شعرت بغصة، وأنا أتخيل رجال الشرطة الملولين لا يقولون: «اللعنة! إنها رصاصة!» وإنما يقولون: «بعد المزيد من التحقيقات التي أُجريت على هذا الثُّقب القابع في ظهرك، لقد حددنا أن هذا الثقب قد حدث بفعل رصاصة ... ولكنها طلق ناري صغير.»

قلت لآني، وهي تجلس قبالتي تُنقِّب في فطيرتها البان كيك: «ألمٌ طفيف؟ لا بد أنهم يتربون على الصلابة في هذه الأماكن.»

قضينا ليلة أمس في حديقة ليتشوورث العامة، منشأ «الأخدود العظيم»، وهو مَعْلَمٌ استعنتُ به في عرضي الترويجي لإقناع آني بهذه الرحلة الجانبية. في ذلك الصباح، قُدنا السيارة إلى قرية بيري مرورًا بملعب جولف ميرفي ومطعم داريل بيتزاريا. أوقفنا السيارة في الشارع ناحية أحد المطعمين الموجودين بالمدينة باسم هول إن ذا وول وترجَّلنا إليه لتناول العشاء، لاحظنا في اليوم السابق أنه مكان يُقدم على ما يبدو إفطارًا متواضعًا.

قرية بيري في نيويورك مُحاطة بحقول منبسطة من الذرة واليقطين، عدد سكان القرية أربعة آلاف نسمة. كان أحدهم يحتسي فنجانًا من القهوة المخمَّرة في الحانة وآخر يقود شاحنة نصف نقل. بدا عدد أربعة آلاف مبالغًا فيه.

كان ذلك اليوم الثالث من إجازتنا لقضاء شهر العسل. في شهر العسل المعتاد، يكون الأزواج — بحلول ذلك الوقت — مُتخَمين على الأرجح بالمأكولات البحرية الطازجة ويُعانون من حروق الشمس، ويُفكِّرون في تسوية أول جدال بينهما. على الأقل، كان هذا ما كنتُ أحاول إقناع آني به.

تقع قرية بيري جنوب شرق مدينة بوفالو في طريق شلالات نياجرا بدرجةٍ ما. إذا كنتَ تظن أنه يبدو من قبيل الصدفة المحضة أن يكون المكان الذي يَصنع سروالي القصير

في طريق وجهتنا لقضاء شهر العسل بدرجة ما، فلا أُخفيك سرًّا، لم تكن هذه صدفةً. لقد سمحت لي آني أن أخطط لشهر العسل الخاص بنا.

وكان أول شيء فعلته أثناء عملية التخطيط هو الاتصال بشركة تشامبيون يو إس إيه حيث طلبت منهم عنوان المصنع الذي صنَع سروالي القصير. كنت على يقين تمامًا أنه قد أُغلق في الوقت الحالي، إلا أنني ما زلت راغبًا في معرفة أين كان موقعه.

قالت ليندا، الموظَّفة بشركة تشامبيون: «لا أشعر بالارتياح حيال هذا الأمر.»

قلت لها وأنا أُواصل إخبارها برحلتي حول العالم: «دائمًا ما أترك هذا الانطباع لدى الناس.»

في النهاية، توقفَتْ عن المقاومة وأذعنَت.

ونظرًا لأن آني فتاة تقليدية كما ينبغي أن تكون، فقد أعددتُ لها شهر العسل ليكون «زيارة لشلالات نياجرا: وجهة الأمريكيِّين المفضلة في شهر العسل»، ثم دسست رحلة جانبية قصيرة لمدة يوم أو يومين إلى قرية بيري، وهي «قرية صغيرة مختبئة شمال غرب ريف نيويورك المنبسط.» جزء من الرحلة كان يتضمن زيارة الأخدود العظيم. ظننتُ أنني بارع للغاية.

استشفَّت آني الأمر واكتشفت الحيلة. من حُسن حظي أنها تتمتَّع بصبر يَتعذر تفسيره حيال خططي وحيالي أنا شخصيًّا.

سوينا أمورنا المادية وقُدنا السيارة إلى مصنع أمريكان كلاسيك أوتفيترز عند أطراف المدينة.

ثمة أشياء معيَّنة ينبغي أن تفخر بها أمتنا؛ ألا وهي فطيرة التفاح وموسيقى الروك وشخصيتَيْ جارفيلد وسكوبي دو وسروالي القصير. فجميعها مصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية.

سروالي القصير يَبلغ من العمر ١٦ عامًا. ومعظم الناس لا يَتذكَّرون كم تبلغ من العمر سراويلهم القصيرة، أما سروالي القصير فعيد ميلاده ٢٦ يوليو ١٩٩٢.

ففي هذا التاريخ أثناء دورة الألعاب الأوليمبية الصيفية بمدينة برشلونة، اجتمع أعظم فريق كرة سلة على الإطلاق — «فريق الأحلام» — ونزل اللاعبون إلى أرض الملعب وهم يَرتدون سراويل قصيرة مثل سروالي. كان مايكل جوردن يرتدي سروالًا طويلًا، ولاري بيرد سروالًا أقصر قليلًا، وكان مقاس سروال تشارلز باركلي هو الأكبر في المجموعة،

بينما كان مقاس سروال جون ستوكتون نفس مقاسي تقريبًا. كان ثمة ثمانية لاعبين آخرين يَرتدون سراويل قصيرة، وأنت تعرفهم جميعًا على الأرجح. من خلال محاولات الإعلام والتسويق، كان أعضاء فريق الأحلام هم أعظم سفراء لعبة كرة السلة في العالم. وفي عام ١٩٩٢، بصرف النظر عن الدولة التي كنتَ فيها، كنتَ سترغب في أن تُصبح «مثل مايك» (وهو فيلم أمريكي كوميدي عن مغامرات فتًى موهوبٍ في لعب كرة السلة).

كان سروالي القصير أزرق به خُطوط حمراء ونجوم بيضاء على طول الجزء الجانبي من الساقين، كنتُ لا أذهب إلى أي مكان دون أن أرتديه. ولقد لفَّ هذا السروال القصير معي العالم عدة مرات. في هندوراس وبنجلاديش وكمبوديا والصين، كان سروالي القصير بمنزلة منامة ذات طابع وطني. إنها تُذكرني بالمنزل والأيام الصيفية التي لا نهاية لها حيث تُلهب طموحاتي الخاصة بلعبة كرة السلة لأقصى درجة على ملعبنا الأسفلتي.

كانت كرة السلة أهم شيء بالنسبة إليَّ وكنتُ أقضي جُلَّ وقتي في متابعتها عام ١٩٩٢. شاهدت، وأنا أرتدي سروالي القصير، فريق الأحلام بكل فخرٍ وهو يسحق منافسيه بفارق ٤٤ نقطة في المتوسط. وبعدها، ومثل عدد لا يُحصى من الأطفال الآخرين في مختلف أنحاء البلاد، كنتُ أعقد رباط حذائي ماركة نايكي وأنشغل بتقليد تمريرة ماجيك دون النظر إلى وجهة التمريرة وقفزة بيرد الخلفية وتصويبة جوردن العكسية في الجو، لكن دون أن أطير في الجو مثله.

لكن لم يكن الأطفال الأمريكيون وحدهم هم المهتمين بهذا الفريق. لقد حفَّز فريق الأحلام الأطفال في مختلف أنحاء العالم لمتابعة كرة السلة؛ ليُخرج في المستقبل أفضل اللاعبين في الرابطة الوطنية لكرة السلة ستيف ناش من كندا وديرك نوفتسكي من ألمانيا وتيم دنكان من جزر العذراء يُحاكون طريقة اللعب نفسها.

ومن ثم بدأت اللعبة تأخذ طابعًا عالميًّا.

علَّق المدرب تشاك دالي أثناء مباريات أولمبياد ١٩٩٢ قائلًا: «سيأتي اليوم الذي يَتمكنون فيه من منافستنا على قدم المساواة. وسيتذكرون فريق الأحلام باعتباره حدثًا بارزًا في تلك العملية. أنا لا أقول إن هذا سيحدث في المستقبل القريب، ولكن ضع في الاعتبار أنه سيحدث لا محالة.»

جاء ذلك اليوم فعلًا في أولمبياد ٢٠٠٤ بأثينا حين انتهى المطاف بحلول فريق أمريكا لكرة السلة رجال في المركز الثالث، وذلك بعد خسارة ثلاث مباريات ليَنتهي الأمر بحصول فريق أمريكا على الميدالية البرونزية؛ حيث هزمتنا ليتوانيا — وهي دولة لا أستطيع تحديد

مكانها على خريطة العالم — بفارق ثلاث نقاط، وفازت الأرجنتين بفارق ثماني نقاط، وهزمتنا بورتوريكو — التابعة للكومنولث الأمريكي — بفارق تسع عشرة نقطة.

لم تعد الولايات المتحدة تُمثل القوة المُهيمنة على كرة السلة العالمية، وتلك حقيقة مؤلمة لا بد من تقبُّلها.

بالتأكيد لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي تغيَّر منذ عام ١٩٩٢. لقد صار سروالي القصير مختلفًا تمامًا. لم يعد بإمكاني لعب كرة السلة به؛ لأن الرباط المطاطي للسروال صار متراخيًا للغاية لدرجة أنه يسقط حول كاحليَّ إذا ما قفزت أو ركضت. ستة عشرة عامًا عمرٌ مديد بالنسبة إلى سروال قصير.

مؤخرًا، اشترى لي أخي سروالًا قصيرًا جديدًا لمُنتخب كرة السلة الأمريكي، ولكنه لن يحلَّ محل سروالي القصير المفضَّل (حتى وإن كان لا يسقط إلى كاحلي حين أقفز)؛ فهو لا يحمل آثار عرق السنين، ولا يُذكرني بفترة براءة الشباب حين كنت أظن أن كل تنطيطة للكرة ورمية حرة تُقربني أكثر من قطع شوط على طول المشوار المِهني للاحتراف بالرابطة الوطنية لكرة السلة (إن بي إيه). بالإضافة إلى ذلك فإن السروال القصير الجديد لمنتخب الولايات المتحدة لم يكن مصنوعًا في الولايات المتحدة، بل كان مصنوعًا في الصين.

سروالي القصير يَعني الكثير بالنسبة إليَّ، ولكنه يعني أيضًا الكثير بالنسبة إلى العُمال الذين صنعوه في قرية بيري في نيويورك.

عندما أوقَفْنا السيارة عند حديقة بيري كوميرس بارك، مقر مصنع أمريكان كلاسيك أوتفيترز ونادي كيرفز ومنظمة غير ربحية تُساعد ذوي الاحتياجات الخاصة وأُسَرهم، أدركت على الفور أن هذا المصنع للملابس يَختلف عن جميع المصانع الأخرى التي زُرتها من قبل. تبلغ مساحة البناية ٢٠٠ ألف قدم مربعة، ملحقة بها ساحة انتظار سيارات كبيرة جدًّا. ورغم أنني أشكُّ في أنه قد أُجري أي بحث في هذا الصدد، أعتقد أن ٩٩ بالمائة من عُمال الملابس في العالم لا يَمتلكون سيارات. ورغم ذلك فإنهم يَمتلكون السيارات هنا. تشغل السيارات أقرب صفَّين من أماكن وقوف السيارات، تاركةً معظم ساحة الانتظار فارغة. ونظرًا لمعرفتي بطريقة تفكير الأطفال في البلدات الصغيرة — بما أنني كنتُ واحدًا منهم — فسوف أُراهن على أن هذا هو أفضل مكان في المدينة لإجراء مسابقات السيارات فائقة السرعة ورسم حلقات على الجليد حين يحلُّ فصل الشتاء.

كانت اللافتة الموجودة في الرواق مكتوبًا عليها: «مصنع أمريكان كلاسيك أوتفيترز يرحب بكيلسي وآني تيمرمان.»

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها لقب آني الجديد مطبوعًا. بدا وكأن حفل الزفاف وحفل استقبال العروسَين وأكوام هدايا الزفاف لم تَنقل الرسالة بنفس الطريقة التي نقلتها بها هذه اللافتة. لقد صرنا زوجين.

حيَّتنا صحفية من الصحيفة المحلية تُدعى لورين. كان واضحًا إلى أيِّ مدًى كانت مُتحمِّسة لأننا قطعنا كل هذه المسافة إلى قرية بيري لنرى أين صُنع سروالي القصير. لم تتصرف كما لو أن ما نفعله شيء غريب على الإطلاق. بل رأت الأمر مُمتعًا للغاية. راقت لي لورين.

كان بانتظارنا في قاعة الاجتماعات طبق من الكعك ودلوٌ من المشروبات الغازية المثلجة.

«الكعك مصنوع في متجر آركواي على الجانب الآخر من المدينة.» قالها مارك مدير شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز الذي كان يجلس على رأس الطاولة.

قالت لورين: «لطالما أُخبرُ الناس بأن الجزء الجنوبي من المدينة تفوح منه رائحة الكعك والجزء الشمالي تفوح منه رائحة السماد.»

قال مارك، وهو يُهذِّب شاربه الرمادي: «لست متأكدًا من صحة ذلك، ولكن يُقال إن عدد الأبقار في مقاطعة وايومينج يفوق عدد الناس.»

كان من السهل عليَّ أنا وآني، وقد وُلدنا ونشأنا في ريف ولاية أوهايو، أن نشعر بالألفة تجاه الحياة في قرية بيري؛ فالناس هناك من نوعية الأشخاص الودودين الذين لا يَعرفهم مُتسكِّعو المدن، ورُوح الودِّ تسود في البلدات الصغيرة. في الواقع، هم ليسوا أُناسًا على الإطلاق، وإنما هم «أهل». لورين والصحفية ومارك ومدير الشركة بمنزل أهل تملؤهم الطيبة.

أثناء تناولنا كعك آركواي ومشروب الكوكاكولا الباردة، أخبرنا مارك بقصة أمريكان كلاسيك أوتفيترز.

اشترت شركة سارة لي شركة تشامبيون عام ١٩٨٩ وشرعت في خفض عدد العمالة ودمج المصانع، وفي ذروة نجاحه، كان هذا المصنع يوظف ٨٥٠ عاملًا، وكانت ساحة انتظار السيارات تمتلئ عن آخرها. وفي عام ٢٠٠٢، تركت شركة تشامبيون المدينة ونقَلت الإنتاج إلى المكسيك. وانتقلت شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز إلى مصنع به أحد عشر عاملًا.

قال مارك: «وُلدت أمريكان كلاسيك أوتفيترز من حطام شركة تشامبيون على يد سام الذي يَمتلك متجر الأثاث بالمدينة. لم يكن سام يعرف الكثير عن صناعة الملابس. كان يَعرف فقط متى سترحل شركة تشامبيون، وتأثَّرت قرية بيري تأثُّرًا بالغًا. كان ثمة فراغ لا بد من ملئه.»

لم يكن مارك واحدًا من «الأحد عشر عاملًا الأساسيين». لقد عمل لصالح شركة تشامبيون لسنوات، ولكنه تتبَّع الصناعة وصولًا إلى كارولاينا الشمالية حيث تلقَّى مكالمة هاتفية من سكرتيرته السابقة سو. في تلك الفترة، كان نائب مدير شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز، إيد، يُصارع مرض السرطان، وسألت سو مارك عما إذا كان مُهتمًّا بالعودة لإدارة الشركة.

قال مارك: «ظنَّ إيد أنه سيهزم السرطان. لم يكن لدى سام خطة طوارئ. عندما جئتُ في زيارة لمدة يوم ورأيت نفس الناس الذين عملت معهم في المكتب نفسه الذي عملت فيه ... وهذا ما جذبني. عدتُ من أجل الناس، بالتأكيد ليس من أجل الطقس.»

قالت سو، وهي تدسُّ رأسها من فتحة الباب: «الأمر ليس بذلك السوء.»

قال مارك، وهو يَضحك ضحكة تلاشَتْ تدريجيًّا: «كان فصل الشتاء الأخير بَشِعًا، فكرة العجز عن العودة إلى المنزل مرة أخرى ... ليست حقيقية.»

ففي عام ٢٠٠٦، كان مارك يعمل في فصول الشتاء المعتدلة بولاية كارولاينا مقارنة بالظروف البيئية القاسية لمنطقة شمال غرب نيويورك. كان لدى شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز ٣٤ موظفًا حين عاد إليهم. أما الآن بفضل التعاقُد الممتد لسنوات مع شركة أديداس لتصميم ملابس مصنَّعة لأغراض خاصة، تُوظف الشركة ١٢٠ عاملًا ولا تزال توظف آخرين.

قادنا مارك إلى خارج المكتب وتوقَّف ليُقدمنا رسميًّا إلى سو. لقد عملت في هذه البناية لمدة ٢٨ عامًا: لدى شركة تشامبيون في البداية والآن لدى شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز.

في لعبة الإنتاج الكمي للملابس، تُجاهد مصانع الملابس الأمريكية من أجل الصمود أمام المُنافِسين؛ ومن ثم وجدت شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز مكانها في السوق. وبينما كان مارك يَصحبنا في جولة في أروقة المصنع، أخبَرَنا بسبب نجاح الشركة.

قال مارك وهو يقف إلى جوار سيدة تحيك الاسم على قميص جيسون كيد: «الفارق بين مُنتجنا وما تنتجه المصانع الأخرى هو الفارق بين ما تَشتريه جاهزًا وما تُفصِّله

لدى الخياط. تُنتج المصانع الموجودة خارج البلاد كميات تصل إلى عشرات الآلاف. هم لا يَهتمون بإنتاج كميات صغيرة. هذه هي السوق المُتخصِّصة التي نستهدفها. إذا احتاج فريقٌ ما زيًّا بديلًا، يُمكننا أن نصنعه من أجلهم ونُوفِّره لهم بسرعة.»

تصنع شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز زي ١٦ فريقًا من الثلاثين فريقًا المسجلين في الرابطة الوطنية لكرة السلة (إن بي إيه)، وجميع فِرَق الاتحاد الوطني لكرة السلة النسائية، و٧٣ فريقًا جامعيًّا، وثلاثة فِرَق بالدوري الوطني لكرة القدم الأمريكية، والكثير من فرق المدارس الثانوية. والنسخة طبق الأصل من زي جيسون كيد التي يَرتديها المُشجِّعون في المدرجات مصنوعة على الأرجح في مصنعٍ موجود خارج البلاد، أما الزي الذي يَرتديه جيسون كيد نفسه فمصنوع هنا في قرية بيري.

عند الزاوية، كان يقف رجل ذو ذراعين موشومتَين يَتتبع رسمة بمنشار أعلى كومة صغيرة من القماش. ذكرني هذا برؤية العُمال في بنجلاديش وهم يقصون أكوامًا ضخمة من القماش بماكينة كبيرة أشبه بالماكينة الكهربائية المُستخدَمة في تقطيع الخبز. تَتشابه العملية في أغلب مراحلها، رغم أن مدتها أقصر قليلًا. لم تَختلف الإضاءة والتهوية وتعليمات الأمن والسلامة والظروف العامة للمصنع، إلا أن الشعور ببيئة العمل اختلف. كان المُوظَّفون يستمعون إلى أجهزة الآي بود ويضعون صورًا عائلية في مقصورات العمل المزيَّنة. كانوا يتناولون وجبة خفيفة من أكياس رقائق البطاطس المفتوحة. كانوا «يبتسمون». في المصانع الأخرى التي أخذت جولة بها، كنت أحاول ألا أنظر إلى العُمال خشيةَ أن يتسبب إظهار أي اهتمام بهم في إنهاء الجولة. وكانوا بدورهم يَصبُّون جُلَّ تركيزهم على عملهم بينما كنت أنا ومديرهم نحوم حولهم. في قرية بيري، كان مارك يُحيِّي كل موظف بالاسم ويقضي بضع دقائق في الدردشة معهم عن أُسرهم. سألهم عن عدد السنين التي قضوها في تصنيع الملابس، وبدت الأرقام تتراوح ما بين ٢٠ عامًا و٤٠ عامًا.

توقفنا بجوار سيدة ترص عددًا من قمصان فريق بوفالو بيلز أسفل ماكينة الضغط الحراري. انتظر مارك حتى أزاحت ماكينة الضغط وأزالت القميص. سألها قائلًا: «هل شاهدتِ مباراة فريق بيلز ضد فريق برونكوز في عطلة نهاية هذا الأسبوع؟ كانت الأمطار تتساقط، وكانت الألوان تسيل من فوق الأرقام الموجودة على قمصان فريق برونكوز.»

«سعدت لأنها ليست من صنعنا.» قالتها وهي ترص عددًا من القمصان الأخرى التي أكدت على عدم تأثر ألوانها وأنها مُعدة للتسليم يوم الأحد القادم.

شرح مارك عملية القص والحياكة والطباعة والتجفيف الحراري والضغط، وكيف أنَّ العملية تتزايد درجة تعقيدها باستمرار؛ فالزي الواحد قد يشتمل على عدة أنواع مختلفة من النسيج: بعضها يُفتل وبعضها يمط وبعضها يحدث له كلا الأمرين. ليس من السهل التوفيق بين الألوان ومختلف الأنسجة. عزا مارك نجاح شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز إلى عقود الخبرة التي يتمتع بها العُمال؛ فالكثير من مُنافسيهم يرُكِّزون فقط على الزي الرسمي للعبة رياضية أو لعبتَين، أما عمال شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز فعلى دراية بالتعقيدات التي تَنطوي عليها صناعة الكثير من الملابس الرياضية.

حين وقفنا بجوار ماكينة تبدو أشبه بفُرن البيتزا وبداخلها سير يدور، قدَّم لي مارك سيدة صهباء ترتدي سروال جينز أزرق وتي-شيرتًا لفريق جامعة نوتردام من صنع شركة تشامبيون.

قال مارك: «هذه ديبي. أعتقد أنها كانت موجودة حين صُنع سروالك القصير.»

ناولتها سروالي القصير المفضَّل، وفحصَته بعين خبيرة.

«أجل، أتذكَّر هذا السروال القصير. لقد قمتُ بحياكته.» قالتها وهي تُواصل شرح الطريقة التي صُنع بها السروال القصير، حتى إنها أشارت إلى أماكن داخل المصنع تمَّت فيها كل مرحلة من مراحل العملية. كان الكثير من الأماكن التي أشارت إليها مُعتمًا. ومثل ساحة انتظار السيارات، كانت معظم أرضية المصنع شاغرة.

ففي هندوراس، كنتُ متأكدًا تمامًا من أن قميصي مصنوع في مصنع دلتا أباريل بمدينة فيلانويفا، ولكن لم يصنعه أميلكار حيث إنه عمل هناك لمدة أقل من عام. كان من المستحيل العثور على المصنع في بنجلاديش الذي صنَع ملابسي الداخلية على وجه التحديد. ولقد أُغلق المصنع الذي صنَع سروالي الجينز في كمبوديا. وفي الصين، كان يوجد عدة مصانع تُنتج الشباشب المطاطية الخفيفة مثل شبشبي؛ ومن ثم لم أكن على يقين بخصوص المكان الذي يَصنعها. ولكن هنا، وأخيرًا — في قرية بيري في نيويورك — عثرتُ على المصنع الذي صنَع سروالي القصير، بل على الشخص الذي صنَعه.

وجدتُ ديبي وتمنَّيتُ أن آخذها بالأحضان.

كان الأمر بالنسبة إلى سروالي القصير أشبه بالعودة إلى أحضان الوطن (شكل ٢٦-١).

لقد عملتْ ديبي في هذا المجال لمدة ٢٨ عامًا. كان من المفترض أن تكون الوظيفة مرحلة مؤقتة بين الدراسة الجامعية وبين ما قرَّرت فعله، إلا أن الراتب كان جيدًا؛ ومن

ثم استمرت في الوظيفة. وعلى مدار سنوات، كانت ديبي وزملاؤها في العمل قَلِقين من أن يكون ذلك اليوم هو يومهم الأخير بشركة تشامبيون. قالت ديبي: «كانوا بصدد أن يُضطرُّوا إلى دفعي إلى خارج الباب لكي يَجعلوني أترك المكان.» وبعد مرور أيام من إغلاق شركة تشامبيون في النهاية، بدأت ديبي العمل لدى أمريكان كلاسيك أوتفيترز. ولولا شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز، لما عرفت ديبي ما كان سيئول إليه أمرها.

تنقَّل سروالي القصير من سيدة لأخرى؛ أخبرني الجميع بالدور الذي شاركوا به لتصنيع سروالي القصير. ولطالما عملتْ دونا في صناعة الملابس لأكثر من ٢٠ عامًا. اصطحبتْني في جولة حول عملية الطباعة للصق النجوم على جانبَي سروالي القصير.



شكل ٢٦-١: المؤلف مع مايك، مدير شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز، وديبي التي صنعت سروال المؤلف القصير.

انضمَّت إلينا ماكسين، مديرة وحدة مراقبة الإنتاج. لقد بدأت عملها هنا منذ ٣٧ عامًا. قالت: «أخبرتُ زوجي بأنني سأعمل لبضعة أسابيع ... ولكن ها أنا ذا بعد مرور سنوات كثيرة جدًّا.» ثم قالت في تعجُّب بعد أن سألتني عن عمري: «إنني أصنع الملابس من قبل أن تُولد أنت.»

في بلد حيث تُحدِّد وظيفتك عادةً من تكون في عيون الآخرين، أدَّت هؤلاء النسوة — وهذه المدينة — دورًا محدَّدًا؛ ألا وهو تصنيع الملابس للآخرين. لقد قاموا بذلك على مدار عقود من الزمن. وعلى الرغم من أن لقمة عيشهنَّ قد تعرَّضت لتهديد حين أُغلقت شركة تشامبيون، فإن رؤية سام، صاحب متجر الأثاث، والعمل الشاق لـ «الأحد عشر عاملًا الأساسيين» والمُجتمع المحلي المتَّحد؛ كل هذا جعل هذا المصنع يَستأنف العمل من جديد.

قلت: «أود أن أشكركم جميعًا على تصنيع سروالي القصير، ولكن لديَّ بضع شكاوى.» ناولتْني ماكسين السروال القصير، وجذبتُ بعض الخيوط البالية وأشرتُ إلى موضعٍ تفكَّك فيه النسيج وعقبتُ قائلًا: «لم يقضِ هذا السروال القصير معي سوى ١٦ عامًا فقط، انظروا.»

ضحكوا. كانوا فخورين بسروالي القصير. كانوا فخورين بالعمل الذي أنجزوه مع شركة تشامبيون والذي مكَّنهم من شراء منازلهم وإلحاق أولادهم بالمدارس، إلا أنهم كانوا أكثر فخرًا بالعمل لدى شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز.

شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز آخذة في النمو وتبحث عن الجيل التالي من عُمال الملابس الأمريكيين. وبمرور الأشهر، صارت ساحة الانتظار أقلَّ فراغًا والمصنع أكثر إضاءة. يَبدأ راتب الخياط الجديد بـ ٨٫٥٠ دولارات في الساعة بالإضافة إلى مزايا أخرى. إنه يَكسب في اليوم الواحد أكثر مما تكسب عريفة في بنجلاديش وناري وآي في كمبوديا طوال الشهر. وفي يومين، يكسب الخياط الجديد أكثر مما يَكسبه ديوان وتشو تشون. العُمال هنا ليسوا أغنياء ولكنهم ليسوا فقراء أيضًا. ويتسم أهالي مقاطعة وايومينج وقرية بيري بالمرونة والصلابة الكافيتين لمكافحة الخواء الذي خلَّفته العولمة في مجتمعهم المحلي. ما الذي تتوقعه من مقاطعة تُطلَق فيها النار على امرأة ثم تُوصف فيها إصابتها بأنها «ألم طفيف» كما لو أن الطلق الناري هو مجرد بعوضة والجرح مجرَّد إزعاج؟

قبل أن نغادر المصنع، سألتُ مارك قائلًا: «ما الذي يَعنيه هذا المصنع بالنسبة إلى قرية بيري؟»

أخذ نفسًا عميقًا. تخيَّلته وهو يفكر في أيام شركة تشامبيون حين كان المصنع في حالة عدم استقرار وفُرص العمل المهولة التي فُقدت حين أُغلق المصنع.

قال بنبرة جادة مومئًا برأسه ليؤكد أهمية ما يقوله: «إنه يعني المستقبل. إنه يُوفر مستقبلًا للمدينة.»

تحديث النسخة المنقَّحة

البدء من جديد

صدِّق أو لا تصدق، لا أزال أنا وآني متزوجَين حتى بعد أن قضينا شهر عسل اشتمل على زيارة لمصنع ملابس. ربما يتساءل البعض عما إذا كان شريك الحياة هو «الشخص المناسب» له أم لا. ولطالما يُذكرني أعضاء من نادي السيدات للقراءة، والطلاب الجامعيُّون من الجنسين الذين التقيت بهم أثناء إلقاء كلمة بالجامعات، وأصدقاء آني، والقراء عمومًا بأن آني هي «الشخص الوحيد المناسب» الذي يُمكنه تحملي. لست متيقنًا من الطريقة التي أتلقى بها هذه الحقيقة؛ ومِن ثم أرد بقولي: «شكرًا.»

أرى أن الارتباك الذي حدث في شهر العسل هو شهادة على صدق حبِّنا. إننا نضحك ونتندَّر على هذا الموقف من حينٍ لآخر، ثم تُذكِّرني آني بعد ذلك بأنني مدين لها بشهر عسل حقيقي.

ستحتل قرية بيري الواقعة في نيويورك — مقر شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز — دومًا مكانةً في حكايات ونوادر أسرتنا. بالتأكيد لم تكن هذه أفضل طريقة لبدء الحياة الزوجية، ولكنها كانت طريقة رائعة لإنهاء الكتاب: قصة بلدة انهارت إثر خسارة مصنع شركة تشامبيون والتفَّت حول شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز. قد تتلاشى البلدات الصغيرة التي تَفقد قاعدتها الصناعية هذه الأيام، لكن قرية بيري صامدة؛ فهي تَنفض الغبار وتواصل المسيرة.

أتمنى لو أن الأمر كان لا يزال قائمًا.

ففي نوفمبر ٢٠٠٩، أرسل إليَّ أخي، كايل، رسالة بريد إلكتروني بها رابط وتعليق: «أليس هذا المصنع الذي كتبت عنه؟»

كان ذلك خبرًا رئيسيًّا في صحيفة «نيويورك تايمز» حول الكيفية التي سحبَت بها شركة أديداس تعاقُدَها مع شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز، ولأول مرة في تاريخ الرابطة الوطنية لكرة السلة صُنع الزي الرسمي خارج الولايات المتحدة. وكانت بعض اللوازم الجديدة واردة من آسيا؛ ومن ثم نقلوا الإنتاج إلى نقطة أقرب من المصدر.

قال السيناتور الأمريكي تشاك شومر: «ارتكبت شركة أديداس خطأً واضحًا حين نقلت إنتاج القمصان التي يَرتديها لاعبو الرابطة الوطنية لكرة السلة خارج الولايات المتحدة، بينما توجد شركات أمريكية أنجزت هذا العمل بجودة بالغة ولفترة طويلة جدًّا من الوقت.» وأضاف مُشكِّكًا في دفاع الشركة: «القيام بذلك في ظلِّ المناخ الاقتصادي الحالي يزيد الطين بلة.»

عندما كنا في شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز أثناء شهر العسل، كان مارك ودونا وديبي وماكسين والآخرون مُتحمِّسين للتعاقُد الجديد مع شركة أديداس. وكانت شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز مُلزَمة باستثمار مليون دولار في التحديثات والمُعدات الجديدة وبالإنتاج حصريًّا لصالح شركة أديداس. ولكن شركة أديداس الألمانية لم تفِ بوعدها للمصنع الأمريكي.

علقت دونا قائلة: «أظن أن هذا أمر بالغ السوء. ينبغي أن ترتدي الفِرَق الأمريكية ملابس أمريكية مصنوعة في الولايات المتحدة.»

وخفَّضت شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز على الفور عدد ساعات عمل موظفيها بنسبة ٢٠ بالمائة. وباع سام، صاحب متجر الأثاث، الشركة لشركة آر جيه لايبي، وهي شركة مُتخصِّصة في طباعة أسماء الفِرَق الرياضية ومقرها سانت لويس، وقد تعاونت مع شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز لسنوات.

على مدار بضعة أيام من شهر نوفمبر ٢٠٠٩، تصدرت أخبار أديداس وتخلِّي الرابطة الوطنية لكرة السلة عن التعامل مع شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز العناوين الرئيسية بالصحف الإقليمية والمحلية. ثم ساد الصمت. وتوقَّف أعضاء مجلس الشيوخ والصحفيون عن الحديث. لم يعد أحد يُزعج ديفيد ستيرن، رئيس الرابطة الوطنية لكرة السلة أو شركة أديداس. توقَّفت العناوين الرئيسية بالصحف، وساد الأمر الواقع.

بعد مرور عام، أُشيد بالزي الرسمي الجديد للرابطة الوطنية لكرة السلة — قمصان الرابطة الوطنية لكرة السلة خط إنتاج ريفيلوشن ٣٠ — إشادة عظيمة. ووفقًا للبيان

الصحفي المشترك للرابطة الوطنية لكرة السلة وشركة أديداس، لم يعد الزي مجرد زيٍّ رسميٍّ، وإنما كان «منظومة للزي الرسمي الخاص بلعبة كرة السلة» حيث كان الزي الرسمي أخف بنسبة ٣٠ بالمائة ويجفُّ سريعًا بمقدار الضعف. وساعد هذا الزي اللاعبين في أخذ خطوة أسرع وقفز بوصة أعلى. (لو أنني ارتديت هذا الزي أثناء ما كنت ألعب لعبة كرة السلة في المرحلة الثانوية، لكان بإمكاني أن أضاعف عدد قفزاتي الرأسية!) وكان من شأن جميع الفرق الثلاثين المدرجة في الرابطة الوطنية لكرة السلة أن ترتدي الزي الجديد.

وبالعودة إلى قرية بيري، كانت دونا وديبي تَحتفظان بوظائفهن، ولكن ١٠٠ عامل آخر لم يحتفظوا بوظائفهم. كانت ماكسين، التي بدأت خياطة بشركة تشامبيون ثم ترقَّت في الوظائف الإدارية بشركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز، واحدة من هؤلاء العمال. وفي يوم الاثنين الذي تلا الكريسماس، جاهدت جان — التي عملت معها ماكسين نحو ٢٠ عامًا — أن تُوصِّل لها ولمارتي، وهو موظَّف آخر قديم، الأخبار المهمة.

وصفت ماكسين اليوم لي عبر الهاتف قائلة: «كان الأمر مُفزعًا. لقد عملت في الوظيفة نفسها مدة ٤٠ عامًا. كنت مثل الغريق في المحيط. لم يكن بإمكاني تصديق أنني فقدتُ وظيفتي ... ظننتُ أن حياتي انتهت. لم أكن أعرف كيف أعود إلى المنزل نظرًا لأنني كنتُ في حالة ذهول تام.»

خطَّطت ماكسين، التي كانت تبلغ من العمر ٦٢ عامًا آنذاك، أن تعمل لمدة أربع سنوات أخرى لتَتقاعد في سن ٦٦ عامًا.

«حاولتُ ألا أفكر في المكان لأن هذا يجعلني أحزن بشدة. كنتُ أظن أنني سأتقاعد من شركة تشامبيون ولكن في عيد ميلادي الخمسين أعلنوا إغلاق الشركة. ثم ظننتُ أنني سأتقاعد من شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز ولكنَّهم سلبوا ذلك أيضًا ... لقد قضيت ٤٠ عامًا من حياتي في ذلك المجال ثم قالوا لي: «نراكِ لاحقًا! مع السلامة!» كنتُ داخل المبنى في الساعة الثالثة والنصف، وفي الساعة الرابعة كنتُ في طريقي إلى المنزل.»

بَحَثَتْ عن عمل آخر، ولكنها لم تستطع أن تجد شيئًا. «كنتُ بحاجة إلى وظيفة. لحسن الحظ، من خلال تأميناتي الاجتماعية وحالة البطالة، كان بإمكاني أن أتطوَّع.» وبالفعل تطوَّعتُ للعمل بالمدرسة الابتدائية المحلية. «كنتُ مثل البطل حين تطوَّعت بالمدرسة ... لطالما كان العمل مع الأطفال أكبر متعة في حياتي.»

لم يكن بإمكانها تصديق عدد الأطفال، حتى من منهم في مرحلة رياض الأطفال، المُعرَّضين للخطر بالفعل. لم يكن الأمر كذلك حين كانت ابنتها في المدرسة. وكانت تعزو ذلك إلى استقرار الحياة الأسرية.

سألتها: «هل تظنِّين أن الاقتصاد له علاقة بذلك؟»

«أجل، أظن ذلك؛ لدينا برنامج في المدرسة يَصنعون خلاله حقائب ظهر للأطفال، وفي مساء يوم الجمعة في نهاية اليوم يَذهبون ويختارون حقائب الظهر خاصتهم، وربما تحتوي على رغيف خبز أو علبة حبوب الإفطار. كم مِن المُحزن ذلك؟»

بعض الأطفال يُنادونها باسم السيدة فلينت وآخرون يُنادونها بماكس. «إنك تخرج من المكان وأنتَ تشعر بارتياح بالغ، يملؤك اليقين بأنك قدَّمت المساعدة.»

تذكرتْ زيارتنا في عام ٢٠٠٧ وسألتْني عن شهر عسلنا.

قلت لها: «لم أزل أدين لآني بشهر عسل نظرًا لأنَّنا زرنا مصنع ملابس وذهبنا إلى شلالات نياجرا، وهو مكان سخيف لقضاء شهر العسل به.»

قالت ماكسين: «يا إلهي، هذا المكان ذهبتُ إليه أنا وزوجي.»

قلت وأنا أضع يدي على جبهتي، بعد أن قلت ما ندمتُ عليه كالعادة: «حسنًا، ربما كان المكان أكثر جاذبية آنذاك. أُراهن أنه كان يوجد عدد أقل من متاحف الشمع آنذاك؛ لأنه صار سيئًا الآن فعلًا.»

طمأنتني قائلة: «كان هذا قبل ٤٠ عامًا. كانت الأمور مختلفة للغاية عما هي عليه اليوم.»

كانت ماكسين محقةً. لقد اختلفَت أشياء كثيرة جدًّا.

الفصل السابع والعشرون

العودة إلى جزيرة الخيال

نوفمبر ٢٠١١

القيادة في هندوراس أشبه بخوض سباق الاتحاد القومي لسباقات السيارات القياسية (ناسكار) بخيولٍ على طُرُق بها حُفَر عميقة كالأخاديد؛ فهندوراس ليست المكان الذي يَفتح فيه الراكب النافذة ويدع الرياح تُداعب خصلات شعره، ولكن كان هذا ما فعلته كارلا على أيٍّ حال.

تجاهلَت السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس علامات عدم المرور المُصمتة. لا توجد قواعد للقيادة على الطُّرق، بل مجرَّد مقترحات لطيفة. وقوانين الفيزياء هي القوانين الوحيدة التي يتبعها الناس، وحتى هذه تتحداها السيارات الرياضية مُتعدِّدة الأغراض غير المرخَّص لها التي تتخذ مُنحنيات حادَّة. قطعتُ طريقي عبر الجبال جنوبي مدينة سان بيدرو سولا في هندوراس. عندما جرؤت على رفع عيني من فوق الطريق، وجدتُني أُحدِّق في سروال كارلا الجينز الأزرق الضيق جدًّا والمُمزَّق، ذي الجيوب المزوَّدة بالسحاب وسير حمالة الصدر الظاهر من قميصها الأسود الشفاف الذي جعَلها تبدو وكأنها خرجَت توًّا من فيديو من فيديوهات مايكل جاكسون.

لغتي الإسبانية ضعيفة جدًّا؛ فهي عبارة عن مزيج من اللغة اللاتينية التي تعلمتها في الجامعة وقائمة مفردات من المرحلة الثانوية مرَّ عليها عقد من الزمن وأتذكَّرها بصعوبة بالغة. بحثتُ عن مرادف كلمة «بحق الجحيم» في اللغة الإسبانية لأقول شيئًا على غرار: «ماذا تفعلين بحق الجحيم؟!»

هزَّت كتفَيها. لدقيقة ظننتُ أنها تعاني من الفواق وأن هذا نوع من العلاج المُتبع في هندوراس. كنت أتوقع منها أن تطلب مني إمساك أذنيها أثناء انحنائها إلى الخارج وتناولها كأسًا من الماء وهي في وضع مقلوب. لا بد أن هذا يفي تمامًا بشرط التخلُّص من نوبة الفواق. هزة أخرى بالسيارة وفهمت الأمر؛ إنها تعاني من دوار السفر بالسيارة.

انعطفتُ بسيارتي طراز تويوتا كورولا زرقاء مثل لون السنافر إلى محطة وقود تكساكو، ولكن بعد فوات الأوان.

وهناك تمخَّطت؛ كان هذا بمثابة خرق لبندٍ من بنود اتفاقية تأجير سيارتي. فبمُجرد أن فتحتُ الباب لم تخرج، وإنما انحنَت إلى الخارج ببساطة كما لو أنها تتحقَّق من أن الإطارات غير مُفرغة من الهواء.

دخلت إلى محطة الوقود وأحضرتُ بضع زجاجات مياه. بالأساس كنت أريد مناديل وأكياسًا بلاستيكية. وحين عدتُ إلى السيارة، كنت أرغب في قول عبارة من فيلم «عالم وين» لطالما انتظرت أن أقولها.

قلت وأنا أناولها كيسًا بلاستيكيًّا: «إذا كنتِ ستتقيَّئين، تقيئي هنا.»

كنَّا راكبَيْن من المُستبعَد أن تجمعهما رحلة واحدة على الطريق، متجهَيْن إلى قرية البورفينير التي يَعني اسمها المستقبل.

نعم كنا بحقٍّ عائدَيْن إلى المستقبل.

«دعنا نتصل به.» قالها جابرييل المُترجم المُرافق لي.

قرأت بصوت عالٍ رقم هاتف أميلكار الذي دوَّنتُه في مفكرتي من رحلتي الأولى في هندوراس قبل ست سنوات. كنتُ قد اتصلت بالرقم من قبل، ولكن لم يُفلح اتصالي.

أمسك جابرييل بالهاتف ورفعه إلى رأسه الذي يَليق برأس مذيع. كان له فك مربع الشكل وعينان تُشعان بالذكاء وشعر مصفَّف على نحوٍ مثالي. كان جابرييل يدرس الصحافة بجامعة سان بيدرو سولا وعُرض عليه العمل مراسلًا صحفيًّا في القناة السادسة بسان بيدرو سولا، ولكنه رفض؛ إذ كان يريد العمل لحسابه الشخصي. غير أنني أدركت ما رأته القناة السادسة فيه. سواء أكانت الأخبار سارة أو سيئة: كان جابرييل قادرًا على نَقلها بتعبيرات وجهية صارمة.

رنَّ جرس الهاتف.

صحتُ قائلًا: «أغلق الخط!» أغلق جابرييل الخط. كان الوقت متأخرًا في المساء لإجراء مثل هذه المكالمة.

لم يكن بإمكاني تصديق أن الاتصال نجَح فعلًا. كانت خطتي للبحث عن أميلكار مُبعثَرة فوق فراشي: صورتان فوتوغرافيتان له وأقل من ١٠٠ كلمة في مذكرتي تصف لقاءنا الأول والوحيد. كنتُ أخطط أنا وجابرييل للذهاب إلى المصنع في اليوم التالي كمُخبِرَيْن من مسلسل «قانون ونظام» (لو آند أوردر)، يُمسكان بصورتين ٥ × ٧ ويقولان: «هل رأيتم ذلك الرجل؟» بدلًا من ذلك، اتصلنا بأميلكار الساعة الحادية عشرة مساءً أحد أيام الثلاثاء في مكالمة هاتفية أشبه بمُكالمات المقالب.

وعندما عاودْنا الاتصال في اليوم التالي، ردَّت سيدة على الهاتف.

حبستُ أنفاسي. حيَّاها جابرييل وبدأ كلامه. كان يتحدَّث بسرعة بالغة لم أتمكن من التقاط سوى بضع كلمات مُتفرِّقة بالإسبانية كانت معانيها هي: مجنون، أجنبي، ملابس.

لعلَّ هذه الكلمات الثلاث هي أفضل وصف سمعته على الإطلاق لرحلة البحث هذه. وبينما استمرَّت المكالمة الهاتفية، توقفتُ عند كل كلمة ينطقها جابرييل لمتابعة الحديث. وأشرتُ له رافعًا إصبعي الإبهام لأعلى ومبتسمًا له ابتسامة عريضة مُتوتِّرة. فنظر إليَّ نظرة خالية من أي تعبيرات.

ونظرًا لكونه مُستغرِقًا في المكالمة الهاتفية لدرجةٍ أعجزته عن الرد عليَّ، مرَّر أصابعه خلال شعره ومال إلى الأمام. استمرت المكالمة لفترة طويلة جدًّا يستحيل معها افتراض أن يكون الرقم خطأً — لا بد أنها تَعرف أميلكار — غير أن المكالمة استمرت لفترة طويلة جدًّا يستحيل معها افتراض أنها مقتصرة فقط على كيفية مُواصلة أميلكار العمل في المصنع أو كيف تفاقمت الأمور.

هل كان أميلكار على قيد الحياة؟ هل وقع مكروه؟

ذرعتُ الغرفة جيئةً وذهابًا.

أغلق جابرييل الخط وقال: «لن تُخمِّن أبدًا ما حدث يا رجل.»

«كان هذا كلب أميلكار المفضل، ديوك.» قالتها والدة أميلكار بينما كانت تقودنا إلى داخل منزلها وتابعت قائلة: «كان أميلكار يعود أيام الجمعة إلى المنزل ثملًا، ولكنه يُواظب على التنزُّه بكلبه.»

كانت السيدة التي تحدَّث إليها جابرييل عبر الهاتف هي والدة أميلكار. وكُنا قد استغرقنا بعض الوقت لإقناعها بمقابلتنا. في البداية ظنَّت أننا ننوي إيذاءها. كان من

الظاهر أن ثمَّة عمليات نصب تحدث في هندوراس؛ إذ يَتصل بك أحدهم ويُخبرك بأنه يعرف أين تعيش وأين يكون أبناؤك، وإذا لم تدفع المال، يؤذيك أنت وأسرتك.

لم تكن هندوراس مكانًا آمنًا ليُقيم فيه المرء في تلك الأيام. في الواقع، قبل أن أُسافر إلى هندوراس، أطلقَتْ عليها صحيفة واشنطن بوست «العاصمة العالمية لحوادث القتل.» وعلَّقت إحدى الصُّحف الصادرة في تيجوسيجالبا، عاصمة البلاد، على انخفاض معدَّل حوادث القتل «هذا الأسبوع». إنهم يقيسون معدلات حوادث القتل «بالأسبوع».

وهندوراس، من الناحية الجغرافية والمجازية، مطحونة بين رحى الحرب على المُخدِّرات التي تتصاعد وتيرتها في المكسيك وكولومبيا. ولقد وقعت مذبحة في المطار قبل شهرٍ من وصولي إلى سان بيدرو سولا. وما إن قرأتُ عن المذبحة حتى نشرتُ على موقع الفيسبوك منشورًا: «أشياء لا تريد قراءتها عن المطار الذي ستُسافر إليه غدًا: «بعد المذبحة التي وقعت الأسبوع الماضي ... صار مكانًا يجب تفاديه بأي ثمن»!»

سألني جابربيل عن سبب كتابتي لهذا المنشور حين رآه. وفي النهاية، علق قائلًا: «كان هذا قبل شهر كامل مضى.» يبدو أن إطلاق النار في المطار ومقتل ستة أشخاص إثر ذلك مشكلة مرَّ عليها وقت طويل ليَطويَها النسيان بعد مرور بضعة أسابيع فقط. وفي وقتٍ قصير كنتُ قد سافرت إلى هندوراس، كان لديَّ اجتماع مع أستاذ بجامعة محلية قد أُلغي بعد أن أُطلقت النار على زميله وقُتل أثناء مغادرته أحد البنوك. وشقيق أحد العاملين في دار الضيافة التي نزلتُ بها أُوقفت سيارته وأُطلق عليه ٢٠ طلقة وأوشك أن يموت. ربما لا يوجد شيء يُلخِّص معدلات الجريمة والعنف أفضل مما حكاه لي جابربيل عن تعرُّضه للسرقة تحت تهديد السلاح أثناء نقله لجثمان جده المُتوفَّى مؤخرًا من منزله.

لطالما كنت أقول للناس إن العالَم مكان آمِن أكثر مما يظنون، ولكن ليس في هندوراس، وليس في الوقت الحالي.

«ما احتمالية أن يُمثِّل شخص أجنبي هدفًا مُغريًا؟» طرحتُ السؤال على جابربيل متوقعًا منه أن يقول لي إن السياح يُتركون وشأنهم وإنها مجرد نزاعات بين العصابات في الأساس، وإن شخصًا أجنبيًّا قتيلًا أو مفقودًا عادة لا يَستحق التورط في مشكلة من أجله؛ مثل هذه التبريرات المعروفة.

رد قائلًا: «احتمالية كبيرة!» كان هذا مطمئنًا جدًّا.

هندوراس مكان خطير، إنها من نوعية الأماكن التي يَختفي فيها الناس وحسب؛ بمعنى أنها من نوعية الأماكن التي إذا اتصل بك شخص غريب ليقول إنه يعرف ابنك

وإنه يُريد زيارتك، فعليك أن تدرس الموقف بعناية وحذر؛ ومن ثم تبحث عن التفاصيل على جوجل وعلى موقع الفيسبوك. وتطلب صورًا تُثبت ذلك.

أخيرًا أقنع جابرييل والدة أميلكار بأننا شابان صالحان ووافقَت على مقابلتنا. قُدنا السيارة إلى منزلها على بُعد بضعة أميال من مصنع دلتا الذي قابلتُ فيه أميلكار لأول مرة.

حيَّانا الكلب، ديوك، عند الشرفة الأمامية للمنزل؛ حيث كان مربوطًا بسلسلة رفيعة تكاد تكون للزينة فحسب متصلة بطوقٍ جلديٍّ سميك. نبَح نحونا من مُنطلق شعوره بالواجب قبل أن يعود ثانية إلى مرقده. رشَّت والدة أميلكار دواءً على جرح كبير موجود على ظهر ديوك، ثم قادَتْنا إلى داخل منزلها.

شارك ثلاثة كلاب عند الشرفة الخلفية في النباح. كان أميلكار ووالدته مُغرمَين بالكلاب.

قادَتْني أنا وجابرييل ودعتنا للجلوس على أريكة مخملية مطبوعة عليها زهور ذكَّرتني بأريكة جدتي. لقد شاهدت الكثير من حلقات برنامج «٦٠ دقيقة» وأنا جالس على أريكة كهذه. جلسَتْ والدة أميلكار على مقعد بجوار الباب وتكوَّرت على المسند قطة بيضاء. أخذَت تعبث بكأس صغيرة بها دواء سعال؛ كمية قليلة من سائل أزرق يدور في دوامة بالقاع. انضمَّت إلينا كارلا، الأخت الكبرى لأميلكار، لتجلس على الأريكة.

لم يكن من المُمكن أن تُعلَّق صورة والد أميلكار على ارتفاعٍ أعلى مما كانت عليه بالفعل؛ حيث إنها كانت قريبة جدًّا من السقف. كان والد أميلكار قد تُوفي قبل أحد عشر عامًا. عندما التقيتُ بأميلكار، أخبرني بأنه يعيش مع والديه، وليس مع والدته وذكرى والده. كانت الصورة بمنزلة تذكرة لي بالقدر القليل الذي عرفتُه عن الفتى الذي صار أسطورة في خيالي. فرحلة البحث هذه بدأت بأميلكار.

أخرجتُ نسخة من كتابي هذا من حقيبتي وقرأت الجزء الخاص بالشكر والتقدير: «قبل كل شيء، أنا مدين لأميلكار وعريفة وناري وآي وديوان وتشو تشون الذين سمحوا لي بدخول حياتهم وتحمَّلوا أسئلتي. فهذا الكتاب ملك لهم مثلما هو ملك لي تمامًا.»

ناولت كتابي إلى كارلا، تصفَّحته في عجالة.

عقبت قائلة: «شكرًا لك؛ إهداؤك لي كإهدائك إياه لأميلكار بالضبط. سأَحتفظ به.»

بعد ذلك أخرجت الدليل الوحيد الذي كان بحوزتي على مقابلتنا: صورتي وأنا عاري الجذع رافعًا إصبع الإبهام لأعلى بيد واحدة واليد الأخرى تستند على كتف أميلكار. كان

أميلكار يضع ذراعيه حول خصري ويرتدي تي-شيرت شخصية «تاتو» الخاص بي؛ كان كلانا يبتسم كما لو أننا صديقان لم يلتقيا منذ فترة طويلة وجاهلان تمامًا للطرق التي سنَسلكها في حياتنا بعد لقائنا هذا.

عرضتُ الصورة على والدة أميلكار وأخبرتها بقصة ذهابي إلى المصنع وطلبي القيام بجولة داخل المصنع من الحُراس أصحاب الكروش المليئة بالبيرة والذين تدلَّت المُسدَّسات من الجيوب الخلفية لسراويلهم. ضحكت حتى تحوَّلت ضحكتها إلى سعال.

قلت: «كنتُ بصدد الاستسلام. لم يتوقَّف أحدٌ للحديث معي. مئات العمال مروا من جانبي، كما لو أنني شخص غير مرئي، ولكن أميلكار توقف.»

علقت قائلة: «لستُ مُستغرِبة. هو شخص ودود.»

وقفتْ وسحبَت ألبوم صور عليه شخصية دب ويني ذا بوه من على رفٍّ مكتبة التليفزيون. ومن الجزء العلوي للألبوم، تدلَّت أجراس زينة الكريسماس لشخصية إنديانا جونز مصدرةً خشخشة. فتحت على صورة لصبيٍّ صغيرٍ وهزيل؛ كانت الصورة بأكملها عبارة عن أذنين وابتسامة.

استطردتْ، وكأن الحياة عادت لتدبَّ فيها من جديد على الرغم من إصابتها بالبرد، قائلة: «هذا أميلكار في الصف السادس ... عندما كان في المدرسة، كان يخبرني بأنه ذاهب لحضور الحصة، ولكنه كان يُخبِّئ كتبه أسفل شجرة ويلعب كرة قدم.» مرة أخرى تحوَّلت قهقهتها إلى سعال، وتابعت قائلة: «كان مُتمرِّدًا صغيرًا. وحين وصل إلى الصف السابع، لم يعد راغبًا في الذهاب إلى المدرسة.»

ومن ثم، في سن الثانية عشرة، انتقل أميلكار من قريته القريبة من تيجوسيجالبا، عاصمة البلاد، إلى مدينة فيلانويفا. وقد سار على نفس خُطى أخته دينيا؛ حيث كانت قد انتقلت إلى مدينة فيلانويفا في سن الخامسة عشرة لتُطارد فتًى وفي النهاية حصلت على وظيفة في مصنع الملابس. ومعها بدأت أسرة أخرى الهجرة من المزرعة إلى المصنع.

قالت: «انتقلوا إلى مدينة فيلانويفا بحثًا عن عمل. كنتُ قَلِقة على أولادي؛ ولذا تبعتُهم.»

عملت كارلا أيضًا في مصنع ملابس قريب؛ شركة جيلدان. إذا كان لديك مجموعة من التي-شيرتات بمقاسات متنوعة، فثمة احتمال كبير أن واحدًا من هذه التي-شيرتات صنعته شركة جيلدان. فشركة جيلدان المنتج الرئيسي للقمصان المطبوعة بتقنية الطباعة بالشاشة الحريرية في الولايات المتحدة وكندا. وللشركة قُوى عاملة في مختلف أنحاء العالم

قوامها ٣٠ ألف موظَّف، كما أنها الراعي الرسمي لدوري كرة القدم للجامعات؛ دوري جيلدان نيو مكسيكو.

قالت كارلا: «لقد قضيتُ هناك ست سنوات، ولكني شعرت بالملل. تُوفِّر شركة جيلدان بيئة عمل رائعة. إننا نعمل في فِرَق. وكلما أنتجنا أكثر، حصلنا على المزيد من العلاوات. فإذا أبلى فريقي بلاءً حسنًا، نحصل على [نحو ٦٥ دولارًا] في الأسبوع. وإذا كان أداؤنا سيئًا، نحصل على الحد الأدنى [٥٤ دولارًا في الأسبوع، أو ١٫٣١ دولار في الساعة]. بالإضافة إلى ذلك، فإن لدينا تأمينات واقتطاعات لَمعاش التقاعُد. كان الأسبوع الأخير ممتازًا، ولكن كانت نوبة عملي الأخيرة سيئة.»

كانت كارلا تتقاضى راتبًا أكبر من اللازم.

وذلك على الأقل وفقًا لمجلس هندوراس للمشروعات الخاصة؛ حيث قدر المجلس الحد الأدنى للأجر المعيشي في هندوراس بـ ٢٣٢ دولارًا في الشهر. وقد توصَّل المجلس إلى هذا الرقم من خلال فحص التكاليف الشهرية لـ ٣٢ شيئًا ضروريًّا لأسرة مكوَّنة من ستة أفراد. وتعتقد النقابات العمالية أن الحد الأدنى للأجر المعيشي ينبغي أن يكون ٣٣٣ دولارًا.

بصرف النظر عن أي مدًى يَتقاضى العمال رواتب مُبالَغًا فيها أو إلى أي مدًى لا يَتقاضون رواتب كافية، ذكرت دراسة — أجرَتْها حكومة هندوراس بالتعاون مع الاتحاد الأوروبي عام ٢٠١٠ — أن ٧٢ بالمائة من مُواطني هندوراس — البالغ عددهم ٥٫٧ ملايين نسمة — لم تُلبَّ احتياجاتهم الغذائية الأساسية. وبينما كان ١٫٥ مليون مواطن بهندوراس قادرين على تحقيق الكفاية لأسرهم بخصوص الطعام؛ فإنه لم يكن لديهم ما يَكفي لتغطية تكاليف الاحتياجات الأساسية الأخرى مثل المسكن والرعاية الصحية والتعليم والمواصلات.

لا تزال الرواتب في هندوراس (١٫٣١ دولار في الساعة) أعلى من نيكاراجوا (٦٥ سنتًا في الساعة) والسلفادور (٩٢ سنتًا في الساعة) ويَخشى الكثيرون أن تُرَحَّل صناعة الملابس عن البلاد في المستقبل سعيًا وراء الأجور الأدنى في مكان آخر. أخبرني محامٍ بلجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في هندوراس أنه كان يَعتقد أن صناعة الملابس قد تختفي في غضون عامَيْن. بالتأكيد يُعدُّ هذا السيناريو هو سيناريو الهلاك، وذلك بالوضع في الاعتبار أن نحو ١٣٠ ألف شخص يعملون في المجال، ولكن يوجد حالات تسريح مؤقتة للعمالة وحالات إغلاق للمصانع تُثبت أن الصناعة تسير في هذا الاتجاه فعلًا؛ فلقد صفَّى ٢١ مصنعًا

أعماله وانتقل إلى دول مجاورة، وفقد العمال ١٠ آلاف وظيفة على مدار فترة امتدت لسبعة أشهر خلال عام ٢٠١١.

وفي يناير ٢٠٠٩، أغلقَت شركة راسل للملابس الرياضية مصنعًا في مدينة تشولوما في هندوراس، وسرحت ١٢٠٠ عامل. جاء قرار إغلاق المصنع في أعقاب تشكيل العُمال لنقابة. ولم يَرُق هذا الأمر بالنسبة إلى اتحاد الطلاب المناهضين للمصانع المُستغِلة الذين كانوا قد ناضلوا من أجل وضع قواعد السلوك المِهني — بما في ذلك حق تشكيل النقابات العمالية — في المصانع التي تُنتج الزي المرخَّص لجامعاتهم. وأصدرت جمعية حقوق العمال — وهي جهاز رقابي مستقل شكَّله النشطاء في مجال حقوق العمال — واتحاد الطلاب المناهضين للمصانع المستغلة والإدارات الجامعية تقريرًا يُطالبون فيه بوقف الانتهاك الصارخ لقواعد السلوك المهني؛ ومن ثم هبَّ اتحاد الطلاب المناهضين للمصانع المستغلة من أجل فعل شيء. فخرجوا في مظاهرات أثناء نهائيات دوري الرابطة الوطنية لكرة السلة ولجئوا إلى وارين بافيت في مدينة أوماها (حيث إن شركته، بيركشاير هاثاواي، تمتلك شركة فروت أوف ذا لوم، وهي الشركة الأم لشركة راسل) والأهم من ذلك أنهم ضغطوا على الجامعات لإلغاء اتفاقيات منح الترخيص الموقعة مع شركة راسل. وأعلنت جامعة ديوك وجامعة جورجتاون وجامعة ميامي وجامعة ويسكونسن وجامعة روتجرز وأكثر من ١٠٠ جامعة أخرى في المجمل أنها ستُلغي اتفاقية منْح الترخيص لشركة راسل لأن اتحاد الطلاب أصابهم في مقتل؛ في مواردها المالية تحديدًا.

وبعد مرور أقل من عام، أعلنت شركة راسل أنها ستُعيِّن الـ ١٢٠٠ عامل جميعهم في مصنع جديد. وفي مايو ٢٠١١ تفاوض الاتحاد على زيادة الأجر بنسبة ٢٦ بالمائة، وشراء مُعدات جديدة لزيادة أرقام الإنتاج، وتقديم وجَبات غداء مجانية وتوفير التدريبات الخاصة بحرية تأسيس النقابات في جميع مصانع شركتي راسل وفروت أوف ذا لوم. مثل هذه الأمور لا تَحدث عادةً في هندوراس، بل إنها تُوضِّح أنه حين يجتمع المُنتِج والمستهلك ويتعاونان معًا، يصبح بإمكانهما تحقيق إنجازات عظيمة. ولقد سجلت الحركة الطلابية أكبر انتصار لها حتى الآن.

وتبع اتحاد الطلاب المناهضين للمصانع المُستغلة هذا الانتصار بحملة شعارها «فقط ادفعها» ضد نايكي؛ حيث أُغلق مصنعان يُنتجان ملابس نايكي دون دفع مكافآت إنهاء الخدمة التي نص عليها القانون في هندوراس استنادًا إلى عدد سنوات العمل. وهكذا، احتجَّ الطلاب مرة أخرى. وفسخت جامعة ويسكونسن تعاقُدها مع شركة نايكي وهدَّدت

جامعة كورنيل بأن تسير على النهج نفسه. ومع ذلك تأثَّرت حسابات الأرباح والخسائر الخاصة بشركة أخرى. وفي النهاية وافقَت شركة نايكي على دفع ١,٥٤ مليون دولار لصندوق إغاثة العاملين على الرغم من حقيقة تمسُّك شركة نايكي بأنها لم تكن تَمتلِك المصنع ولم تكن مسئولة عن دفع مكافآت إنهاء الخدمة لموظَّفي شركة مستقلة عنها.

مثل معظم العُمال الذين تحدَّثتُ معهم، كانت كارلا سعيدةً بأن النقابات العمالية موجودة، ولكنها لن تنضم إلى واحدة منها مطلقًا. كانت تعرف أن الانضمام لنقابةٍ ما من شأنه على الأرجح أن يُساعدها في تقاضي أجر أكبر وتأمين وضعها الوظيفي على نحوٍ أكبر، ومع ذلك كانت تخشى أنها إذا فقدت وظيفتها، فقد تضعها جميع الشركات الأخرى على القائمة السوداء ولن تتمكَّن من العثور على وظيفة جديدة.

علقت كارلا قائلة: «أنا أمٌّ عزباء، وهذا يُخيفني. إنها [صناعة الملابس] مصدر العمل الوحيد هنا في مدينة فيلانويفا.»

لقد التقَيت بعُمالٍ فقدوا وظائفهم مؤخرًا بعد التعرُّض لموقف مشابه جدًّا لموقف شركتي راسل ونايكي؛ حيث شرَع العُمال في إنشاء نقابة عمالية، ثم أُغلق المصنع دون دفع مكافآت إنهاء الخدمة المستحقة. ولسوء الحظ لم يكن هناك طلاب في الولايات المتحدة للاعتراض والتظاهر في ذلك الوقت؛ إذ كان المصنع يُنتج ملابس أطفال، وبالطبع لن يُنظِّم الأطفال الصغار المظاهرات الصامتة المحاكية للموتى. والآباء الذين يشترون الملابس الجاهزة كانوا مُنشغلين جدًّا على الأرجح مع أطفالهم الصغار لدرجة يستحيل معها أن يُدركوا حدوث هذا الانتهاك.

الآباء في أي مكان مشغولون بكونهم آباء، والعُمال الذين فقدوا وظائفهم لا يَشذون عن القاعدة. إنهم يُناضلون من أجل الحصول على مكافآت إنهاء الخدمة ويُحاولون التفكير في طريقة لإعالة أولادهم. وكارلا لا تشذ عن القاعدة.

لقد اعترفت قائلة: «سمعتُ شائعات عن انتقال فُرص العمل إلى السلفادور ونيكاراجوا لأن أجورنا في هندوراس هي الأعلى في منطقة أمريكا الوسطى. حتى وإن كانت هندوراس بها الراتب الأعلى، فأنا لا أحصل إلا على [٦٥ دولارًا] في الأسبوع، ولكن يجب عليَّ أن أدفع فواتير المرافق والهاتف والإيجار وأُلحق ابنتي بالمدرسة.»

إذا كنتَ غير مشترك في نقابة، فإن وظيفتك عُرضة لخطرٍ أكبر. وإذا اشتركتَ فأنت تُخاطر بقدرتك على العثور على وظيفة أخرى. وإذا كنت عاملًا عاديًّا أو مواطنًا عاديًّا في هندوراس، فلن يكون بمقدورك أن تُوفر كمية الطعام الكافية لأسرتك.

«الفرص» في هندوراس لا تكاد تكون فرصًا، إنها بكل بساطة فرص تُقلِّل مستوى معاناتك من أجل العيش على الكفاف.

«من تكون ملكة الجمال هذه؟» قلتها وأنا أشير إلى صورة مُهترئة في الألبوم لفتاة في الثانية عشرة من عمرها يُرافقها على طول ممر الكنيسة صبيٌّ يتباهى بربطة عنق جاهزة. كانت ترتدي فستانًا مزخرفًا شديد البياض في لونه.

ردَّت كارلا قائلة: «هذه ابنة أميلكار، جينيسيز.»

أميلكار لديه أطفال! في الواقع، عندما التقيتُ به، كان لديه ابنتان وفي انتظار ميلاد الثالثة. لم يذكر لي شيئًا من هذا، ولكن من المفترض أنك لن تَكشف كل شيء عن حياتك لشخص غريب عاري الجذع التقيتَ به لمدة ١٠ دقائق. كانت جينيسيز تعيش في مسقط رأسها بإحدى قرى مدينة البورفينير مع والدتها، جولانيس.

وبينما كنتُ أتصفح ألبوم الصور، كانت كارلا تُضيف التعليقات على كل صورة: هذه ابنة أميلكار الصغرى، بيتسابي، تبلغ من العمر خمس سنوات. لا توجد صورٌ لابنته الوسطى؛ حيث انفصلت جولانيس وأميلكار — وهي صديقة حميمة له على مدار فترة طويلة — لبضع سنوات، وأنجب أميلكار ابنةً من علاقة أخرى، تُدعى كاري وتَبلُغ من العمر ثماني سنوات. شاهدتُ أيضًا صورًا لحفل عيد ميلاد وصورًا لتجمُّع عائلي وصورًا لحفل تخرج. بالتدريج كشفَت صورة تلو أخرى النقاب عن تفاصيل حياة وأسرة.

ومن حينٍ لآخر، كانت والدة أميلكار تُعلِّق بقصة تخصها عن أميلكار.

كان أميلكار يُعاني من مشكلة الإفراط في شرب الخمور، ولكنه كان أبًا وأخًا صالحًا حين لا يكون ثملًا. كان يحب كلبه وشطائر التورتيلا التي تصنعها والدته. لقد فشلَت زيجتهما، ثم حاولا أن يُصلحا الأمور بينهما. كان عاملًا بارعًا، ولكن الحياة كعامل ملابس لم تكن كافية.

كثيرًا ما نتعامل مع من يعيشون في الفقر على أنهم جمادات لا بشر. إننا نَرسمهم كشخصيات خاوية مسطَّحة نَشعر حيالها بالشفقة. كنتُ مذنبًا بهذا الشعور عندما التقيتُ لأول مرة بأميلكار وسط سيل جارف من العُمال المندفعين إلى خارج المصنع. كنتُ أشعر بالشفقة حياله حتى من قبل أن ألتقي به. وكنت أخشى مما بدَتْ عليه حياته وأتساءل ما إذا كان أسلوب حياتي فيه تواطؤ مع ما آل إليه حاله. كل ما كنت أعرفه عنه أنه كان يبلغ من العمر ٢٥ عامًا، ويعيش مع والديه، ويحب لعب كرة القدم.

غير أن كل واحد مِنا — سواء أكان عامل ملابس أو أحد أثرياء العالم — بمثابة شخصية معقَّدة لها اهتمامات ونقائص وانفعالات ومشاكل.

بعد أن أقنعتُ كارلا بأنني سائقٌ قدير، وافقت أن تذهب معي لزيارة أسرتها في مدينة البورفينير.

كان يوجد شيء واحد أكيد وهو أنهم كانوا يَفتقدون أميلكار بشدة. فعادةً ما تنتهي قصص الأسرة عنه بضحكة يتبعها تنهيدات. لقد مهَّدتْ لحظات إحياء الذكريات للحقيقة؛ وهي أن أميلكار قد رحل.

قلت: «إنه يبدو رجلًا طيبًا حقًّا.»

أضافت كارلا: «بل هو رجل طيب.» عمَّ الصمت الغرفة باستثناء الإيقاع المحفِّز لموسيقى الصلصة المنبعثة من جهاز الكمبيوتر الموجود بجوار التليفزيون في مكتبة التليفزيون. «بل هو رجل طيب.»

لقد قطعتُ كل هذه المسافة من ولاية إنديانا لتعقُّب أثر أميلكار. كان جابرييل محقًّا، حين قال إنني لن أخمِّن أبدًا ما قالته والدة أميلكار عبر الهاتف:

«أوه، أميلكار، إنه يعيش في كاليفورنيا.»

إنه يعيش هناك.

لا أظن أنه يوجد شيء أسوأ من راكب مصاب بدوار السفر بالسيارة يجلس في المقعد الخلفي ليَدلَّك على الطريق، ولكنه لم يَقُد سيارة أبدًا من قبل ولا يتحدث اللغة نفسها.

وبعد مرور أربع ساعات من القيادة الوعرة عبر الجبال — توقفنا فيها عدة مرات من أجل كارلا كي تتقيأ — وصلنا إلى مدينة تيجوسيجالبا. صحيح أن مدينة سان بيدرو سولا هي العاصمة التجارية لهندوراس، ولكن مدينة تيجوسيجالبا هي عاصمة البلاد. المدينة مُمتدة عبر شوارع ضيِّقة ووعرة — ربما كدليل دامغ على كفاءة الحكومة في التخطيط العمراني للمدينة — بها بالوعات صرف ليس لها أغطية. أخذتُ أتفادى جميع البالوعات المُتهدِّمة أثناء ما كانت كارلا تقودني على طول شارعٍ أُحادي الاتجاه في الطريق الخطأ. ونِعمَ الفريق.

تقع مدينة البورفينير على بُعد ساعتين بالسيارة شمالي مدينة تيجوسيجالبا. لقد اجتزنا صخب المدينة لنصل إلى هدوء الريف (شكل ٢٧-١). رجال على خيول يَرتدون قبعات. أظنك تتخيَّلها قبعات مثل قبعات رعاة البقر، ولكن هذا أشبه بأن تُطلق على وجبة في الصين بأنها طعام صيني. إنهم لا يَرتدون القُبعات من باب استعراض الموضة، وإنما من باب أداء مهمة محدَّدة؛ وهي حجب أشعة الشمس وحماية عينيك من قطرات المطر

والتلويح للماشية وتحية الجيران. اجتمع بعض الرجال وهم يمتطون خيولهم للحديث عند نقطة التقاء الطريق الترابي بالرصيف. وآخرون في طريق عودتهم إلى منزل من العمل بعد الظهيرة. كانت الخيول تمر خلال الحُفر التي تملأ الشوارع ومن فوق المطبات الصناعية بلا تردد. وكنت أنا أمر عليها في توتر وفزع شاعرًا بالإجهاد خلال البضعة الأميال الأخيرة لرحلة قيادة امتدَّت ست ساعات.



شكل ٢٧-١: في شوارع مدينة البورفينير.

بدأت كارلا تُهندم نفسها في المرآة الجانبية للسيارة؛ ومن ثم عرفت أننا اقتربنا. تركنا الطريق المرصوف. كانت كارلا قد انقطعت عن زيارة مسقط رأسها قبل عامين.

أثرنا فضول المارة. كانت كارلا تُومئ للمارة وأصحاب المتاجر الذين كانوا ينظرون إلينا. حينها خطر على بالي ما يبدو عليه الموقف للناظرين؛ ها هي كارلا تعود لزيارة أسرتها بصحبة زوجها الأجنبي الذي لم يكن لديه ما يَكفي من الفطنة لتأجير شاحنة قادرة على السير في شوارع البورفينير الوعرة. اعتدلَت في جلستها ولوَّحت بيدها كما لو أننا في عرض عسكري.

انعطفتُ إلى زقاق، ثم إلى زقاق أضيق قبل أن تُوجِّهني كارلا في النهاية للتوقف عند تجمُّع غفير من الأطفال المتقافزين. كان يوجد أبناء أعمام وأبناء إخوة، وبنات إخوة لأبناء

أعمام أبناء الإخوة، وجيران من أعمام الخالات. لم أستطع حفظ الأسماء والمواضع التي تنتهي عندها علاقة وتبدأ أخرى، فالجميع كانوا يحيِّنوننا باعتبارنا أفرادًا من الأسرة.

كان الباب الأمامي — وهو عبارة عن بوابة خشبية في ارتفاع الخصر — للمنزل المبني من قوالب أسمنتية مفتوحًا على مصراعَيه، قادوني إلى الأريكة وقُدِّمَت إليَّ كأس من الكوكا الفوارة. كان هذا منزل خالة كارلا وأميلكار. كانت حجرة المعيشة والمطبخ يتشاركان غرفة طويلة ومفتوحة. كانت توجد قِطع أثاث بالغرفة تكفي لجلوس اثنَي عشر فردًا على الأقل، إلا أنها كانت مُمتلئة عن آخرها. كانت الرءوس الصغيرة تختلس النظرات من فوق البوابة ومن وراء ستائر النوافذ التي كانت بلا ألواح زجاجية. كان بعض أفراد الجموع يَحدوهم الفضول بكل بساطة حيال مجيئنا، ولكن انتابني شعور بأن هذا المنزل هو مركز لجميع أفراد عائلة أميلكار.

تعرفت على الفتاة الموجودة في آخر الغرفة بوصفها ملكة الجمال صاحبة الصورة التي رأيتها في مدينة فيلانويفا. تدلَّت حلقات متموجة مشدودة من تسريحة ذيل الحصان خاصتها وانسدلَت على ظهرها. تعلقت ابنة أميلكار، جينيسيز، بذراع شابة تبدو أصغر كثيرًا من أن تكون والدة الفتاة. كانت كلتاهما تضعان مساحيق التجميل وترتديان قميصَيْن مُتناسقَيْن لونهما وردي. وبينما كان يحدق بي الجميع في فضول واضح، كانت الأم وابنتها يختلسان النظر ناحيتي.

قالت كارلا: «كيلسي، أُقدم لكَ جولانيس وجينيسيز.» نهضتُ وصافحتهما.

لقد اتَّصل أميلكار وأخبر جولانيس بأن شخصًا أمريكيًّا غريبًا كان قد زار والدته وأخته بصدد قطع كل هذه المسافة من مدينة سان بيدرو سولا ليُقابلها. وها أنا ذلك الغريب الأمريكي وها هي الآن تُصافحني.

جلستُ أنا وكارلا وجولانيس وجينيسيز على طاولة بلاستيكية وتناولنا الغداء. كان غداءً هادئًا دون الكثير من الكلام باستثناء تعليقات عما إذا كان يروق لي الطعام والإقامة في هندوراس. قدمت الإجابات التي أُقدِّمها دومًا حين أُسئلُ هذه الأسئلة بصرف النظر عن الدولة التي أزورها: أجل، الطعام رائع وأهل البلد ودودون فعلًا!

وبعد تناول الغداء، توجهنا إلى قلب القرية عابرين شارعًا مرصوفًا بالحجارة. لم تكن توجد مصابيح إنارة في الشوارع، وإنما كان القمر بدرًا مكتملًا يُلقي بظلاله على الأشكال المتحركة — لأجسادنا أثناء السير — التي تختفي أمام الأضواء المتراقصة للسيارات العابرة. أحضرنا آيس كريم ووجدنا بعض المقاعد في حديقة في الجهة المقابلة من الشارع.

طارد مجموعة من الأطفال حمارًا إلى خارج ملعب كرة السلة، الذي لم تكن به سلة، وشرعوا في لعب كرة القدم. تناولنا الآيس كريم وشاهدنا المباراة. كان اللاعبون مزيجًا من الصِّبية والبنات. بعضهم كان جادًّا بخصوص المباراة، والبعض الآخر كان جادًّا بخصوص المغازلة.

كان أميلكار وجولانيس حبيبَين من المرحلة الثانوية وجارَين في نفس المنطقة السكنية. تواعَدا لأول مرة قبل ١٥عامًا في هذه الحديقة، لتتشابك أيديهما لأول مرة، ويُضايقهما أصدقاؤهما على الأرجح. لم يعودا يلعبان أو يطارد كلٌّ منهما الآخر أو يأملان في مشاركة أحدٍ لحظات الوداع الخرقاء. لقد اختارا.

قالت جولانيس: «كنتُ معجبةً به. كنت أضع عيني عليه.» ثم وضعَت يدها على عينيها. لم تتمالك جينيسيز نفسها من الضحك؛ ففكرة الإعجاب والغزل بين والدَيكَ هي فكرة مثيرة للضحك. واستطردت قائلة: «لقد سألني عما إذا كنتُ أرغب في الخروج، فوافقته على الفور. سألني يوم الجمعة وخرجنا معًا يوم السبت.»

وبعد مرور خمس سنوات، كانا لا يَزالان معًا ويعيشان مع والدَيها. وبعد فترة وجيزة، استقبَلا مولد جينيسيز.

كان أميلكار يعمل في الحقول بالقُرب من بيت خالته مع خاله خوسيه أنطونيو، يَزرعان الفول والذرة ويحصدانهما. قال خوسيه أنطونيو إن أميلكار كان عاملًا بارعًا. ولكن السنوات الأولى من علاقتهما لم تكن رغدة وهانئة.

قالت جولانيس: «كان يُفرط في الشراب ويهدر المال على الكحوليات.»

أحيانًا كان لا يعود إلى المنزل في المساء؛ إذ كان يسهر في الخارج ليَسكر ويبيت في الفندق لدى صديقٍ له كان يعمل هناك. كانت أمسياته تمتلئ بمزاح السكارى واصطدام الزجاجات الفارغة بالأسفلت. كان يَخون جولانيس.

أدركا أنه يوجد ما هو أكثر من الحياة الريفية في مدينة البورفينير؛ ومن ثم انتقلا إلى مدينة سان بيدرو سولا حيث عمل أميلكار في عدد من مصانع الملابس المختلفة. كان يصنع الملابس لصالح شركتَي نايكي وبوما وغيرهما. وواصل السهر لوقت متأخِّر من الليل. انفصل أميلكار وجولانيس. كان قد أنجب ابنة أخرى تُدعى كارين، بعد قضاء ليلة مع الأصدقاء في شرب الخمور. تصالح أميلكار وجولانيس. ثم التقى أميلكار بشخص أجنبي مجنون لا يرتدي قميصًا خارج مصنع دلتا حيث يعمل. وأنجبت جولانيس ابنتهما الثانية، بيتسابي، عام ٢٠٠٦.

كان أحد أصدقاء أميلكار قد رُحِّل من الولايات المتحدة مؤخَّرًا إلى هندوراس وكان يُخطط للعودة مرة أخرى. وكان لدى صديقه قصص عن جميع الفرص التي تنتظره في الولايات المتحدة وهذه الفرص تستحق المُخاطَرة بخوض رحلة محفوفة بالمخاطر من هندوراس عبر جواتيمالا والمكسيك. وخلال تلك الفترة نفسها، كافأت شركة دلتا أميلكار بعلاوة قدرها ٣٣٣ دولار على أدائه الممتاز في المصنع.

أعطى جولانيس ثلث المبلغ وأعطى والدته الثلث الثاني واحتفظ بالباقي لنفسه.

في الساعة السادسة من صبيحة يوم ٣٠ مارس ٢٠٠٧، كان من المفترض أن يَلتقي أميلكار بثلاثة من أصدقائه على الطريق الرئيسي. وبدلًا من ذلك، شرع في شرب الخمور. كان مُتحمِّسًا رغم حزنه. لم تكن بيتسابي قد بدأت تزحف بعد. ولم يكن قد سمعها تقول «بابا.» ولم يَكن معلومًا ما إذا كان سيسمع هذه الكلمة أبدًا.

وفي السابعة صباحًا، عثر عليه أصدقاؤه وهو شبه ثَمِل عند الشرفة الأمامية لمنزل والدته. وعندما غادر أميلكار، ودَّع أسرته ومسد على رأس كلبه ديوك للمرة الأخيرة.

وبمجرد أن خرج من منزل والدته، لم ينظر وراءه ثانيةً.

قالت جولانيس، وقد لمع العرق أو الدموع أو كلاهما على وجنتَيها في ضوء القمر: «عندما رحل، انتابني شعور سيئ. لم يودعني. [اعتقدت] أنه رجل صالح وسيَعتني بأمرنا.»

لقد حدث الكثير منذ أن تشابَكت أيدي أميلكار وجولانيس لأول مرة في هذه الحديقة.

امتلأ ملعب كرة السلة بالصراخ حين سُجِّل هدف. جلسنا في صمت حتى قطعتُ أنا الصمت.

قلت، وأنا أَعرض عليها صورة لابنتي على هاتفي وهي تَرتدي قبعة رعاة البقر وقميصًا غربي الطراز وحذاءً برقبة عليه شخصيتا باظ ووودي من فيلم «حكاية لعبة» (توي ستوري): «احتفالًا بالهالوين ... كانت ابنتي تتنكَّر في زي رعاة البقر. تبدو كما لو أنها تنتمي إلى مدينة البورفينير.»

علقت جولانيس قائلة: «أوه، جميلة.»

فتابعت قائلًا: «أما بالنسبة لابني، فقد فرغَنا ثمرة اليقطين، وأخرجنا لبَّها وصنعنا ثُقبَين بها لساقيه.» وعرضت عليها صورة لابني، جريفين داخل ثمرة اليقطين. ضحكوا على الصورة، ولكني لست متأكدًا مما إذا كانوا يضحكون على المشهد أم على حقيقة أننا نضع أولادنا داخل ثمار الفاكهة.

أثار هاتفي اهتمام جينيسيز وابنة خالتها. جلست كلٌّ منهما على أحد جانبيَّ، وشغَّلت لهما لعبة الطيور الغاضبة (أنجري بيردز) ثم لعبة شريك كارت. ومن أجل إعطاء شريك دَفعة سرعة، تضغط على زر يجعله يُخرج ريحًا. ولا يوجد طفل في العالم، يَبلغ من العمر ١٠سنوات، لا يُسعده هذا.

سألتهن قائلًا: «ما مقابل عبارة [صنعت صوت إخراج ريح بشفتي] في الإسبانية؟»

أجابت جينيسيز وهي تضحَك بشدة قائلة: «بيدو.»

غادرنا الحديقة وسرنا إلى منزل جولانيس. كانت جولانيس وجينيسيز تشبكان أيديهما.

كان المنزل يقع خلف منزل خالة أميلكار وإلى جوار حقل الفول الذي عمل به أميلكار في وقتٍ من الأوقات. كان المنزل مبنيًّا بالطوب الأسمنتي وله سطحٌ من الصفيح وباب معدني يُصدر صريرًا. ومن الداخل، كان يوجد شراشف بلاستيكية تَفصل المطبخ عن غرفة النوم؛ وهي الغرفة الوحيدة في المنزل. كان الحمَّام محشورًا في ركنٍ من غرفة النوم وراء ملاءة سرير وإلى جوار حوض غسيل. كانت أحبال الغسيل تتقاطع فوق الفراش وكانت أعمال فنية غير كاملة مأخوذة من كتب تلوين معلَّقة على الحائط. كان يوجد جهاز تليفزيون محشور في ركن من غرفة النوم وموجَّه ناحية الفراش المغطى بالغسيل.

كانت جولانيس وجينيسيز يعيشان هنا (شكل ٢٧-٢). أما بيتسابي فتعيش حاليًّا في مدينة فيلانويفا مع أقارب لديهم أطفال في نفس سنها لتلعب معهم.

كان هذا هو المنزل الذي بناه أميلكار. كانت تكلفة الأرض والمنزل نحو ٨ آلاف دولار، وهو مبلغ لم يكن في مقدور أميلكار ادِّخاره قط من العمل في صناعة الملابس في هندوراس.

قالت جولانيس: «انتهى بناء المنزل، ولا بد أن يعود إلى وطنه الآن.»

كان أميلكار يرسل الأموال إلى أهله للمأكل والملبس وتعليم البنات. كما كان يرسل الأموال أيضًا إلى والدة كارين، وهو أمر وصفتْه كارلا بأنه استثنائي بالنسبة إلى الرجل العادي في هندوراس.

شعرت وكأنني شخص مُتطفِّل على حياة أميلكار. ها أنا أجلس في منزلٍ لم يرَه قط، وأتحدث إلى الحبيبة التي لا يستطيع احتواءها، وأضحك مع الابنة التي لا يستطيع معانقتها. طلبت من جولانيس أن تفكر مليًّا في أمور نُسيت منذ فترة طويلة وتُخطط



شكل ٢٧-٢: جولانيس وجينيسيز بمنزلهما.

لمستقبل يصعب تصوره؛ فحضور أميلكار كان محسوسًا في المكان أكثر مما كان ستُصبح عليه الحال لو كان حاضرًا فعليًّا بجسده.

في الخارج، كانت الحشرات تطنُّ، والكلاب تَنبح. كان الهدوء يعم مدينة البورفينير.

قالت جولانيس: «سأنتظره ١٠ سنوات لو اضطررتُ إلى ذلك.» رغم أنها كانت تتوقَّع عودته خلال السنوات الثلاث القادمة.

سألتها: «ماذا ستقولين لأميلكار عندما يعود وترينه لأول مرة؟»

لقد مر أميلكار وجولانيس بالكثير من التجارب. لقد خاطر أميلكار بحياته وصحته ليقطع رحلة تفوق الخيال حتى يصل إلى الولايات المتحدة. أما جولانيس فتُواجه الحياة كل يوم كأمٍّ عزباء.

ضحكت جولانيس وتطلَّعت إلى جينيسيز. توردت وجنتاها؛ فالتفكير به لا يزال يُحرك فيها مشاعر الفتاة المُراهِقة.

ردت قائلة: «سأقول له: «لا ترحل ثانيةً أبدًا، أبدًا، أبدًا!».»
قبل أن أغادر مدينة البورفينير، أعطتني جولانيس خطابًا.
على الجزء الخارجي من الظرف، كتبت: «إلى أميلكار ... من جولانيس.»
وقالت: «من فضلك، أعطه إياه.»

الفصل الثامن والعشرون

رحلة أميلكار

٢٠٠٧

كان قُطاع الطرق المكسيكيون يَحملون السواطير والحجارة، وكان ضباط دوريات حراسة الحدود يحملون البنادق وأجهزة اللاسلكي. بينهما وقف أميلكار وابن عمه إدوين عالقَين في نهر ريو جراندي وأمامهما قرار يتعيَّن عليهما أخذه؛ فبإمكانهما الفرار من قُطاع الطرق من خلال تسلُّق السياج، ولكن في تلك الحالة كانا سيُصبحان عُرضة للترحيل وتضيع الرحلة التي استغرقت شهرين وعرَّضت حياتهما لخطر بالغ دون تحقيق الغرض من ورائها. كما كان بمقدورهما محاولة الفرار من قُطاع الطرق والعبور في يوم آخر.

ركَضا ناحية السياج.

تشبَّثت أصابع أميلكار بالسياج وجذبها عليه؛ شحبت مفاصل أصابعه وكانت أنامله أول جزء منه يكمل رحلة امتدت لأكثر من ٢٠٠٠ ميل. رفع ساقًا، ثم رفع الثانية وقفز إلى داخل الولايات المتحدة.

نجحت محاولته!

أسرع قُطاع الطرق في ملاحقة إدوين وتسلقوا السياج خلفه. كان أميلكار يعرف إدوين منذ وقت طويل للغاية. وكان إدوين يعرف الطريق المؤدي إلى الولايات المتحدة. كانا قد تعلَّقا بجانبَي القطارات السريعة، وهما في حالة من التعب والإرهاق، وتوغَّلا في الصحراء حتى بليت أحذيتهما. تفاديا الحجارة التي ألقاها عليهم سكان ولاية تشيواوا. كانا قد واجها أهوالًا لا توصف ولقيا إحسانًا غير متوقع. الآن يتعقَّب قُطاع الطرق إدوين،

مُحاولين جذبه داخل حدود المكسيك مرة أخرى وإذاقته ما لا يعلمه سوى الله من ألوان العذاب.

أمسك أميلكار بحجر وأخذ يَكشط به السياج ذهابًا وإيابًا. كان الصوت صريرًا رنَّانًا لا يقطعه إلا صياح قُطاع الطرق الذين سحق الحجر أصابعهم.

«أشعر بالأسف حيال أصابعكم؛ ولكنه ابن عمي.» قالها أميلكار في نفسه.

نجحت محاولة إدوين.

دخلا الولايات المتحدة مثلما دخَلا المكسيك وهما ينزفان دمًا وخائفان ومفلسان.

حياهما ضُباط دوريات حرس الحدود، قائلين: «من أين أتيتما؟»

لم يتخيَّل أميلكار احتمالية أن تمر ليلته الأولى بعيدًا عن أسرته في مدينة فيلانويفا على هذا المنوال. اقتحم اللصوص باب غرفة الفندق، ووضعوا سكينًا على رقبته، وشرعوا في تفتيش وبعثرة جميع مُتعلِّقاته المحشورة في حقيبة ظهر بُنِّيَّة. لم يكن بها الكثير لتفتيشه وبعثرته. كان قد حزم بها سترة وجوربَيْن وقميصًا واحدًا وقطعتَيْ ملابس داخلية وفرشاة أسنان. كان ممتنًّا في تلك اللحظة للعمل بنصيحة إدوين بخصوص عدم إحضار أي بطاقة هوية أو صور شخصية.

قال له إدوين: «إنهم سيقتلونك ويَتصلون بأسرتك ويطلبون مالًا.»

كان كل ما يُريدونه هو المال. وفي لحظة اختفى آخر ما تبقى من أموال المكافأة التي حصل عليها أميلكار نظير عمله ببراعة في مصنع دلتا، ولكن كان كل ما قاله في نفسه: «حمدًا لله أنهم لم يقتلوني.»

لم يخطر حتى بباله فكرة العودة ثانيةً. تحتَّم عليه أن ينجح في محاولته الوصول إلى الولايات المتحدة من أجل أطفاله. لم يَغِب عن باله جينيسيز وكارين وبيتسابي قط. فلا يزال يبكي حين يتذكَّر عناقه لبيتسابي الصغيرة أثناء وداعها في تلك المرة الأخيرة.

كان أميلكار قد سافر مع ثلاثة أصدقاء، جميعهم من قرية البورفينير؛ وهم أوسكار و«مكارون» الذي اكتسب كُنيته من حبه للمكرونة، وابن عمه إدوين، الذي كان قد دخل إلى الولايات المتحدة ذات مرة ورُحِّل منها بالفعل.

كانوا قد سافروا من هندوراس عبر جواتيمالا بالحافلة وصولًا إلى حدود المكسيك. وقد دفع أصدقاء أميلكار له ثمن رحلة السفر على متن قارب لاجتياز حرس الحدود.

وبمجرد أن وصلوا إلى المكسيك، ساروا لمدة ثلاثة أيام عبر جبال تُغطيها الغابات. كانوا يسيرون في وقت متأخِّر من بعد الظهيرة أو أثناء المساء على ضوء المصابيح اليدوية

خاصتهم. وكاد أميلكار أن يدوس على ثعبان. كانوا يأكلون سردينًا معلبًا وتونة معلبة. وبحلول اليوم الثاني، كانوا قد أكلوا كل شيء باستثناء كمية قليلة من الفاكهة. صارت زجاجات مياههم فارغة. مروا على دروب جافة للأبقار تختزن بِركًا صغيرة من المياه. جثا أميلكار بجوارها وغرف بملء كفيه مياهًا قذرة ورفعها إلى شفتيه الجافتين.

وصلوا إلى مدينة تينوسيكي، بالمكسيك، في يوم السبت لمواجهة «الوحش»؛ وهو ما يُطلقه المهاجرون على القطارات التي يَقفزون منها وإليها أثناء شق الطريق عبر المكسيك وصولًا إلى حدود الولايات المتحدة. اللحاق بقطار متحرك أمر خطير؛ حيث فقد المهاجرون، صغارًا وكبارًا ورجالًا ونساءً، أطرافهم وحياتهم وهم يلاحقون «الوحش».

أُصيب حذاء أميلكار بطلق ناري، وأصيب أخمص قدميه بالقرح. ولم يكن متاحًا له اللحاق بالقطار المقرر مروره الساعة الخامسة مساءً. فانتظروا حتى يوم الاثنين، حيث ناموا في الشوارع واشتروا الطعام من أكشاك نُصبت خصوصًا للمهاجرين.

صرَّح القس ستورم، وهو قسيس كاثوليكي يُساعد المهاجرين، لقناة يونيفجين الإخبارية الناطقة باللغة الإسبانية قائلًا: «المهاجرون يُمثلون أموالًا كثيرة، سواء كان ذلك بالنسبة لمالكي المتاجر على طول خطوط السكك الحديدية والهيئات الفاسدة ومسئولي الهجرة، أو حتى عصابات الجرائم المنظمة.»

ويتعرض المهاجرون للابتزاز والسرقة والاغتصاب، ويستفيد تجار المخدرات من الإيقاع بالمهاجرين وطلب فدية من ذويهم الموجودين بالولايات المتحدة كمشروع جانبي بجوار تجارة المخدرات. وأفادت اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان بالمكسيك أن أكثر من ١١ ألف مهاجر اختُطفوا خلال فترة ستة أشهر في عام ٢٠١٠.

وعلق القس ستورم قائلًا: «هذا نظام اقتصادي عالمي يَطرد ويلفظ الفقراء رجالًا ونساءً من جميع الأعمار. فالحلم الأمريكي كابوس لعين.»

وبالنسبة إلى أميلكار وأصدقائه، بدأ الحلم — أو الكابوس — لتوه. شق «الوحش» طريقه عبر المدينة يوم الاثنين، وركض إلى جواره هؤلاء الرجال الأربعة، بالإضافة إلى عدد لا يُحصى من المهاجرين الآخرين.

أمسك إدوين بالقطار وجذب نفسه لأعلى. وجاء دور أميلكار. هز القطار الأرض من تحت أقدامه وهز أحشاءه. لم يَركب أميلكار قطارًا من قبل، ناهيك عن محاولة ركوب قطار متحرك. في النهاية، استسلم. كان خائفًا للغاية. وبدا إدوين كما لو كان بصدد أن يقفز من القطار ليبقى معه، إلا أنه سرعان ما اختفى عن ناظريه.

كان أوسكار قد فاته القطار أيضًا، إلا أن مكارون تحرَّك بسرعة بالغة وعلى وجهه نظرة حيرة. تردَّد ثم قفز من القطار ولكن علقت حقيبة الظهر خاصته. تدلى من جانب القطار بينما راقب أميلكار وأوسكار المشهد. تأرجح بعنف ناحية العجلات — حنك «الوحش» — ولكنه قبيل أن يشفطه الوحش ويلتهمه، اصطدم بشجرة ليسقط بعيدًا عن مسار القطار.

وفي اليوم التالي مر القطار ببطء، كان صوته ما زال صاخبًا، ولكن أميلكار ركز على الإمساك به ونَسِيَ الضوضاء. صعد الأصدقاء الثلاثة على متن القطار وصعدوا فوق عربة قطار الشحن. كان كل عربة بها أكثر من ٣٠ راكبًا. أجرى أميلكار حساباته وقدر أن ٢٨٠٠ مهاجر كان على متن هذا القطار. كان ٢٨٠٠ شخص لديهم ٢٨٠٠ سبب يَدفعهم للاتجاه نحو الشمال.

وبعد مرور بضع ساعات، بدأ القطار يُهدئ من سرعته ليقف في محطة. وبدأ الجميع يقفزون خشيةً أن يكون مسئولو الهجرة في المكسيك يُجرون تفتيشًا. لم يرغب أميلكار في القفز من القطار؛ ومن ثم دفعه أوسكار من القطار. وركضا في الثانية صباحًا تحت جنح الظلام الدامس، ليتعثَّرا ويقعا كلٌّ منهما فوق الآخر. وتفرَّقا بسبب الفوضى، وظل أميلكار وحيدًا وخائفًا على مدار الساعة والنصف التالية. لم يكن يعرف الطريق إلى الولايات المتحدة. ما الذي كان سيفعله؟

وكما تبين، لم يتوقف القطار إلا من أجل إجراءات الصيانة. وعندما شرع القطار في التحرُّك ومواصلة السير، ركض من مخبئه ليلحق به والتقى مصادفة بأوسكار ومكارون.

سألهما: «لِمَ لم تتبعاني؟»

ردا قائلين: «لأنك لا تعرف إلى أين أنت ذاهب!» ثم تحوَّلت الضحكات إلى دموع، وتحولت اللكمات على الأكتاف إلى أحضان. لقد ظنوا أنهم فقدوا بعضهم بعضًا. كانوا مُمتنين على نحوٍ لا يُصدق لأنهم لم يَفترقوا.

استقلوا القطار لمدة ثلاثة أيام. نفد ما معهم من مال، إلا أن المهاجرين الآخرين من هندوراس وبليز ونيكاراجوا أعطوهم الطعام والماء. وكان الأهالي المَحليون يقذفون بالطعام والماء للمهاجرين داخل القطارات العابرة عندما تصل إلى ولاية فيراكروز. كان أوسكار ومكارون قد سافرا إلى ولاية فيراكروز من قبل وكانا يَعرفان منزلًا يستقبل المهاجرين. مثل هذه المنازل منتشرة على طول الطريق المؤدي إلى المكسيك، وهي أشبه بشبكة طرق سرية ومخابئ لتهريب العبيد في أمريكا تَزدري سرًّا الظلم الذي يواجهه

المهاجرون. لم يكن لديهم شيء ليُقدموه في المقابل. ولذا من آنٍ لآخر، كانوا يتوقفون للقيام بأعمال التشييد والبناء أو العمل في الحقول لكسب مبلغ زهيد. ولكنهم كانوا يعتمدون بالأساس على إحسان الغرباء والأموال التي يُحولها لهم الأصدقاء والأقارب الموجودون بالفعل في الولايات المتحدة. وأيًّا ما كان المبلغ الذي يحصلون عليه كانوا يتشاركونه. كانت هذه هي رحلتهم «الخاصة».

كان أوسكار يعرف ما ينتظرهم؛ ٣٢ نفقًا عبر أعلى سلسلة جبالٍ في المكسيك. لقد سمع عن المهاجرين الذين تجمَّدوا حتى الموت في الأنفاق. اتصل بأسرته، التي أرسلت له ٤٥٠٠ دولار، وهو مبلغ ضروري لدفع أجرة «القيوط» — وهو شخص يُهرِّب المهاجرين إلى داخل الولايات المتحدة — لتمكينه من عبور حدود ولاية أريزونا. وكلما كانت معك أموال أكثر، زادت المسافة التي يُمكنك قطعها عبر الحدود وكانت الرحلة أكثر أمانًا.

الآن، صارا اثنين.

واجه أميلكار ومكارون الأنفاق معًا. كانت حقيبة الظهر الخاصة بأميلكار فارغة؛ حيث إنه ارتدى السترة الوحيدة وزوج الجوارب وقميصين وقطعتي ملابس داخلية وسروالًا واحد، ولم يكن هذا كافيًا. تلاصَق الرجلان طلبًا للدفء. وبدا أن القطار يهتز أكثر في الأنفاق. كان الصوت والهواء البارد الذي يصل إلى درجة الصفر يَطنان بعنف في آذانهما حتى سبَّبا ألمًا لهما.

عندما وصلا إلى مدينة مكسيكو، أمرهما عُمال القطارات أن ينزلوا من القطار. كانا يشعران بالبرد الشديد لدرجة أنهما كانا يسيران بصعوبة. نزلا بمشقة من القطار وأوقدا نارًا إلى جوار خطوط السكة الحديدية. غلى أميلكار ماءً من أجل تحضير القهوة في زجاجة كوكاكولا بلاستيكية مثقوبة بخرم لتنفيس البخار. ظن أنها فكرة رائعة حتى انفجرت الزجاجة، ليتناثر الماء الساخن المغلي على سمانة ساقه اليمنى لتترك فيها ندبة إلى الأبد. كانت هذه هي المرة الأولى التي شعر فيها بساقَيه منذ ساعات.

حان وقت اتخاذ القرار. كان بإمكانهما محاولة السفر إلى تكساس أو أريزونا أو نيومكسيكو أو كاليفورنيا. في النهاية اعتزم مكارون السفر إلى أتلانتا، بينما عزم أميلكار أمره على السفر إلى نيويورك، واختارا أن يَعبرا مدينة خواريز، وأدركا بعد قضاء ست ساعات في القطار أنهما ذاهبان في الاتجاه الخطأ. نزل مكارون من القطار وأنزل ذراع التحكم الذي يشتمل على المكابح الهوائية للعربة؛ مما أجبر القطار على التوقف.

سارا لمدة يوم متَّجهَين إلى قرية اشتهرت بتهريب المخدرات للحاق بالقطار في مدينة سان لويس بوتوسي. ورصدهما رجال شرطة يَمتطون جيادًا، بالإضافة إلى أربعة أشخاص

آخرين ينتظرون القطار. ركض الصديقان واختبآ، ولكن كان لدى رجال الشرطة كلاب تعرَّفت عليهما بحاسة الشم.

سألهما رجال الشرطة: «هل معكما مخدرات؟»

فأجابا: «كلا!»

أعاد عليهما السؤال: «هل أنتما متأكدان؟»

وجاءت إجابتهما: «أجل.»

أمرهما رجال الشرطة: «اخلعا جميع ملابسكما.»

كان أميلكار مذعورًا. ظن أنه سيُرحل حتمًا إلى هندوراس.

عثر الكلاب على مخدرات مع الرجال الآخرين، وأطلق رجال الشرطة سراح أميلكار ومكارون.

واتفق الصديقان على أنه مهما حدث سيلحقان بالقطار التالي. وتوجَّها إلى منعطف يسير عنده القطار ببطء.

وجاء القطار عند المنعطف، وهو يتحرك بسرعة فعلًا، أسرع كثيرًا من أي قطار آخر نجَحا في اللحاق به. ركض أميلكار كما لو أنه يُطارد كرة قدم في الملعب المفتوح نحو مرمى بلا حارس. أراد أن يلحق بالقطار، ولكنه تراجع؛ ففي تلك اللحظة، رأى ما كان بإمكان «الوحش» أن يفعله. لقد شاهد مهاجرين آخرين يفقدون أيديهم، وقد سمع قصصًا شنيعة عن الأطراف المبتورة والأجساد المشطورة لنصفين.

صرخ مكارون من ورائه. كان قد صعد بأمان على متن العربة الأخيرة. وتعيَّن على أميلكار أن يصعد. ركض على نحوٍ أسرع. وصاح مكارون مرة أخرى. واختلس أميلكار النظر من فوق كتفه. اضطُر مكارون إلى الإمساك بسلم القطار بيدٍ واحدة ومد ذراعه الأخرى. كان الموقف أشبه بمشهد من فيلم إنديانا جونز. أمسكه مكارون وجذبه تحت ذراعه وساعده في تسلُّق سلم العربة.

احتضن أميلكار مكارون بشدة.

قال مكارون وعيناه مغرورقتان بالدموع: «لن أتركك. سندخل الولايات المتحدة معًا.»

في مدينة سان لويس بوتوسي، مكَثا في إحدى الكنائس التي تُئوي المهاجرين وتُقدم لهم المأكل والملبس. ومن هذا المكان، قد يَتكلَّفان ١٥٠٠ دولار ثمن أجرة أحد مُهربي الحدود نظير مساعدتهما على عبور الحدود. كان مكارون يمتلك المال، أما أميلكار فلم يكن معه المبلغ.

قال مكارون: «لن أرحل بدونك.»

استضافتهما سيدة عجوز تُئوي المهاجرين لديها وساعدتهما في العثور على وظيفة في أعمال التشييد والبناء أثناء النهار والعمل في حراسة الموقع في المساء. تقاضيا ١٥٠ دولارًا كأجر أسبوعي. وبعد تغطية النفقات الضرورية، لم يوُفر أميلكار أيَّ نقود تُذكر لدفع جزء من أجر مهرب الحدود. ومن جراء الشعور بالتعب والإحباط، أنفق الصديقان ما كان يمتلكان من مبلغ زهيد على المشروبات الكحولية وأغشي عليهما من السُّكر.

عادا مُترنِّحَين إلى منزل السيدة، يتأبط كلٌّ مهما الآخر على عهدهما: «سنبقى معًا في السراء والضراء.»

بعد مرور أسبوعين، ظهر إدوين وتعانَق الأصدقاء الثلاثة وتنفَّسوا الصعداء. سأله أميلكار عن سبب رحيله بدونهما، واعتذر إدوين على عدم قفزه من القطار لأنه كان يسير بسرعة بالغة. وحكى له أميلكار ومكارون عن أوسكار والقطار المتجمد ورجال الشرطة. كان إدوين بمدينة نويفو لاريدو واتصل بوالدة أميلكار في مدينة فيلانويفا ليطمئن عليه. أخبرت إدوين أنه موجود في مدينة سان لويس بوتوسي.

وبما أن إدوين عاد مرة أخرى، شعر مكارون بالارتياح حيال ترك أميلكار. ودَّع كلٌّ من الصديقَين الآخر وتعانَقا للمرة الأخيرة. لقد عاشا معًا مرحلة الطفولة في قرية البورفينير وواجَها «الوحش» والبرد القارس والجوع والخوف وخيبة الأمل. غادَر مكارون متجهًا إلى أتلانتا. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي قد تَجمعه بأميلكار.

سافر إدوين وأميلكار عبر ولاية زاكاتيكاس ومدينة توريون. وبمساعدة سائق سيارة أجرة لوَّح لموظف تحصيل التذاكر ليبطئ من سرعة القطار. لحقا بالقطار وركبا على متنه لمدة ثلاثة أيام حتى وصلا إلى ولاية تشيواوا حيث رشَقهم الأهالي بالحجارة بدلًا من الخبز أو الماء أو وجبة البوريتو المكسيكية. لقد سئموا من المهاجرين.

في كتاب بعنوان «رحلة إنريكي» (نيويورك: راندوم هاوس، ٢٠٠٦)، حكت سونيا نازاريو رحلة فتًى مراهق من هندوراس إلى الولايات المتحدة، وذكرت التوجه السلبي إزاء المهاجرين:

> لقد انتهى كرم أهالي ولاية فيراكروز. تتحدَّث إحدى السيدات المكسيكيات باشمئزاز عن المهاجرين. هي تتردَّد في فتح القفل المُركَّب على الباب المعدني للسور العالي خاصتهم المصنوع من الجص. «إنني أخاف منهم. إنهم يَكذبون. إنهم قذرون.»

وصل ابنا العم أخيرًا إلى مدينة خواريز. جلَسا مع اثنين من المكسيك وثالث من جواتيمالا، الجميع يُحملق عبر نهر ريو جراندي في العلم الأمريكي الذي يرفرف في أجواء المكسيك الدافئة. أم أنها كانت الأجواء الأمريكية؟

ناقَشا الاختيارات المتاحة أمامهما؛ كان بإمكانهما أن يقفزا السور ويرَكضا بأقصى سرعة لهما ناحية الحدود، أو بإمكانهما أن يدفعا ٤٠٠٠ دولار لمُهرِّب الحدود ليساعدهما على عبور الحدود ويَقفزا السور ويقطعا مسيرة يوم في الصحراء ثم يستقلان سيارة بترتيب من المهرِّب.

كانا بإمكانهما أن يسمعا رفرفة العلم الأمريكي في الهواء.

لم يكن لديهما أيُّ أموال.

نظرا ناحية الشرق، ثم ناحية الغرب. وركضا ناحية الشمال.

سألهما ضابط الهجرة: «من أين أتيتما؟»

قال ابنا العم: «المكسيك.»

«اثبتا ذلك! كم عدد الألوان الموجودة في العلم المكسيكي؟»

كانت إجابة ابني العم صحيحة.

ثم سألهما: «من هو رئيس المكسيك؟»

مرة أخرى أجابا ابنا العم إجابة صحيحة مثلما كانت إجاباتهما عن جميع أسئلته. لقد قضَيا الشهرين الماضيين في المكسيك، فكيف لهما ألا يَعرفا إجابات مثل هذه الأسئلة البسيطة؟

وبعد الهروب بشق الأنفس من قُطَّاع الطريق الحاملين للسواطير، احتُجز أميلكار وإدوين في الساعة السادسة مساءً. وبحلول الساعة الثالثة صباحًا، كانا في طريق العودة إلى المكسيك ومعهما تذاكر حافلة، مُقدَّمة كلفتة كرم من الحكومة الأمريكية، للعودة إلى ولاية ميتشواكان في المكسيك، حيث قالا إنهما قد أتَيا منها. في محطة الحافلات، كانت التذكرتان بثمن تذكرة واحدة. حصَلا على تذكرتين إلى مدينة مكسيكالي حيث يأملان العبور ودخول ولاية أريزونا.

استضافهما عجوز في مدينة مكسيكالي. مكَثا عنده ٢٥ يومًا وفي تلك الأثناء اتصلا بالأقارب ليجمعوا ٢٠٠٠ دولار أجرة مُهرِّب الحدود ليُدخلهما إلى مدينة إنديو في ولاية كاليفورنيا. لم يستطع أميلكار الوصول إلى صديقه في نيويورك ولذا قرر الذهاب إلى مدينة إنديو حيث يعيش خاله.

وتحت جنح الليل، زحفا إلى الحدود عبر الصحراء من خلال ممر. زحَفا لمدة أربع ساعات، ثم مكَثا ينتظران وسط حقل حشائش.

منذ أكتوبر ٢٠٠٦ وحتى مايو ٢٠٠٧، اعتقل ضباط حرس الحدود الأمريكية ٣١٩٩٣ مهاجرًا، وعُثر على جثث ٦ مهاجرين؛ حيث إن المهاجرين يغرقون في الخنادق ويموتون من تعرُّضهم للحرارة والبرودة والعطش. ويُقتلون على أيدي أفراد ميلشيات الحراسة.

وفي شهر أبريل، ألقى الرئيس بوش خطبة بالقرب من مدينة يوما، مادحًا تأمين الحدود الأمريكية وإغلاقها أمام المهاجرين. لا يوجد أحد على يقين بأعداد من عبروا الحدود، إلا أن عدد المعتقلين انخفض بنسبة ٦٨ بالمائة في مدينة يوما. واعتُقل ٢٥٢١٧ مهاجرًا أثناء الأشهر الستة السابقة مقارنة بـ ٧٩١٣١ مهاجرًا أثناء الفترة نفسها من العام الماضي.

قال الرئيس بوش: «عندما تَعتقل عددًا أقل من الناس، فإن هذا يعني أن عددًا أقل حاول عبور الحدود. لقد تراجع عدد من يُحاولون عبور الحدود لأننا نمنع الناس من محاولة العبور بطريقة غير شرعية في المقام الأول.»

ويقدر المسئولون الأمريكيون أن ١٢ مليون مهاجر غير شرعي يَعيشون في الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن ١٣ ألف فرد من أفراد الحراسة يتولون حراسة الحدود؛ فإنه يفد كل عام إلى البلاد نحو ٤٠٠ ألف مهاجر. كان أميلكار واحدًا منهم.

قبل ثلاثة أشهر مضت، كان أميلكار قد عانَق بيتسابي مودعًا. ومنذ ذلك الحين، وهو يتعرض للسرقة والعناق والترحيل.

أخذتهما شاحنة إلى غرفة في فندق بها ١٣ مهاجرًا آخر في حالة من الإرهاق والاتساخ والتوتر والذهول. ووصلت مقطورتان إلى الفندق. أُمر إدوين بأن يصعد إحداهما وأن يصعد أميلكار الأخرى.

الآن، صار أميلكار وحده، ومصيره في أيدي المهربين.

أمر المهرب ١٤ مهاجرًا آخرين أن يحشروا أنفسهم في الجزء الخلفي من المقطورة مع أميلكار وأغلق الباب. وبعد مرور ثماني ساعات، انفتح الباب ولأول مرة يرى أميلكار هذه البلاد الجديدة بوضوح.

كان أميلكار في الولايات المتحدة.

وكنت في كمبوديا.

الفصل التاسع والعشرون

حلم أمريكي

ديسمبر ٢٠١١

«ديناصور، ديناصور ... إيه بي سي! ديناصور، ديناصور ... نَتن!» قالتها ابنتي هاربر، ذات السنوات الثلاث، وهي تتظاهَر بأنها تقرأ من كتاب في مكتبتها. نظرت إليَّ وضحكت. كانت ضحكتها عميقة وعفوية ونقية مثل المتعة الخالصة.

روتين النوم الخاص بهاربر بعيد كل البعد عن أي روتين كان؛ أولًا: أُحممها فتكون النتيجة خروجي من الحمام نصف مبتل. ثم أُنظف لها أسنانها في حين تقرع هي رأسي، بعد ذلك آخذها إلى غرفتها. ثم تأتي آني وتقرأ لها لمدة ١٥ دقيقة بينما أستحمُّ أنا. وعندما أعود، تطفئ هاربر الأنوار وتشغل أسطوانة ألبوم «العودة إلى زاوية بوه» للمُغني كيني لوينس. ثم أُجلسها على الكرسي الهزاز وأحكي لها حكاية عن الحيوان أو الدمية التي تختارها مع وجود تحذير واحد: يجب أن تشارك دومًا في البطولة. ثم أضعها في الفراش وأُحضر لها مشروبًا وأُهدهدها في الفراش وأستلقي بجانبها وأشغل الأسطوانة مرة أخرى ثم أغادر الغرفة.

وهذا عندما تسير الأمور بسلاسة، ولكن هذا لم يحدث في تلك الليلة.

كانت هاربر تجلس على الكرسي الهزاز تقرأ لي. وأخيرًا، طلبتُ منها أن تأوي إلى الفراش.

قلت لها: «سأتغيَّب على مدار الأيام القليلة القادمة؛ ولذا أتمنى أن تكوني طفلة مُطيعة لأمكِ، اتفقنا؟»

«أبي، لديَّ شيء أريد أن أخبرك به.» ثم اقتربت مني وهمست في أذني: «أبي، لا تتركنا. فأنت أفضل فتًى بالنسبة إليَّ. أحبك كثيرًا جدًّا. وأفتقدك حين تغيب.»

تشتمل سلوكياتها الليلية الغريبة على آلام المعدة وآلام العين وآلام الأسنان. ذات مرة، خبطَت رأسها عن عمد في الحائط ثم صرخت قائلة: «آاااخ! رأسي! أبي، لقد آذيتُ رأسي!» ولكنها كانت تمثيلية بارعة. فأنا فتاها المفضَّل ولم تكن ترغب في رحيلي. أخذتُ أُهدهدها لوقت أطول من المعتاد قبل أن أضعها في الفراش. لم أكن لأتغيَّب سوى ثلاث ليالٍ فقط ... هذا كل ما في الأمر. عندما سافرتُ إلى بنجلاديش وكمبوديا والصين، غبت لمدة ثلاثة أشهر. ولكن الأبوة تُغيرك بطرق لم تتخيلها قط؛ فهي تجعلك تفعل أشياء لا تظن أبدًا أنك ستفعلها. وثمة أحد يفتقدك حين تغيب، وثمة أحد بحاجة إليك دومًا.

«يجب أن أذهب، يا حبيبتي.»

«لماذا، يا أبتِ؟»

«يجب أن أبحث عن صديق.»

«كيلسي!» قالها أميلكار وهو يَصيح عبر هاتفي. أعرف أنه لا يفترض أن تتحدث أثناء قيادتك للسيارة في شوارع كاليفورنيا، ولكن لا يُفترض أيضًا أن تأتي من هندوراس وتتسلل عبر الحدود. تابع يقول: «هل تقود سيارة برتقالية؟»

«أجل.» قلتها وأنا أدير رأسي يمينًا ويسارًا كعرف متبع حين تبحث عن شخص عثر عليك بالفعل. واستطردتُ قائلًا: «أين أنت؟»

أجاب قائلًا: «عند محطة الوقود ٧٦.»

استدرت وعدت أدراجي إلى محطة الوقود على الطريق السريع رقم ١٠. لوح لي رجل يقف إلى جوار سيارة زرقاء داكنة بينما كنت على بعد مسافة قصيرة منه، منتظرًا إشارة المرور.

كان يرتدي حذاءً وقميص رعاة البقر وحزامًا ذا إبزيم كبير الحجم. كان يبدو كما لو أن مكانه الطبيعي فوق ظهر حصان في قرية البورفينير.

أقبل عليَّ فاتحًا ذراعيه ليحتضنني بشدة. لا أحد في السيارات المارة على الطريق كان ليُخمِّن أننا لم نتقابل إلا لبضع ساعات قبل ست سنوات.

لقد صار أكبر في السن وأضخم في الجسد وأكثر حكمة أيضًا. كانت أطراف شعره تغطيها لمسة خفيفة جدًّا من اللون الرمادي؛ خفيفة لدرجة أنك ربما لا تُلاحظها لو لم

تكن على مسافة قريبة تَسمح بالعناق. لقد زاد وزنه بمقدار ٣٥ رطلًا منذ آخر مرة رأيته فيها.

ثمة شيء يجمع بيننا. لم يَسعْني إلا أن أبتسم الابتسامة البلهاء نفسها التي كنتُ ابتسمتُها من أمام المصنع حين التقيتُ به لأول مرة. وابتسم هو أيضًا.

قلت له: «السبب الحقيقي وراء مجيئي إلى هنا هو: أين التي-شيرت الخاص بي؟! أريد أن أستعيد التي-شيرت الخاص بي!»

ربت كلٌّ منا على ظهر الآخر وحدَّق كلٌّ منا في الآخر. لقد جَمَعَنا تي-شيرت، إلى أي مدًى كان هذا مستبعدًا؟

علقت قائلًا: «لقد مرَّت ست سنوات. وحدث خلالها الكثير.»

حكى لي قصة اتصال كارلا به وإخباره بأن شخصًا أمريكيًّا يدَّعي أنه التقى به في المصنع وألَّف عنه كتابًا.

في البداية، لم يَتذكَّرني أميلكار حين أخبرته كارلا عن وصولي إلى هندوراس، وهو ما لم أَستطع تصديقه. لقد غيَّرت مقابلتي له مجرى حياتي. لم يكن التغيير مرتبطًا كثيرًا بما قاله أو ما حدث حين التقيتُ به، وإنما غيرني كل الأسئلة التي لم أحصل على إجابة عنها بخصوص حياته وحياة العُمال الآخرين من مختلف أنحاء العالم. ومع ذلك لم يتذكَّر اسمي أو ما الذي كنت أفعله في هندوراس أو أي شيء آخر، باستثناء شيء واحد بسيط. تذكر التي-شيرت المرسوم عليه شخصية تاتو من مسلسل «جزيرة الخيال» (فانتازي أيلاند) يدعو الناظرين: «تَعال معي إلى جنتي الاستوائية.» تذكَّرَني وأنا أخلع التي-شيرت وأعطيه إياه.

لطالما كنتُ أشعر بالخجل من إعطائي له التي-شيرت الذي كنتُ أرتديه والوقوف عاري الجذع إلى جواره لالتقاط صورة. كنت كلما تذكرت ذلك، قلتُ ليتني لم أفعل؛ فقد عكس ببراعة ضحالة بدايتي الخاطئة. كان الأمر كذلك إلى أن اكتشفتُ أنه لولا سخافة تصرفاتي ما كان ليتذكَّرني على الإطلاق.

ومن بين الأشياء الأخرى التي تذكَّرَها في ذلك اليوم أنه ظن أنني كنت بحاجة إلى المساعدة وأنه كان ثملًا.

مقابلة أميلكار كانت أشبه بمقابلة أحد المشاهير. هو شخص كنتُ أفكر فيه، شخص تحدثت عنه لدرجة أنه كاد أن يتحول إلى أسطورة. ما زال أمامي الكثير جدًّا لأعرفه عنه.

قال لي: «كيلسي، إن زوجتي تَنتهي من العمل في الساعة ٣:٣٠ وستُقابلنا هنا.»

تساءلت: «ماذا؟»

«زوجتي ... إنها آتية إلى هنا.»

كان يتحدث القليل من الإنجليزية، وكنت أتحدث القليل من الإسبانية. ولهذا، ثمة تفاصيل كثيرة فُقدت في غياهب الفجوة اللغوية بيننا. زوجة؟ وماذا عن أسرته وجولانيس في هندوراس؟

علق قائلًا: «زوجتي هنا. زوجتي في الولايات المتحدة ... إنها آتية إلى هنا وتستطيع أن تترجم كلامنا.»

ذكر بناته وتسلَّلت العواطف إلى نبرة صوته. ذكر الهجرة وفتح محفظته وعرض عليَّ تصريح العمل في كاليفورنيا الخاص به. وتحدَّث عن الغرامات وزواجه.

كان أميلكار متزوجًا.

سألته: «هل تزوجت من أجل الحب أم من أجل التأشيرة؟»

أجاب قائلًا: «من أجل الحب.»

وقفت سيارة ماركة هوندا كستنائية اللون وخرجت منها سيدة في الحادية والعشرين من عمرها. أشرق وجه أميلكار وعانقها وقبلها وهو يُربِّت على بطنها.

قال: «صغيري!» كانت حاملًا في الشهر الثالث.

قالت: «سعدتُ بلقائك، يا كيلسي. أنا مايرا.»

أشار إليَّ أميلكار لأجلس في المقعد الأمامي من السيارة وجلست مايرا في الخلف. سحبتُ حزام الأمان لأثبته في الجانب الآخر إلى جواري.

قال أميلكار: «إنه لا يعمل ...» ثم أشار إليَّ بأن أدس حزام الأمان أسفل ساقي لكي يبدو أنني أرتديه. أحيانًا يكون التظاهر بالامتثال للقانون على نفس قدر أهمية الامتثال له فعليًّا.

قدنا السيارة بضع دقائق، ثم أوقَف أميلكار السيارة في الشارع.

قال وهو يشير إلى خارج نافذتي: «هذا أول منزل لي. إنه قبيح للغاية بالنسبة إلى مدينة إنديو.» كما هي الحال مع الكثير من الأشياء، بدا المنزل من بعيد على خير ما يرام. ولكن حين دخلناه، أدركت أنه ليس منزلًا واحدًا، وإنما أربعة منازل صغيرة متقاربة بعضها من بعض. وعن قُربٍ أكثر، يمكنك أن ترى الطلاء المتقشر والستائر الممزقة. كان أحد هذه المنازل له نوافذ ذات ألواح خشبية متقاطعة.

عاش أميلكار هنا مع ثلاثة شباب آخرين.

«ظننتُ أنني سأعمل في الحقول أو المصانع.»

عندما وصل لأول مرة، حصل على وظيفة في أحد المصانع التي تصنع وتُشكِّل أسطح الجرانيت للطاولات والنضد وتُوزِّعها على المناطق المحيطة. ثم أصيب كاحله في أثناء لعب كرة القدم، وساعَده خاله في الحصول على وظيفة في متجر بيع أحذية؛ حيث عمل كأمين خزينة واكتسب خبرة في مجال خدمة العملاء.

لقد اكتسب خبرة في البيع. في الواقع، كان بيع الأحذية يَسري في دمه.

«اعتادت أمي تعبئة الخبز، وكنت أنا أتولى بيعه. وكان أبي يبيع الأحذية، لم أظن قط أنني سأبيع الأحذية أيضًا.»

كانت مهارته في بيع الأحذية مصدرًا لفخر الأسرة. وأتذكر حين كنتُ في مدينة فيلانويفا، أخبرتني والدته قائلةً: «حتى وإن دخلت المتجر ولم تكن راغبًا في شراء حذاء، فسوف تَخرج من الباب ومعك حذاء.»

وأضافت كارلا قائلة: «ذات يوم، دخل شاب إلى المتجر — مكسيكي [مهاجر غير شرعي] — وكان يحتاج إلى حذاء. ونظرًا لأنَّ أميلكار كان موجودًا، قدَّم للشاب صفقة جيدة.»

توقَّفنا عند متجر زاباتيريا جواردادو، وهو المتجر الذي شق فيه أميلكار طريقه حتى وصل إلى منصب المدير في النهاية. كان مكتوبًا على فاترينة العرض عبارة «تخفيضات لتصفية النشاط التجاري.» كانت الوظيفة في متجر الأحذية مكَّنته من سداد ٨ آلاف دولار تكاليف بناء المنزل الذي تعيش فيه جولانيس وجينيسيز. لم يكن أميلكار يَكسب هذا المبلغ من العمل طوال عام في مصانع الملابس بهندوراس. وكان يَدفع مصاريف تعليم بناته من الوظيفة. كما أنه أعطى أخاه ٦ آلاف دولار لكي يتمكَّن من التوسع في نشاط الأسرة الخاص بتوزيع الخبز. كان السعال الذي تعاني منه والدته أكثر من مجرد نزلة برد مؤقتة، بل كان مرضًا مزمنًا. وحسب تقديره، كان قد أرسل لها أكثر من ألفَي دولار تكاليف علاجها.

«مقاس ٤٤؟» سألني أميلكار وهو يُشير إلى حذائي.

كان مصيبًا تمامًا.

قلت له: «يا إلهي، كنتَ بارعًا في عملك.»

رد قائلًا: «لقد جئتُ إلى هنا من أجل شيء واحد وهو كسب المال.»

كانت وظيفة كهذه هي بالضبط ما جعَل أميلكار يُخاطر بكل شيء ليأتي إلى الولايات المتحدة. كان أميلكار يُحقق نجاحًا. كان حلمه الأمريكي يتحقَّق على أرض الواقع ... إلى أن تبدَّل الحال.

قال: «كنتُ أشعر بالإحباط الشديد. كنت وحيدًا في هذه البلاد. بدأت أشرب الكحوليات ثم أدمنت المخدرات … الكوكايين.» شعر أميلكار بالذنب من جراء الإسراف في شرب الكحوليات بالأموال التي كان من المفترض أن يرسلها إلى أسرته، ولكنه أدمن الشراب. حاول الانضمام إلى جمعية مدمني الكحول المَجهولين، ولكنَّ الأمر لم يفلح. وفي ٣١ ديسمبر ٢٠٠٧، وجد مجموعة دعم إسبانية للمُدمنين المتعافين. كان قراره للعام الجديد هو عدم الاقتراب مطلقًا من الكحوليات أو المخدرات ثانيةً، وكان قرارهم للعام الجديد هو مساعدته في ذلك. ومنذ ذلك الحين أقلع عن الإدمان تمامًا.

وذات يوم، كان أميلكار متجهًا إلى المنزل بعد قضاء وردية عمل في متجر للأحذية حين توقف على جانب الطريق. وبعد قضاء أربع سنوات وهو يتلفت من حوله ويحاول التصرف كما لو أنه يَنتمي للمكان، استطاع أن يُحدق في عين أول ضابط من إدارة الهجرة منذ ذلك اليوم الذي قفز فيه من فوق السور بين مدينتي خواريز وإل باسو.

قال أميلكار: «احتجزتني إدارة الهجرة لمدة ٢٦ يومًا؛ كان يتعيَّن عليَّ مقابلة القاضي. وتم إخلاء سبيلي، ولكن تعيَّن عليَّ دفع غرامة.»

كلَّفته أتعاب محاميه خمسة آلاف دولار وهو مبلغ جمعه من أموالٍ كان يدخرها وسُلفة أخذها من خاله. دفع غرامة بلغت عشرة آلاف دولار، وهذا بفضل سُلفة أخذها من مديره بمتجر الأحذية. ولو لم تَطلب مايرا الزواج منه، لكان قد رُحِّل من البلاد.

كان قد بدءا يتودَّد كلٌّ منهما إلى الآخر في تردُّد قبل ١٠ أشهر من استجواب إدارة الهجرة له. كانت مايرا تتردَّد بانتظام على سوق السلع الرخيصة والمستعملة التي كان يَبيع فيها أميلكار الأحذية وأشارت لها إحدى الصديقات إلى أميلكار وهو يرقص. كان أميلكار يحب الرقص. ففي الماضي، كان يَسكر ويرقص في الحانات، أما الآن فإنه يرقص كلما سمع موسيقى. وشجَّعتها صديقتها على أن تطلب منها أن يُريها بعض الحركات. ثم غادرت خلسة في خجل.

كثرت لقاءاتهما التي كانا يُرتِّبان لها في سوق السلع الرخيصة والمستعملة، وطلب أميلكار رقم هاتفها، إلا أنها لم تُعطه إياه، وبدلًا من ذلك كانت تتصل به من رقم خاص.

بعد أشهُر من الدردشة، ذهبا إلى متنزَّه في مواعدة غرامية.

قالت مايرا: «قبَّلتُه. كان خائفًا.»

وعلق أميلكار قائلًا: «لم يَسبق لي مطلقًا أن تُقبلني فتاة.»

تواعَدا لمدة ثلاثة أشهر قبل أن يُخبرها أميلكار بحياته الأخرى في قرية البورفينير. كانت تظن أن له ابنة واحدة في هندوراس وأن إقامته في الولايات المتحدة شرعية. كما أنه كذَب بخصوص شيء آخر أيضًا.

قال أميلكار: «لم يعد بإمكاني تحمُّل ذلك. لقد كذبت عليك. أنا لا أبلغ من العمر ٢٦ عامًا، بل ٢٩ عامًا. وليس لديَّ ابنة واحدة بل ثلاث.»

ولكنها لم تَكترث؛ لقد أحبَّتْه.

وبعد يومين من إطلاق سراحه من قِبَل إدارة الهجرة، ومع انتظاره لمثوله أمام المحكمة، عرضت عليه مايرا الزواج.

قالت مايرا: «يُمكنني أن أساعدك. تزوجني.»

رد أميلكار: «كلا، لا أريد أن أتزوَّجك من أجل الحصول على الإقامة. لا أريد أن يعتقد الناس بي ذلك.»

في النهاية، وافق، وبعد أن طلب يدها من والدَيها، تزوجا. كان والدها مُتوترًا في البداية، ولكنه الآن صار يحب أميلكار. وعلى الرغم من أن حياته الجديدة قد بدأت، فإنه لم يَنسَ حياته القديمة.

قال أميلكار: «عندما أطلقت [إدارة الهجرة] سراحي، كان يتعين عليَّ البدء من جديد. عملت في مصنع الجرانيت مرةً أخرى. وبعتُ أحذية في سوق السلع الرخيصة والمستعملة في مساء يومَي الأربعاء والسبت.»

تضاءلت الخطط الخاصة بمنزله في قرية البورفينير. اضطرَّت والدته إلى دفع تكاليف علاجها الخاص أو الاستغناء عنه. أخبرتْه أنها تتفهم ظروفه.

انعطف أميلكار إلى شارعٍ مسدود وأبطأ السيارة أمام أحد المصانع. في الخارج وقفَت ألواح الجرانيت كمسلات في حجم النضد. كانت هذه أول وظيفة له وآخر وظيفة أيضًا. فقبل شهرين مضيا، أُصيب ظهره أثناء حمل لوح جرانيت — يزن ٨٠٠ رطل — مع ثلاثة رجال آخرين. فبالنسبة إلى رب العمل، فإن مواطنًا من هندوراس يحمل شهادة حتى الصف السابع ليس له قيمة كبيرة ما دام لا يَستطيع أن يحمل الأثقال على ظهره؛ ومن ثم فصلوه عن العمل.

لم يكن حمل الجرانيت يُمثل شيئًا يُذكر مقارنة بالأعباء التي يَحملها أميلكار كل يوم. ولكن في تلك الفترة امتلأت محفظته ببطاقات حجز موعد لدى اختصاصيي علاج آلام العمود الفقري. كان ما يتكلفه طيلة شهر من مواعيد الحجز لدى هؤلاء الاختصاصيين تعدل أربعة أضعاف التعويض الذي يحصل عليه شهريًّا نظير عجزه.

رفع أميلكار دعوى على شركة الجرانيت. كان حلمه الأمريكي يتمثَّل في وظيفة تُوفِّر الحد الأدنى للأجور وحياة بسيطة تُتيح له إرسال مبلغ صغير لأسرته في هندوراس كل شهر، وقد حُرم من كل ذلك. مررنا من أمام المصنع دون أن نتوقف. وبينما كنا نَبتعد عن المكان، لاحظت رسالة تمر على الواجهة المتحركة لتابلوه السيارة مكتوب فيها: «عُطْل ... عُطْل ... عُطْل.» كانت السيارة في حالة سيئة. فالباب الموجود ناحيتي لا يمكن فتحه إلا من الخارج. اضطررت إلى فتح نافذتي وخرجت منها حين توقفنا. تجاوزَت قراءة عدَّاد المسافات ٩٠ ألف ميل. من الواضح أنها اجتازت أماكن وعرة خلال مسيرتها مما تسبَّب في تقادم السيارة على نحوٍ يفوق قدرة أي عداد على القياس، ومع ذلك ما زالت تشق طريقها.

ثم أخَذني إلى الشقة التي يتشارك هو ومايرا العيش فيها مع خاله. تدلَّت ملاءة أمام الباب. اضطُررنا إلى إزاحتها جانبًا أثناء دخولنا. كانت هذه لمسة من الحياة في هندوراس. كان يوجد تليفزيون بشاشة مسطَّحة ٣٧ بوصة موضوع في مكتبة تليفزيون صغيرة. لم يكن لديهم قنوات الكابل، كان التليفزيون رقيقًا على نحوٍ مُبالَغ فيه لدرجة لا تُتيح معها وضع هوائي عليه، ولذا كان الهوائي مثبتًا على مقشة مربوطة بكرسي معدني. كان يوجد ثلاث غرف نوم. كان أميلكار ومايرا يتشاركان واحدة، وكانت الثانية مخصَّصة لخال أميلكار، أما الثالثة فكانت مكتظة بأكوام من الأحذية؛ أحذية مصنوعة من جلد الثعبان فوق أحذية مصنوعة من جلد حيوان المدرَّع فوق أحذية مصنوعة من جلد البقر فوق أحذية مصنوعة من جلد أسماك شيطان البحر.

نظرت إلى الأحذية المصنوعة من جلد أسماك شيطان البحر. ينبغي أن أقيس واحدة! ونظرًا لأن أميلكار كان يتذكَّر مقاس حذائي، بحث لي عن حذاء مقاس ٤٤. كان الحذاء كستنائي اللون، وعلقتُ قائلًا كم أنا مثير للضَّحك فيه. وافقني أميلكار الرأي. كان يبيع الحذاء مقابل مبلغ من المال يتراوح بين ١٥٠ دولارًا و٢٥٠ دولارًا ويحقق في المعتاد أرباحًا تتجاوز نسبة الـ ١٠٠ بالمائة من صفقة بيع واحدة. وكان يَبيع الأحزمة أيضًا. ونظرًا لأنه لم يعد يعمل في متجر، كان يذهب إلى عملائه سواء في منازلهم أو في محل البقالة أثناء استراحة التدخين خاصتهم.

وبالعودة إلى محطة الوقود ٧٦، وصلنا مايرا إلى سيارتها، حيث كانت بطريقها إلى وظيفتها الثانية بدوام جزئي. كانت تعمل مدة ٢٠ ساعة في الأسبوع بمتجر أحذية بمركز تسوق قريب و٢٠ ساعة في الأسبوع في تصليح ساعات اليد بالمتجر القريب.

تبعنا مايرا إلى مركز التسوق وودَّعها أميلكار بقُبلة عند المتجر قبل أن نتوجه إلى قاعة الطعام. تحدَّثنا عن شطائر التورتيلا التي كانت تُعدها والدته وكيف أنه كان يأكل ١٥ شطيرة في جلسة واحدة، وذلك حين كان نحيفًا. يا إلهي، إنه يَفتقد طعام والدته.

«الطعام الأمريكي ...» قالها وهو يُربِّت على بطنه بطريقة لا تعني أنه طعام «لذيذ» وإنما طعام «يُسبِّب السمنة».

كنا في مواجهة القرارات العتيقة نفسها التي نواجهها في قاعة الطعام: اختيار الأكل من ماكدونالدز أم باندا إكسبرس أم سبارو. قال إنه يريد باندا إكسبرس، ولكنه يريد أولًا أن يحضر شيئًا لمايرا واقترب من منفذ ماكدونالدز.

قال للفتى ذي العينين الزرقاوَين الواقف وراء منضدة منفذ البيع: «هل تتحدَّث الإسبانية؟»

قال الفتي: «أوه، كلا! سأُحضر لك أحدًا.»

لقد مكث أميلكار هنا ست سنوات ولا يُمكنه أن يطلب حتى وجبة بيج ماك.

قلت له منتقدًا إياه: «كل ما عليك فعله هو أن تُشير إلى قائمة الطعام وتقول: «رقم واحد، من فضلك.» يمكنك أن تفعل ذلك.»

قال لي إنني أشبه مايرا؛ فهي تُلح عليه دومًا من أجل حضور دروس تعليم اللغة الإنجليزية وعلى الأقل محاولة تحدُّث الإنجليزية في مواقف كهذا الموقف. كنتُ أعرف الشعور الذي يَنتاب المرء حين يكون غريبًا في بلد. قضيتُ شهورًا متتالية في أماكن كانت قدراتي على التواصل فيها تُعادل القدرات اللغوية لطفل دارج. هذا من شأنه أن يُضايقك لبعض الوقت، ولكن أميلكار كان مقيمًا هنا لسنوات. ما الشعور الذي سيُراودك حتمًا حين تكون غريبًا في وطنك، حين تعيش في مكانٍ لا تنتمي إليه ولكنك مضطر للانتماء له؟

حصل أميلكار على وجبة البيج ماك خاصته وأخذها إلى مايرا قبل أن نجلس معًا لتناول الطعام في علب الفوم من مطعم باندا إكسبرس. طرحت عليه، في تردد، سؤالًا لطالما تردد في ذهني منذ أن التقيت بمايرا.

سألته: «هل تعلم جولانيس بأمر مايرا؟»

أجاب أميلكار قائلًا: «كلا؛ إنني أتجنَّب إخبارها بالأمر لأنني أعرف أنها لا تزال تحبني. تقول لي مايرا دومًا: «لماذا لا تُحضر بناتك إلى هنا؟» ولكني لا أريد أن أكسر قلب جولانيس. ينبغي أن يبقى الأطفال مع أمهم.»

قلت له: «كما تَعرف أنها تظن أنك عائد خلال بضع سنوات وأنكم ستَعيشون جميعًا معًا في البورفينير. هل تحبها؟»

رد قائلًا: «قبل أن أُغادر كنا نتشاجر. كنا نواجه الكثير من المشكلات. أريد أن أراها سعيدة.»

باغته بسؤال آخر: «هل جولانيس أمٌّ صالحة؟»

أجاب: «أجل، بنسبة مائة بالمائة، أجل.»

أخبرني أميلكار بأنه يتحدث إلى جينيسيز وبيتسابي على الأقل مرتين في الأسبوع. وقال إنَّ جينيسيز تظن أنه ينبغي أن تحصل على أي شيء تريده. إنها تعاني من مشكلات في المدرسة؛ فالمدرسون يَصرخون فيها ويضربونها، ويتصلون بجولانيس ويَصرخون فيها. كانت بيتسابي تبلغ من العمر ستة أشهر حين غادَر البلاد. إنها لا تعرفه حقًّا إلا من خلال الهاتف والصور. كان معجبًا بذكائها. أما بالنسبة إلى كارين، كان يودُّ أن يَتحدَّث إليها أكثر، ولكن زوج أمها لا يسمح بذلك. كان أميلكار يتصل بهم مرة واحدة في الشهر ليُخبرهم بأنه أرسل الأموال. وعندما تحدَّث عن أطفاله، تغير لون عينيه وتحول إلى درجات من اللون الوردي. مسح دموعه دون أن يُعطي تبريرًا لبكائه.

قال: «بيتسابي تسألني دومًا متى أعود إلى أرض الوطن. ودائمًا أقول لها: «قريبًا».»

سألته: «وهل أنت أب صالح؟»

فأجاب قائلًا: «لا أظن أنني أب صالح لأنني لست موجودًا لمساعدة البنات. أنا هناك بعقلي، ولكن ليس بجسدي ... عندما أعود، سأُخبرهم بأنني خذلتهم.»

لم يكن بإمكان أميلكار أن يَحتضن بناته. جلسنا في صمت بينما انتابته مشاعر مختلفة وأنا أتخيَّل الوضع. أردت أن أحتضنه. طوال رحلتي، التقيت بأمهات وآباء منفصلين عن أولادهم، ولكن كان هذا قبل أن أصبح أبًا وقبل أن تَطلب مني صغيرتي عدم الرحيل وقبل أن يأسرني ابني الصغير البالغ من العمر ٦ أشهر بابتسامته الصغيرة المثالية. أعرف أنني لا يُمكنني أن أتخيل الشعور الذي يُراودك حتمًا حين تترك جميع أحبائك، بمن فيهم أبناؤك، ولكني الآن أعرف على الأقل إلى أي مدًى يمكن أن يكون حب الآباء لأبنائهم غامرًا ووافرًا. كنت أفكر في جميع اللحظات التي افتَقَدها أميلكار: أعياد الميلاد والإجازات ونقاط التحول. فأول مرة تجلس ابنتي هاربر على نونية الأطفال، شعرت كما لو أنني فُزت بالمباراة النهائية في دوري كرة القدم الأمريكية.

«إنها تضحية من جانبي أن أكون هنا. أنا وحيد ... باستثناء مايرا ... أحيانًا أشعر بأنني أود الرجوع، ولكني في الوقت الراهن أحاول أن أصير مواطنًا. جزء مني يريد

الرجوع، وجزء مني لا يريد ذلك. أود أن أعمل بكدٍّ وأدَّخر مالًا، لكي تحظى البنات بحياة أفضل. لا أريدهن يبعن خبزًا في الشوارع. أودُّ أن أجعل عالمهن مكانًا أفضل.»

أراد أميلكار أن تلتقي والدته بمايرا. والدته، التي قال عنها إنها مثله الأعلى، كانت لا تعرف أن زوجته الأمريكية حامل، بينما كانت كارلا تعرف حيث إنها هي ومايرا صديقتان حميمتان يتحدثان عبر الهاتف ويتفاعلان على موقع الفيسبوك. أراد أن تلتقي أسرته بابنه الأمريكي الذي ينتظر ولادته.

كان يَصبو إلى مرحلة التقاء العالمين الخاصين به.

انتهينا من طعامنا الصيني وعُدنا إلى متجر مايرا لكي يتمكَّن من توديعها مرة أخرى. كانت موسيقى الكريسماس تُعزف في الخلفية، وتُمهِّد لأغنية رود ستيوارت الكلاسيكية من إنتاج شركة موتاون. أخبرني بأنه يحب هذا النوع من الموسيقى وليس الموسيقى المكسيكية. كما أنه يحب براين آدامز.

كانت جميع المتاجر — إيدي باور وجي سي بيني وجاب — تعلن عن أسعار مخفضة بمناسبة الكريسماس، ولكن كانت الأسعار ما تزال مرتفعة جدًّا بالنسبة إلى أميلكار.

قدنا السيارة عائدين إلى محطة الوقود ٧٦ في ظلمة الليل. وعندما وصلنا، أخرجت الكمبيوتر المحمول الخاص بي.

قلت له: «أريد أن أريك الصور التي أخذتها حين كنت في هندوراس مع أسرتك.»

فتحت حقيبة السيارة وشغَّلتُ بسرعة جهاز الكمبيوتر المحمول.

«جدي … أوه … أطفالي.» قالها وهو يشهق حين رأى الصور.

كان جدُّه وجدته يقفان أمام منزلهما في قرية البورفينير، وجينيسيز تحتضن بيتسابي (شكل ٢٩-١). كانت جينيسيز ترتدي تاج ملكة جمال قرية البورفينير وتُمسك بصولجانها. رأى المنزل الذي بناه والعقول التي ساعد في تعليمها والأطفال الذين يصعب عليه احتضانهم. لمعت أمامه حياته السابقة، وتهلَّلت أسارير وجهه. استمرت الحياة بدون وجوده، ولكن بمساعدته.

علق قائلًا: «ارجع إلى الخلف … تقدَّم إلى الأمام …» لم أكن متأكدًا مما كان يريده. بدا وكأنه يريد مشاهدة جميع الصور في الوقت نفسه. وواصل قائلًا: «ارجع إلى الخلف. ارجع إلى الخلف. توقف.»

توقَّفت عند صورة لجولانيس. كانت تخفض رأسها وتغلق باب منزلها، أو بالأحرى منزله. ابتسم ابتسامة حزينة.

قلت له: «هل تريد أن أطبع لك بعض هذه الصور؟»
أجاب قائلًا: «أجل، اطبعها كلها. أريد جميع الصور.»



شكل ٢٩-١: جينيسيز تحتضن بيتسابي بينما كارلا تراقبهما.

قضيت ثلاثة أيام مع أميلكار نتجول بالسيارة ونشرب موكا في مقاهي ستاربكس ونتناول وجبات اللحم المقدَّد من مطعم دينيز. كنا نتسكع في الشوارع نتحدث عن أسرتَينا وما يحمله لنا المستقبل في طياته.

حيَّتنا النادلة بالإنجليزية وسألتنا عما نود أن نشربه. وحين تبين أن أميلكار لا يفهمها، حاولَت أن تسجل طلباتنا بالإسبانية. وعندما اتَّضح أنني لا أفهم تمامًا الإسبانية التي تتحدَّثها، هرشت رأسها في حيرة.

قالت: «هو لا يتحدَّث الإنجليزية وأنت لا تتحدث الإسبانية.»

أجبتها قائلًا: «هذا صحيح.»

ثم توقفت لبرهة طلبًا للتفسير، ولكننا لم نفسر لها شيئًا. في الحقيقة، إنها قصة طويلة نوعًا ما.

كان لديَّ الكثير من الأسئلة لأميلكار حين التقينا لأول مرة: كم تتقاضى أجرًا؟ هل هذه الوظيفة توفر لك ولأسرتك حياة أفضل؟ كيف تبدو ظروف العمل؟ ولكني لم أطرح أيًّا من هذه الأسئلة. أعتقد أنني في قرارة نفسي لم أرغب في معرفة الإجابات.

الآن، أنا أعرف الإجابات، ولا أشعر بأن سعادتي زادت، ولم يَزِد غضبي كذلك؛ فالجهل ليس بنعمة، والواقع أيضًا.



شكل ٢٩-٢: المؤلف وأميلكار من جديد بولاية كاليفورنيا.

فكَّرت في جميع علماء الاقتصاد الذين يُشيرون إلى صناعة الملابس باعتبارها الدرجة الأولى على السلم الاقتصادي. ولكن دعنا لا نتظاهر بأن أميلكار، الذي يدس في اللحظة الراهنة كمية كبيرة من البطاطس المهروسة في فمه، كان لديه وظيفة في هندوراس تكفل له تحقيق جميع آماله؛ فلقد خاطر بحياته تاركًا وراءه عمله وعالمه وجميع أحبائه.

في الليلة الماضية، حاولت أن أشرح لأميلكار كيف أن مقابلته غيَّرت حياتي، ولكن لم تُسعفني اللغتان الإسبانية والإنجليزية.

سألني أميلكار: «كم استغرقتَ للسفر من هندوراس إلى ولاية إنديانا؟»

قلت له وأنا أحسب وقت مغادرتي وفرق التوقيت: «دعني أحسبها، نحو ثماني ساعات.»

«ثماني ساعات. هذا كل شيء؟» كان في استطاعتي قراءة أفكاره تقريبًا. لقد استغرقت رحلة أميلكار ليصل إلى هنا ثلاثة أشهر. لو كان لديه وظيفة شرعية وأوراق سليمة، لاستطاع السفر لزيارة أسرته، ليكون هناك في غضون ثماني ساعات.

انتهينا من وجبتنا وتوجهنا إلى اختصاصي علاج آلام العمود الفقري الذي كان يعالجه. اضطُررت إلى السفر حيث تعين عليَّ اللحاق برحلة طيران مسائية. وفي اليوم التالي، كنت سأقف أمام الباب الأمامي لمنزلي، لتصيح ابنتي هاربر وهي تركض في اتجاهي وتصطدم بركبتي قائلة: «بابا! لقد عدت إلى البيت.» سينظر إليَّ ابني جريفين من فوق كتف آني ويبتسم لي ابتسامة بسيطة. سأحتضن ثلاثتهم في حضن جماعي كبير وسأقول شيئًا يُعبر عن سعادتي. سأعنيه من كل قلبي أكثر من أي وقت مضى.

طلبتُ من رجل يملأ استمارة على درجات السلم خارج المكتب أن يَلتقط لي صورة أنا وأميلكار. ابتسمنا إلى الكاميرا: مسافران ووالدان وصديقان (شكل ٢٩-٢).

قلت له وأنا أُسلمه الخطاب الذي طلبت مني جولانيس أن أعطيه إياه: «أوه، هذا لكَ!»

سرت إلى سيارتي تاركًا إياه ممسكًا بالخطاب وهو يحدق به وحسب؛ رسالة من حياته السابقة.

كانت رحلته بعيدة كل البُعد عن نقطة النهاية!

الفصل الثلاثون

السائح الصبياني: من المحلية إلى العالمية

على جانب أحد التلال التي تلفحها أشعة الشمس بمدينة أديس أبابا، عاصمة إثيوبيا، وقفت سيدة — ترتدي قبعة صفراء للوقاية من أشعة الشمس وصندلًا بلاستيكيًّا وردي اللون — تُؤرجح معولًا خشبيًّا. الصنادل البلاستيكية هي آخر نوع من لباس القدم قد يقع عليه اختيارك أثناء أداء هذا النوع من المهام. والسيدة — التي كانت تبلغ من العمر ما يكفي كي يكون لها أبناء أحفاد في إثيوبيا — آخر واحدة من الناس الذين قد يقع عليهم اختيارك لاجتثاث أرومة إحدى الأشجار. ولكن كان هذا ما تفعله هذه السيدة وعشرات من السيدات الأخريات مثلها. تبع صوت ارتطام المعدن بالأرض والخشب صوت همهماتِ بذْل الجهد. كانت السيدات أشبه بلاعبات التنس وهن يَحشدن كل طاقتهن وراء ضربة من راحة اليد، إلا أنهنَّ كن يُواجهن مهمة أشق كثيرًا.

ناولتْني السيدة مِعوَلها الخشبي، ومسحت حاجبها بمنديل وتجرَّعت الماء من دورق بلاستيكي. توقفَت حركة الفئوس المتأرجحة جميعها بينما توجَّهت جميع العيون إليَّ. حركتُ المِعوَل الخشبي بضربة متأرجحة وأخفقتُ في إصابة الأرومة. انتقدَت النساء أسلوبي وعرضنَ بعض النصائح. أصابت الضربة التالية الهدف وفصلت جزءًا ضئيلًا للغاية من الجذر عن الأرومة. في اليوم التالي، شعرت بالألم.

هذا هو الاقتصاد الإثيوبي — يعتمد على أرض وخشب، أذرع وظهور، تراب وعرق — ولقد ظلَّ على هذه الحال لأجيال. ولكن على الجانب الآخر من التل، غيَّرت شابة — جمعت بين حبها للأزياء وحبِّها للعمل التجاري — وجه هذا المجتمع تدريجيًّا من خلال الأحذية التي تنتجها.

لقد قادتني مغامراتي — باعتباري مستهلكًا مؤثرًا — إلى زيارة شركة سولريبلز؛ وهي شركة أحذية من نوع مختلف للغاية.

دخلتُ عبر بوابة بيضاء متفرعة من طريق ترابي حيث قادتني باثلهام تيلاهون، مؤسسة شركة سولريبلز ومديرتها، في جولة في أروقة المصنع. كانت باثلهام هي من دعاني إلى هذه الزيارة بعد أن عثرت على مدونتي بالصدفة.

ثمة أمور كثيرة غير «معتادة» في مصنع الأحذية هذا. كان أقرب لكونه منزلًا من كونه مصنعًا. ظلَّل خيشٌ أزرق العُمال الذين كانوا يعملون بالمطارق عند الباحة الأمامية، وحماهم من أشعة الشمس. وعلى ارتفاع بضع درجات وعبر الباب الأمامي، كانت توجد حجرة معيشة لا تحتوي على أرائك وإنما تحتوي على ماكينات خياطة.

وفي إحدى غرف النوم التي لا تحتوي على أسِرَّة، جلس رجل يفرش صمغًا على نعلٍ داخليٍّ لحذاء. وفي غرفة أخرى، جلس رجل آخر يصنع أخرامًا في الجزء العلوي من حذاء جلدي.

شركة سولريبلز هي شركة أحذية تشغل مساحة صغيرة جدًّا. والجلد والقطن وحتى الغراء هي خامات جميعها مُتوافرة في محيط ٦٠ ميلًا من المصنع. والنعال المطاطية تُقطَع من الإطارات الفارغة الملقاة على قارعة الطريق.

قالت باثلهام، وهي تُشير إلى الشرائط المموهة الموجودة على زوج من الشباشب المطاطية: «إننا نجمع زي الجيش الإثيوبي ونُحوِّله إلى أحذية. نحب الحفاظ على البيئة بحكم العادات والتراث. منذ فترة طويلة، كان الشعب يَرتدي هذه الأنواع التقليدية من الأحذية ذات النعال المطاطية المُعاد تدويرها. لقد استفدنا من تلك الفكرة حين أسَّسنا هذه الشركة. إننا لا نبتكر شيئًا، وإنما نُدخل تعديلات عليه.»

قادتني باثلهام إلى مكتبها واستغرقت دقيقة تُناقش يوم العمل أثناء تناول قدح من الشاي مع أحد شركائها، وهو أخوها كيروبل. تنتج شركة سولريبلز أكثر من ٨٠ طرازًا؛ بداية من الشباشب المطاطية ذات الألوان البراقة وحتى الأحذية الخفيفة والصنادل ذات السيور التي يمكن ارتداؤها في خروجات مسائية بالمدينة. ولقد تلقَّت الشركة طلبية بقيمة ٤٠ ألف دولار من شركة أمازون بالمملكة المتحدة.

تُصدر شركة سولريبلز منتجاتها إلى ١٤ دولة حول العالم؛ حيث إنها باعت أحذيةً بقيمة تفوق مليون دولار في عام ٢٠١١ وتُخطط لبلوغ مبيعاتها قيمة مليونَي دولار في عام ٢٠١٢، و١٠ ملايين دولار بحلول عام ٢٠١٥. ولكن من وجهة نظر باثلهام، تُعد أهمُّ معادلة على الإطلاق هي المعادلة التالية: المبيعات تُساوي فرص عمل.

تقول: «بدأت شركة سولريبلز كفكرة. كنا نظن أن بإمكاننا توفير فرص عمل للناس لأنه لم يكن يوجد فرص عمل.»

لقد أسسَت باثلهام الشركة بأموالها الخاصة وشغلتْها بدعمٍ ائتماني من الحكومة عبر أحد البنوك المحلية. تؤدِّي شركة سولريبلز مهمة اجتماعية، ولكن باثلهام تريد أن يشتري الناس منتجات شركة سولريبلز لأنه يَروق لهم الأحذية، لا لأنهم يشعرون بأنهم يُسهمون بعمل خيري جراء القيام بذلك. في الواقع، هي تتساءل عن جدوى العمل الخيري وفعاليته.

«مجتمعي المحلي مُنفصل قليلًا عن المجتمعات المحلية الأخرى، وتوجد الكثير من منظَّمات الإغاثة في أرجاء مجتمعي ... ولكن لا يوجد تغيير في حياة الناس. ولذا، نحن نقول: «لماذا لا نحاول أن نغير هذا الأمر؟» إننا نفعل هذا من أعماق قلوبنا.»

تُوظف شركة سولريبلز ٣٠٠ شخص بطريقة غير مباشرة، بداية من العاملين بجمعيات الغزل والنسيج التي تَشتري منها الشركة قماشها وحتى جامعي الإطارات الذين يَجوبون الشوارع بحثًا عن الإطارات الفارغة. ويعمل ٩٠ شخصًا كمُوظَّفين مباشرين لدى شركة سولريبلز، وهم الذين يستفيدون بمميزات لم يُسمع عنها تقريبًا في إثيوبيا؛ حيث إنهم يَتقاضون ما تطلق عليه الشركة أجر «كريم». ويتمتعون بتأمين صحي، وتمويل دراسي لأبنائهم، وإجازة وضع لمدة ستة أشهر.

قالت ووبوياو ليجيس، وهي خياطةٌ وأمٌّ تعمل لدى الشركة منذ أربع سنوات تقريبًا: «قبل [عملي لدى] سولريبلز، كنت أُنظف المنازل وأتاجر في السلع. لديَّ طفلان. وقبل عملي هنا لم يلتحقا بالمدرسة ولم يَدرُسا مطلقًا، الآن يذهبان إلى المدرسة. لقد صارت الحياة أفضل فعلًا.»

انضمَّ إلينا بانتيجان أبيب — وهو رجل ذو شارب مهذب — في مكتب باثلهام. وبعد محادثة قصيرة، عرفت أنه حاصل على الحزام الأسود في لعبة التايكوندو؛ أي إنه رجل غليظ. تحدثت بفخر عن الفترة التي كنتُ فيها رئيسًا لنادي الكونج فو بجامعة ميامي، ولكن هذا لم يُثِرْ إعجابه فيما يبدو (كما كان يُفترض).

«أعمل هنا منذ عامين. إننا نصنع الأحذية بأيدينا، وعندما يَرتديها الناس نشعر بالسعادة. وهذا أمر مُشجِّع حقًّا.»

لقد أتاحت له الوظيفة إلحاق أخيه بالمدرسة وإعالة والديه.

سألته قائلًا: «ما الذي تَعنيه لك باثلهام وشركة سولريبلز؟»

أجاب بانتيجان، وقد ظهر الانفعال في نبرة صوته وسقط قناع الرجل الغليظ، قائلًا: «ليس لديَّ كلمات ... باثلهام مفيدة للمجتمع حقًّا. أتمنى أن تكون سعيدة بتغيرنا. إنها معنا في أعماق قلوبنا.»

وُلدت باثلهام (شكل ٣٠-١) ونشأت وتعلمت في أديس أبابا. وعمل والداها في مركزٍ لعلاج مرض الجذام؛ حيث كانت وظيفة والدها كهربائيًّا بينما عملت أمها طاهيةً. درست باثلهام المحاسبة والكثير من زملائها تركوا إثيوبيا بمجرد أن تخرجوا، ولكنها مكثَت في البلاد.



شكل ٣٠-١: باثلهام جالسة بجوار عاملين يلصقان الأحذية بالغراء.

قالت باثلهام وهي تقودني إلى الباحة الأمامية: «يَهرب الآخرون من هنا. وهذا ليس منطقيًّا بالنسبة لي. كل دولة تواجه مشكلة. وإثيوبيا تواجه مشكلة أيضًا؛ ومن ثم نحن نُحاول مواجهة مشكلاتنا، وأن نحلَّها بمواردنا، وبطريقة تفكيرنا. يمكننا أن ننجح في ذلك.»

تطمح باثلهام أن تجعل شركة سولريبلز النسخة الأفريقية من شركة نايكي. وتفوز هي وشركتها باستمرار بالجوائز وتحظى بالتقدير من منظمات مثل البنك الدولي وبرنامج

مبادرة كلينتون العالمية وصندوق النقد الدولي. لقد اختارتها مجلة «فوربس» كواحدة من أصغر ٢٠ شابة مؤثرة في أفريقيا.

وتُغيِّر شركة سولريبلز حياة الكثيرين.

بينما كنتُ أغادر المصنع، مررتُ على كشكٍ أزرق به مطحنة تُصدر هديرًا. أمسك رجل يرتدي عباءة بُنِّيَّة نعلًا مطاطيًّا واضعًا إياه في المطحنة. قبل برهة، كان النعل جزءًا من إطار اعتُبر عديم الفائدة وغير مرغوب فيه. قطَع نشازُ كشطِ المطاط على المعدنِ الصوتَ الخفيض الآتي من بُعد. تبعني الصوت حتى خرجت من البوابة الأمامية مرورًا بالسيدات اللاتي يُحركن المعاول الخشبية في حركة متأرجحة.

تُشارك شركة سولريبلز في الأنشطة الحيوية التي تمس حياة الكثيرين، وفي خضمِّ هذه المشاركة تصنع الأحذية أيضًا.

تواجه صناعة الملابس الكثير من المشكلات، من بينها عمالة الأطفال والمصانع المستغلة، ولكنها مجرد أعراض مُصاحبة للمشكلة الحقيقية، ألا وهي الفقر.

ثمة سبب يجعل أمًّا عزباء لثلاثة أطفال في بنجلاديش تعمل مقابل ٢٤ دولارًا في الشهر. وثمة سبب يَجعل شابة في كمبوديا تدفع راتب شهر كرشوة للحصول على وظيفة. وثمَّة سبب يجعل عاملًا في الصين يسجل انصرافًا من العمل ويعود إليه بلا مقابل بدلًا من أن يرفض بفظاظة أوامر رئيسه؛ فكل هؤلاء يفتقرون بشدة للخيارات المتاحة؛ لأنهم جميعًا يعيشون في فقر.

يتفق نيكولاس كريستوف — كاتب العمود الصحفي بصحيفة «نيويورك تايمز» — مع هذا الرأي حيث كتب في عموده الصادر بتاريخ ١٤ يناير عام ٢٠٠٩ يقول: «… المصانع المستغلة هي مجرد عرض من أعراض الفقر، وليست سببًا، وحظرها يسدُّ واحدًا من منافذ الخروج من الفقر.» ولكني لست واثقًا من تقديره بأن العمل في مصنع مستغل هو منفذ للخروج من الفقر. ربما يكون كذلك بالنسبة إلى البعض، ولكن العمل في مصنع ملابس لم يكن منفذًا للخروج من الفقر بالنسبة إلى ناري أو آي أو عريفة أو أيٍّ من العمال الذين التقيتُ بهم. لم تتحسَّن ظروفهم. فكَّر أميلكار في احتياجات أسرته، وقيَّم مشواره المهني كعامل ملابس، ثم قرر أن يجازف بالسفر شمالًا نحو مستقبل مجهول. ربما يكون العمل في «مصنع مستغل» أفضل فرصة من بين مجموعة فُرص غير رائعة، ولكنه نادرًا ما يُوفِّر ما هو أكثر من مجرد إبقاء الناس على حافة الفقر المُدقِع.

يَدَّعي كريستوف أن الدول النامية بحاجة إلى المزيد من المصانع المستغلة، ولكني أُعارضه في الرأي؛ فالدول النامية بحاجة إلى المزيد من فرص العمل كتلك التي تُوفِّرها شركة سولريبلز؛ فرص عمل تتيح للآباء إرسال أولادهم إلى المدرسة. هكذا تتمتع صناعة الملابس بإمكانيات هائلة — غير مُستغلة نسبيًّا — لمحاربة الفقر.

تخطط باثلهام لأن توظف شركة سولريبلز ٣٠٠ موظَّف بدوام كامل بحلول عام ٢٠١٥. لنفترض أن كل عامل بشركة سولريبلز لديه ستة أطفال (استنادًا إلى معدل الخصوبة في إثيوبيا). هذا يعني أن أكثر من ١٨٠٠ طفل سيُعالون بفضل الوظائف المتاحة في الشركة بحلول عام ٢٠١٥. وسيتمكَّن العُمال، بفضل مساعدة الشركة، من إلحاق الأطفال الستة جميعهم بالدراسة. ونظرًا لأن هؤلاء الأطفال يتمتعون بقسط من التعليم، فإنهم لا يَكبرون ليَصيروا صُناع أحذية، بل سيعملون في وظائف ذات أجور أفضل، ويُلحقون «أطفالهم» الستة بالمدرسة. وحين نصل إلى الجيل الثالث، ستكون الثلاثمائة وظيفة بشركة سولريبلز قد أثرت على حياة ٦٤٨٠٠ شخص. وفي غضون ستة أجيال، ستكون الوظائف قد أثَّرت على حياة مليوني شخص.

أُدرك أن هذه الحسابات قد تكون مبسطة على نحو مبالغ فيه نوعًا ما، ولكن مقصدي هو أن أيَّ وظيفة، إن كانت «جيدة»، سيُصبح لها تأثير تزايُدي مطَّرد.

ثمة علامة تجارية أخرى تُغيِّر حياة الكثيرين؛ ألا وهي ألتا جراسيا، وهي علامة تجارية مصنوعة في جمهورية الدومينيكان تصنع التي-شيرتات والسترات الصوفية للمكتبات الجامعية في جميع أنحاء البلاد. وتدفع شركة ألتا جراسيا لعمالها أجرًا معيشيًّا يعدل ثلاثة أضعاف متوسِّط الأجور في أيٍّ من المصانع المماثلة بالبلاد. كما أنها تُرحب بانضمام العُمال للنقابات العمالية، وسمحت لي بالعمل مع عُمالها داخل المصنع. في الواقع، عندما قدمت طلبي، لم تكن الشركة الأم للعلامة التجارية، نايتس أباريل، هي الشركة الوحيدة التي قرَّرت عدم ممانعة زيارتي لمقر المصنع. كما أن الفكرة راقت للعُمال أيضًا. أتمنى أن أقبل العرض الوظيفي من جانبهم يومًا ما.

وحقيقة أنهم كانوا مُرحِّبين على هذا النحو أذهلتني مثلما أذهلتني تمامًا حقيقة أنني لم أكن الشخص الوحيد الذي دعوه لزيارة مصنعهم. ونقابة ألتا جراسيا تستقبل بانتظام الزوار في المصنع وتجري مكالمات مع الطلاب الأمريكيين عبر برنامج سكايب. وتزور جمعيةُ حقوق العمالِ المصنعَ بانتظام وتراقب كشوف الرواتب على الأقل مرة كل أسبوع.

وقد أصدرت صحيفة «نيويورك تايمز» تقريرًا عن شركة ألتا جراسيا من جمهورية الدومينيكان في عددها الصادر بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠١٠:

> في أثناء جلوسها في حجرة معيشتها الصغيرة، ابتسمت سانتا كاستيلو وهي تنظر جهة المنزل الجديد الذي تبنيه هي وزوجها وراء الكشك الخشبي الذي يَعيشان فيه حاليًّا.
>
> سيكون المنزل الجديد أكبر بأربعة أضعاف من المنزل الحالي، ويتكون من غرفتي نوم وحمام داخلي؛ يَتشارك الزوجان وأولادهما الثلاثة الآن غرفة نوم بلا نوافذ ويستخدمون حمامًا يبعد عنهم مسافة بيتين.
>
> لطالما كانت السيدة كاستيلو تحلم بمنزل أكبر وأكثر متانة، ولكن حدث شيء قبل ثلاثة أشهر جعل تحقيق الحلم ممكنًا؛ حيث إنها حصلت على وظيفة في واحد من أكثر مصانع الملابس اختلافًا في العالم. ويقول خبراء الصناعة إنه مصنع رائد في العالم النامي؛ لأنه يدفع «أجرًا معيشيًّا» — في هذه الحالة ثلاثة أضعاف متوسط الأجور التي يحصل عليها عمال الملابس في البلاد — ويُتيح للعمال الانضمام لنقابة عُمالية بلا نزاع.
>
> تقول السيدة كاستيلو، وهي امرأة ذات نبرة صوت رقيقة تتقاضى ٥٠٠ دولار في الشهر: «لم تسنَح لنا الفرصة لكسب أجر كهذا من قبل قط. أشعر بالسعادة.»

يقول أندرو جاسين، المؤسِّس المشارك لشركة جاسين كونسلتينج، وهي شركة استشارات في مجال صناعة الملابس، مُعلِّقًا على الخبر نفسه: «إنه مجهود نبيل، ولكنه تجربة. يوجد مُستهلِكون يهتمون فعلًا وسيَشترون هذه الملابس بسعرٍ أعلى من السعر العادي، وعلى الجانب الآخر يوجد مُستهلكون آخرون يقولون إنهم مُهتمون، ولكنهم يريدون منتجًا ذا قيمة وحسب.»

أنت واحد من المستهلكين. السؤال هو: هل أنت مهتم؟

نظرًا لأنني جُبْتُ مختلف أنحاء الولايات المتحدة لأتحدث مع الطلاب، فإن إجاباتهم عن هذا السؤال عادةً تأتي بالنفي ويَصحبها شعور بالذنب.

وللأسف، هذا صحيح، معظمنا لا يهتم! إننا نتسوق ونحن مُغيَّبون؛ حيث نتخذ قراراتنا استنادًا إلى ما نقتنع به من صيحات الموضة وما هو في متناول قدراتنا الشرائية.

ولكنَّني أؤمن بشدة بأننا «يمكننا» أن نهتم، وسنهتم فعلًا إذا استطَعنا أن نسد الفجوة بين المُنتِج والمُستهلِك.

اسمحوا لي أن أقدم لكم فتاة الآي فون.

في شهر أغسطس عام ٢٠٠٨، انتظر رجل بريطاني بكل حماسة وصول هاتفه الآي فون الجديد. أنا على يقين بأنه اتبع السناريو المعتاد عندما تطلب منتجًا من شبكة الإنترنت، حيث تتابع خط سير المنتج الموضَّح على الموقع الإلكتروني كل ٣٠ دقيقة لترى ما إذا كان المُنتَج قد غادر المخزن في الصين أو أي مكان آخر. وأخيرًا، جاء يوم الاستلام. شغَّل هاتفه واكتشف صورًا لعاملة بالمصنع الصيني حيث صُنع هاتفه وهي ترفع يدها بعلامة النصر وتَبتسم للكاميرا. نشر الصور على موقع ماكرومرز (Macrumors.com). وفي غضون بضعة أسابيع، اجتذب المنشور نسبة عالية من المتابعة إذ علَّق عليه ٧٠٠ متابع.

صارت فتاة الآي فون مصدرًا للاهتمام. وظهَر وجهها الباسم على موقع سي نت وشاشات إم إس إن بي سي وعلى صفحات صحيفة «واشنطن بوست». الجميع يريد أن يعرف «من تكون فتاة الآي فون؟»

تتبَّع الصحفيون فتاة الآي فون حتى وصلوا إلى مصنع شركة فوكسكون بمدينة شنجن. وشركة فوكسكون هي أكبر مصنع خاص في الصين، تُوظِّف أكثر من مليون شخص. نصفهم يعمل في مصنع شنجن. وتتلقى شركة فوكسكون وشركة أبل الكثير من الانتقادات الصحفية بعد موجة من حالات انتحار العمال عام ٢٠١٠ — إجمالي ١٧ حالة انتحار — بمصنع شنجن. لقد صار الانتحار مشكلة لدرجة أن الشركة وضعت شبكة أمان لإنقاذ العمال الذين يلقون بأنفسهم حين يتملَّكهم اليأس ليلقوا حتفهم بدلًا من أن يعودوا إلى العمل.

ففي عام ٢٠١٠، أرسلت الصحيفة الصينية «ساذيرن ويكاند» صحفيًّا يُدعى ليو تشي، مُتخفيًا لمدة ٢٨ يومًا للعمل في المصنع. وكتب يقول: «في الواقع، [العُمال] يحسدون أولئك الذين يستطيعون ترك العمل بسبب إصابات العمل.»

ووصَف المتحدث الرسمي لإحدى الشركات حادثة فتاة الآي فون بأنها «خطأ جميل.» كانت كذلك بالنسبة لشركتي أبل وفوكسكون؛ حيث احتفت الصحافة بالشركتَيْن والظروف التي تُوفرها لإنتاج أجهزة الآي فون، وكان الدليل هو تلك الصورة لعاملة جميلة وسعيدة تبتسم في مصنع مرتَّب ونظيف.

وحدث شيء جميل بالفعل. فعندما نُشاهد فتاة الآي فون تبتسم ابتسامة خفيفة جذابة وترتدي قبعة مائلة قليلًا وتلمع في عينها شخصية متقدة، لا يسعنا سوى الاهتمام بها. وتختفي الفجوة بين المنتج والمستهلك.

كان أمرًا عاديًّا بالنسبة إلى جدِّي حين كان يشتري قميصًا، لم تكن حياة العامل الذي صنع القميص تختلف كثيرًا عن حياة جدِّي، باستثناء أن وظائف صُناع القمصان تشتمل على كمية أقل من السماد (حيث إن جدي كان مزارعًا). الناس آنذاك كانوا يعرفون نمط الحياة بالنسبة إلى الجزار والخباز وصانع الملابس. إنهم يعرفون القصة وراء تصنيع أغراضهم.

أؤمن بأننا نطوق لروابط أعمق تربطنا بأغراضنا. والدليل يتمثل في انتعاش أسواق المزارعين والحرف اليدوية وظهور مواقع إلكترونية مثل: Etsy.com حيث يمكنك شراء منتجات مصنعة يدويًّا مباشرةً من المُنتج. فإذا اشتريت كوز ذرة من مزرعة دايف الموجودة على الطريق السريع ٣٢، أو عقدًا صنعه فنان يسكن مقاطعة مجاورة، يمكنك أن تحكي قصة تصنيع المنتج ومن صنعه حين تُقدم الذرة للضيوف أو تُقدم العقد هدية.

عندما نُدرك أن من يصنعون أغراضنا لديهم آمال وأحلام وشخصيات، لا يسعنا سوى الاهتمام والتأكد من أنهم يَتلقون أجورًا معيشية مناسبة وأن وظائفهم تتيح لهم تحقيق أحلامهم.

ولكن سد الفجوة بين المُنتج والمستهلك ليس أمرًا يسيرًا.

بالعودة إلى عام ٢٠٠٨، كنت أُعد مقالًا عن منشأ التي-شيرتات لمجلة «كوندي ناست بورتفوليو». وتطلَّب بحثي من أجل إعداد المقال الاتصال بكبرى العلامات التجارية المصنِّعة للتي-شيرتات وسؤالهم عن المكان الذي يَصنعون فيه تي-شيرتاتهم.

في البداية، اتصلت بشركة هانز وكانوا متعاونين فعلًا. حدثوني عن النِّسب المئوية لكل دولة تصنع التي-شيرتات؛ كانت هندوراس تتصدر القائمة. وأحاطوني علمًا بأنني يُمكنني معاودة الاتصال بهم إذا كان لديَّ المزيد من الأسئلة.

كانت الشركة التالية في بحثي هي شركة فروت أوف ذا لوم. لم ترغب الشركة في التأكيد على أن أغلب مُنتجاتها تُصنع خارج الولايات المتحدة، أو إخباري بأيِّ معلومات، باستثناء أن سياسة الشركة الرسمية تفرض عدم الخوض في هذه الأمور.

كانت هذه هي المرة الأولى التي كتبت فيها لصالح المجلة. كان بإمكاني تخيُّل المُحرِّر الذي أعمل معه وهو يُشيح بنظره أثناء حديثي معه على الهاتف حين أخبرته بأن شركة

فروت أوف ذا لوم لا ترغب في تأكيد أيِّ معلومة. كان بإمكانه أن يطلب من مراجع صحَّة الحقائق أن يتصل بهم. ومجلة «بورتفوليو» هي مجلة تجارية، وكانوا معتادين على إجبار الشركات على التحدث.

ولكن لم يَتعاون أحد مع مراجع صحة الحقائق. وعجز هو عن تصديق الأمر. هكذا، قلت في نفسي: «مرحبًا بك في العالم المُدهش لصحافة الملابس الداخلية.»

غاية ما تريده العلامات التجارية مِنا هو ألا نفكر — إلا بأقل قدر مُمكن — في الأماكن التي تصنع ملابسنا. فكِّر في آخر كتالوج أمسكت به؛ فستجد على الأرجح أن الوصف المنمَّق للمنتج يُختتم بشيء من اثنين: «صُنع في الولايات المتحدة الأمريكية أو مستورَد.» أو ربما إذا كان المنتج مصنوعًا من الجلد أو مضافًا إليه قيمة ما، فستجد أنه قد كُتب عليه: «صُنع في إيطاليا» (على الرغم من أن هذا قد يَعني أحيانًا أن المنتج مصنوع في إيطاليا بأيدي عُمال مستوردين من الصين). والعلامات التجارية مُلزَمة بموجب القانون بكتابة بلد المنشأ على منتجاتها، ولكن بخلاف ذلك، فإنهم يُفضلون عدم التحدث عن الأمر أو عن العُمال الذين صنعوا منتجاتهم. وهذه هي الطريقة التي يَدعمون بها الفجوة بين المُنتج والمستهلك.

هذا لا يعني أنني أقول إن الشركات نفسها لا تُفكِّر في الأمر. فمنذ أن خرجت المذيعة كاثي لي بانتقاداتها على شاشة التليفزيون عام ١٩٩٦، عملت الكثير من الشركات بجهدٍ لتحسين ظروف العمل داخل المصانع التي يُورِّدون منها. لقد تبنَّوا قواعد خاصة بالمسئولية الاجتماعية للشركات — وإذا تمعنت في البحث على المواقع الإلكترونية الخاصة بالشركات، فربما تجد مثل هذه القواعد. ولكن بوجهٍ عام، لم تَبذل الشركات الجهد اللازم لطمأنتنا بأنهم مُهتمون فعلًا بظروف العمل داخل المصانع ومستوى رفاهية العمال الذين يَصنعون منتجاتهم.

إما أنهم قد تأثَّروا أو رأوا أحدًا قد تأثر تأثُّرًا بالغًا بالتقارير الناقدة للظروف البغيضة، وفضلوا تجاهل الموضوع برمته. في الواقع لا أستطيع أن أُلقي عليهم باللوم.

لا يوجد عامل واحد يصنع ملابسي ويعيش حياة يُمكنني أن أراها مقبولة. لستُ متيقنًا أننا يمكننا التعامل مع الطريقة التي يعيش بها معظم العالم من حولنا. شنَّت شركة ليفايس مؤخرًا حملة إعلانات بعنوان «انطلق» تُصوِّر مشاهد من الحياة الأمريكية الخالصة لأطفالٍ يرتدون الجينز الأزرق يَتقافزون عبر الحقول مُمسكين بألعاب نارية

ومشاهد أخرى تُمثل الحرية. وتُعرض المشاهد بتعليق صوتي لوالت ويتمان وهو يلقي قصيدته بعنوان «أمريكا»:

> مركز المساواة للبنات والبنين.
> الجميع سواسية في المعزَّة والحب، ناضجين وغير ناضجين، صغارًا أو كبارًا.
> يتمتعون بالقوة والوفرة والإنصاف والقدرة على التحمُّل والثراء.
> باقين على الأرض بفضل الحرية والقانون والحب.

من الصعب قَبول هذه الصورة التسويقية والواقع الذي يعيشه العُمال الذين يصنعون الجينز لصالح شركة ليفايس في كمبوديا وأي مكان آخر. أجرى معهد الدراسات التنموية في كمبوديا بحثًا لتحديد الأجر المعيشي وخلص إلى أن الحد الأدنى للأجر المعيشي في كمبوديا كان يُقدر بـ ٩٠ دولارًا في عام ٢٠٠٩. وأنا لا أعارض كسب العُمال أجرًا معيشيًّا، ولكني أظن أن معظم المُستهلِكين ووسائل الإعلام قد يعلقون على الأمر قائلين: «٩٠ دولارًا فقط! يا لهم من فقراء.» هذه هي مشكلتنا، وهي مشكلة ينبغي أن نُحاول حلها ونعمل على ذلك قبل أن تُخبرنا الشركات بحقيقة الوضع. وإذا ما داومنا على النظر لقلة الفرص المتاحة أمام عُمال الملابس من منظور حياتنا التي تتوافر فيها فرص غير محدودة نسبيًّا، فلا يمكن أن يبدأ حوار فعال.

أجرى برنامج توجُّهات السياسة العالمية بجامعة ميريلاند استطلاعًا للآراء عام ٢٠٠٤ وُجد فيه أن ٨٣ بالمائة ممن شاركوا في الاستطلاع راقت لهم العبارة التالية:

> تُعد التجارة الحرة هدفًا مهمًّا للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ينبغي الموازنة بينها وبين الأهداف الأخرى مثل حماية العمال والحفاظ على البيئة وحقوق الإنسان، حتى وإن كان هذا يَعني إبطاء وتيرة النمو التجاري والاقتصادي.

وحين سُئل المشاركون: «إذا اضطررت للاختيار بين شراء قطعة ملابس بتكلفة ٢٠ دولارًا ولكنك لست متأكدًا من الطريقة التي صُنعت بها وبين قطعة أخرى مُصدَّق على عدم تصنيعها في مصنع مُستغِل ولكنها تكلفك ٢٥ دولارًا، أيهما ستشتري؟» أجاب واحد وستون بالمائة ممن شاركوا في الاستطلاع بأنهم سيدفعون ٥ دولارات أكثر لقطعة الملابس التي صُدِّق على عدم تصنيعها في مصنع مستغل.

ومن أجل اختبار نتائج استطلاع الرأي التي كانت مُتوافقة مع استطلاعات أخرى، صمم الباحثون بجامعة ميشيجان وجامعة نورث وسترن دراسة لمراقبة عادات الإنفاق الواقعية لمشتري الجوارب في متجر شهير متعدد الأقسام بولاية ميشيجان. وضع الباحثون ملصقًا على رفٍّ من الجوارب عليه لافتة مكتوب عليها: «اشترِ منتجًا مصنوعًا في ظروف عمل جيدة … بلا عمالة أطفال … بلا مصانع مستغلة … في مكان عمل آمن.» وعلى رفٍّ مجاور لجَوارب مُشابهة لم يوضع أي ملصق. ثم رفعوا سعر الجوارب المصنوعة في ظروف عمل جيدة تدريجيًّا ووجدوا أن متوسط ثلث العملاء كانوا على استعداد لدفع المزيد مقابل هذه الجوارب. ويؤمن الباحثون أن نسبة العملاء أصحاب الضمير اليَقظ كانت أكبر فعلًا نظرًا لأنَّ بعض العملاء لم يفهموا الاختصارات التي احتوى عليها مُلصق «صُنع في ظروف عمل جيدة.» ومع ذلك، حتى ولو كان ثلث العملاء على استعداد لدفع المزيد من أجل الملابس «المصنوعة في ظروف عمل جيدة»، فثمة سوق كبيرة غير مُستغِلة لمثل هذه المنتجات.

في حين أن نظام وضع المُلصَقات قد يكون طريقة مثلى لإطْلاع العملاء أصحاب الضمير اليقظ على مجريات الأمور، فثمَّة حواجز كثيرة يجب تخطِّيها مثل: ما «ظروف العمل الجيدة»؟ هل تختلف الظروف باختلاف المكان؟ من يفرض هذه الظروف؟ هل مَزارع القطن التي تُنتج القطن تلتزم بمثل هذه الظروف؟ ماذا عن مصانع الغزل والنسيج؟ أو مصانع تكرير النفط التي تنتج النفط المستخدَم في إنتاج المنسوجات الصناعية؟ قد تتغيَّر ظروف المصانع من عام لآخر. ربما تُخفِّض دولة ما من قيمة عملتها، والمصنع الذي كان مطابقًا للمواصفات فيما مضى لم يعد كذلك الآن؛ لأنه يجعل عُماله يعملون لساعات أطول بجهد أكبر لتحقيق الربح نفسه.

وربما لا يكون نظام وَضْع المُلصَقات أمرًا يسيرًا، إلا أنه بمنزلة هدف يَنبغي أن نطمح إليه. وقد يتطلب الأمر جهود الناشطين والشركات والرأي العام المستنير.

تعمل جمعية الصناعة الخارجية واتحاد صناعة الملابس المستدامة على وضع نظام للمُلصَقات تحت اسم «أداة الملبوسات» الذي يقيم المنتجات استنادًا إلى تأثيرها البيئي. ومتجرا تارجت وول مارت يستخدمان تلك الأداة. إنها لم تُفعَّل بَعدُ بالنسبة إلى المستهلكين، وهذا يَعني أنها أداة للشركات، لا للمستهلكين. وتريد الأطراف المعنية تنفيذ النظام على نحو صحيح وإرساء قواعد نزاهة الملصقات قبل أن نراها على الرفوف في أي مكان.

أُطلق على هذا المشروع «المؤشر البيئي» حين سمعتُ عنه لأول مرة عام ٢٠١٠، كان ثمَّة حديث دائر بخصوص وضع المسئولية الاجتماعية كعامل يحتسب في تقييم المنتج. غير أن التركيز اليوم يبدو أنه منصب أكثر على البيئة لا على ممارسات العمل.

انضمَّ المزيد والمزيد من العلامات التجارية إلى الاتجاه السائد وقُدِّمَت منتجات صديقة للبيئة؛ منتجات مصنوعة من قماش القنب والقطن العضوي، وملصقة بصمغ لا يُسبِّب أضرارًا للبيئة، ومعبَّأة في صناديق يُعاد تدويرها بعد الاستخدام. وفي حين أنني سعيد بإتاحة هذه الخيارات، فإنني ما زلت راغبًا في المزيد.

إننا نهتم بتأثيرنا على البيئة، ولكن ماذا عن تأثيرنا بعضنا في بعض؟ فالحفاظ على البيئة بمنزلة توجُّه مُساير للموضة، بينما الاهتمام بالعمال الذين يصنعون أحذيتنا ليس كذلك.

لا تُصدِّقني؟ اتصل بأيِّ شركة أحذية ذات علامة تجارية معروفة وسلهم عن كيفية تقليل تأثيرهم على البيئة، على الأرجح ستجد أن لديهم قائمة طويلة يَتلونها عليك. ثم سلهم عما يفعلونه لضمان أن العُمال الذين يصنعون أحذيتهم يتلقون معاملة منصفة، حينئذ ستجد نفسك تدور في حلقة مفرغة من المكالمات الهاتفية مع موظَّفي الشركة.

وسائل الإعلام تُعطي الشركات مبررًا لعرقلة الحوار. لقد أخبرتني منتجة للبرامج الإذاعية بكل صراحة بأنَّ فريق الإعداد الخاص بها ظنَّ أنني ساذج لأنهم حين سألوني عما إذا كانت المصانع التي زُرتها كانت مصانع مُستغِلة أم لا فقلت لهم لا أعرف. أرادوا مني أن أكون غاضبًا من وضع العمال الفقراء جدًّا الذين يَكدحون لساعات طويلة والحاصلين على أجور قليلة وتقدير أقل. ولكن من السهل أن تُثير الشفقة وانتقاد المصانع المستغلة. ما ليس سهلًا هو قبول السياق الذي توجد فيها المصانع والعمال، وبدء الحوار على هذا الأساس. وعدم القيام بهذا هو السذاجة بحدِّ ذاتها.

متى كانت آخر مرة سمعت فيها تقريرًا إخباريًّا عن مصنع ملابسٍ يُدار بنجاح أو عن مصنع يعمل على تحسين حياة العاملين به؟ ولكن مثل هذه الأمور لا تصنع عناوين جذابة، ولذا لا نسمع إلا عن الانتهاكات. وهكذا نظل نعتقد أن جميع الملابس تُصنع في المصانع المستغلة. وتَلتزم معظم الشركات الصمت بخصوص الموضوع خشية أن يلفتوا الانتباه. في صناعة الملابس، لا توجد صحافة إلا الصحافة السيئة الناقدة.

ويُشجِّع الناشطون مثل اتحاد الطلاب المناهضين للمصانع المستغلة العلامات التجارية في هذا الصدد. فمثل هؤلاء النشطاء مسئولون مسئولية كبيرة عن تحسين

الأوضاع في مصانع الملابس في الوقت الحالي، وقد مهَّدوا الطريق لظهور علامات تجارية مثل ألتا جراسيا وسولريبلز. لقد مضى أكثر من عقد من الزمن منذ أن كشفت حركة الطلاب النقاب عن صناعة الملابس أمام الرأي العام، غارسين صورًا عن المصانع المُستغِلة في أذهاننا. وجدتُ أن قادة الحركات المناهضة للمصانع المستغلة الذين قابلتهم يتفهمون جيدًا السياق الذي يعيش فيه العُمال، على الرغم من أن القادة عادةً ما يغفلون عن ذلك السياق حين يوصلون رسالتهم.

وأبشع الانتهاكات وأفظع الإحصائيات تدعم قضيتهم. وبالعودة إلى الفترة التي كان يُذاع فيها برنامج كاثي لي، أظن أن الصدمة كانت مروعة بالنسبة إلينا. وكنا بحاجة إليها.

في عام ٢٠١٠، حضرتُ المؤتمر السنوي للمصانع الخالية من الاستغلال مرةً أخرى، ولكن هذه المرة لم يكن المؤتمر منعقدًا في مدينة مينيابوليس وإنما في مدينة أولمبيا. لم ألتقِ أحدًا يُلطخ قميصه بدماء مزيفة. استمر المؤتمر لمدة يومين، وكنت المتحدِّث الأخير في آخر يوم للمؤتمر. ذُهلت بالحماسة والمعرفة اللتين سادتا أجواء المؤتمر، ولكني على يقينٍ أنني كنت الشخص الوحيد، في المؤتمر كله، الذي تحدَّث عن الفقر.

أؤمن بأننا يجب أن نتخطى المناقشات الخلافية عن المصانع المُستغِلة التي تجعل الناس يشعرون بأنهم مضطرون لاختيار جانب من اثنين: إما الموافقة أو المعارضة. إلى أين يقودنا هذا؟ كيف سيستفيد العمال؟ يجب أن ندرك حقيقتَين بالغتَي الأهمية: صناعة الملابس تُوفر وظائف تعني الكثير جدًّا لأناس يعيشون في المناطق الفقيرة، ومن المفترض أن يَلقى هؤلاء الأشخاص معاملة أفضل وأجرًا أعلى، بل ينبغي أن يكون الأمر كذلك.

لقد مرَّ أكثر من عقد من الزمن على حلقة برنامج كاثي لي، ولا يزال معظمنا يفترض أن ملابسنا صُنعت في المصانع المُستغِلة، ورغم ذلك عادات التسوق لدينا لم تتغيَّر. وهذا فشل يُنسب للشركات ووسائل الإعلام والنشطاء وعدم اهتمامنا بالموضوع.

لقد صرتُ مهووسًا أكثر بمُلصقات الملابس منذ أن قمت برحلتي. كاد الأمر أن يكون هوسًا لا يُقاوم لدرجة أن المتاجر متعددة الأقسام تجعلني أفقد السيطرة على أعصابي؛ حيث توجد الكثير من المُلصقات التي يتعيَّن عليَّ التحقُّق منها. دعني أوضح لك: من الغريب أن ترى شابًّا يتحرك بطريقة عشوائية من رفٍّ إلى آخر متفحصًا الملابس الداخلية النسائية. أُدرك هذا لأنني رأيت هذه النظرة على وجوه رفاقي المتسوقين.

عندما عدتُ من رحلتي، أرسلتْني أمي إلى متجر مايسيز بمركز مونسي التجاري لأشتري سترة كشميرية أرادت أن تُقدِّمها هدية لإحدى صديقاتها. كان سعرها الأصلي

١٠٠ دولار وخُفض إلى ١٢٫٥٠ دولارًا. بينما كانت بام — البائعة — تبحَث عن المقاس المناسب، سألتها: «هل قابلتِ في حياتك من قبلُ عملاء يَهتمون بالمكان الذي يُصنع فيه الملابس؟»

أجابت قائلة: «أعمل هنا منذ سبع سنوات. وعندما بدأت العمل لأول مرة، كُنا نهتم. الآن، أظن أن الناس استسلموا لحقيقة أن كل شيء مصنوع خارج البلاد، وأنه ليس أمامهم خيار آخر.»

«حسنًا، السبب وراء طرحي للسؤال هو أنني عدت توًّا من …» حكيتُ لها رحلتي من دولة لدولة، ومن مصنع لمصنع، ومن منزل عامل إلى منزل عامل آخر. كنت أتوقع من بام أن تنهي الحديث؛ خشية أنني ربما أقع على الأرض وأُلطِّخ نفسي بالدماء المزيفة كأنني في مُظاهرة صامتة صغيرة تحاكي الموتى.

وبدلًا من إنهاء الحديث، تردَّدت بام في البداية ثم سألتني في تردد: «هل كانت مصانع ذات عمالة رخيصة؟» حين قالت «مصانع ذات عمالة رخيصة» أخفضتْ صوتها ونظرت من حولها تحسبًا للمتصنِّتين. وعلى بُعدِ بضعة أرفف، وقفت موظفة تسحب الملابس الشتوية لتُوضع في عروض التصفيات. نظرت لنا شزرًا ثم عاودت عملها مرةً أخرى. شعرتُ أنها كانت تستمع إلينا.

قلت لها: «أكره استخدام مصطلح «مصانع ذات عمالة رخيصة»؛ إذ إنه يستخف بقيمة العمل الذي يقوم به العُمال والتضحيات التي يُقدمونها في سبيل ذلك.»

حكيتُ لها عن عريفة من بنجلاديش التي تعمل في مصنع ملابس على أمل أن تكسب الأجر الكافي لكيلا تُجبَر على إرسال ابن آخر من أبنائها إلى المملكة العربية السعودية. وحكيتُ لها عن ناري من كمبوديا التي اضطرَّت إلى دفع رشوة لتحصل على وظيفتها — في مصنع الجينز — التي تمكنها من إعالة أسرتها بالقرية ودفع دورات التدريب كخبيرة تجميل. وحكيتُ لها عن ديوان وتشو تشون والساعات الطويلة التي يَقضيانها في العمل، وابنهما الذي نادرًا ما يريانه، والدَّين الذي يُسدِّدانه. وأخبرتها بجميع الأسباب التي تفرض علينا الاهتمام بالعُمال الذين يصنعون ملابسنا.

أخبرتُها بأنني أؤمن بأن المعاناة بسبب ظلم البشر لا يَنبغي أن تكون طقسًا من طقوس العبور. لا أظن أنه من المقبول أن تُضطر ناري إلى دفع رشوة للحصول على وظيفتها، وألا تملك آي عقدًا مع المصنع الذي تعمل فيه، وأن يعمل ديون وتشو تشون لأكثر من ١٠٠ ساعة في الأسبوع. ويُمكنني التخمين من النظر إلى وجه بام بأنها تتَّفق معي في الرأي.

أخبرتها أنه لا توجد طريقة يُمكنني بها التأكد من أن السترة التي أشتريها صُنعت بأيدي عُمالٍ تلقوا معاملة منصفة وعادلة، ولكن ثمة شيء واحد أكيد وهو أن مَن صنعوا تلك السترة هم آباء أو أمهات أو إخوة أو أخوات لشخصٍ ما.

عندما تذهب إلى متجر البقالة في مدينة مونسي بولاية إنديانا، يُمكنك أن تتسوق وفقًا لأخلاقياتك بعض الشيء. يمكنك أن تجد فواكه وخضراوات عضوية، ولعلك تجد أيضًا شايًا أو قهوة مصنوعة وفقًا لمعايير تجارية مُنصِفة. ولكن اذهب إلى مركز مونسي التجاري لشراء سروال، وستجد أنك مُعتمِد على نفسك. فمنذ أن عدت إلى أرض الوطن، وأنا لا أكفُّ عن التفكير في نوعية المُستهلِك التي أنتمي إليها.

هل أنا صائد الصفقات الذي لا يهتم بالمكان الذي صُنعت فيه ملابسي أو الجهة التي صنعتُها ما دمت أحصل على صفقة جيدة؟ هل أُطيق الشعور بالقلق بشأن عاملة الملابس في بنجلاديش التي تجاهد لإعالة أسرتها؟

هل أنا مُستهلِك أمريكي يريد، بعد أن لاحظ اختفاء الوظائف الأمريكية، دعم الشركات الأمريكية فقط؟ صدِّق أو لا تُصدِّق، على الرغم من أن ٩٧ بالمائة من الملابس تُصنع خارج الولايات المتحدة، فإن هذا احتمال قائم.

وإذا كان الأمر كذلك، فيُمكنني إذن شراء سروال جينز أزرق وغيره من الملابس من شركة أول أميركان كلوذينج (www.allamericanclothing.com)، التي — بالمناسبة — لا تَبعُد كثيرًا عن المكان الذي نشأتُ فيه بمقاطعة دارك في ولاية أوهايو.

يقول لوسون نيكولز، المؤسس المشارك لشركة أول أميركان كلوذينج على موقع الشركة: «مَهَمَّتُنا هي دعم الأسر والوظائف الأمريكية من خلال إنتاج ملابس ذات جودة عالية في الولايات المتحدة بسعر معقول. ومن خلال الإبقاء على إنتاجنا داخل الولايات المتحدة، فإننا نُوفِّر وظائف وأساسًا ضريبيًّا يدعم مجتمعاتنا المحلية. إننا نهتمُّ بأمر بلادنا والمواطنين الذي يعيشون فيها، فلو كنا نعيش في البلاد من أجل المال فقط، لكان بإمكاننا أن ننقل إنتاجنا خارج البلاد. إننا لن نتاجر بالوظائف الأمريكية من أجل أرباح أجنبية …»

أو يُمكنني أن أشتري تي-شيرت ماركة كوتن أوف كارولايناز (www.cotton ofthecarolinas.com). هذه السِّلع تُنتَج خاماتها وتُصنع بالكامل في كارولاينا. وثمة مكان آخر رائع، يُمكنني فيه شراء المنتجات المصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية، بداية من محافظ الجيب وحتى ملابس الأطفال. إنه ethixmerch.com.

هل أنا مُستهلِك صاحب ضمير حي يريد أن يتأكد من أن المنتجات التي يشتريها مصنوعة في ظل ظروف عمل جيدة بأيدي عُمال يتلقون معاملة عادلة؟ إذا كان الأمر كذلك، سأتسوَّق من على شبكة الإنترنت من أماكن مثل ماجيز أورجانك/كلين كلوذيز (www.organicclothes.com).

هل أنا مُستهلِك ضعيف في تأثيره يريد أن يعزل نفسه عن العملية برمتها بقدر الإمكان؟ إذا كان الأمر كذلك، يُمكنني أن أشتري الملابس المستعملة أو أتعلَّم تفصيل الملابس (وهذا مُستبعَد). هل تعرف أنه بإمكانك شراء قطعة ملابس جاهزة أو كتاب بأقل مِن ١٠ دولارات من مؤسسة جودوويل؟

على مدار حياتي، لم أكن من نوعية المُستهلِكين الذين ذكرتهم آنفًا. كنت محظوظًا بالقدر الكافي بعدم اضطراري إلى العثور على صفقات جيدة، ورغم ذلك لم أكن أفكر كثيرًا في الأشخاص أو الأماكن التي تصنع ملابسي. في الواقع، كنت مُستهلِكًا غير مبالٍ. كنت أعرف أن العُمال الذين يَصنعون ملابسي يعيشون حياة صعبة، ولكني لم أُعطِ للموضوع وقتي أو اهتمامي.

أما الآن، فأنا أُعطيه وقتي واهتمامي.

الآن صرتُ مستهلكًا مؤثرًا ومُهتمًّا. وإلى أن يُتاح نظام وضع ملصق «ظروف العمل الجيدة»، فإنني أتخذ قرارات الشراء بناءً على بحثي الخاص؛ حيث إنني أزور الموقع الإلكتروني للشركة التي تصنع المنتجات التي أشتريها أو التي أُفكر في شرائها لأرى إلى أيِّ مدًى تَنخرط الشركة في مراقبة المصانع التي تُورِّد منها. وأفكر في الشراء من مكانٍ آخر إذا ما كانت الشركة تكتفي بوضع فقرتين تصفان قواعدها المِهنية وكيف تدير مصانعها إدارة ذاتية. ومع ذلك إذا كانت الشركة تتعاون مع جهة رقابية مستقلة مثل جمعية حقوق العمال أو تتمتَّع بمنصبٍ أو قسم يتعامل مع المسائل المتعلقة بالمسئولية الاجتماعية، وتعترف بتحديات التوريد الأخلاقية؛ فإنني أفكر في أن أكون عميلًا لديهم.

بالطبع، هذا لا يَضمن بالضرورة أن تكون منتجاتهم مصنوعة في ظل ظروف عمل منصفة، ولكن مثل هذه الإجراءات تُعطي دلالات على أن الشركة تشارك في تهيئة الظروف المواتية للعمل.

كتب تي إيه فرانك، وهو مراقب سابق لمدى تحمُّل الشركات للمسئولية الاجتماعية، في مجلة واشنطن مانثلي يقول: «تستطيع الرقابة الخاصة، إذا ما أُجريت بطريقة صحيحة، أن تحقِّق فوائد كثيرة. ولكنها خادعة … تفوتنا أمور. جميع الجهات الرقابية تفوتها

أمور. وأحيانًا كان الوضع مُحرِجًا. أثناء جولة من المتابعة الرقابية في مصنع ببانكوك حيث لاحظت انتهاكات خطيرة ولكن شائعة بخصوص الرواتب، وجد المفتشون الذين اتبعوني موظَّفاتٍ حوامل يَختبئنَ على السطح والعُمال المستقدمين من بورما يتقاضون رواتب ضئيلة على نحوٍ غير مقبول. يا إلهي!»

إليك مُقتطَف من مقال فرانك بعنوان: «اعترافات مراقب بشأن المصانع المستغلة»:

> الآن، أي شخص في المجال يعرف أنه حين يَكشف المراقبون النقاب عن انتهاكات إجراءات السلامة والأمان أو عدم دفع الرواتب بالكامل لأكثر من مرة أو مرتين — ناهيك عن خمس مرات — تُعدُّ هذه إشارة على وجود مشكلات أكبر بعيدة عن دائرة الضوء. ونادرًا ما تَنخدع الشركات في مثل هذه الأمور ما لم تكن راغبةً في ذلك.
>
> الكثيرون يُفضِّلون أن يُخدعوا، لأن هذا أرخص …
>
> الآن، أجيد التمييز بين المُمثلين الجيِّدين والسيئين لأنني أحتكُّ بهم عمومًا احتكاكًا مباشرًا. ولكن العملاء العاديِّين الذين يبحثون على المواقع الإلكترونية — مثل موقع متجر وول مارت أو موقع شركة نايكي … إلخ — يستطيعون أن يجدوا كل شيء تقريبًا يريدون معرفته وهم جالسون على مكاتبهم. على سبيل المثال، لقد عرفت توًّا من خلال أحدث تقرير لمتجر وول مارت عن التوريد أن ٢٦ بالمائة فقط من المراجعات الخاصة بهم لا يُعلن عنها. وعلى النقيض، الإجراءات الرقابية التي تتَّخذها شركة تارجت، لا يجري الإعلان عن نسبة ١٠٠ بالمائة منها. وهذا اختلاف شديد. والشركات التي تفعل ما تفعله شركة نايكي — التي تُدقِّق وتبني علاقات طويلة المدى وتُعلن عن المنتجين — تؤكد على هذه الحقيقة، وبذلك تتمتع بشفافية إلى حدٍّ ما. والشركات التي لا تتمتَّع بالشفافية هي الأكثر حذرًا. (عندما يساورك الشك، شُك.)

إحدى كبرى العلامات التجارية الشهيرة بتأثيرها على البيئة والعاملين الذين يَصنعون منتجاتها هي شركة باتاجونيا؛ ففي عام ٢٠٠٨ أطلقت شركة باتاجونيا خاصية تفاعلية على موقعها الإلكتروني تُدعى سجلات التتبُّع (www.patagonia.com/usa/footprint)، وهي تتتبَّع المواد الخام المُستخدَمة في منتجاتها بداية من المصدر وعبر مراحل التصميم والتصنيع والتوزيع. ولقد أدركت الشركة أن لعملها التجاري آثارًا بيئية واجتماعية

على حدٍّ سواء. وتأخذ خاصية سجلات التتبُّع عملاء باتاجونيا المهتمين في جولة داخل المصانع التي تصنع ملابسها في مختلف أنحاء العالم. لا تُفكِّر نيكول باسيت، مديرة قسم المسئولية الاجتماعية، في تأثير باتاجونا كشركة وحسب، وإنما تُفكر أيضًا في تأثيرها الخاص كمُستهلِكة. قالت لي نيكول باسيت في مقابلة شخصية عبر الهاتف: «أواجه مشكلة مُتعلِّقة بشراء الملابس. بالأمس، رأيتُ منامة رائعة وأردت شراءها، ولكنني لم أفعل لأنني لم أتعرَّف على اسم العلامة التجارية. لم أَستطِع شراءها.»

باعتباري مُستهلِكًا مؤثرًا، أود أن أدعم جهود شركة باتاجونيا لتُصبح شركة أفضل.

وسواء كُنا نُدرك ذلك أم لا ندركه، نحن نُصوِّت من خلال محفظة نقودنا. والسيدة التي كانت تبحث عن حذاء لم يُصنَع في الصين كانت تُصوِّت ضد الحالة البائسة لحقوق الإنسان في الصين. ولعلني أختار دعم مُنتَج مصنوع في كمبوديا لأن الصناعة مُنضبِطة أكثر. ولعلَّني أختار الشراء من شعوب فقيرة مثل بنجلاديش لدعم تنمية هذه الشعوب. ولعلَّني أختار دعم علامة تجارية بسبب موقفها الأخلاقي أو عدم دعمها بسبب افتقارها لهذا الموقف.

الحقيقة أن الأمر يتطلَّب بعض الجهد لكي تكون مُستهلِكًا مؤثرًا، إلا أن كل ذرة جهد مبذول في هذا الصدد تَستحِقُّ العناء فعلًا. إليك بعض النصائح التي من شأنها أن تساعدك في أن تصير أفضل في هذا الصدد:

- «نظرة على الملصق الموجود على التي-شيرت الذي ترتديه حاليًّا.» كرِّر هذا كل يوم. مُعظمنا ليس لديه أدنى فكرة عن مدى عالمية ملابسنا. إذا أدى الجميع هذه المهمة البسيطة بصفة يومية، فلك أن تَتخيل إلى أي مدًى قد يتغيَّر منظورنا الجمعي العالمي.
- «زُر موقع GoodGuide.com أو حمِّل تطبيق GoodGuide على هاتفك الذكي.» هذا الموقع/التطبيق يحتوي على قاعدة بيانات لأكثر من ١٤٥ ألف سلعة استهلاكية وتقييم لهذه السِّلَع بناءً على ثلاث فئات منفصلة: الصحة والبيئة والمسئولية الاجتماعية.
- «شجِّع مدينتك أو مقاطعتك أو دور عبادَتك أو مدرستك أو جامعتك على تحمُّل المسئولية حيال توريد المنتجات ودعم شركات مثل ألتا جراسيا (www.altagraciaappareal.com) وساستين يو (www.sustainuclothing.com)» التي تُنتج ملابس مُعاد تصنيعها مائة بالمائة في الولايات المتحدة. صفحة المصادر

المتاحة على موقع sweatfree.org بمنزلة صفحة رائعة للعثور على أمثلة أخرى على هذه النوعية مِن الشركات.

- «ارتدِ علامةً تجارية لها قصة وكن أنت بطلها.» شارك قصة العلامات التجارية المفضَّلة لك والمنتجات الرائعة التي يَصنعونها وحياة المُنتجين التي تؤثر فيها. أحاول ألا أغادر المنزل دون ارتداء منتَج واحد أؤمن به على الأقل.
- «اكتشف.» تظهر كل يوم شركات ملابس جديدة تتمتَّع بأخلاقيات عالية. تعرَّفتُ مؤخرًا على شركة تُدعى فورجوتن شيرتس، وهي شركة تستخدم القطن الذي يُورَّد من أوغندا والتي-شيرتات التي تُحاك في أوغندا. يُجري المراهقون في مدينة مينيابوليس طباعة بالشاشة الحريرية على التي-شيرتات كجزء من برنامج تعليمي.

للمزيد من النصائح، زُر الموقع الإلكتروني التالي: www.whereamiwearing.com/KelseysCloset.

لديَّ ثلاثة أحذية من شركة سولريبلز أفخر بارتدائها لأنني أعرف أن حياة من صنعوها وأسرهم تأثَّرت تأثُّرًا إيجابيًّا. إنني أشارك قصة العاملين الذين التقيتُ بهم كلما أمكنني ذلك.

ما الدور الذي تريد أن يلعبه التسوق في حياتك؟

أجبت بقدر الإمكان عن أسئلة بام في متجر مايسيز، ولكن كان لديها المزيد. تفهَّمتْ بام قصص الأناس الحقيقيِّين الذين حكيتُ لها عنهم وتعاطفتُ معهم. كنت أتساءل أثناء رحلتي في الصين عما إذا كان التكافل الاجتماعي مُمكنًا بين أشخاص من مختلف الثقافات والمناطق الجغرافية. وعرفتُ أن ذلك ممكن من خلال متجر مايسيز بمركز مونسي التجاري في ولاية إنديانا.

ومدينة مونسي التي تعيش فيها بام آخذة في التغيُّر كما هي الحال تمامًا مع الدول التي تصنع ملابسي. حازت المدينة على لقب «ميدلتاون»؛ حيث وصفها الباحثون الاجتماعيون في دراسة أُجريت في العشرينيات من القرن العشرين باعتبارها النموذج المعياري الأصيل للمدن الأمريكية. في تلك الفترة، كانت مدينة مونسي تُجاهد أثناء تحولها من مدينة قائمة على نشاط الزراعة إلى الصناعة. أما اليوم فإنها تجاهد أثناء تحولها من مجال التصنيع إلى مجال الأفكار والعولمة. جنوب نهر وايت ريفر، وقفت المصانع — التي كانت مقرًّا فيما سبق لشركات بورجوارنر وبول كوربوريشن وإنديانا بريدج

وبرودريك كو ودلكو وإنديانا ستيل آند واير وَويستنجهاوس — خاوية على عروشها. لقد اختفت جميع الشركات؛ ففي عام ٢٠٠٦ رحلت شركة جنرال موتورز كذلك، ورحلت معها ٣٤٠٠ فرصة عمل. وفي عام ٢٠٠٨ حُشر الديناميت في مدخنة المصنع وضُغط على الزر.

وعلى الرغم من أن حياة بام اختلفَت اختلافًا شاسعًا عن حياة العُمال الذين صنعوا الملابس التي تُطبقها وتعلقها وتكويها بالبخار وتَعرضها ضمن عروض التصفيات، فإنه ثمة أسباب عديدة تجعلها تتفهَّم وتتعاطف مع الظروف الحياتية للعُمال الذين حكيتُ لها عنهم. ربما كانت أمًّا. ربما رحل ابنها بحثًا عن فرصة عمل في مكانٍ آخر له وضعه في السوق العالمية أكثر من مدينة مونسي. وربما كان زوجها ممَّن شاهَدوا هدم مصنع جنرال موتورز وتحسَّر على وضع الاقتصاد الجديد شاكيًا لصحفي تابع لوكالة رويترز: «كيف يُفترض لي أن أعيش على ثمانية دولارات في الساعة؟»

العولمة لا تطرأ على اقتصاد الدول، وإنما تطرأ على حياة الشعوب. وأساليب المعيشة تتغير في مدينة يونيون سيتي ومدينة مونسي وقرية بيري ودكا وبنوم بنه ومدينة جوانزو ومدينة سان بيدرو سولا وجميع المدن في مختلف أنحاء العالم. ربما لا ندين بنفس الديانة أو لا نتحدث اللغة نفسها أو نتبع نفس السياسات، ولكننا نشترك في التغيير والعبء الذي تضعه على كاهل أسرنا وموروثاتنا الثقافية. إننا نتوق لأزمنة كانت الحياة فيها أبسط، ونأمُل أن يكون المستقبل أفضل وأن يكون التغيير الذي يَجلبه المستقبل أحسن.

ولكننا لا نعلم الغيب.

ومع ذلك، نأمل.

بدأت هذه الطبعة باقتباس لمارتن لوثر كينج الابن:

> إننا جميعًا تَجمعنا شبكة من العلاقات التبادلية لا نستطيع الفكاك منها، حيث يَضمُّنا جميعًا نسيج القدر. هكذا، ما يُؤثِّر في الفرد تأثيرًا مباشرًا يُؤثِّر في الجماعة على نحو غير مُباشر.

بكل بساطة، يقول دكتور كينج إن ما يحدث في مجتمعنا يؤثر في سائر أنحاء العالم، وإن ما يحدث في سائر أنحاء العالم يحدث لنا ويؤثِّر فينا. فسمة العالمية صار لها طابع محلي. وسمة المحلية صار لها طابع عالمي.

إن كوني مُستهلِكًا مؤثرًا غيَّرني بطريقة جعلتني أتتبع أماكن صناعة ملابسي حول العالم. كما أنه جعَلني أدرك أننا لن نُغير العالم ونجعله مكانًا أفضل بكل سهولة من خلال التسوق أو المقاطعة. لم أبدأ مراجعة مكانتي ومسئولياتي كمُستهلِك، وإنما كمواطن عالمي ومحلي أيضًا.

والاتجاه السائد حاليًّا هو عدم إحداث تأثير. قلِّل تأثيرك على البيئة من خلال تقليل بصمت الكربونية. يوجد رجل يُدعى «رجل اللاتأثير» على الأرجح في قاعة محاضرات مليئة بالطلاب في مكانٍ ما في الوقت الحالي يقول لهم لا تشتروا هذا بسبب ذلك ولا تفعلوا هذا ولا تَذهبوا إلى هناك.

وتبدو هذه الطريقة طريقة سلبية لعيش الحياة. فكَّرتُ في بيبي راسل وهي تتخلى عن الشهرة والثروة لتعود إلى بنجلاديش. فكَّرت في باثلهام وهي تَعتني بمجتمعها في إثيوبيا ولم ترَ الفقر والاكتئاب بنفس الطريقة التي يراها الكثيرون من حولها، بل رأت المهارة والعادات والتقاليد والأمل.

وأكبر تأثير للناس والشركات على حدٍّ سواء يتمثَّل في حث المواطنين المحليين على مساعدة إخوانهم المحليين.

تساءلت في نفسي: «هل أنا مواطن محلي؟» في كل الأحوال الإجابة هي: أنا مواطن محلي في مدينة مونسي في ولاية إنديانا.

في حين أنني التقيتُ خلال هذه الرحلة بعدد كبير جدًّا من الأشخاص الذين يفتقرون إلى الفُرَص والموارد، فإنهم كانوا يَتمتَّعون عادةً بالثراء المجتمعي. غير أنني رأيت العكس في مدينة مونسي. يوجد أشخاص يُكرِّسون أنفسهم لجعل مُجتمعنا مكانًا أفضل بقدر الإمكان، إلا أنني لم أكن واحدًا منهم. كم واحد مِنا يعرف جيرانه؟ كم واحد مِنا يواجه الفقر والمشكلات التي يُعاني منها مجتمعنا المحلي؟

أدركت أنني يجب أن أكون مواطنًا محليًّا أفضل.

وها أنا أتطوَّع في مبادرة الدوائر المحلية التي تربط بين أعضاء المجتمع المحلي الذين يَعيشون في فقر — ويُطلق عليهم قادة الدائرة — مع ثلاثة أو أربعة أفراد ليس في مقدورهم إجراء عصف ذهني وحدهم للفكاك من براثن الفقر. وقد جعلتني الدوائر المحلية أتواصَل مع أمٍّ عزباء لثلاثة أطفال تعيش في مدينة مونسي. جلست معها لوضع ميزانية شهرية. وبنهاية اجتماعنا الخاص بوضع الميزانية، أدركنا أنها كانت مَدِينة بمبلغ ٦٠٠ دولار. واضطرَّت إلى طمأنتي بقولها: «كل شيء سيكون على ما يُرام.»

صرتُ عضوًا في منظمة بيج براذرز آند بيج سيسترز.

تملَّكني الشعور بعدم الثقة في النفس: إلى أي مدًى سأُحدث فارقًا؟ هل أتمتع بالقدرة على المساعدة؟ وجاءت الانتصارات الصغيرة على هيئة تقدير امتياز في شهادة أخي أو وظيفة جديدة أو توجُّه جديد لقائد دائرتي. ربما يُحقِّقون هذه الانتصارات الصغيرة بدوني، ولكن الفكرة الوحيدة التي تُشجعني باستمرار هي أنهم قد لا يُحققون هذه الانتصارات إلا بفضل مساعدتي. بالإضافة إلى ذلك، فإن محاولة تغيير حياة الآخرين قد غيَّرت حياتي للأفضل. فأنا أحاول تقبُّل حقيقة أنني من خلال التطوع «أحصل» على قدر أكبر مما أعطي. وأشعر بأنني على دراية أكثر بمجتمعي المحلي. فأنا أدرك جيدًا ما الذي يَعنيه أن تكون مواطنًا بمدينة مونسي في ولاية إنديانا.

إنني أحاول أن أكون مواطنًا عالميًّا أفضل.

إذا كنتَ قد تخرَّجتَ في جامعة، فأنت أكثر تعلمًا من ٩٥ بالمائة من سكان العالم. يعيش سدس سكان العالم على دخل أقل من ١٫٢٥ دولار في اليوم، ووفق تقديرات هربرت سيمون، عالم الاقتصاد وعالم الاجتماع الحائز على جائزة نوبل، فإن «رأس المال الاجتماعي» (الحكومة الفعالة، وتَوافُر سبل التكنولوجيا، والموارد الطبيعية الوفيرة) مسئول عما يَكسبه ٩٠ بالمائة على الأقل من الأفراد الذين يعيشون في مجتمعات غنية مثل الولايات المتحدة. قال وارين بافيت: «إذا غرستَني في بنجلاديش أو بيرو، فستجد إلى أي مدًى ستُصبح هذه الموهبة منتجة في التربة الخاطئة.» لقد وُلدنا في التربة الصحيحة.

لقد قال العم بين العجوز الحكيم لبيتر باركر (المعروف باسم سبايدرمان): مع القوة العظيمة تأتي مسئولية عظيمة؛ فثراؤنا وتعليمنا هما أهم مصادر قوتنا، ونحن نتحمل مسئولية استغلالهما لصالح مَن هم أقل حظًّا مِنا.

لا يُمكننا أن نتحكَّم دومًا في تأثير العولمة على مجتمعاتنا المحلية وحياتنا الخاصة، ولكن يُمكننا أن نتحكَّم في تأثير حياتنا على العالم من حولنا. إنني أحاول أن أكون جارًا ومستهلكًا ومتبرعًا ومتطوعًا ومواطنًا محليًّا وعالميًّا أفضل. إنني أحاول أن يكون لي أكبر وأفضل تأثير ممكن.

أُقدِّم أنا وآني المزيد. أسرة صغيرة تعتمد على دخل كاتب/متحدث ليست مكسبًا للعمل الخيري، إلا أننا نحاول أن نؤدي دورنا، موزِّعين عطاءنا بين القضايا المحلية والعالمية. إننا نحاول العطاء وفق خطة واضحة المعالم؛ حيث نبحث عن أفضل الطرق لمشاركة الآخرين ما نملكه.

إنني لا أحاول أن أكون مستهلكًا مؤثرًا وحسب، بل إنني أحاول أن أكون أكثر تفاعلًا ومشاركة أيضًا، هذا كل ما في الأمر.

نحن بحاجة إلى النظر خارج محيط أنفسنا وإدراك إلى أي مدًى يرتبط كلٌّ منا بالآخر. إننا محاطون بأشخاص غير مرئيِّين يُزيلون القمامة ويصنعون ملابسنا ويُخرجون الفحم من المناجم لتبقى مصابيحنا مضيئة ويضعون الطعام على موائدنا، وغيرهم ممن يُساعدوننا في حياتنا. ونحن أشخاص غير مرئيِّين بالنسبة إلى البعض. يجب أن نفتح أعيننا ليرى بعضنا بعضًا.

«أين تُصنع ملابسي؟» هو مجرد سؤال محدَّد؛ سؤال جعَلني أخرج في رحلة حول العالم لأرى موضعي في هذا العالم كمُستهلِك. لديَّ المزيد من الأسئلة: أين يُصنع طعامي؟ ما مسئولياتي؟ ما حجم تأثيري؟ وكلما عرفت أكثر زادت أسئلتي. ويبدو أنها تَنحصِر في هذا السؤال الجوهري ...

أين أنا؟ أين أنا في عالم الأحلام الأمريكية ومملكة الخيال؟

وما زالت رحلة البحث مستمرة.

لقد مرَّ سبعة أعوام منذ أن وقفتُ عاري الجذع مع أميلكار، ومن حولنا كانت تندفع موجة متدفِّقة من العاملين خارج مصنعه بالقرب من سان بيدرو سولا. كنت في السادسة والعشرين من عمري حينئذ، في رحلة بحث حمقاء سعيًا وراء المُلصَق الموجود على تي-شيرت رائع. في ذلك الوقت، لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما ستئول إليه التجربة في النهاية.

الآن، أبلغ من العمر ٣٣ عامًا، متزوِّج ولديَّ أسرة. أنا المُستهلِك والأب والزوج والمواطن العالمي والمحلي والمُعطي والمُتبرِّع؛ النموذج الذي لم أكن لأصل إليه أبدًا لولا أميلكار.

ما زلت أفكر فيه في كل مرة أرتدي تي-شيرتًا. مثلما أفكر في عريفة (شكل ٣٠-٢) وأولادها في كل مرة أرتدي سروالًا داخليًّا، وأفكر في ناري وآي والأُسر التي يعيلانها في كل مرة أرتدي سروال جينز، وأفكر في ديوان وتشو تشون في كل مرة أرتدي شبشبًا مطاطيًّا خفيفًا.

عندما أفتح خزانة ملابسي، أُفكِّر في المئات — إن لم يكن الآلاف — حول العالم ممَّن شاركوا في تصنيع ملابسي؛ فالسراويل الجينز لم تَعُد سراويل جينز وحسب، والقمصان لم تَعُد قمصانًا وحسب، والأحذية لم تَعُد أحذية وحسب، والملابس لم تَعُد ملابس وحسب.

فكل قطعة ملابس وراءها قصة مجهولة وغير مروية.



شكل ٣٠-٢: عريفة من بنجلاديش، واحدة من ملايين العُمال في العالم الذين يصنعون ملابسنا.

ملحق أ: أسئلة نقاشية

إليك بضعة أسئلة من شأنها أن تَضمن استمرارية مناقشاتك. يُمكنك أن تجد الدليل الإرشادي الكامل للأسئلة النقاشية والبالغ عددها ١١٦ سؤالًا بالإضافة إلى ثمانية أنشطة على الموقع الإلكتروني التالي: www.whereamiwearing.com/waiw-teaching-tool.

(١) الرسالة

(١) ذكر كيلسي أن «العولمة بمنزلة مشكلة دخيلة» وأن الجميع مُعارضون لها. ابحث في مصادر غير هذا الكتاب عن تعريف العولمة وقدم شرحًا موجزًا لها.

(٢) ما السبب الرئيسي الذي جعل كيلسي يُقرِّر السفر إلى الدول التي تصنع ملابسه؟

(٣) ما الفرق بين ما يؤمن به الناشطون حيال صناعة الملابس وما يؤمن به بعض علماء الاقتصاد؟

(٤) كيف بدأت العلاقات التجارية الأمريكية في قارة آسيا لأول مرة؟

(٥) ماذا كان الهدف من وراء قانون ظروف العمل اللائقة والمنافسة العادلة؟

(٦) لماذا لا تريد الشركات من عملائها التفكير في الأماكن التي تصنع منتجاتهم؟

(٧) لماذا يرى كيلسي كونك «خريجًا جامعيًّا ورجلًا أبيض يعيش في الولايات المتحدة» يمثل مشكلة؟

(١-١) نشاط

أين صُنع سروالك الجينز؟ ألقِ نظرة على الملصق. الآن، فكر في مكوِّنات سروالك الجينز: الخيوط والقطن والسَّحاب والأزرار الكبس والصبغة. ابحث عن الشركات والدول التي من المحتمل أنها شاركت في تصنيع أيِّ مكوِّن من مكوِّنات سروالك الجينز. كم دولة شاركت في تصنيع سروالك الجينز؟ ناقش النتائج التي تتوصَّل إليها مع المجموعة.

(٢) صُنع في بنجلاديش

(٨) متى اضْطُرت الكثير من المتاجر متعددة الأقسام إلى تصفية أعمالها في مسقط رأس كيلسي؟ ما السبب؟

(٩) لماذا اضْطُر كيلسي للكذب لكي تُتاح له زيارة المصانع؟

(١٠) ملاهي فانتازي كينجدوم هي المقابل البنجلاديشي لملاهي ديزني لاند. كم عدد المواطنين البنجلاديشيِّين الذين يُمكنهم دخول ملاهي فانتازي كينجدوم بثمن تذكرة واحدة من ديزني لاند؟

(١١) خمسة أطفال ممَّن اصطحبهم كيلسي إلى مدينة الملاهي لم يَلتحقوا بالمدرسة مطلقًا. ما الذي كانوا يَفعلونه من أجل كسب لقمة العيش؟

(١٢) في رأيك لماذا أنفق كيلسي ٦٧ دولارًا لاصطحاب الأطفال إلى مدينة الملاهي، بينما كان من الممكن إنفاق هذا المبلغ على نحوٍ أفضل على شيء عملي أكثر بالنسبة إليهم؟

(١٣) كم يُمثل مجال صناعة الملابس من صادرات بنجلاديش؟

(١٤) بعد عرض برنامج «ديتلاين» لمقطع يُصوِّر عمالة الأطفال من داخل مصنع ملابس في بنجلاديش، بدأ المستهلكون الأمريكيون مقاطعة الملابس المصنوعة في بنجلاديش بدافع الخوف على الأطفال. ابحث عن معنى كلمة مقاطعة واشرحها. لماذا لم يرغب الأطفال في أن نُقدِّم لهم العون؟

(١٥) ما نوعية الإصابات التي تَحدث في مصانع الغزل والنسيج؟

(١٦) أين تحفظ عريفة، عاملة الملابس في مدينة دكا في بنجلاديش، طعام الأسرة؟

(٢-١) نشاط

أسَّس محمد يونس، الحائز على جائزة نوبل للسلام، بنك جرامين، الذي يُقدِّم قروضًا متناهية الصِّغَر للأفراد الذين لا يستطيعون الحصول على قروض من البنوك التقليدية. زر الموقع الإلكتروني التالي: www.kiva.org، وهو موقع يُتيح لك إقراض الأفراد من مختلف أنحاء العالم. اكتب فقرة عمن تودُّ أن تُقرضه المال والسبب وراء ذلك.

(٣) صُنع في كمبوديا

(١٧) في كمبوديا، حيث يصطفُّ الشحاذون في الشوارع، دفعت سيدة مبلغًا من المال لتشتري عصفورًا وتُطلق سراحه. ما السبب الذي يَجعلها تشتري عصفورًا وتُطلق سراحه؟

(١٨) ما العواقب التي ترتَّبت في النهاية على أحداث الشغب والعنف في شيكاجو عام ١٨٨٦ في الولايات المتحدة؟

(١٩) لماذا يُعد السير في مناطق معينة في كمبوديا خطرًا؟ لماذا تُواصل الأسر العيش في هذه المناطق؟

(٢٠) ما الدول التي يَنتمي إليها «مُستهلِكو» ليفايس؟

(٢١) ما نسبة صادرات كمبوديا القائمة على صناعة الملابس؟

(٢٢) كم عدد الفتيات اللاتي يتشاركن العيش معًا في الشقة الموجودة بكمبوديا، وما ترتيبات النوم الخاصة بهن؟

(٢٣) ما الفارق بين منزل كيلسي بالولايات المتحدة والمكان الذي يعيش به عُمال الملابس في كمبوديا؟

(٢٤) ما الذي يفعله بعض الأطفال للتحايل على قوانين عمالة الأطفال؟

(٢٥) اذكر واحدة من أواخر الشركات الأمريكية المصنِّعة للملابس التي استسلمت للعولمة ونقلت مصانعها خارج البلاد؟

(٢٦) إذا كان معظم عُمال الملابس من السيدات، فماذا يعمل الشباب؟

(٢٧) كم عدد المزارعين الكمبوديين الذي يكسبون لقمة العيش من جمع القمامة في مكبِّ نفايات بلدية ستونج مانشي؟ كم المبلغ الذي يكسبونه في المتوسط من هذا العمل؟ وكم يكسب الأطفال؟ لماذا يوجد هذا التفاوت؟

(٣-١) نشاط

هل حلمتَ من قبل أن تُدير مصنعًا لحسابك؟ الإجابة ستكون بالنفي على الأرجح. حتى وإن كان الأمر كذلك، فجرِّب أن تدير مصنعًا تخيليًّا على الموقع الإلكتروني التالي: www.whereamiwearing.com/your-sweatshop. ناقش مع المجموعة بعض القرارات التي واجهتَها. مَن الذي صعَّد هذه القرارات لأعلى مستوًى وإلى أي مدًى كانت ناجحة؟ اكتب تقريرًا عن هذا التمرين.

(٤) صُنع في الصين

(٢٨) لماذا يقع الاختيار على الشبشب المطاطي الخفيف كملبوسات للقدم في الدول النامية؟
(٢٩) ما السمات التي تتمتَّع بها الصين وتجذب المصانع لتنقل مقارَّها إلى هناك؟
(٣٠) لماذا يعمل ديوان وتشو تشون ساعات أكثر من المسموح بها وفقًا للقانون، حتى وإن كانا لا يتقاضيان أجرًا على الوقت الإضافي؟
(٣١) عندما ذهب كيلسي لزيارة قرية ديوان وتشو تشون، ما الذي كان يقصده حين قال: «كانت الغرفة يَنقصها أحد الأجيال»؟
(٣٢) لماذا قال كيلسي: «لا توجد أماكن كثيرة في العالم … مثل مدينة جوانزو»؟ ما السبب؟ ما الذي يُميِّز هذه المدينة؟
(٣٣) عندما تحوَّلت الولايات المتحدة إلى التصنيع، كُنا نهتم أكثر بحياة العاملين. لماذا صار من الأسهل تجاهل الأشخاص الذين يصنعون ملابسنا وغيرها من المنتجات؟
(٣٤) في متجر وول مارت الأمريكي، قد تجد أحواض السمك في قسم الحيوانات الأليفة. في أيِّ قسم توجد أحواض السمك بفرع وول مارت بالصين؟ ولماذا توجد في ذلك القسم؟

(٤-١) نشاط

كيف كان يكسب أجدادك قوتهم؟ ماذا عن أجداد أجدادك؟ كيف تقارن نمط حياتك ووظيفة أحلامك بنمط حياتهم ووظائفهم؟ تتبع الوظائف التي عمل بها أجداد أجدادك وصولًا إلى والديك وفي النهاية وصولًا إلى الوظيفة التي ترغب فيها. اكتب بضع فقرات

عما تخبرك به هذه الوظائف عن الفترات التي عاشوا فيها وعن الاقتصاد القومي/العالمي المتغير؟

(٥) صُنع في أمريكا

(٣٥) أثناء زيارة المصنع الذي صنَع سرواله القصير بقرية بيري في نيويورك، وجد كيلسي السبب الذي جعَل شركة أمريكان كلاسيك أوتفيترز تنجح في منافسة المصانع الأجنبية. ما السبب؟ ما الذي تغيَّر منذ زيارة كيلسي؟
(٣٦) بم وصفت صحيفة «واشنطن بوست» هندوراس؟
(٣٧) لماذا انتقلت أسرة أميلكار من قريتها إلى المدينة؟
(٣٨) ما الذي جعل شركة راسل للملابس الرياضية تعيد افتتاح مصنعها في مدينة تشولوما؟
(٣٩) أخبرت كارلا كيلسي بأنها سعيدة بوجود النقابات العمالية، ولكنَّها لن تنضمَّ إلى واحدة من تلك النقابات مطلقًا. لماذا لن تشترك؟
(٤٠) كم تكلَّف بناء منزل جولانيس؟ كم يستغرق كسب هذا المبلغ من خلال العمل كعامل ملابس في مدينة فيلانويفا؟
(٤١) ما السبب الذي قاله إدوين لتبرير عدم حمل أي صور شخصية أو أرقام هواتف للأقارب؟
(٤٢) ما المقصود ﺑ «القيوط»، وما الدور الذي لعبه في رحلة أميلكار إلى الشمال؟
(٤٣) ما الوظائف التي عمل بها أميلكار منذ أن وصَل إلى الولايات المتحدة؟
(٤٤) ما الذي أخفاه أميلكار عن مايرا وكذَب بخصوصه؟ في رأيك لماذا كذب عليها؟
(٤٥) هل تعرَّضتَ من قبل لموقف لم تجد فيه أحدًا يتحدث لغتك؟ كيف كان شعورك؟
(٤٦) لماذا لم يُخبر أميلكار جولانيس أو بناته عن مايرا؟ في رأيك، هل ينبغي عليه أن يفعل؟
(٤٧) قال أميلكار إنه لا يعتقد أنه أب صالح، لماذا؟
(٤٨) شركة سولريبلز ليست شركة أحذية «تقليدية»، ما وجه الاختلاف؟
(٤٩) فكِّر في الخريجين الجدد في مسقط رأسك، أين يجدون الوظائف؟
(٥٠) كتب كيلسي يقول إن عمالة الأطفال والمصانع المُستغِلة مجرد أعراض لمشكلة حقيقية، ما هي المشكلة الحقيقية؟

(٥١) ما الذي قاله نيكولاس كريستوف عن المصانع المستغِلة، وإلى أي مدًى يختلف معه كيلسي في الرأي؟

(٥٢) ما الذي يَقصده كيلسي عندما كتب يقول: «الوظيفة الجيدة لها تأثير مُتزايد وواسع النطاق»؟

(٥٣) قال كيلسي إنه صار الآن «مُستهلِكًا مؤثِّرًا». ما الذي يفعله الآن قبل أن يشتري الملابس؟

(٥٤) بالإضافة إلى تحوُّل كيلسي إلى مُستهلِك مؤثر، كيف أثَّرت هذه الرحلة على حياته؟

(٥-١) نشاط

تحدَّث إلى الشخص المسئول في مدرستك أو مدينتك أو دور العبادة التي تتردَّد عليها عن شراء الملابس (التي-شيرتات أو الملابس الموحَّد أو الملابس المرخَّصة). ما الذي يُقرِّرون شراءه؟ أين تُصنع المنتجات؟ أي نوع من المُستهلِكين تود أن تندرج مؤسستك تحت تصنيفه؟ شارك النتائج التي تتوصَّل إليها مع المجموعة.

ملحق ب: رسالة لي

عزيزي كيلسي

أهلًا يا رجل، هذا أنا، أو أقصد هذا أنت في المستقبل، بعد مرور ١٥ عامًا. كيف حالك مع عام ١٩٩٧؟ أعرف أنك تستعدُّ للالتحاق بالجامعة، ولذا أردت أن أقدم بضع كلمات للتشجيع وبعض نصائح أيضًا.

(١) احصل على دكتوراه في مجال غير محدد

في الوقت الحالي، ليس لديك أدنى فكرة عما تريد أن تكونه حين تكبر. لديَّ خبر سيئ: ها نحن في عام ٢٠١٢، وما زلت لا أعرف ما الذي أريد أن أكونه حين أكبر.

ولكن هذا في الحقيقة أمر رائع. فسوف يأخذك فضولك إلى أماكن لن تصدق أنك ستذهب إليها. لنَفترض أنك في مرحلةٍ ما ستُسافر إلى بنجلاديش لأنَّ ملابسك الداخلية تُصنع هناك. إنها قصة طويلة؛ طويلة بما يكفي لتأليف كتاب (فكرة رائعة، أليس كذلك؟).

ليس لديك تخصُّص. لم تحسم قرارك بعد. لا بأس في هذا. الكثير من زملائك في الدراسة يَعتقدون أنهم يعرفون ما الذي يريدون أن يكونوه، ولكنهم في الحقيقة لم يحسموا قرارهم أيضًا. في الواقع، الطالب الجامعي يُغيِّر تخصَّصه في المعتاد ثلاث مرات، والشخص العادي يُغيِّر وظيفته في المعتاد عشر مرات ما بين عمري ١٨ عامًا و٤٢ عامًا. احصل على درجة الدكتوراه في مجال غير محدَّد. اترك فضولك يختار لك الطريق.

(٢) عدم إجادة لغة ثانية سيكون واحدًا من أكثر الأشياء التي ستَندم عليها

أول عام لك في الكلية لن يكون النقطة الأكثر تألقًا وإشراقًا في مشوارك الأكاديمي. ولكنَّك ستُتقن خطة الانتشار الهجومي في لعبة البلاي ستيشن مادن إن إف إل. دعنا نقول إن تقديرك الدراسي التراكمي لن يزيد عن عدد الياردات القليلة التي يقطعها لاعب الظهير الخلفي باري ساندرز؛ اللاعب المحترف بفريق ديترويت ليونز والمدرج اسمه بقاعة مشاهير كرة القدم الأمريكية.

في الواقع، مع أول يوم لك في الكلية وفي أول محاضرة لك، يُطلَب منك مغادرة قاعة الدرس. هل تتذكَّر اختبار اللغة الإسبانية الذي كان من المُفترض أن تخوضه لتَنتقل إلى دراسة المستوى الثاني من اللغة الإسبانية؟ حسنًا، كان ينبغي عليك أن تخوض هذا الاختبار. أعرف أنك كنتَ رئيس نادي اللغة الإسبانية بمدرسة ميسيسناوا فالي الثانوية، ولكن لنكن صُرَحاء هنا، لم تكن مضطرًّا لتحدُّث اللغة الإسبانية كي تكون رئيس نادي اللغة الإسبانية بالمدرسة. كان كل ما كنتَ مضطرًّا إليه هو تناول كميات مهولة من الطعام المكسيكي. أما في مادة المستوى الثاني من اللغة الإسبانية، فأنت مُضْطَر لتحدُّث الإسبانية بالفعل. كان ينبغي عليك أن تعود لدراسة مادة المستوى الأول للغة الإسبانية بدلًا من إغفال مادة اللغة الإسبانية لصالح دراسة اللغة اللاتينية التي لن تُضطر إلى تحدُّثها.

لن تندم أبدًا على تعلم شيء.

(٣) لن تعرف أبدًا أي مادة ستُغير حياتك

في العام المُقبِل، ستدرس مادة الأنثروبولوجيا بالصدفة. كل ما ستعرفه في ذلك الوقت أن علم الآثار هو مجال فرعيٌّ للأنثروبولوجيا وأن إنديانا جونز هو عالم آثار رائع للغاية، وفي أعماق نفسك ستتمنى أن تقف يومًا ما وسط الأحراش وتَصرُخ في شخص نازي قائلًا: «هذه قطعة أثرية تخصُّ المتحف!» أجل، هذا سبب سخيف جدًّا لاختيار دراسة المادة، ولكن هذه المادة ستقودك إلى اختيار الأنثروبولوجيا كمادة تخصُّص، وهو ما سيزيد فضولك للتعرف على الطريقة التي تعيش بها الشعوب الأخرى حول العالم، وستُعلِّمك التعاطف مع الآخرين؛ فالفضول والتعاطف هما أهم أداتَين بالنسبة إليك.

ستتعرَّف على العولمة في محاضرة لعلم الاجتماع، وستتعرف على الإبادة العرقية وعمالة الأطفال والمصانع المستغلة. ستعالج هذه الدروس برأسك لا بقلبك، وستحصل على تقدير جيد جدًّا في المادة، ولكن هذه المادة ستزرع فيك بذرة ستنمو لتصير فكرة كبيرة.

(٤) كن جزءًا من مجتمعك المحلي

على مدار السنوات الأربع القادمة، لديك فرصة لتصير جزءًا من جامعة ميامي ومجتمع مدينة أوكسفورد بولاية أوهايو. احتضِن موطنك الجديد. لن يكون لديك وقت لتتطوَّع وتتبرَّع وتُشارك في المكان الذي تعيش فيه أكثر من الوقت الذي تملكه حاليًّا. في عام ٢٠١٢، سيكون لديك طفلان وزوجة (هل يُمكنك أن تصدق أن آني ستتجاوز معك الظروف السيئة وتتزوَّج منك؟!) ووظيفة ذات متطلبات كثيرة، ولكنك ستجد الوقت لتكون جزءًا من مجتمعك المحلي. إذا كان بإمكاني أن أفعل ذلك، فأنت تستطيع فعله كذلك. قلِّل من لعب لعبة البلاي ستيشن مادن إن إف إل ساعتين في الأسبوع وتطوَّع. أعدك بأنك ستنال أكثر مما ستعطي.

(٥) سافر

ابحث عن طريقة للدراسة بالخارج. اعمل في وظيفتَين في فترة الصيف. تخلص من بطاقات البيسبول التي تجمعها. زر قسم البعثات بالجامعة واسأل عن المِنَح الدراسية المتاحة. فمقدار ما يُمكنك تعلمه من كتاب أو من أستاذ جامعي محدود. اخرج إلى العالم وجرِّب بنفسك.

ستتعلَّم من الناس الذين يعيشون في الأكواخ الطينية والأكشاك الصغيرة أكثر مما ستَتعلمه من أستاذ جامعي. ولكن قبل أن تُسافر وتتسرَّب من التعليم، اعلم أن الدراسة الجامعية ستُعدُّك بطريقة فريدة لتلقِّي هذه الدروس العملية.

(٦) تعليمك الجامعي عديم القيمة

ستتخرَّج وتحصل على شهادة في الأنثروبولوجيا، وسيَشتري والداك بروازًا لامعًا ورائعًا لتُعلَّق شهادتك على الحائط. أكره أن أقول لك ذلك، ولكن الشهادة لا قيمة لها. لن تحصل على وظيفة لأن لديك شهادة في الأنثروبولوجيا. ولكن إليك النقطة المهمة: شهادتك لا تُقدَّر بثمن.

«تعليمك الجامعي بمنزلة طريق أكثر من كونه ورقة تستغلُّها للحصول على وظيفة أفضل أو مستقبل أكثر إشراقًا.» ستتعلم أشياء من الجامعة بالفعل. لا تنسَ أن تفعل ذلك.

(٧) الطريق

بعد مرور بضع سنوات على تخرُّجك، ستعمل كمُدرِّب غطس وستُسافر كثيرًا. بالنسبة إلى الغرباء عنك، ستبدو شخصًا بلا وجهة محدَّدة؛ شخص في العشرينيات من عمره بلا هدف. لن تعرف وجهتك، ولكن يومًا ما ستقف أمام مصنع ملابس في هندوراس وستَتضَّح لك الحكمة من كل شيء. وكل هذه المقررات التي درستها في تخصُّصك في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع التي كنتَ تظن أنك لن تستفيد كثيرًا منها، وتلك الشهادة التي لم تَستخدمها مطلقًا للحصول على وظيفة، وحبك للسفر والترحال، كل هذا سيقودك إلى تلك اللحظة؛ سيَمنحك الهدف والوجهة. وهذه اللحظة ستُغيِّر حياتك. وسيتضح لك أن هواياتك واهتماماتك وحبَّك للاستطلاع أمور من شأنها أن تضع قدمَيك على الطريق الذي كان من المفترض أن تقطعه دومًا.

إذا احتجتَ، أنت أو أي شخص قرأ هذا الكتاب، إلى تشجيع خلال المسيرة، فأرسل لي رسالة على البريد الإلكتروني التالي: kelsey@kelseytimmerman.com أو يمكنك أن تحصل على نصائحي الإرشادية للمُبتدئين نحو التحول إلى مُواطن عالمي ومحلي بزيارة الموقع التالي: www.kelseytimmerman.com/GoGlocal.

كيلسي

ملحوظة: إذا دخلت حمَّامًا في كمبوديا ووجدت عامل الحمام يرتدي ربطة عنق فراشية الشكل حمراء، فاستَدِر واركض.

ملحق ج: أين تُدَرِّس؟

دليل الانتقال بهذا الكتاب إلى سياق عالمي-محلي

جيه آر جاميسون، حاصل على درجة الماجستير
المدير المساعد، بمؤسسة إنديانا كامبوس كومباكت
معلم وناشط ومؤلف – شخص يهتم حقًّا بقضايا المجتمع

لقد انتهيتُ من قراءة هذا الكتاب، مثلك تمامًا، وبدأت الأفكار تتوارَد على ذهني. كنت قد انتهيت من قراءة الكتاب في وقتٍ مُبكِّر من خريف عام ٢٠١١، ولم أكفَّ عن التفكير في أميلكار وعريفة وناري وآي وديوان وتشو تشون — وغيرها من الأسماء التي لا حصر لها والتي لم تظهَر على صفحات هذا الكتاب — والتساؤل عما آلت إليه حياتهم. هل حققت ناري حلمها بافتتاح صالون تجميل خاص بها؟ أم أنها ما زالت تكوي سراويل ليفايس التي أرتديها قبل أن تُشحن إلى الولايات المتحدة؟ لعلها انتقلت للعمل الحِرَفي، وبالحركة الرشيقة من قدمها وانزلاق يدها بسهولة، تحيك الملصق الشهير للسراويل الجينز ماركة ليفايس. أتمنى فعلًا أن تكون قد حققت حلمها، وإن لم يكن الأمر كذلك، فأتمنى أنها على الأقل تتقاضى أجرًا عادلًا، وتعمل لعدد مُنصِف من الساعات وتتمكَّن من زيارة أسرتها أكثر مما كانت تفعل عام ٢٠٠٧.

باعتباري معلمًا ومربيًا، بدأت أفكر في إمكانية تطبيق هذا الكتاب في الحياة اليومية للطلاب الجامعيِّين بالولايات المتحدة. وحسبما اقتضى القدر، أعيش في المدينة نفسها التي يعيش فيها كيلسي تيمرمان؛ أقصد مدينة مونسي، بولاية إنديانا. وقبل أن أقرأ هذا الكتاب،

لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمن يكون كيلسي، بالرغم من أنني أتخيَّل حتمًا أننا تقابلنا مرة أو مرتين في متجر البقالة دون أن نُومئ أو يبتسم أحدنا للآخر، كما هي عادة الأمريكيِّين هذه الأيام. حينئذ طرأت على بالي فكرة. لقد أخذني هذا الكتاب في جولة حول العالم وملأ رأسي بأفكار عن الجغرافيا والسياسة والثقافة والشعوب والأماكن التي تصنع ملابسي. ما الذي يُميِّز هذا الكتاب ليجعلني ليس فقط مُستهلكًا مؤثرًا أكثر، وإنما مستهلكًا أشمل على مستوى الجغرافيا والسياسة والثقافة والناس والمدينة التي أرتدي منها كل يوم؟ ربما يبدأ الأمر بإدراك «الآخر» الذي نمر بجواره كل يوم، ولعلَّ هذا الدرس العام هو إحدى الطرق لتطبيق ما قرأته وتعلمته على أرض الواقع.

الآن، تعرفت على كيلسي، ونظرًا للقرب الجغرافي فإنني أحظى بفرصة مميزة لطلب نصيحته بانتظام. وعلى الرغم من أنني المُعلِّم والمربي، بحكم دراستي، فإنني تعلمت الكثير من مغامراته. وإحدى «الاكتشافات» التي توصلت إليها من كلِّ هذا هو ما يُطلِق عليه كيلسي، سمة العالمية–المحلية، أو بعبارة أخرى، تطبيق تجربة عالمية وتنفيذ تلك الطموحات ليس فقط في سياق عالمي، بل الانتقال بها إلى سياق محلي أيضًا. وبعد قراءة هذا الكتاب، ليتني أنا وغيري من المعلمين والطلاب، لا نرتدي قطعة ملابس أخرى دون التفكير في الأنسجة العديدة التي تُشكل حياة من يَصنعون ملابسنا — فكيف يتسنى لنا الانتقال من جديد إلى مكان آخر في البلدة دون التفكير في الأطفال الذين نعلمهم والتفكير في أسرهم ودائرة الفقر المحيطة بهم؟ — والتفكير في الطريقة التي يُمكننا بها تغيير مجتمعاتنا المحلية ومجتمعاتنا العالمية من خلال التعليم والوقت والقيم والفضائل والاهتمام الحقيقي.

بالنسبة إليَّ، الحل هو الانخراط في الخدمة المجتمعية، أو بعبارة أكثر تفصيلًا تعلُّم الخدمة المجتمعية. وعلى مستوى اللغات الكثيرة، قد تعني هاتان الكلمتان مجموعة متنوعة من الأشياء بالنسبة إليك. وبينما تفكر في تخصُّصك وكيفية ربط الكتاب بمحتوى تخصصك وبالسمة العالمية–المحلية لمجتمعات اليوم، استعن بالتعريفين التاليين كإطار عام:

> الانخراط في الخدمة المجتمعية: «هي أيُّ محاولة لدمج المجتمع في الحرم الجامعي ودمج الحرم الجامعي في المجتمع، على نحو متبادَل، ويكون ذلك عادة بهدف التعامل مع مشكلة اجتماعية ما. وتشتمل أشكال الانخراط في الخدمة المجتمعية: تعلُّم الخدمة الاجتماعية، وخدمة المجتمع في إطار المناهج

التعليمية، والعمل التطوعي، وبعض دورات التدريب التخصُّصية والتجارب الميدانية. ومجموع هذه الأنشطة يقود إلى توفير حرمٍ جامعيٍّ مُنخرِط مع المجتمع انخراطًا كاملًا.»

جاميسون وماكراكين (٢٠٠٧)

تعلُّم الخدمة المجتمعية: «هي تجربة تعليمية محسوبة بالدرجات يشارك من خلالها الطلاب في نشاط خدمي مُنظَّم يُلبي احتياجات المجتمع المحددة ويتأملون النشاط الخدمي بطريقة تُمكنهم من اكتساب فهمٍ عميق لمحتوى المقرر، وتقديرٍ أشمل للتخصص الدراسي، وشعور مُعزَّز بالمسئولية المجتمعية.»

برينجل وهاتشر (١٩٩٦)

لكي تؤسس حرمًا جامعيًّا يهتم بالانخراط في الخدمة المجتمعية ويرغب في إعداد مواطنين مستقبليِّين يُفكرون بعمقٍ فيما يقرءون وفي تصرُّفاتهم في السياق العالمي والمحلي، فعادةً ما تكون الخطوة الأولى هي بدء دورات تعلم الخدمة المجتمعية. وكلمة تعلم أُضيفت إلى كلمتَي الخدمة المجتمعية عن قصد لأنهما لا تَنفصلان وإنما تقترن دومًا كلٌّ منهما بالأخرى لكي يُصبح تعلم الخدمة المجتمعية في أفضل أحواله وحتى يتحقَّق التغيير المنشود.

اسمحوا لي أن أضرب لكم بضعة أمثلة على ما قد يبدو عليه هذا الأمر:

(١) التخصص: تصميم الأزياء والترويج: المستوى الثاني فما فوق

المحتوى داخل قاعة الدرس يُركز على تاريخ الصناعة وفهم المنسوجات وتطوير نماذج العمل، ولكن ما قدر المحتوى الذي يُركِّز على فهم الناس وطبيعة حياة مَن يصنعون ملابسنا؟ ما التأثير الذي قد ينجم عن تصميم الأزياء مستقبلًا والمصنِّعين المستقبليِّين على الاقتصاد العالمي وحياة الناس إذا ما تفهموا هذه التعقيدات من البداية؟ كيف يُمكن للمرء أن يصنع ويبيع منتجات مستدامة لا تضر بالبيئة ومناسبة للناس؟ لعل التعلم يبدأ من نطاق تخصُّصك أو اهتمامك. فربما تشجع الطلاب مثلًا على قراءة هذا الكتاب وقضاء وقتٍ لدى مؤسسة مجتمعية محلية تركز على الفقر أثناء التعرف على قصص من تُقدِّم

لهم الخدمات. وربما يتعاون الطلاب مع المؤسسة لتنظيم عرض أزياء لتعليم المشاركين والجمهور كيفية اختيار الملبَس كعامل لتحقيق النجاح خلال التسوق في متاجر السِّلَع المستعمَلة. وفي قاعة الدرس، ما أوجه الربط بين القصص المحلية والقصص التي تدور داخل المصانع؟ وكيف يُؤثر كلا النوعين من القصص على طريقة التصميم أو البيع أو كليهما؟ كيف سيكون مستقبل تصميم الأزياء والترويج إذا تعرفنا على المُصنِّع والمُستهلِك؟

(٢) التخصص: علم الاجتماع: المستوى الأول فما فوق

يُشجِّع المحتوى داخل قاعة الدرس الطلاب على التفكير في الذات والمجتمع والعرق والنوع الاجتماعي والطبقة. هل توجد طريقة أفضل لتعلم هذا أكثر من إشراكهم في مجتمعاتهم المحلية أثناء التفكير في السياق العالمي لما يتعلمونه داخل قاعة الدرس وخارجها؟ أثناء قراءة الطلاب لهذا الكتاب، يمكنهم التطوع بوقتهم في مأوًى للمُشرَّدين أو تقديم خدماتهم في مأوًى للسيدات اللاتي يتعرَّضن للعنف من أجل الاستكشاف، من خلال التجربة المباشرة، للطبيعة المعقَّدة للحياة أثناء كسر القوالب النمطية الخاصة بالطبقة الاجتماعية والنوع الاجتماعي. وأثناء المحاضرة يُمكن للطلاب التفكير مليًّا وربط محتوى المقرَّر مع ما تعلموه من قراءة هذا الكتاب، وما عايَشوه في تجربتهم في الموقع المجتمعي الذي زاروه، ومقارنة حياة مَن جاء ذكرهم في الكتاب مع حياة من يعيشون في مجتمعهم المحلي. إلى أي مدًى تختلف حياتهم؟ وإلى أي مدًى تتشابه؟ وباعتبارك عالم اجتماع، كيف سيُعمِّق هذا من فهمك للذات والمجتمع والنوع الاجتماعي والطبقة الاجتماعية؟

(٣) التخصص: إدارة الأعمال/الاقتصاد: المستوى الثالث فما فوق

طلاب إدارة الأعمال/الاقتصاد هم قادتنا المستقبليُّون. فإذا أشركنا هؤلاء الطلاب في تعلُّم الخدمة المجتمعية، فإننا نُعد قادة مستقبليِّين يهتمون أيضًا بالشأن الاجتماعي. وخلال استعداد الطلاب للتجارب الميدانية، بإمكانهم قراءة هذا الكتاب أثناء تطبيق مهاراتهم على أرض الواقع مع مؤسسة مجتمعية محلية. وبإمكانهم التعاون مع مواقع المركز المجتمعي المحلي خلال الفصل الدراسي؛ وذلك من أجل تدريس الثقافة والتاريخ والاقتصاد الخاص بعالمنا — المتجه نحو العولمة — للمُراهقين المحليِّين، ولا سيما الأماكن التي تُجري فيها الولايات المتحدة معظم صفقاتها التجارية. وفي قاعات الدرس الخاصة بالتعليم العالي،

يَنبغي أن يُعزِّز الربطُ بين محتوى المادة ومحتوى هذا الكتاب، المرتبط بتجارب تعلم الخدمة المجتمعية، الإجراءاتِ التي يتخذها قادة إدارة الأعمال المستقبليون في ظل اقتصادٍ عالمي.

هذه الأمثلة موجزة وبالتالي قد تستغرق قدرًا أكبر من التفكير بخصوص الأشخاص المعنيين وقدر التعلم المتضمَّن، ولكن ينبغي أن تعطيك الأمثلة فكرة عن الكيفية التي يُمكنك بها أن تُحوِّل قاعة الدرس إلى قاعة من شأنها أن تساعد الطلاب في فهم محتوى المُقرَّر والعالم المتجه نحو العولمة الذي نعيش فيه. وأهم معلومة يُمكنني أن أختتم بها بخصوص تعلم الخدمة المجتمعية هو أنه أشبه بطريقٍ ذي اتجاهين؛ فلا يمكنك أن تُطوِّر مشروعًا أو برنامجًا ثم تتعامل مع مؤسسة مجتمعية. بدلًا من ذلك، يجب أن تتعامل مع المؤسسة المجتمعية وبحوزتك أفكار محددة وأن تشجعهم — باعتبارك معلمًا مشاركًا — على التوسع في تطبيق هذه الأفكار وإتمام المشروع. فأنت تعرف المحتوى وهم يَعرفون التعقيدات الواقعية للمجتمع المحلي.

ومن أجل أمثلة أكثر عمقًا لما قد يبدو عليه هذا الأمر بالنسبة إليك، بصرف النظر عن مجال التخصص، أُشجعك على زيارة الموقع الإلكتروني لمؤسسة كامبوس كومباكت: www.compact.org. تُعد مؤسسة كامبوس كومباكت المصدر الرئيسي لالتقاء الانخراط في الخدمات المجتمعية والتعليم العالي، وتحظى المؤسسة حاليًّا بشبكة عمل تتكون من ٣٥ مكتبًا حكوميًّا رسميًّا وأكثر من ١١٠٠ مؤسسة تابعة لقطاع التعليم العالي موزَّعة في جميع الولايات الخمسين وواشنطن وأراضي الولايات المتحدة وأربع دول أخرى. ومن خلال مؤسسة كامبوس كومباكت، يمكنك أن تبحث عن قاعدة بيانات المناهج الدراسية الخاصة بتعلم الخدمات المجتمعية مزوَّدة بأمثلة لكل تخصُّص من مختلف أنحاء الولايات المتحدة وبعض المؤسسات العالمية. بالإضافة إلى ذلك، من خلال الموقع الإلكتروني، يُمكنك أن تتواصَل مع مراكز كامبوس كومباكت المحلية التي توفر عادةً فرصًا للمنح وشبكات عمل تُساعدك في مساعيك المُتعلِّقة بتعلم الخدمات المجتمعية.

سل نفسك هذا السؤال: أين تُصنع ملابسي؟ باعتباري مستهلكًا في نطاقٍ أوسع على مستوى الجغرافيا والسياسة والثقافة والشعب والمدينة التي «أرتدي» منها ملابسي كل يوم.

للمزيد من المصادر عن تعلم الخدمات المجتمعية ولمعرفة الكيفية التي يَدمج بها الآخرون محتوى هذا الكتاب في محاضراتهم، زر الموقع الإلكتروني التالي: www.whereamiwearing.com/service-learning..

مصادر الملحق ج

Bringle, R. G., and J. A. Hatcher. 1996. “Implementing Service-Learning in Higher Education.” *Journal of Higher Education* 67: 221–239.

Jamison, J., and J. McCracken. 2007. “Enhancing Student Learning and Retention through Service-Learning.” Funded grant No. 2007 0320-000 from the Lilly Endowment Inc., 2007–2010.

Jamison, J., D. Nickolson, and J. Bryant. 2011. “Setting Sail into Service-Learning and Navigating the Workbook.” In *Charting the Course for Service-Learning: From Curriculum Considerations to Advocacy—A Faculty Development Workbook,* ed. M. Eisenhauer, N. Marthakis, J. Jamison, and M. Mattson, 1–4. Indianapolis, IN: Indiana Campus Compact.


هنداوي